

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بمكتبه أحياء التراث

اِتِّعَاضُ الْخُنْفَا
بِإِخْبَارِ الْأَمَّةِ الْفَاطِمِيَّةِ الْخُلَفَا
لِنَفَقِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ الْمُقَرَّرِيِّ

الجزء الثاني

تحقيق

الدكتور محمد علي محمد أحمد
استاذ التاريخ الإسلامي
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

القاهرة

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم
رئيس لجنة احياء التراث

في سنة عشرين من تاريخ الهجرة ، تمّ للقائد العربيّ ، والصحابيّ الجليل عمرو ابن العاص ، فتح مصر ، ومن ذلك الحين دخل هذا الاقليم في الدولة الإسلامية وتلونّ بالصّبغة العربية ، وأخذ يتوافد إليه أعيان الصحابة والتّابعين ، وأعلام الفقهاء والمحدثين ، حيث وجدوا الظّل الوارف ، والمورد العذب السائغ ، والمقام المحمود ، ولم يلبث أن دخلت الجmhرة من المصريّين في دين الإسلام أفواجا ، وانتشر في كل النواحي ، من أقصى الصعيد إلى بلاد الشمال ، حتى أصبحت مصر بمعالمها وحضارتها ووفرة مواردها من أهمّ الأقطار الإسلامية ، بل إنها حملت لواء الزعامة في كثير من عصورها التاريخيّة ، مما دونه المؤرخون كابن عبد الحكم والقضاعيّ والمسبّحيّ وأبى عمر الكنديّ وابن ميسر وغيرهم .

وكانت الدولة الفاطمية من أعظم الدول التي عاشت في مصر أكثر من قرنين من الزمان ، وكان لها تاريخ حافل ، ولخلفائها في الحضارة الإسلامية أثر بعيد ، فهم الذين أسسوا القاهرة المعزية ، فكانت قبة الإسلام ، وحاضرة الأنام ، وغرة جبين الزمان ، وأنشئوا الجامع الأزهر ، فكان منبعاً للعلوم الإسلامية ومنارة للمعارف والآداب على مر الزمان ، كما أقاموا دور الكتب والخزائن ، وجلبوا إليها الكتب والأسفار ، وأرصدوا لها الأموال ، وأعدوا لطلاب المعرفة القوام والنساخ ، وهوت إليها أفئدة العلماء من شتى الجهات ، ينهلون العلم من أعذب مورد وأصفاه ، هذا إلى ما كان لهم من أثر في بناء المساجد والقصور والبساتين في جنبات القاهرة وعلى ضفاف النيل ،

وما تجردت له هممتهم من إعداد الجيوش وإنشاء الأساطيل تجوب المياه ، فضلا عما كان لهم من عادات في المواسم والأعياد ، تميزت بها دولتهم ، وما زالت تتصل بحياتنا الاجتماعية إلى اليوم .

وقد كان تاريخ هذه الدولة موزعا في كتب التاريخ والأدب والعقائد ، ممتزجا بغيره من تاريخ الدول ، إلى أن جاء الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقریزی ، فجمع أشداته وضم ما تفرق منه ، وأضاف إليه ما اجتمع له من ثمرات مطالعته ، وما تهبأ له من المناصب التي تولها ، ووضع هذا الكتاب الذي أسماه « اتعاظ الحنفا ، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » . أداره على تاريخ من ملك القاهرة من الخلفاء وعلى جملة أخبارهم وسيرهم ، وجعله حلقة من سلسلة كتبه التي وضعها في تاريخ مصر والقاهرة .

والمقریزی شيخ مؤرخي الاسلام غير مدافع ، وفارس هذه الحلبة غير معارض ، في كل ما ألف وصنف ، وفي جميع ما نقل وروى ، مما جعل كتبه المصدر الأصيل في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، وخططها وآثارها ومعارفها وفنونها وآدابها وعلماؤها وأعيانها .

هذا وقد سبق للمستشرق هوجو بونز أن قام بنشر هذا الكتاب سنة ١٩٠٩ م على نسخة مخطوطة ناقصة محفوظة بمكتبة جوتا بألمانيا ، وهي النسخة الوحيدة التي كانت معروفة في ذلك الحين ، وفي سنة ١٩٤٥ م قام الدكتور جمال الشيال بإعادة نشره عن هذه النسخة أيضا ، بعد أن رجع إلى الأصول التي أخذ المقریزی عنها كتابه . ومع مضي الأيام وتتابع البحث ، وجد من هذا الكتاب نسخة أخرى كاملة محفوظة بمكتبة سراي أحمد الثالث بإستانبول ، فجاء معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية في تصويرها ، ثم قام الدكتور جمال الشيال بإعادة نشر الكتاب عليهما مرة ثانية ، بعد أن أضاف إلى الجهد السابق مزيدا من التحرير والتحقيق ، وشرح المصطلحات ، والتعريف بالأعلام ، ما شاءت له معارفه التاريخية وأمانته العلمية وإطلاعه الغزير الوافر^(١).

وقد كان من تمام التوفيق ظهور الجزء الأول من هذا الكتاب ، والقاهرة تحتفل بعيدها الألفي منذ أنشأها الفاطميون ، فكان تحية طيبة ومشاركة كريمة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في الاحتفال بهذه الذكرى .

ثم كان من دواعي الأسف وعميم الحزن ، أن اختار الله لجواره ، المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال ، ولما يشرع بعد في تحقيق الجزء الثاني ، فكان لوفاته رحمة الله عليه فجبة ألم وأسى في الأوساط العلمية ، وعند محبيه وعارفى فضله ، لما كان عليه من غزير العلم والثقافة الواسعة والمعارف التاريخية المستفيضة ؛ إلى ما كان يتجمل به من الخلق الرضى والتواضع الجم والسجايا الكريمة المحمودة - رحمه الله .

وقد رأت لجنة إحياء التراث بالمجلس الإسلامى إسناد تحقيق بقية الكتاب إلى صديقه العلامة الأستاذ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دارالعلوم ، فقام بهذا العبء خير قيام ، وسلك في تحقيقه المنهج العلمى الأصيل ، فكان خير خلف لخير سلف .

وهذا هو الجزء الثانى يتلوه الجزء الثالث ؛ وهو آخر الكتاب ؛ ومعه الفهارس العامة ، ومن الله التوفيق والسداد .

قائمة ببيان بعض المراجع المستخدمة في التحقيق
مما لم يرد لها ذكر في الجزء الاول

اولا : مراجع عربية :

- إحسان عباس (بالتعاون مع أحمد أمين وشوقي ضيف) : فريدة
القصر وجريدة العصر . للعماد الأصفهاني الكاتب
قسم شعراء مصر : ج : ١ ، ٢ ، القاهرة : ١٣٧٠
(١٩٥١)
- أحمد بن عبد الوهاب (شهاب الدين النويري) : نهاية الأرب : ج : ٢٨*
أحمد بن علي المقرئ (تقي الدين) : المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار
(في جزئين) . القاهرة : ١٢٧٠ هـ .
- راشد البراوي حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين .
- زكي محمد حسن (بالتعاون مع حسن أحمد محمود) : معجم الأنساب
والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي للمستشرق
زامباور ، ترجمة في جزئين ، القاهرة : ١٩٥١
- ١٩٥٢ .
- شكري فيصل فريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني .
قسم شعراء الشام : ج : ١ ، دمشق : ١٩٥٥
- عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة ، شهاب الدين المقدسي) : كتاب
الروضتين في أخبار الدولتين . انظر : محمد حلمي
محمد أحمد

* لا يزال هذا الجزء في دور الإعداد للطبع بالمؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر . ولذلك أكتفى في الإشارة
إليه بالتعليقات باسم المؤلف والكتاب دون إشارة إلى الصفحة .

علي ابن محمد (ابن الأثير أبو الحسن) : الباهر في تاريخ أتابكة

الموصل .

الفتح بن علي بن محمد البنداري تاريخ دولة آل سلجوق (مختصر لكتاب العماد الأصفهاني) ، القاهرة : ١٣١٨ (١٩٠٠)

محمد حلمي محمد أحمد ١ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، لأبي

شامة . تحقيق : الجزء الأول : القسم الأول ،

١٩٥٦ ، القسم الثاني ١٩٦٢ .

محمد كامل حسين ٢ - نهاية الأرب ، للنويري ؛ ج : ٢٨ . تحقيق

(تحت الطبع) * . في أدب قصر الفاطمية . القاهرة

١٩٥٠ .

محمد بن محمد (العماد الأصفهاني) أنظر : إحسان عباس ؛

شكري فيصل ؛ الفتح بن علي بن محمد البنداري .

ثانيا : مراجع أوروبية :

- Barker : The Crusades; London, 1923.
De Slane : Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux.
Gibb, H.A.R. : The Damascus Chronicle of the Crusades; London, 1932.
Lane-Poole (S.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London, 1898.
Setton, K.M. : A History of the Crusades; Vol. I, Philadelphia, (University of Pennsylvania Press).
Stevenson; W.B. : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

(*) (أنظر هامش الصفحة السابقة) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله فاتحة كل خير ، ونعم كل نعمة ، وصلاة البرّ الرحيم وسلامه على محمدٍ أكرم خلقه ، باعث معالم المجد التي حفل بها تاريخُ الإسلام والمسلمين ؛ ورضيَ الله عن سارٍ على نهجه ، واهتدى بهدّيه ، وأسهم بجهدِهِ بإضافةِ لَبِنَةٍ من لَبِنَاتِ المعرفة إلى بناءِ صَرْحِ الثقافة الإسلامية ، التي نَتَجَةُ إليها الآن بالنظرة الفاحصة والعزم الدؤوب ، لإحياء تراثها ، وكشف الأستار عن مكنون مفاخرها وذخائرها .

وتحيّة التقدير والوفاء إلى رُوح الأستاذ العالم المرحوم الدكتور جمال الدّين الشّيبال ، الذي أكرمه الله بدعوته إلى سُكْنَى رياض جنّته ، فأثر أن يلبيّ دعوة العزيز الكريم ، تاركاً من بعده أدلّةً هاديةً على طريق الكفاح العلميّ ، يتمثّل آخرُ مصابيحها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، الذي أقدم اليوم جزءه الثاني ، سائراً على دَرْبِهِ ، ضامّاً جهدي المقلّ إلى جهوده القيّمة ، اعتماداً على مايسره الله لنا من وسائل البحث والدّرس .

* * *

ويشمل هذا الجزء من « اتّعاظ الحنفا » تاريخ دولة الفاطميين على امتدادِ مائةٍ واثنين والسّتين ، منذ تولّى الحاكمُ بأمر الله شئونَ هذه الدّولة في أواخر شهر رمضان ، سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة ، إلى نهاية سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة ، وهي السّنة التي تُوفى المستنصر بالله في ذى الحِجّة آخر شهورها .

وقد شهدت هذه السنوات تداول ثلاثة من الفاطميين عرّش الخلافة : الحاكم

بأمر الله ، والظاهر لإعزاز دين الله ، والمستنصر بالله ، وكان لآخر الثلاثة القسم الأكبر من هذه المرحلة ، إذ تولى منصبه وعمره سبع سنوات ، وشغلته بعد ذلك ستين عاما كاملة . ولم يسبقه أحد من خلفاء المسلمين ، من الفاطميين أو من غيرهم ، بمثل هذا ، إذ كان أطول زمن قضاة خليفة في خلافته أربعة وأربعون عاما وبضعة أشهر تولى فيها القائم بأمر الله العباسي ، معاصر المستنصر بالله ، زمام القسم الشرقي من البلاد^(١) .

ولاحظت هذه السنوات الطوال من المقرريزي برعاية متكافئة أو متعادلة ، إذ نجدته يختص بعضها بحديث مُشهب مطول ، يُمكن القارئ من تتبع أحداثها شهرا بعد شهر ، بل يستطيع تتبع أحداث الشهر الواحد تتبعاً مفصلاً ، بينما يعالج بعضاً آخر في إيجاز واختصار ، يصل أحيانا إلى درجة لا يتوقعها من يتطلع إلى إشباع حاجته إلى المعرفة المتعمقة . فمن صور النوع الأول الحديث عن أخبار سنة خمس عشرة وأربعمائة ، إذ يقع هذا الحديث في أربعين صفحة من هذا الجزء ، ومن أمثلة النوع الثاني أخبار سنة ست عشرة وأربعمائة ، التي أعقبت هذه الصفحات الأربعين ، إذ أنها لم تجاوز ثلاثة أسطر ، وحديث أنباء سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة الذي يقتصر فيه المقرريزي على قوله : فيها أقيمت دعوة المستنصر بحرّان . ولا يقف الأمر عند هذا إذ نجدته يهمل سنوات أخرى فلا يذكر منها إلاّ عنوانها^(٢) ، بل قد يُغفل إغفالا تاما الإشارة إليها بعنوان مستقل^(٣) .

لكنّ هذا كلّهُ لا ينقص من أهمية هذا الكتاب القيم مصدراً رئيسياً ، يتصدّر ما بين أيدينا من مؤلفات تعرضت لتاريخ الفاطميين في إيجاز أو في تطويل .

* * *

(١) توفي القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة .

(٢) وذلك في سنتي ٤٣٠ ، ٤٣٢ .

(٣) وذلك في السنوات : ٣٩٣ ، ٤١١ - ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ ، ٤٧٣ - ٤٧٦ ، ٤٨٤ .

ومعالجة المقريزى للجوانب المتعددة للدراسة التاريخية ، كما تبين في هذا الكتاب ، معالجة متوازنة ، لافضل لجانب منها على الآخر ، ولاتميز لأحدها أو لبعضها من وجهة نظر المؤلف . فهو يعامل الأحداث السياسية والعسكرية معاملة متعادلة ، ويتحدث عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية بمثل ما يتحدث به عن الأحداث الدينية أو الإدارية ، بحياد وموضوعية ، دون أن يخص أيًا من هذه الجوانب بعناية تبرز بعضها دون البعض الآخر ، أو تدلّ على ميل من جانب المؤلف إلى الاهتمام بناحية دون غيرها .

ولعلّ السرّ في هذا التوازن في المعالجة أن المقريزى أراد أن يكون كتابه الذى خصّصه لمرحلة بعينها شاملا للموضوعات التاريخية المتنوعة ليمدّ الدارس بالمادة الغزيرة التى تتيح له معرفة شاملة متنوعة تمكّنه من إشباع اتّجاهه الثقافى من مورد قيمّ للمعرفة ، متعدّد الاهتمامات .

* * *

وفي ضوء هذه المادّة العلميّة الغزيرة أود أن أضع بين يدي القارئ بعض الحقائق التاريخية التى يساعد هذا الكتاب على إبرازها ، والتى كان بعضها فى حاجة إلى ما يكشفه أو ما يزيده وضوحا وبيانا .

وأول هذه الإشارات يتعلّق بشخصيّة الحاكم بأمر الله وعصره . فقد ذاع بين الدّارسين والمؤرخين اتّهامُ الحاكم بالتقلّب فى أحواله والشّدوذ فى تصرّفاته ، وأن هذا الشّدوذ ذلك التقلّب قد أدّى إلى أن يحفل عصره بالاضطرابات ، مما أفقد النّاس الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم . لكنّ المقريزى يتيح لهؤلاء فرصة إعادة النّظر فى هذه الأحكام التى أدانت الحاكم ، وجعلت منه مثالا وأنموذجا للشّدوذ والاستبداد جميعا .

وفي مقدّمة ما يُلزِمُ الباحثَ بعينِ فاحصةٍ إلى شخصيّة هذا الخليفة وفي عصره أن يُدخلَ في تقديره أنَّ الحاكمَ تولى الخلافةَ وسنُّه لم تجاوز الحادية عشرة إلا بقليل وأنَّه وُضع بسبب هذه السنِّ الصغيرة تحت وصاية تنازعته فيها قوىٌ مختلفة من رجال الجيش وأستاذي الخلافة وسيّدات القصر ، فكان لهذا تأثيره في تصرّفاتِه عندما استطاع إمساك الزّمام بيده عازماً على أن يكوّن بشخصيّته قوّة فعّالة في إدارة شئون الدولة ، متحرّرةً من الضُّغوط المتباينة التي كانت لاتزال تحاول أن تنجاذبه فيما بينها لتستميله إلى جانبها وتخضعه لتأثيرها . وخير مثل لمحاولته التحرّر من هذه الضغوط موقفه من أخته سلطنة ست الملك التي كانت تتدخل من وراء ستار في شئون الدّولة ، مستعينةً ببعض رجالاتها وقادتها ، مما أسخط الحاكم عليها ، وحمله على تهديدها وتخويفها . لكن ستّ الملك ، بإصرارها على موقفها من الدولة ومن أخيها ، دبّرت مؤامرة محكمة للتخلّص منه بقتله ، فنجحت في هذه المؤامرة وأجلست ابنه الظاهر من بعده على عرش الخلافة . ولم يخفَ هذا الإصرار من جانب ستّ الملك على الحاكم الذي كان على علم بتصرّفاتِها ، والذي كان يخشى على أمّه أيضاً منها ، يدلّ على ذلك حديثه إلى أمّه قبيل اختفائه - ومقتله - ودفعه إليها خمسمائة ألف دينار ذخيرة لها ، تستعين بها على شئونها إذ أنه كان « لا يخاف عليها أضّرّ من أخته » .

وقد كان للثورة العنيفة التي تزعمها أبو ركوة^(١) أثرها في تحديد موقفه من رجاله الذين فشل بعضهم في التغلّب عليها وفي إخمادِ نارها ، وقد كلّفه القضاء على هذه الثورة ألف ألف دينار أنفقها في الجيش وفي القادة الذين استعان بهم في مواجهتها .

(١) بدأت هذه الثورة في برقة ، وتدخل الحاكم بنفسه في مواجهة أخطارها إذ أوحى إلى بعض رجاله بمكاتبة زعيمها وإيهامه بأنهم يؤيدونه سيدخلون في طاعته إذا قدم إلى البلاد لأنهم يعلنون من عسف الحاكم ويطشّ ، فاستجاب الثائر لهم وقدم إلى الوجه البحري ثم إلى الجيزة ، ثم إلى الفيوم حيث هزم هزيمة واضحة فلقباً إلى النوبة وهناك تم التغلّب عليه .

ولما ذُكِرَ له أن قائده الفضل ابن صالح كانت له جهود واضحة في إنهاؤها والقبض على زعيمها ، قال : وماذا فعل الفضل ؟ لقد قبض عليه ملك النوبة وأرسله إلينا .

وهكذا كانت مشكلة الحاكم الأولى أنه كان يحاول طوال عهده العمل على أن يكونَ بشخصه قوة فعالة في إدارة شئون الدولة ، متحررا من الضغوط التي كانت تتجاذبه من داخل القصر وخارجه على السواء . وفي سبيل هذا كان يُكثر من الرّكوب منفردا في غير موكب ، ليلا ونهارا ، ويطوف بالأسواق للتعرف بنفسه على أحوال الناس ، وكان هؤلاء يتقدمون إليه بظلماتهم وشكاواهم ، فيتسلمها منهم بنفسه ويعمل على إنصافهم .

وقد مكنه هذا من اتخاذ قرارات عذة تحتسب لصالحه وتُعدّ من مفاخره :

١ - فمن ذلك أنه أصدر - في أكثر من مناسبة - قرارات بمنع ذبح البقر الوكُود أو العاملة ، حتى يتوفر بذلك من الإنتاج الحيواني مايسدّ حاجة البلاد ومن حيوانات الحقل مايمكنُ الفلاحين من العناية بالمرروعات وتحسين محصولها .

٢ - وأصدر قرارا بإنشاء دارٍ يحتفظ فيها بأموال اليتامى الذين يشرف القضاة وأعوانهم على رعايتهم ؛ ونظم طريقة الإشراف ، إذ أمر « ألاّ يُودّع عند عدلٍ ولاأمين شيء من أموال اليتامى ، وأن يكتروا مخزنا تُودّع فيه هذه الأموال ، فإذا أرادوا دفع شيء منها حضر أربعة من ثقات القاضى وجاء كلّ أمين فأطلق لمن يلى عليه رزقه بعد مشورة القاضى في ذلك ، ويكتب على الأمين وثيقة بما يقبضه من المال لمن يلى عليه »^(١) . والسبب المباشر لهذا التنظيم وفاة القاضى محمد بن النعمان تاركاً ديناً عليه للأيتام وغيرهم قُدّر بعشرين ألف دينار ، أو بستة وثلاثين ألف

(١) راجع هذا في أحداث سنة ٣٨٨ .

دينار ، مما دعا الحاكم - إلى جانب قراره هذا - إلى مصادرة أموال القاضي المتوفى وأموال أعوانه استيفاء لهذه الحقوق .

٣ - وعندما تبين للحاكم . بعد فترة من الزمن ، أن القاضي حسين بن النعمان لم يمتنع عن أكل أموال اليتامى بالباطل أمر بضرب رقبته ثم بإحراقه بالنار عقوبة له ورَدْعاً لغيره . ويسوق لنا المقرئ قصة هذه الحادثة - كأنه يخشى أن نبادر إلى اتهام الحاكم بالقسوة والظلم - فيقول : « . . . وذلك أن متظلماً رفع رُقعةً إلى الحاكم يذكر فيها أن أباه توفى وترك له عشرين ألف دينار وأنها في ديوان القاضي ، وأن القاضي عرفه أن ماله قد نجز . فدعا (الحاكم) ، وأوقفه على الرقعة . فقال كقوله للرجل من أنه استوفى ماله من أجرة . فأمر بإحضار ديوان القاضي فأحضر من ساعته ، فوجد أن الذي وصل إلى الرجل أيسر ماله . فعدد على القاضي حسين ، ما أقطعه وأجرى له وما أراح من عِله لثلاً يتعرض إلى مانهاه عنه من هذا وأمثاله . فقال : العفو والتوبة . فأمر به فضربت عنقه وأُحرق »^(١).

٤ - وفي سنة ثمان وتسعين وثلثمائة أمر الحاكم بضرب جماعة من الخبازين وتشهيرهم لتعذر وجود الأخباز بالعشايا ، ولأنهم كانوا يخشون الخبز ويبيعونه مبلولا ، إذ كان التعامل فيه بالوزن .

٥ - وعندما صدر قراره بقتل القضاة مالك بن سعيد الفارق ، في سنة خمس وأربعمائة ، لاتهامه بموالاته ست الملك وتدخله في شئون الدولة بتحريضها ، « وكان الحاكم قد انفلق منها » ، استدعى أولاد القاضي وأرضاهم ، « ولم يتعرض لشيء من تركة أبيهم ، وأمر ابنه أبا الفرج أن يركب في الموكب ، وأقره على إقطاعه ومبلغه في السنة خمسة عشر ألف دينار » .

٦ - وأصدر الحاكم قرارات بإلغاء كثير من المكوس التي كانت قد ابتُدعت ، من ذلك مكس الرطب ومكس دار الصابون ومكس بعض التجارات التي كانت تصل بحرا إلى مدينة القلزم ، والمكوس التي كانت تجبي لدارى الشرطة بالقاهرة ومصر . ويتحدث المقرئ عن هذا كله في مناسباته . .

٧ - وفي سنة عشر وأربعمائة ورد على مصر رجل من سجلماسة يريد الحج ، فأودع ماله عند رجل في السوق . فلما عاد من الحج طلب ماله فأبى أن يدفعه إليه ، فتوصل إلى أن أطلع الحاكم على أمره ، فقال له : « اجلس في دكان مقابلا لدكانه ، فإذا جُزّت في ذلك السوق فاعمل كأنك تعرفنى وكأني أعرفك . فلما مرّ الحاكم وقف على الرجل وسأل عن حاله وأكثر معه الوقوف ، وانصرف . فجاء الرجل الذى عنده الوديعة إلى الرجل وأكبّ عليه وسأله الصفع عما سلف منه . وأحضر إليه جميع ماله . فعرف الحاكم بذلك ، فأصبح الذى أنكر الوديعة مقتولا مُعلّقا برجله » .

٨ - أما من الناحية المذهبية ، فقد اتهم الحاكم بتنكيله بأهل السنة بعد أن كان قد خفض عنهم القيود ، وأباح لهم دراسة مذاهبهم ، ومكّنهم من ذلك في دار العلم التي أنشأها للدرس والبحث . وهذا الاتهام يُعوز به من تعرف الظروف التي أقدم الحاكم فيها على تقريب المالكية ثم على العدول إلى مذهبه القديم . ذلك أن المعز بن باديس صاحب القيروان كتب إليه يستنكر بعض أفعاله ، فأراد الحاكم أن يسترضيه ويستميله إليه ، فأظهر اهتمامه بدراسة مذهب المالكية ، وأحضر العلماء لمناظرتهم في مذاهبهم ، وأمر بمحو سب الصحابة من المساجد والأسواق ، ونهى عن ذكرهم بغير ما يجب لهم من الإعزاز والتقدير . ثم تغيرت الأحوال فعاد الحاكم إلى مذهبه القديم الذى نشأ أسلافه عليه والذى تمسك خلفاؤه به إلى أن قضى الله بزوال دولة

الفاطميّين . فالحاكم بهذا لم يُقدِّم على ما أقدم عليه إلّا بدافع سياسيّ ، ولم يُعَدِّل عنه إلّا بعد أن تبيّن زوال أسبابه وخطورة الإبقاء على موقفه من تأييد السُّنة في دولة نحول كلّ تنظيّماتها العَقديّة والمذهبية والعسكرية دون هذا . وما أشبه هذا بما فعله المأمون العباسيّ - مع مراعاة فارق العصر والظروف - حين قرَّب منه العلويين ولبس شعارهم وخلع السواد شعار العباسيين ، وبائع بولاية عهده لعلّ الرضا وتزوج ابنته ، ثم لم يلبث أن عدل عن هذا الاتجاه العلوي بتأثير تحرُّك بغداد ضده وتغيّر موقف البيت العباسيّ منه .

٩ - وخير ما نختم به هذه الملاحظات عن الحاكم وعصره ما قاله المقرئزي : « وكان الأمر في مدّة العزيز، فيه انحلال وعفوٌ كبير عن الناس ، فظنُّوا أن ذلك يجوز في مدّة الحاكم وجروا على رَسَمِهِمْ ، فتجرّد لهم منه مطَّلَعٌ على جميع أمورهم ، غير مطَّرحٍ لعقوبة ، فهلك الجَمّ الغفير منهم » .

ونحن لاندعى بعد هذا أن الحاكم خيرٌ كلّهُ ، لكننا ندعو إلى الاقتصاد في اتهامه والحكم عليه دون تقدير كاملٍ لظروفه وظروف عصره ، فبمثل هذا التقدير نُنصف الحاكمَ المُقتَرى عليه ، ونبيّن مدى الجهد الذي بذله في محاولة الإصلاح ، ولانبخسه أجره الذي يستحقه لهذا الجهد الذي استغرقه ، خمسا وعشرين سنة كاملة هي مدة خلافته

• • •

ويتولى الظاهر لإعزاز دين الله خلافة الفاطميين عقب غيبة الحاكم التي ذاع بعدها أنه قُتِل ، وكان الظاهر إذ ذاك قد جاوز السادسة عشرة من عمره ، وبقي في منصبه حتى توفّي سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، بعد نحو ستّ عشرة سنة من خلافته . وفي مناسبة وفاته يقول المقرئزي : « وكانت أيامه كلّها سكونا ولينا ،

وهو مشغول ببلذاته ونُزّهه وسماع المغنى . لكن استعراض الأحداث التي جرت في عصره والتي فصل المقريزى الحديث عنها ، لا يؤيد القسم الأول من حكم المقريزى بأن « أيامه كانت كلّها سكونا ولينا » .

١ - فقد أسلم الظاهر أمره في السنوات الأولى من خلافته إلى عمته ست الملك التي نجحت في قتل الحاكم وإقامة الظاهر مقامه ، ولم تلبث أن أخضعت لسلطانها وأدارت الدولة بوساطة أعوانها ، ونكّلت بكل من اعترض طريقها . وكان من أوائل من نكلت بهم أولئك الذين ساعدوها في التخلص من أخيها بإحكام التدبير ثم باتقان التنفيذ .

وفي ظل سيطرة ست الملك تولى أبو الفتوح موسى بن الحسن الوساطة - الوزارة - في سنة ثلاث عشرة وأربعمئة ، بعد أن كان يشرف على ديوان الإنشاء ، ولم يلبث أن نُكب بعد تسعة أشهر إذ صدر أمر ست الملك بإخراجه من مجلس الوزارة مسحوباً وبسجنه ، ثم قُتل بعد ذلك بأمرها .

٢ - وبعد وفاة ست الملك استسلم الظاهر لوزرائه ورجال دولته ، فتنافس هؤلاء على مركز الصدارة ، وقرر ثلاثة منهم : « أن يكون دخولهم على الخليفة الأخير في كل خلوة ، وأنهم يكفونه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفّر على لذاته وينفردوا بالتدبير » . فتم لهم ذلك ، ولم يعترض الظاهر على تدبيرهم .

٣ - وشهد عصر هذا الخليفة بدء تفكك البلاد الشامية من قبضة الدولة وتحرك الثورات المحلية بها ، وعجز الإدارة المركزية بالقاهرة عن حسم خطر هذه الثورات إذ كيف تستطيع القاهرة ذلك ورجال الدولة والقصر يتنافسون في محاولاتهم إخضاع الخليفة لنفوذهم والخليفة في شغل ببلذاته ومواكبه الرسمية التي يتنقل

بها بين القاهرة ومصر للتنزه والترويح . أين هذا مما كان يفعله الحاكم من الخروج منفردا ، ليلاً أو نهاراً ، للتعرف على أحوال الناس وتلقى ظلاماتهم وشكاياتهم ، وعمله على إرضائهم وإنصافهم .

٤ - وفي سنة عشرين وأربعمائة « كانت فتنة بمصر بين المغاربة والأتراك ، وكان الظفر للأتراك ، ثم استظهرت المغاربة بمعاونة العامة لهم ، فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وأخرجوا من بقى منهم عن مصر » .

٥ - وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة غلت الأسعار وقلت الأخباز . وحدث مثل هذا مرة أخرى في السنة التالية إذ اشتد الغلاء والقحط ، وعُدمت الأقوات ، فلم يصرف هذا الظاهر عن الخروج في موكبه التقليدى إلى القسطنطينية للتنزه والترويح « وخلفه المقوِّدون والمصطنعة ، وبين يديه الرِّقاصون ، فاستغاث الناس بضجة واحدة : الجوع يا أمير المؤمنين ، الجوع ! ! لم يصنع بنا هكذا أبوك ولا جدك » . ولما جاء عيد الأضحى « مُدَّ السَّياط بحضرة الظاهر ، فلما جلس أهل الدولة عليه للأكل كبس العبيدُ القصر وهم يصيحون : الجوع ! نحن أحق بسياط مولانا . ونهبوا جميع ما على السياط ، وضرب بعضهم بعضاً ، والصقالبه تضربهم فلا يُبالون » .

٦ - وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع الناس بقنطرة المقدس للاحتفال بعيد الفصح « في لَهْوٍ وتهْتِكٍ قبيح ، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر ، حتى حُمِلت النساء في قفاف الحمَّالين من شدة السكر ، فكان المنكر شديداً » . وقد شرب الظاهر الخمر في سنة ثمانى عشرة وأربعمائة « وترخَّص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقَّاع . فأقبل الناس على اللُّهو » .

وبعد ، فأظننا لانستطيع أن نتفق مع المقرئ في قوله عن الظاهر : « وكانت أيامه كلها سكونا ولينا » ، وإن كنا نؤيده في قوله : « وهو مشغول بملاذَّه ونُزَّهه

وسماع المعنى » ، وفى كلتا الحالتين نستند إلى الأحداث التى سجلها المقرئى نفسه فى كتابه هذا بتفصيل وتطويل .

• • •

أما الشدة العظمى التى حدثت أيام المستنصر بالله فىكفى فى توضيح بعض ظروفها أن نقتبس قول المقرئى : « . . . ولم يكن هذا الغلاء عن قصور مد النبل فقط ، وإنما كان من اختلاف الكلمة ومحاربة الأجناد بعضهم مع بعض » ، وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس : فتغلبت لواته والمغاربة على الوجه البحرى ، وتغلب السودان على أرض الصعيد ، وتغلب المثلثة والأتراك بمصر والقاهرة ، وتحاربوا فكانت السبع سنين المذكورة بمد فيها النبل ويطلع وينزل فى أوقاته ، فلا يوجد فى الإقليم من يزرع الأراضى ، ولأنهم يقيم جسوره ، من كثرة الاختلاف وتواتر الحروب . ولم يوجد ما يندّر فى الأراضى للزراعة ، فإن القمح ارتفع الأردب منه من ثمانين ديناراً إلى مائتى دينار ، ثم نفذ فلم يقدر عليه .

١ - فكيف يستطيع المستنصر مواجهة هذه المشكلة وهو الذى كان قد بدأ هذه فى الخلافة طفلاً صغيراً ، فى السابعة من عمره ، خاضعاً لوصاية الأوصياء المتنافسين فيما بينهم ، الحريصين على الاحتفاظ بالنفوذ والسلطان فى قبضة أيديهم ، ولم يستطع الخليفة التصرف فى الدولة إلا بعد أن أفلت الزمام من أيديهم ، وعندما حدث هذا لم يجد من رجال الدولة القادرين من يعينه على الإصلاح ، فاضطر إلى تغيير وزرائه أربعين مرة فى تسع سنوات .

٢ - وكيف يستطيع بدر الجمالى ، أمير الجيوش ، الذى استغاث المستنصر به واستقدمه من الشام أن يباشر سلطانه إلا إذا اطمأن إلى قدرته على التصرف بحرية فى مواجهة مشكلات الجيش والقصر وتدهور الاقتصاد ؟ ولقد طمأنه الخليفة ومنحه الحرية التى كان يطمع فيها ، و«فوضه» فى التصرف بما يرى فيه صالح الدولة والخلافة . ونجح الجمالى فى مهمته وتوَّج نجاحه بأن « استناب ابنه وجعله

ولّى عهده في السلطنة « - أي الوزارة - وبدأت السلطة تنتقل فعلاً ورسمياً من أيدي الوزراء إلى أيدي الخلفاء ، وأصبح هؤلاء العوبة في أيدي أولئك يحجرون عليهم ويتحكمون في مصائرهم كما يريدون .

٣ - ولا ينتظر في ظلّ الاضطرابات التي عمّت البلاد في القسم الأكبر من عصر المستنصر ، ثم في ظل المحاولات التي بدأها الجمال للإصلاح الداخلي في مصر أن تستطيع الدولة الاحتفاظ بقبضتها قويّة على الشام أو بنفوذها محسوساً واضحاً في المغرب . إنّ منطق التطوّر في ظلّ هذه الظروف يقضي إنحسار النفوذ الفاطميّ تدريجياً عن هذه البلاد وتلك الأقاليم . وهذا ما حدث فعلاً ، إذ تقدّم السلاجقة من الشرق ، ومدّوا سلطانهم إلى بلاد الشام ، واستقرّوا في معظم أنحائها ، ولم يبق في أيدي الفاطميين إلّا بعض المدن الساحلية^(١) .

وآخرُ النقاط التي تلفتُ النظر بفضل المقرئ المقيزي الذي أشار إليها في مناسباتها نقطة ذات شعبتين

أولاهما مظهر من مظاهر إقامة شعائر المذهب الفاطميّ في صورة من صوره ، هي طريقة إعلان بدء الشهور القمرية وبخاصة في مواسم رمضان والعيدين ، ذلك أنّ الفاطميين كانوا لا يتقيّدون برؤية الهلال ولا يُحكّمونها في إعلان دخول الشهر الجديد وإنما كانوا يَحْتَكِمُون معها إلى الحساب ويقولون: الرؤية والحساب كالظاهر والباطن ، لالهلال كالظاهر لأنّه مُشاهد ، والحساب كالباطن لأنّه معقول . وقضية «الظاهر والباطن» هذه قضية أساسية في مذاهب الشيعة جميعاً ، ولها في الدعوة الإسماعيلية والفاطمية أهمية بالغة .

وتطبيقاً لهذه القاعدة نجد المقرئ المقيزي يذكر في هذا الكتاب :

(١) ثم تقع الأحداث الخطيرة التي يأتي تفصيلها - بعون الله - في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، والتي تتمثل في الصدام العنيف بين الشرق والغرب في شكل الحروب الصليبية .

١ - أن شهر رجب من سنة ست وتسعين وثلاثمائة استهل بيوم الأربعاء، فصدر أمر الخليفة بتاريخه بيوم الثلاثاء .

٢ - وفي شعبان من سنة إحدى وأربعمئة وقّع قاضي القضاة سجلاً يعلن فيه خروج « الأمر العالى المعظم » بأن يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الأحد .

٣ - واستهل شعبان فى سنة اثنتين وأربعمئة يوم الاثنين فأمر الخليفة بأن يكون أول الشهر يوم الثلاثاء .

وثانى الشعبتين تبين مدى تحكّم بعض رجال الدولة - فى فترات ضعف الخلفاء - واستبدادهم فى مجال نفوذهم . فقد ذكر المقريرى من أمثلة ذلك :

١ - فى أخبار سنة ست عشرة وأربعمئة ، على زمن الخليفة الظاهر ، أن شاباً حدثاً قد غرق فى النيل فى عشية أحد أيام السبت ، فى منطقة دار الصناعة^(١) فمّنع رجال الشريف أبى طالب العجمى ، متولّى الصناعة ، تسليمه لأهله إلا بعد دفع « واجب » الصناعة « من حقّ من غرق فى النيل » ، وطالبوهم عنه بدينارين وقيراطين ، فدفع إليهم ذلك ، وحُمِلَ الرجل وغسل ودفن فى يوم الأربعاء .

٢ - وفى سنة أربع وأربعين وأربعمئة ، فى خلافة المستنصر بالله ، كان لعريف الخبازين^(٢) بأحد أسواق مصر (الفسطاط) دكان يبيع فيه الخبز ، ويحداها دكان خباز « صعلوك » ، وكان سعره يومئذ أربعة أرتال بدرهم وثمان ، فخاف الصعلوك كساد خبزه لأنّه كاد يبرد ، « ومن عادة الخباز فى أزمنة المساعبة متى بردت لا يُرجع منها إلى شئ » لكثرة ما تُعشّ به « فخفض الصعلوك سعر خبزه » فغضب العريف ووكل به عوّنين من الحسبة أغرماء دراهم .

* * *

(١) دار صناعة الأسطول (الترسانة) .

(٢) نقيب الخبازين .

ولا يبقى بعد هذا إلا أن أشير إلى طريقة التحقيق والتعليق ، فقد اتبعت في هذا أسلوب محاولة إبراز المتن في صورته السليمة الواضحة التي أرادها له مؤلفه ، جاعلاً نُصْب عيني العمل على توضيح ما يحتاج إلى توضيح ، وتصحيح ما يبدو أن المؤلف ، أو الناسخ ، سها عنه بمعاونة المراجع المختلفة التي تعالج نفس المرحلة التاريخية التي يشملها هذا الكتاب . أمّا ماورد في المتن من أخبار أعلام السياسة والحرب ، والعلم والأدب ، فقد نال نصيبه - قدر الطاقة - من التعليقات التي تعرّف به وتشير إلى المصادر التي قد يُحتاج إليها في طلب المزيد من التعريف . ومثل هذا حدث في الألفاظ الاصطلاحية التي يحتاج القارئ إلى فهم مدلولاتها ، وللأماكن التي جرت بها الأحداث وتردّد ذكرها في هذا الكتاب . وقد جرى ذلك كله في قصيد ودون تفريط .

وهنا أودّ أن يتكرّم القارئ فيلاحظ في التعريف بالأماكن خاصة أنني لجأت إلى أسلوب العصر الذي يتناوله الكتاب بالحديث المفصّل حتى تتلاءم التعليقات الموضّحة مع الأحداث في عصرها الذي ظهرت فيه . ولهذا نجد في التعريف بمدينة سُرْت ، على سبيل المثال ، أنها تقع على عشر « مراحل » من طرابلس وعلى ست « مراحل » من أجداية ، وفي التعريف بمدينة سنجار أنها تبعد عن الموصل ثلاثة « أيام » . وقد أدرك القلقشندي - من كتاب الإنشاء وأسائذ إدارة الأعمال - كما أدرك غيره من علماء الجغرافيا المسلمين أهمية تقدير المسافات بين البلدان بهذا الأسلوب في عصورهم - لشدة حاجة الناس ، على اختلاف مشاربهم وثقافتهم ووظائفهم ، إلى هذا النوع من التقدير . والقلقشندي الذي أراد لكتابه أن يكون وثيقة علمية في أيدي كتاب الإنشاء وموظّقي الدواوين يلاحظ على كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » أن مؤلفه أحمد بن فضل الله العدوي العمري « قد أهمل من مقاصد المصطلح أموراً لا يسوغ تركها ، ولا ينجبر بالفدية لدى الفوات نسكها ، كالبطائق والمطّفات والمطلقات ... فلم يقع الغنى به عمّا سواه » . ولهذا فصل هو الكلام

على هذه الجوانب التي يُحتَاجُ إليها في الرسائل والمكاتبات والتنقلات ، فذكر أن «البريد» مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا ، أو بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف بذراع بالهاشمي . وكان لهذا البريد «مراكز» بين كل اثنين منها مسافة «بريد» ، وقد تطول أو تقصر إذا ألجأت الضرورة لذلك لبُعد ماء أو للأنس بقرية . كما ذكر أن المسافرين كانوا يضبطون تنقلاتهم ويحتسبونها «بالمراحل» ، وكان الحجاج منهم في كل يوم وليلة «مرحلتين» من مراحل البريد^(١) . وهنا تتضح أهمية اتباع هذا الأسلوب ، فإذا كانت المسافة بين بلدين «ثلاثة أيام» كان معنى هذا أن بينهما ست مراحل أو اثنين وسبعين ميلا . وهذا التصور ييسر تتبع حركات الجيوش وتنقلات الولاة ورسائل الملوك والحكام وغير ذلك .

ومن أجل هذا حرصت على أن أهيبى للقارئ ، بالتمسك بهذا الأسلوب في التعريف ، أن يعيش مع الأحداث في عصرها ، ليتمكن من تفهم ظروفها وتصور تطوراتها .

* * *

وأخيرا أرجوا أن أكون بهذا الجهد قد أسهمت في تحقيق رغبة الأستاذ المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال في كشف الأستار عن هذا الكتاب ، تلك الرغبة التي هيأت لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ظروف تحقيقها حين مكنت سيادته من إخراج الجزء الأول منه ، ثم عهدت إلى ، بعد رحيله ، بإتمام مهمته .

فللأستاذ الراحل الكريم الرضوان ، ولِللجنة الموقرة موفور الشكر لثقتها التي وضعتها في ، وأرجو أن أكون قد حققت ظننها .
« وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

محمد حلمي محمد أحمد

دار العلوم في ٢٠ من ذى القعدة ١٣٩٠

١٩ من يناير ١٩٧١

(١) انظر لخاتمة كتاب صبح الأعشى : ١٤ .

اتِّعَاطُ الْجَنَفَا
بِاخْتِارِ الْأَمْتِ الْفَاطِمِيَّةِ الْخُلَفَا
لِنَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقَرَّرِيِّ

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو عَلِيٍّ مَنْصُورٌ
ابْنُ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ أَبِي الْمَنْصُورِ نِزَارُ
ابْنُ الْمُعِزِّ دِينَ اللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَكَدٌ

ولد في القصر بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، في الساعة التاسعة ، الموافق صبيحتها الثالث عشر من شهر آب^(١) . والطلع من السرطان سبع وعشرون درجة^(٢) ، والشمس في برج الأسد على خمس وعشرين درجة ، والقمر بالجوزاء على إحدى عشرة درجة ، وزحل بالعقرب على أربع وعشرين درجة ، والمشتري بالميزان على ثمان درج ، والمريخ بالميزان على ثلاث عشرة درجة ، والزهرة [٥٠ ب] بالميزان على تسع عشرة درجة ، وعطارد بالأسد على عشر درج ، والرأس بالدلو على خمس درج .
وسلم عليه بالخلافة في الجيش بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة^(٣) . وسار إلى قصره في يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة ، والعزير في قبة على ناقة بين يديه ، وعلى الحاكم دراعة^(٤) مصمتة^(٥) وعمامة فيها الجواهر ، وبيده رمح وقد تقلد السيف ، فوصل إلى القصر ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شيء ، ودخله قبل صلاة المغرب ، وأخذ في جهاز أبيه العزيز ودفنه .

-
- (*) يبدأ المتن هنا بما يقابل السطر الخامس والعشرين من الورقة (١٥٠) من المخطوط الذي اعتبر أصلاً لنشر .
(١) أغسطس ، سنة ٩٩٦ . وقيل ولد لأربع بقين من شهر ربيع الأول . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٧٦ .
(٢) في الأصل سبعة وعشرون درجة . ومثل هذا الخطأ يتكرر كثيراً في المخطوط ، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضه .
(٣) بايع له أبوه العزيز بالله قبل وفاته ببلييس ، وجددت البيعة — كما يقول النويري في نهاية الأرب — صبيحة وفاة أبيه ، يوم الأربعاء ليلة بقيت من شهر رمضان . وكانت بيعة ببلييس يوم الثلاثاء عشرى رمضان . الخطط : ٢ : ٢٨٥ .
(٤) الدراعة والمدركة نوع من الثياب ، وقيل جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من الصوف . لسان العرب .
(٥) الثوب المصمت الذي لا يخالط لونه لون آخر .

ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس ، وقد نُصب للحاكم سريرٌ من ذهب عليه مرتبة مذهبة في الإيوان الكبير . وخرج من قصره راكباً وعليه مُعَمَّمة الجواهر ، فوقف الناس بصحن الإيوان وقبّلوا الأرض ومشوا بين يديه ، حتى جلس على السرير ، فوقف من مهمته الوقوف ، وجلس من له عادة الجلوس . فسلم عليه الجماعة بالإمامة واللقب الذي اختير له ، وهو الحاكم بأمر الله . وكان سنُّه يومئذٍ إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

وكان جماعة من شيوخ كتامة تخلفوا عن الحضور^(١) وتجمعوا نحو المصلّى^(٢) . فخرج إليهم أبو محمّد بن الحسن بن عمار^(٣) في طائفةٍ من شيوخهم ، ومازالوا بهم حتى أحضروهم بعد امتناعهم من الحضور ، وشكّوا من عيسى بن نسطورس^(٤) ، وسألوا صرّقه ، وأن تكون الوساطة لرجل منهم . فندب لذلك أبو محمّد الحسن بن عمار . فقرراًحوالهم فيما يُطلق لهم من الرزق بعد خطاب طويل ، على أن يطلق لهم ثمانى إطلاقات في كل سنة ، وأن يكون لكل واحد ثمانية دنانير ؛ وأن يطلق هذا الفضل^(٥) في يومهم بحضور أمير المؤمنين . فأحضر المال ودفع إليهم بحضور الحاكم الفضل ، وهو عشرون ديناراً لكل واحد منهم . وحلّفهم ابن عمار بعد ما حلف .

(١) كان الوزير يعقوب بن كلس قد أضعف شوكتهم بعض الشيء ، أيام العزيز فكان تخلفهم نوعاً من الاحتجاج والرغبة في استعادة مكانتهم التي كانت لهم . قارن نهاية الأرب للنويري .

(٢) كان الجامع الأزهر يسمى عقب انشائه مصلى القاهرة . لكن لعل المقصود هنا مصل العيد خارج باب النصر ، أحد أبواب القاهرة .

(٣) وهو من أصول أسرة بني عمار التي تولت حكم مدينة طرابلس بالشام ، كما سيأتى تفصيل ذلك في حينه . انظر :

معجم الأنساب لزبابور ، وكذلك mohammadian Dynasties تأليف : S. Lane - Poole

(٤) قول الوزارة - الوساطة - للوزير بالله ، وكان يتولاها عند خلافة الحاكم . وسر الغنبة عليه فيما ينسب إليه من قول رد به الشاكين من سوء تصرفه ومن تقديمه النصارى في مناصب الدولة : « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة . فلي كان منكم إلينا إحسان حتى تطالبونا بمثله ! إن منعناكم قاتلتونا ، وإن سألناكم أهتبنوا . فإذا وجدنا لكم فرصة فاذا تتوقعون أن نصنع بكم » . نهاية الأرب .

(٥) المقصود به الأموال التي كانت تمنح لرجال الدولة ، والجنود خاصة ، في المناسبات كمثل مناسبة تولي الخليفة .

وخلع على أبي الحسن يانيس الخادم الصقلبي وحمل على فرسين ، وقال : يتولى القصور .
 وفي أول شوال فرش على سرير الذهب في الإيوان مرتبة نسيج فضة ، وخرج الحاكم على
 فرس أدهم بمعممة الجواهر وقد تقلد السيف ، وفي ركابه الإيمن حسين بن عبد الرحمن الرابض ،
 وفي ركابه الأيسر برجوان ، والناس قيام ، فقبلوا له الأرض ، ودعوا . فقال ابن عمار
 للقاضي محمد بن النعمان : مولانا يأمرك بالخروج إلى المصلى للصلاة بالناس وإقامة الدعوة
 للأمير المؤمنين . فذهض قائما ، وقلده برجوان بسيف محلي بذهب من سيوف العزيز ، ومضى
 فصلى وأقام الدعوة ، ثم قدم .

ونُصب السّيرير الذهب في صُفّة الإيوان ، ونُصب السّماط^(١) الفضّة ، وخرج الحاكم من
 القصر ، وكان قد دخل إليه ، وهو على فرس أشقر ، فجلس على السماط ، وحضر من له
 رَسْمٌ ، فأكلوا وانصرفوا .

وفي ثالثه خلع على ابن عمار ، وقلد بسيف من سيوف العزيز ، وحمل على فرس بسرج
 ذهب ، وكناه الحاكم ، ولقبه بأمين الدولة^(٢) وقال له : أنت أميني على دولتي ورجالي .
 وقاد بين الخيل ، وعمل خمسين ثوبا ملونة من البز الرفيع . ومضى في موكب عظيم إلى داره .
 وكُتِبَ سجل من إنشاء أبي منصور بن سُوَيرين^(٣) وبخطّه ، قرأه القاضي محمد بن النعمان^(٤)

(١) أما سماط الطعام فيعقد مرتين في عيد الفطر ومزة واحدة في عيد النحر ويصمه صاحب النجوم الزاهرة : ٩٧ - ٩٨ فيقول مابعضه : طوله ثلثائة ذراع وعرضه سبعة ريعي بأنواع المأكّل في الليل . . ويحط في وسط السماط واحد وعشرون خروفا ، ومن الدجاج ثلثائة وخمسون طائرا ، ومن الفرايج مثلها ، ومن فراخ الحمام مثلها . ويمكن الناس منه فيحتلمون ويهبون مالا يأكلونه ، ويبيعونه ويدخرونه .

(٢) يقول النويري وهو أول من لقب من رجالهم - رجال الفاطميين - وذكر المقرئ ذلك أيضا في الخطط : ٣٦ : ٢ ويقول صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ١٢٢ : « وهو أول من تلقب من المغاربة وكان شيخ كتامة وسيدها » .

(٣) وهو أبو منصور بشر بن عبد الله بن سويرين الكاتب النصارى . الخطط : ٢ : ١٤ .

(٤) وكان القاضي أحد اثنين حضرا وصاية العزيز بالله بولاية العهد لولده ، وثانيهما أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٢٢ ، الخطط : ٢ : ٣٦ . وقد أقام القضاء في أسرة بني النعمان فترة طويلة بدأت أيام المعز لدين الله .

بالجامع يتضمّن وراثته الحاكم الملك من أبيه ، ويعدّ الرعيّة فيه بحُسن النظر لهم ؛ وأمر فيه بإسقاط مكوس كانت بالساحل^(١) . ففرح الناس .

وكانت عدّة ممّن قتلهم ابن نسطورس - لما احترق الأسطول - على الخشبة ، فأمر بتسليمهم إلى أهليهم ، وأطلق لكل واحد عشرة دنانير من أجل كفنه ، فكثّر الدعاء من الرعيّة للحاكم . وأمر بقلع الألواح التي على دور الأخباز وسلمت لأربابها ومستحقّيها ، فبلغت شيئا كثيرا^(٢) .

وخلع على القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر القائد ، وردّ إليه البريد والإنشاء ، فكان يخلفه ابن سورين ؛ وحمل بين يديه كثير من الخيل والثياب ، وحمل على فرس بمركبين . واستكتب أمين الدولة ابن عمار أبا عبد الله الموصلي ، واستخلفه على أخذ رقايع الناس وتوقيعاتهم .

وأقرّ عيسى بن نسطورس على [١٥١] ديوان الخاص . وخلع على جماعة بولايات عديدة وقُرئ سجل ، قرأه القاضي بالجامع ، يتضمن ولاية ابن عمار الوساطة ، وتلقيبه بأمين الدولة ، وأمر الناس كلهم أن يترجلوا لابن عمار ، فترجلوا بأسرهم له .

وفي ثلثي القعدة تجمّع الكتاميون عند المصلّى ، فأنفذ إليهم واستحضرهم ، وتقرّر أمرهم على النّفقة فيهم ، فأنفق عليهم^(٣) . وحمل راجلهم على الخيل ؛ وكانوا نحو الألف رجل ، وأرّكبت شيوخ كتامة بأسرهم على الخيول بالمراكب الحسنة .

(١) الساحل المصري تغير بتغير السلطة الحاكمة في مصر . ففي عهد الفتح العرب إلى زمن الإخشيد كان بجزيرة الروضة على ساحلها الجنوبي الشرق ، وأصح في عهد الإخشيد في الجانب الشرق ، شرق فم الخليج حيث كان مجرى النيل قد تحول قليلا إلى ذلك المكان . ثم أصبح للقاهرة الفاطمية ساحل آخر عند المقس في موقع ميدان محطة مصر الحالية مجاورا لجامع أولاد عتات .

(٢) في الأصل : فبلغ نبي كثير .

(٣) في الأصل : فنفق .

وفى ثانى عشره ، خلع على أبى تيم سَلَمَان بن جعفر بن فلاح ، وقلَّد السيف ، وحمل على فرس بمركب ذهب ؛ وقيدَ بين يديه أربعة أفراس مُسَرَّجَة مُلْجَمَة ؛ وحُمِلَ بين يديه ثياب كثيرة من كل نوع ؛ وجُرد معه عسكر ليسير إلى الشام .

وسارت قافلة الحاجِّ بكسوة الكعبة والصُّلات والنفقة على الرِّسم المعتاد فى النصف منه .
وركب الحاكم يوم الأضحى فصلً بالناس صلاة العيد بالمصل^(١) وخطب ، وأصعد معه المنبر القاضى محمد بن النُّعمان وبرجوان وابن عمار وجماعة .

(١) سبق أن أشرنا إلى أن مصل العيد كانت خارج باب النصر من أبواب القاهرة . ويصف صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٤ موكب العيد ، فيقول مايفضه : « . . . يركب الخليفة بالمظلة واليتمة (الجوهرة التى تتوسط عمامة الخليفة) ولباسه الثياب البياض ، والمظلة أبدا زيهما تابع لزي الخليفة . ويخرج من باب العيد إلى المصل ، وعساكره وأجناده من الفرسان والرجالة زائدة على العادة ، فيقفون صفين من باب العيد إلى المصل . ويكون صاحب بيت المال قد فرش الطراحيات فى المهراب ، وعلق ستريضة ويسرة ، على الستر الأيمن الفاتحة وسج اسم ربك الأعلى ، وعلى الأيسر الفاتحة وهل أتاك حديث الغاشية . . . ويدخل الخليفة من شرق المصل إلى مكان يستريح فيه قليلا ثم يخرج (للصلاة والخطبة) محفوظا كما يخرج للجمعة . . . ويقف أسفل المنبر ومعه قاضى القضاة وصاحب الباب وصاحب السيف وصاحب الرسالة وإمام الأشراف الأقارب . . . وغيرهم .

سنة سبع وثمانين وثلثمائة^(١) :

في المحرم ورد سابق الحاج ، فأخبر بتمام الحج والدعاء للحاكم في الحرمين .

وفيه نزع سعر القمح وغيره ، وعز وجوده ، واشتد الغلاء . ووقع في البلد خوف شديد من طارف رجل من اللصوص في الليل وكبسه دور الناس فتحارسوا في الليل ، وأخذت نساء من الطرقات ، وعظم الأمر في ذلك .

وفيه ضربت رقبة عيسى بن نسطورس .

ووصل الحاج في رابع عشر صفر ؛ فخلع على سبكتكين ، مقدم القافلة ، وحمل على عدد من الخيل .

ووقف سعر الخبز على أربعة أرطال بدرهم .

وسار أبو تميم [سلمان بن^(٢)] جعفر بن فلاح بعد أن خلع عليه وقيد بين يديه عدة خيول ، وحمل معه شئ كثير من الثياب ، وأنفق في أهل عسكره ؛ فنزل مسجد تبر^(٣) ، فأقام إلى تاسع عشر ربيع الأول ؛ فخرج إليه الحاكم وحلفه ومن معه ، وعاد . فرحل ابن فلاح إلى القصور فأقام بها . وقرأ سجل يوم الجمعة للنصف منه بمدح كتامة ولعن منجوتكين

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من يناير سنة ٩٩٧ .

(٢) مابين الحاصرتين تصحيح استنادا إلى ماتقدم في نهاية الحديث عن حوادث سنة ست وثمانين وثلثمائة ، واستعانة بما جاء في ذيل تاريخ دمشق : ٤٦ .

(٣) خارج القاهرة بما إلى الخندق قريبا من المطرية ، وكان يسمى مسجد التين . ويقال إنه بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ، ويعرف أيضا بمسجد البئر والجميزة . وتبر هذا أحد الأمراء على زمن كافور الإخشيدي وقد اضطر جوهر الصقل إلى محاربته حربا طويلة انتهت بفراره إلى مدينة صور بالشام حيث قبض عليه وأدخل القاهرة وضرب بالسياط وحبس حتى مرض ومات فسلخ جلده وصلب . الخطط : ٢ : ٤١٣ .

على سائر منابر مصر وفي القصر . وخلع على جماعة من الحمدانية^(١) وجّهزوا إلى ابن فلاح ، فساروا معه .

وفي آخره أخرج ابن عمّار إلى سلمان [بن جعفر] بن فلاح بخزانة مال ، على ثمانية وستين بغلا ، في صناديق ، فيها أربعمئة ألف دينار وسبعمئة ألف درهم ، وستة وأربعين حملاً من السلاح ؛ وعشر جمازات^(٢) عليها دُرُوع ؛ وست قباب^(٣) بفرشها وأهلّتها ومناطقها وجميع آلاتها ، منها قبتان قرقرى مثقل وباقيها ديباج ؛ وست جمازات تجنب بآلة الدّيباج الملون ؛ وثلاثين جمازة بأجلتها^(٤) ؛ وعشرة أفراس وثلاث بغلات بمراكبها ، ومنديل حمله خادم فيه ثياب شرف ، بها من ثياب العزيز وسيف من سيوفه .

وفي ثالث ربيع الآخر ركب الحاكم وابن عمّار إلى القصور فودّعا ابن فلاح ، وسار في ثلاثة من كتامة وسبعمئة فارس من الغلمان ، وانضم إليه من عرب الرملة^(٥) ثمانية آلاف .

وفي النصف منه شق الحاكم المدينة وقد زينت زينة عظيمة ، وزيدان يحمل مظلة عن يمينه ، وابن عمّار عن يساره ، ويرجوان وحده خلفه ، فدخل الصناعة .

(١) من رجال الأسرة التي حكمت كلا من الموصل وحلب ، مجتمعتين أو مستقلتين . وكان لأصحاب حلب صلة بالفاطميين ، وقد ولي بعضهم قيادة الجيش أو الوزارة بمصر على فترات متباعدة ، ولم يكونوا حاضرين للفاطميين في جميع الظروف . وسيرد بعض التفصيل لذلك . انظر أيضا : معجم الأنساب لزامبور : ٢ .

(٢) جمز البعير من باب ضرب ، والجهاز بالفتح والتشديد البعير الذي يركبه المحمّر ، والجهاز فاقة المحمّر ، والناقعة تدور الجمزى بالقصر أى تسرع .

(٣) القبة كانت من مستلزمات الجيوش المقاتلة ، تضرب في ميدان المعركة ويلجأ إليها مجموعة من المقاتلة لتسترخ ولا تشترك في القتال حتى تشتد المعركة وعندئذ تبادر إلى الاشتباك فترجع كفة المقاتلين ويشد أزهرهم . وقد استعملها القرامطة على نطاق واسع في حروبهم . وتطلق القبة أيضا على المظلة .

(٤) الجلب للدابة كاللوب للإنسان يلبس ليقى من البرد ، والجمع جلال وأجلال ، وجمع الجلال أجلة .

(٥) بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . معجم البلدان : ٤ : ٢٨٦ - ٢٨٨ .

وأما مَنْجُوتَكين فإنه لما بلغه ما فعله ابن عمار من إكرام كتامة وحطّه من مراتب المصْطَنعين الذين اصطنعهم العزيز من الأتراك خاف^(١) . فلم يكن غير قليل حتى بلغه خروج سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام بالكتاميين ، فسار إلى الرملة مستعداً القتال من يجيشه من مصر ، فالتقيا برفح . وكانت الوقعة بين الطوالع ، فانهزم أصحاب منجوتكين ؛ وسار ابن فلاح إلى منجوتكين ، فلقيه بظاهر عسقلان وقد انضم إليه ابن الجراح في كثير من العرب ، فاستأمن إلى ابن فلاح عدة من أصحاب منجوتكين . واقتتلا يوم الجمعة ، رابعَ جمادى الأولى ، فقتل كثير من أصحاب منجوتكين وأسير عدة منهم ؛ وانهزم منجوتكين بمن بقي معه ، فقطع من عسقلان إلى دمشق في ثلاثة أيام ، وأهلها في مجاعة من غلاء الأسعار وقلة الطعام وقد راجت الغلال . فاجتمع أهل البلد [٥١ ب] إلى الجامع وهم كثير ، فيهم حُمّال السلاح ومن يطلب الفتن . فقال الناس : نُزَحِّل مَنْجُوتَكين عنّا ، وقال طلاب الفتن : لا ، ما نقاتل معه ، وساروا إلى داره ومعهم قوم من المارج^(٢) يقال لهم الهياجنة ، أهل شر وفساد ، فنهبوها وما حولها من دور أمرائها . وخرج منهزماً في يسير من الجند فراسخ ، فنزل على ابن الجراح .

وبلغ ذلك ابنَ فلاح فأرسل بأخيه عليّ بن جعفر بن فلاح في ألفي رجل ؛ فنزل بظاهر دمشق ، لستَ بقيت منه ، وبعث إلى ابن الجراح رسولا بأن يُنفِذ منجوتكين إلى مولانا

(١) يصور سراف ابن عمار في إكرام قومه من كتامة ما ذكره النويري في نهاية الأرب ، في سبب الفتنة التي ثارت في دمشق بزعامة منجوتكين : « كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ في الإحسان إليهم وخولم في الأموال وبسط أيديهم وفرق فيهم ما خلفه العزيز . قال بعض المؤرخين إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرس وبغل وجمل وحمار ، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء ، ففرق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه » . الخ . ويقول ابن القلانسي : ٤٦ : « وندب أبا تميم سلمان بن جعفر بن فلاح وأطلق كل ما التمس من المال والعدد والرجال والسلاح والكرع ، وأسرف في ذلك إلى حد لم يقف عنده » .

(٢) المارج الأرض الواسعة فيها نبت كثير تمرج فيها الدراب أي تذهب ونجى . وبالقرب من دمشق ثلاثة مروج هي مرج عذراء ، ومرج الصفر ، ومرج راهط وهو الذي يقصد عادة إذا ذكر مفرداً غير مضاف . معجم البلدان :

فإنّا لا نريد به سوءاً ، وهو آمن ، وبذل له مالا . فسار منجوثكين ودخل القاهرة فى ثانى
عشرى رجب ، فأنزله ابن عمّار فى دار ، وكان يركب فى خدمته ، وإذا لقيه وهو راكب
ترجل له . وكان ابن عمّار ينزله أذون المراتب ، وغير رسومه كلها .

وأما على بن [جعفر بن] فلاح فإنه لما قدم من عند أخيه ولّى البلد لرجل من المغاربة
لم يكن عنده ما رآه ، بل كان فظاً غليظاً ، فشاقت العامة وواجههم ، فثاروا عليه بالسلاح ،
وركب المغاربة ، وكانت بينهم حروب . ثم إن شيوخ البلد خرجوا إليه وأصلحوا الأمر .
وسار على من الرملة فنزل على دمشق فى عسكر عظيم يوم الاثنين لست بقين من رجب ،
وأقام لا يأمر بخير ولا شر .

وأما ابن عمّار فإنه لما نظر فى الأمر كان ينزل على باب الحجرة التى فيها الحاكم ،
ويدخل القصر راكباً ، فيشق قاعة الدواوين ، ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم
الخاصة^(١) ، ثم يعدل منه إلى باب الحجرة ، فينزل ويركب منه . وكان الناس من الشيوخ
والرؤساء على سائر طبقاتهم يبكرون إلى داره والباب معلق فيُفتح بعد وقت ، فيدخل إليه
الوجوه فيجلسون فى قاعة الدار على حصير وهو فى مجلسه لا يدخل إليه أحد ، فإذا مضت لهم
ساعة أذن للوجوه فالقاضى ، وبعده كتامة والقواد ، فيدخل أعيانهم ، ثم يأذن لسائر الناس
فلا يقدر أحد على الوصول إليه ، فمنهم من يوى إلى تقبيل الأرض ، ومنهم من يقبل
الركاب ، ومنهم من يقبل ركبته .

وتسلم النظر والإسطبلات عامرة ؛ فأخرج لرجال كتامة وأحداثهم ألفاً وخمسمائة فرس ،

(١) . خدم الخاص ، أو الخاصكية : فرقة من الخدم أو المالك تختص بخدمة الخليفة أو السلطان أو الأمير . وتشرف
على حوائجه وملابسه ، وقد يشرف رئيسها على دخول الأمراء والكتاب للخدمة . ويختارون من بين الخدم الذين دخلوا فى
الخدمة صغاراً ، ويدخلون على مخدومهم فى خلوته ، ويركبون لركوبه ليلاً ونهاراً ، ولا يتخلفون فى قرب أو بعد ، ويتسيزون
عن غيرهم من المالك والخدم يحملهم سيوفهم وملابسهم المزركشة . صبح الأعشى . انظر كذلك : السلوك : ١ : ٦٤٤ .

ولم يبق من شيوخهم إلّا من قاد إليه الفرسين والثلاثة مراكبها . وحمل لسلمان [بن جعفر] ابن فلاح ما يتجاوز ألف رأس ، وجُلّ رحل العزيز وأمتعته . وباع من الخيل والبغال والنُجُب والحمر ما يتجاوز الألوْف ؛ حتى بيعت الناقة بستة دنانير ، والحصار الذي قيمته أربعون ديناراً بأربعة دنانير . وقطع أكثر الرسوم التي كانت لأولياء الدولة من الأتراك والعبيد ، وقطع أكثر ما كان في المطابخ . وقطع أرزاق جماعة أرباب الراتب ، وفرّق كثيراً من الجوّاري طلباً للتّوفير .

واصطنع أحداث^(١) المغاربة ، فكثرت عبث أشراهم وامتدت أيديهم إلى أخذ الحرم في الطرقات ، وعروا جماعة من الناس ، فكثرت الشكاية منهم ولم يُبدَ كبير نكير ، فأفرط الأمر حتى تعرّضوا إلى الأتراك يريدون أخذ ثيابهم ، فثار لذلك شرٌّ قُتل فيه واحد من المغاربة وغلامٌ تركيٌّ ، فسار أولياء الكناهي ليأخذوا^(٢) التركي قاتله ويأتوا به إلى قبر المقتول فيعتقوه هناك ، فلما أخذوه قتلوه على قبر الكناهي . فاجتمعت أكابر الطائفتين وتحزّبوا ، ف وقعت الحرب بينهما وقُتل جماعة ، وانطلقت ألسُنُ كل منهما في الآخرين بالقبيح . وأقاموا على مصافهم^(٣) يومين آخرهما تاسع شعبان ، فركب ابن عمّار في عاشره بآلة الحرب وقد حَفّت به المغاربة ، وتبادر إليه الاتراك ، فاقتتل الفريقان وقتل منهما جماعة وجرح كثير . وجئ لابن عمّار بعدة رمّوس طُرحت بين يديه ، فأنكر ذلك وظهر له الخطأ في ركوبه ، فعاد إلى داره .

وجاء برَجَوَان ليصلح الأمر ، فثار الغلمان وركبوا دارَ ابن عمّار للفتك به ، فأركب

(١) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون بإخاد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيري الشغب ، وهم أيضا رجال

الحرس الإقليمي . انظر Dozy; Supp. Dict. Ar. وكذلك . Reinaud; J. A; 1848. II

(٢) في الأصل : أن يأخذوا .

(٣) المصاف جمع مصف وهو الموقف في الحرب ، وموضع الصف في القتال . لسان العرب ، انظر أيضا :

Dozy; supp. Dict. Ar.

برجوان إلى القصر وانبسطت أيدي المغاربة وأحداث الغلمان والنهب ، فانتهبوا [١٥٢]
دار ابن عمار واسطبلاته ، ودار رشا غلامه ، وأخذوا مالا يحصى كثرة^(١) .

وانعزل لثلاث بقين منه ، وتحول من القاهرة إلى داره بمصر . فكانت أيام نظره أحد
عشر شهرا غير خمسة أيام . فأقام بمصر سبعة وعشرين يوما ، ثم عاد إلى القاهرة بأمر الحاكم
فأقام بها لا يركب ولا يجتمع به سوى خدمه ؛ وأطلقت له رسومه وجراياته وجرايات حشمه
على رتبته في أيام نظره .

وتقدم [الحاكم] إلى برجوان أن ينظر في التدبير على ما كان ابن عمار ، فنظر في ذلك
لثلاث بقين من رمضان ، وسار إلى القصر وجمع الغلمان الأتراك ونهاهم عن التعرض لأحد
من الكتاميين والمغاربة . وقبض على عريف الباطلية^(٢) ، فلمهم كانوا قد نهبوا شيئا كثيرا
لابن عمار ، وألزمه بإحضار ما نهب أصحابه . وأجرى الرسوم والرواتب التي قطعها ابن
عمار ، وأجرى لابن عمار ما كان يجري له في أيام العزيز ، ولآله وحرمة ؛ ومبلغ ذلك من
اللحم والتوابل والفاكهة خمسمائة دينار في كل شهر ، يزيد على ذلك تارة وينقص أخرى
على قدر الأسعار ، مع ما كان له من الفاكهة ، وهو في كل يوم سلة بدينار ، وعشرة أرطال
شمع كل يوم ، وحمل ثلج عن يومين ، فأجرى له ذلك مدة حياته .

(١) يذكر ابن القلانسي أن برجوان خشي على نفسه من ابن عمار والكتاميين ، فانتبهز فرصة غيبة كثير من الكتاميين
في الشام مع سلمان بن جعفر بن فلاح فاتفق مع شكر الغضدي على الإيقاع بابن عمار « وقررا أن يركبا ويركبا على أثرهما
جماعة من الغلمان ، فإن أحسوا وأحسننا ما يريدنا رجعا وفي ظهورنا من يمنع منا » . فلما وصلا دار ابن عمار أحسا بما كان
يدبره هو أيضا للإيقاع بهما فرجعا ، وجرد غلمانها السيوف لحمايتهما . ثم دخل برجوان وشكر قصر الحاكم يبيكان ،
وثارت الفتنة واجتمع الأتراك والديلم والمشاركة وعبيد الشراء بالسلاح . ثم دار قتال عنيف بين الفريقين في الصحراء
فهزم ابن عمار ونهبت داره ودور رجاله . ذيل تاريخ دمشق : ٤٨ - ٤٩ . ويشرك النويري معهما منجوتكين .

(٢) بدأ ظهور الباطلية بجماعة متميزة - على ما يبدو - زمن المعز لدين الله ، ذلك أنه قسم العطاء في إحدى المناسبات
على الناس ، فجاءت إليه طائفة وسألته نصيبها في العطاء ، فقال : قرغ المال . فقالوا : رحنا نحن في الباطل . فسموا الباطلية .
ويهم تعرف الحارة المعروفة في منطقة الأزهر ، وتسمى أيضا الباطنية . النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٦ ؛ الخطط : ٢ : ٨ .

وجعل برجوانُ أبا العُلا ، فهد بن إبراهيم [النُصْراني] ، كاتبه ، يوقِّع عنه ، فنظر في قصص الرافعين وظُلاماتهم ، وطالعه بما يحتاج إليه ، فرتب الغلمان في القصر وأكَّد عليهم في مُلازمة الخدمة ، وتفقد أحوالهم . وأزاح علل أولياء الدولة ، وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم ، ومنع من التَّرجُّل له . وكان الناس يلقونه في داره ، فإذا تكاملوا ركب وهم بين يديه إلى القصر . ولقب كاتبه فهد بن إبراهيم بالرئيس ، فكان يُخاطَب بذلك ويُكاتب به ، ويركب أكثر الناس إلى داره حتى يخرج برجوان إلى القصر فيجلس فيه في آخر دهاليزه ، ويجلس فهد في الدَّهليز الأول يوقِّع وينظر ويطلع برجوان بما يحتاج له ، فيخرج الأمر بما يكون . فلم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت مدتهما .

وكان الحاكم يركب كلَّ يوم إلى الميدان^(١) ، فيجلس على سريره بالطَّارمة^(٢) فتعرض عليه الخيل ، والقراء بين يديه ، وربما أنشده الشعراء ؛ ثم ينصرف إلى القصر فيجلس برجوان وكاتبه لِأخذ رقايع المتظلمين وأرباب الحاجات ، فلا يزالان^(٣) حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يدخلان^(٤) . فإذا فرغ الحاكم من غدائه ورفعت المائدة تقدَّم أبو العلا فيجلس بين يديه وبرجوان قائم على رأسه ، حتى يقرأ جميع تلك الرقايع ويوقع عليها الحاكم في أعلاها بما يراه ، ثم يخرج بها فتُفرَّق كلها ويُمضَى بها إلى الديوان ، فتُنقذ من غير مراجعة .

وكان الحاكم إذا جلس في الطَّارمة وأنشده الشعراء تناول برجوان قصائدهم فجعلها في كفه ،

(١) كان في مصر والقاهرة عدة ميادين منها ميادين ابن طولون ، الإخشيد ، قراقوش ، بركة الفيل ، القصر ، وغيرها ولعل المقصود هنا ميدان القصر ويقول عنه المقرئى إنه عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورى وموضعه الآن حى الخرنشف ، ولم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين إلى أن زالت دولتهم فتعطل . الخطط : ٢ : ١٩٧ .

(٢) الطارمة : بيت من خشب ، فارسى معرب . مختار الصحاح . وكان بالقاهرة حى يعرف باسم خط اصطبل الطارمة يحدد المقرئى موقعه بأنه بين رحة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ، ويقول : وكانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها . الخطط : ٢ : ٣٥ .

(٣) في الأصل : فلا يزال .

(٤) في الأصل : ثم يدخلا .

فإذا عرض رقاع الناس وفرغ من التوقيع قرأ القصائد وقد حضر من له تمييزٌ ومعرفة بالشعر .
وكان الحاكم له من الحذق بذلك ما ليس لغيره ، فإذا أنشده الشاعر أو أنشد له أبو الحسن
لا يُنشد ويُمَرُّ بالببيت النادر أو المعنى الحسن إلا أنبه برجوان عليه واستعاده مراراً ، ثم يوقع
لكل واحد منهم بقدر استحقاقه ومبلغه من صناعته ، فتخرج صلاتهم بحسب ذلك .

وفي يوم الثلاثاء تاسع شعبان أهدت ست الملوك^(١) إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين
فرساً مُسَرَّجَةً ، أحدها مرصع وآخر بلور ، وبقيتها ذهب ؛ وعشرين بغلة مُسَرَّجَةً مُلْجَمَةً ؛
وخمسين خادماً منها عشرة صقالبة ، ومائة تحت^(٢) ثياب ، وتاجاً مرصعاً ، وشاشية^(٣) مرصعة
وأسفاطاً كثيرة من طيب ، وبستاناً من الفضة مزروعاً من أنواع الشجر .

وفي رمضان سُومِحَ أهل القلزم بما عليهم من مكوس المراكب .

وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد الفطر بالمصلى وخطب ، وأصعد معه المنبر الحسين بن
جوهر والقاضي والأستاذ بَرَجَوَان وجماعة .

وسارت قافلة الحاج من بركة الجب^(٤) بالكسوة للكعبة ، والزيت والدقيق والقمح
والشمع والطيب لمكة والمدينة ، في تاسع ذى القعدة . وفيه خرج جيش بن الصمصامة
إلى الشام مكان سلمان بن جعفر بن فلاح ، فرحل ابن فلاح عن دمشق [٥٢ ب] في يوم
الثلاثاء سابع عشر ذى الحجة بعسكره وسار إلى الرملة .

(١) ورد هذا اللقب في الأصل بعدة صور : ست الملك ، سيدة الملك ، ست الملوك .

(٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . القاموس المحيط .

(٣) الشاشية ما يلبس على الرأس دون عمامة ، أو ما يدار حوله الهامة ، من قاش الشاش المعروف .

(٤) لعل المقصود به جب عميرة الذي ورد ذكره في الخطط ، وهو المكان الذي كان الحجاج يخرجون إليه ويتجمعون
فيه في المرحلة الأولى استعداداً للسفر للحج ، وهو في الشمال الشرق من القاهرة . وجب عميرة نسبة إلى عميرة بن تميم التجيبي :
الخطط : ١ : ٤٨٩ ، ٢ : ١٦٣ - ١٦٤ ، النجوم الزاهرة : ٥ : ١١ ، معجم البلدان : ٣ : ٤٦ - ٤٧ ؛ قوانين
الدواوين : ١١٠ .

ولفها صلى الحاكم بالمصلى صلاة العيد يوم النحر بالناس وخطب على رسمه .

وورد الخبر من مدينة قوص بأن شدة نزلت بهم من برق ورعد ومطر وحجارة نزلت من السماء ، منها ما لم يسمع بمثله ، وأنهم زلزلوا زلزلة شديدة قصفت النخل والجميز ، واقتلعت خمسمائة نخلة من أصولها . وانبثقت بقوص وأعمالها زرقة خضراء على ظهر الأرض ، وغرقت عدة مراكب مشحونة بغلال تساوى أموالا كثيرة .

وفيهما كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعي على بن عبد الله سجليين لأبي مناد باديس ابن يوسف بن زيرى^(١) ، أحدهما بولايتيه المغرب وتلقيبه نصير دولة الحاكم ، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه العهد على بنى مناد . فأنزل وأكرم وأخذ العهد على جميع قبائل صنهاجة وعمومهم بالبيعة للحاكم فى جمادى الآخرة ، ثم عاد ، فقدم إلى القاهرة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل وثياب وخيول .

(١) ولد فى ربيع الأول سنة ٣٧٤ ، وبهذا نجده حين ولاه الحاكم بأمر الله ولاية المغرب شابا حدثا فى الرابعة عشرة من عمره ، ولعل سر ذلك أنه من أسرة بدأت مجددا فى طاعة الفاطميين ، وتول رجاؤها الحكم فى صنهاجة والمغرب الأوسط ، وكانت عاصمتهم القيروان ، انظر معجم الأنساب لزامبارو .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (١) .

في المحرم كان غطاس النصارى^(٢) ؛ فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع من شاطئ النيل ؛ ونُصبت أسيرة للرئيس فهد بن ابراهيم وأوقدت له الشموع والمشاعل ؛ وحضر المغنون والملهون^(٣) ، وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف .
وورد سابق الحاج لثمان خلون منه .

وخلع على أبي الحارث فحل بن إسماعيل بن تميم بن فحل الكتامي ، وقيد بين يديه ، وحمل إليه ، وقُلد صور^(٤)

وخلع على أبي سعيد ، وقُلد الحسبة . وخلع على أبي الحسن يانس الخادم الصقلبي ، وقُلد بسيف ودُفع إليه رمح وحُمل على فرس بمركب ذهب ثقيل ، وحمل إليه خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب ومائة غلام ، وسار لولاية برقة .

وخُلع على خود الصقلبي وقُلد بسيف ، وحمل ، وقيد بين يديه فرس ، وحمل إليه ثياب ، وقُلد الشرطة السفلى . وخلع على قيد الخادم الأسود بشرطة القاهرة^(٥)

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من يناير سنة ٩٩٨ .

(٢) وهو من أعياد النصارى ، ويقع في الحادى عشر من شهر طوبة . ويحتفل به المسلمون والنصارى على السواء ، وكان للاحتفال به أيام الفاطميين أهمية خاصة إذ كان يحضره الخليفة بنفسه ومعه رجال الدولة ، وتوقد فيه المشاعل والشموع ، وتتكاثر فيه أنواع المأكولات والمشروبات . وكان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والتارنج والليمون وأطنان القصب والسك برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام : الخطط : ٢ : ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٣) في الأصل الملهيون ، وهي كذلك في الخطط لنفس المؤلف .

(٤) من ثغور الشام الساحلية ، يصف ياقوت مناعتها فيقول إنها داخلية في البحر مثل الكف على الساعد ، تحيط بها مياه البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع الذي منه شروع بابها ، بينها وبين عكا ستة فراسخ . معجم البلدان : ٥ : ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٥) كانت شرطة مصر منذ زمن الخلفاء الراشدين بالفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر ، أيام العباسيين الأوائل ، أنشئت بها دار أخرى للشرطة عرفت بالشرطة العليا ، ولم تلبث هذه أن انتقلت إلى داخل القاهرة بعد استقرار الفاطميين ، وامتد نشاط شرطة الفسطاط ، الشرطة السفلى ، ليشمل العسكر والقطائع أيضا . صبح الأعشى : ٤ .

ووصلت قافلة الحاج سابع عشر صفر . وسار ميسور الخادم الصقلبي والباعلي طرابلس
وخلع على فائق الخادم الصقلبي وجعل على الأسطول .

وفي سادس عشر ربيع الأول كان نَوْرُوزُ الفرس^(١) ، فأُهدى الأتراك وقوادهم وجماعة
الأولياء إلى الحاكم الخيل والسلاح الكثير ، فقبل يسيراً منه وشكر ذلك لهم ، وردّ الباقي
إليهم .

وفي أول ربيع الآخر قدم سلمان بن قَلّاح وأخوه من الرملة .

وفي سادس عشر كان فصيح النصاري ، فخلع على فهد بن إبراهيم خلعة حُمِلت إلى داره
ومعها بغلتان^(٢) بمركبيهما وألف دينار . وخلع على أبي سعادة أيمن الخادم ، أخى برجوان ،
وقلّد غزّة وعسقلان في سادس جمادى الأولى .

وورد الخبر بفتح صُور . وذلك أن أهل صور ثاروا على مَنْ عندهم من المغاربة وقتلوا
منهم جماعة ، وقتلوا مَنْ بَقِيَ ؛ وغلب على البلد رجل من البجوية يقال له العلاقة وأرسل
إلى الروم^(٣) ، فسَيَّرُوا إليه بمراكب فيها رجال ، فخرج إليهم عسكريه ، وسارت إليها المراكب
من مصر فقاتلوا مَنْ بها من الروم فانهمزوا عنها في مراكبهم ، وبَدَتْ أهلُ البلد فالتَحَّ القتال
عليهم حتى مُلِكَت منهم . وامتنع العلاقة ومعه طائفه في بعض الأبرجة ؛ ثم طلبوا الأمان .
فانتهَبَت المدينة وأخذ منها ما لا يُعرف قدره كثرة في الرابع عشر من جمادى الآخرة . وحمل

(١) النوروز من المواسم الفارسية القديمة التي كان يحتفل بها عند ابتداء فصل الربيع . وقد أبطل المسلمون الاحتفال
به في أيامهم الأولى حتى جاء العباسيون وأعادوه إلى ما كان عليه . وفي مصر كان الاحتفال بالنوروز القبطي من أجل أعياد
الفاطميين يلعبون فيه الألعاب النارية ويطوفون بالأسواق ويوقدون النيران ، وكانت تطلق فيه الأعطيات والهبات على نطاق
واسع من الدنانير والدراهم والكسب والمصائب وأنواع الثياب ، وكذلك من الرمان والبطيخ والبسر والتمر والسفرجل والحناب
والحريرسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر وغيرها . الخطط : ١ : ٤٩٣-٤٩٤ ؛ الفاطميون في مصر : ٢٨٥ .

(٢) في الأصل : ومعها بغلتين .

(٣) على زمن الإمبراطور باسيل الثاني .

العلاقة مُقيّداً ، وسيبقى في جماعة معهم إلى القاهرة فثُهِرُوا ، وقد أُلِيس العلاقة طرطوراً من رصاص له عِظْم وثِقْل على رأسه ، وكاد أن يغوص على رقبتة ؛ ثم قتل وُصِّلَ وقتلت أصحابه^(١) . وفي شعبان ورد الخبر من جَيْشٍ بمواقعة الروم على فامية^(٢) وأنطاكية . وذلك أن جيشاً نزل على دمشق ، ونزل بشاراً إلى طبرية أيضاً ، لأربع خلون من رجب ؛ وكتب إلى بشارة بولاية دمشق فأقر عليها والياً من قبيلة ؛ وسار بعساكره ، هو وجيش ، في رابع عشر إلى فامية وبها الروم . فاشتد القتال بينهم وبين الروم ، فانهزم المسلمون وملك الروم سوادهم . ثم غابوا وعادوا إلى محاربة [١٥٣] الروم ، فواقعوهم ، فانهزم الروم وقتل منهم نحو خمسة آلاف وقتل مُقدّمهم ؛ وذلك لتسبع بقين من رجب . ورجع المهزومون إلى جيش ابن الصمصامة وقد خافود ، فسار بهم إلى نحو مرعش^(٣) ، فأحرقوا ، وهدموا ولم يلقهم أحد ونزل على أنطاكية فقاتل أهلها أياماً ؛ ثم رحل عنها إلى شيزر^(٤) .

وسار بشارة إلى دمشق ، فنزلها لِلنَّصَف من شوال على أنه قد ولي البلد ؛ فأقبل إليه جيش فنزل ظاهر المزة^(٥) ، لسبع بقين من ذي القعدة ، وقد هجم الشتاء ؛ فوافى^(٦) الكتاب

(١) وكان على رأس الجيش الذي سار من مصر لحرب العلاقة أبو عبد الله الحسن بن ناصر الدولة وياقوت الخادم ، وفي الجيش جماعة من عبيد الثراء . وفي القاهرة سلخ جلد العلاقة وهو حي ، وحشي جلده تبناً وصلب . وكان العلاقة قد سلك لقوداً في صور وكتب عليها : « عز بعد فاقة ، وشطارة بلباقة ، للأمير العلاقة » . نهاية الأرب للنويري .
(٢) وبالمهزة أيضاً ، مدينة وكورة من سواحل الشام ، كانت تعد من أعمال حمص . معجم البلدان : ١ : ٢٩٨ ، ٦ : ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) من مدن الثغور التي كانت تحجز بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم في منطقة الشام . بها حصن بناء مروان بن محمد ثم أكل الرشيد بناء المدينة . وهي مدينة حصينة لها سوران وخندق . معجم البلدان : ٨ : ٢٥ - ٢٦ .
(٤) قرب معرة النعمان ، بينها وبين حماة ، وكانت تعد من أعمال حمص ؛ ويمر نهر الأردن بوسطها . معجم البلدان : ٥ : ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ وانظر أيضاً : الاعتبار لأسامة ابن منقذ ؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر ؛ مقدمة كتاب لباب الآداب .

(٥) قرية كبيرة وسط بساين دمشق ، بينها وبين المدينة نحو نصف فرسخ . معجم البلدان : ٨ : ٤٧ . وهي بكسر الميم ثم التشديد .

(٦) رسمت في الأصل : فوافا .

من مصر بعزل بشارة عن دمشق وولايته طبرية ، واستقرار جيش على ولاية دمشق ، فدخلها واستقر بها .

وفي شهر رمضان صلى الحاكم بجامع القاهرة بالناس بعد ما خطب وعليه رداء ، وهو متقلد سيفاً وبيده قضيب ، وزرّ عليه جلال المبة لما خطب : وقال خطبة مختصرة سمعها من قرّب منه . وهي أول جمعة صلاها ؛ ثم صلى جمعة أخرى^(١) ، وصلى^(٢) صلاة عيد الفطر في المصلّى ، وخطب على الرسم المعتاد ، وحضر السباط .

وأحضرت امرأة من الشام في علبة طولها ذراع واحد من غير زيادة ، وافت من خراسان ، ومعها أخ لها في قدّ الرجال ، فأُنزلت بالقصر وأقيم لها ولبن معها الأنزال ، وكانوا عدة ، وقُطع لها في وقت واحد مائة ثوب مثقل وحرير . وكانت مليحة الكلام نظيفة ، ولبشت بضعة وثلاثين يوماً وماتت ، فكانت لها جنازة عظيمة .

وسارت قافلة الحاج في ثالث عشر ذى القعدة بالكسوة والصّلات على العادة . وصلى الحاكم يوم عيد النحر بالمصلّى وخطب .

ووصل خود من قبيل جيش بن الصمصامة في عشرين ذى القعدة ومعه عدة أسارى ورغوس كثيرة ، فطيف بهم في البلد ، ثم عُني عن الأسرى وأطلقوا .

(١) جاء في النجوم الزاهرة ، نقلاً عن ابن عبد الظاهر ، بشأن خطبة الجمعة أنه كان من عادة الخليفة أن « يخطب في شهر رمضان ثلاث خطب ، ويستريح فيه جمعة ، وكانوا يسمونها جمعة الراحة » . ولصلاة الجمعة وخطبتها مراسم خاصة تجد تفصيلها في النجوم الزاهرة : ٤ : ١٠٢ - ١٠٤ . وعن صلاة الجمعة انظر أيضاً : الخطط : ٢ : ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٢) في الأصل : وصلا .

سنة ثمان وثمانين وثلثمائة (١)

في حادى عشر المحرم ورد سابق الحاج فأخبر أن عدن احترقت كلها وتلف فيها من المال مالا يعرف له قيمة لكثرتة .

وفي ليلة الرابع [من صفر^(٢)] مات قاضى القضاة محمد بن النعمان فركب الحاكم وصلى عليه . وله من العمر تسع وأربعون سنة إلا يوما ؛ ومولده لثلاث خلون من صفر سنة أربعين وثلثمائة ؛ وكانت مدّة ولايته القضاء بمصر وأعمالها أربع عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام . ودُفن بداره ثم نقل إلى القرافة ؛ وقيدت دوابه إلى الاصطبل . وترك عليه ديناً للأيتام وغيرهم عشرين ألف دينار ، وقيل ستّة وثلاثين ألف دينار ؛ فبعث برجوان كاتبه أبا العلاء [فهد بن ابراهيم] فختم على جميع ما ترك القاضى ، ولم يمكن ورثته من شئ ، وباع ذلك كله . وطالب الأمناء والعدول بأموال اليتامى المتبقية عليهم في ديوان القضاء ، فزعموا أن القاضى قبضها ، وأقام بعضهم بيّنة على ذلك وعجز بعضهم ، فأغرم من لم يُقم بيّنة ما ثبت عليه . فاجتمع من البيع والأمناء ثمانية عشر ألف دينار ، أخذها الغرماء بحق النصف مما لهم . وأمر الحاكم ألاّ يُودّع عند عدل ولا أمين شئ من أموال اليتامى ، وأن يكثرُوا مخزنا في زقاق القناديل^(٣) وتودع فيه أموال اليتامى ، فإذا أرادوا دفع أموال اليتامى حضر أربعة من ثقات القاضى ، وجاء كل أمين فأطلق لمن يلى عليه رزقه بعد مشورة القاضى في ذلك ، فكتب على الأمين وثيقة بما يقبضه من المال لمن يلى عليه .

ورجم في ولايته رجلا زنى في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة . وكان أكثر أ أيامه

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ٩٩٨ .

(٢) ما بين الحاصرتين غير موجود بالأصل ، وقد زيد استعانة بما سيجى بعد كلمتات .

(٣) كان زقاق القناديل من الدروب الشهيرة التي سكنها الأعيان بمدينة الفسطاط زمن انتعاشها ، وقد زال بزوالها . ومكانه اليوم أرض فضاء مجاورة لجامع عمرو بن العاص من جهة الشرق .

عليلا بالنقرس والقولنج^(١) ، وكان برجوان ، على كلالته يعود له إذا مرض فمّن دونه .
 وكان يكاتب بقاضى القضاة . وعلت منزلته حتّى جاز حد القضاة ، وكانت النعمة تليق به ؛
 وعمّ إحسانه سائر أصحابه وأتباعه . وكان حسن الخلق ، نديّ الوجه ، فاخر الزّى يلبس
 الدّراعة والعمامة بغير طيلسان^(٢) ، كثير الاستعمال للطّيب والبخور فى مجلسه ؛ وإن أعطى
 أعطى كثيرا وافرا .

ولما مرض رأى كأن الحق تعالى نزل من السماء ، فلما بلغ باب داره مات ؛ فقال له
 ابن قديد عابر الرؤيا موت الحق لإبطاله ، والله هو الحق ، ولا يزال الحق حيّا حتّى يصير
 إلى بابك فيموت ، فمات هو بعد ذلك بقليل .

ومن شعره [٥٣ ب] :

أيا مُشبهَ البدر بدر السماء	لسبعٍ وخمسٍ مضت واثنيتين
ويا كامل الحسن فى نعتِه	شغلت فؤادى وأنهرت عيني
فهل لي من مطّمع أرّجيه	ولإلا انصرفتُ بخفىّ حنين
ويشمت بي شامت فى هواك	(٣) صفر اليديين
فإمّا مننت وإمّا قتلت	فأنت القديرُ على الحاليتين

ومنه :

تأمل لذي الدنيا، تجدها مشوبة	سرورا بحزن فى تقلّب أحوال
وقد قُسمت أشياءها بين أهلها	فمالٌ يلا أمني، وأمنٌ يلا مال

(١) مرض يصيب المي ، وقد يؤدى إلى انسدادها فترة ، ويعسر مع هذا المرض خروج الثقل والريح . القاموس المحيط .

(٢) الطيلسان ، مثلثة اللام ، والطيلس والطالسان : لباس يختص به العلماء - عادة - وهو خال من التفصيل والحيطة . لسان العرب .

(٣) بياض فى الأصل لم أحتد إلى ما يكمله .

وأقامت البلد بعد موته تسع عشرة ليلة بغير قاض .

وفى ثالث عشر منه استدعى برجوان أبا عبد الله الحسين بن علي ، ابن النعمان ، إلى حضرة الحاكم بأمر الله ، وأضعف له أرزاق عمّه وصِلَاتِهِ وإقطاعاته ، وقال له : قد أرحمت عليك ، فلا تُوجد لي سبيلا إليك بتعرّضك لدرهم من أموال المسلمين فقد أغْنَيْتُكَ عنها . ثم خلع عليه ثيابا بيضا ورداء محشّى مذهبا وعمامة مذهبة ، وقلّده سيفا وحمله على بغلة ، وقاد بين يديه بغلتين بسروجهما ولُجُمهما ، وحمل معه ثيابا كثيرة صحاحا ؛ وردّ إليه القضاء بمصر وأعمالها ؛ ولم يَظُنْ ذلك أحد لضعف حاله - وكان الناس يتخيلون ولاية عبد العزيز بن محمد بن النعمان بعد أبيه لأنّه كان يحلّف أباه - فنزل إلى الجامع العتيق ، وقرئ سجلّه على منبره . فنظر بين الناس ، وأوقف شهادة جماعة من الشهود ، وندب أربعة لكشف أحوال الشهود ؛ وألزم وُلاة أمور الأيتام برفع حسابهم . وطالب عبد العزيز بن النعمان بما على أبيه من أموال الأيتام . وجعل موضعا بزقاق القناديل يكون مودعا لأموال الأيتام ، وجعل خمسة من الشهود يضبطون ما يرد إليه وما يخرج منه بحُجَجٍ يكتب فيها خطوطهم ؛ فاستُحْسِن ذلك من فعله . وهو أول من اتخذ مودعا للأيتام من القضاة .

واستخلف بمصر أبا عبد الله الحسين بن محمد بن طاهر ، وبالقاهرة أبا الحسن مالك ابن سعيد الفارقي ؛ وعلى العَرَض والنظر بين المتحاكمين ، إذا غاب ، الحسن بن طاهر وأبا العباس أحمد بن محمد بن عبّيد الله بن العوام . واستكتب أبا طاهر زيد بن أحمد بن السندی وأبا القاسم عليّ بن عبد الرزاق ؛ وجعل إلى أخيه أبي النعمان المنذر بن علي النظر في العيار^(١) ودار الضرب^(٢) . واستخلف على الإسكندرية وأعمالها .

(١) هي المؤسسة المختصة بمعايرة الموازين والمكاييل وضبطها ، ومن حضر من الرعية إلى المستخدمين بها ورغب في ابتاع شيء منها باعوه . وإذا وجدوا سبجة زائدة أو ناقصة استهلكوها . قوانين الدواوين : ٣٣٣ - ٣٣٤ ؛ الخطط : ١ : ٤٦٣ .
(٢) فيها يسبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف حتى يصير ماء واحدا جاريا ، يقلب قضباننا تقطع من أطرافها بمباشرة النائب في الحكم (المدير المشول) وتصير سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من جلتها أربعة مثاقيل ، ويضاف إليها من الذهب الحار =

وقوى أمره ، وتشدد في الأحكام ، وقبل شهادة من أوقف شهادته وعزل آخرين ، واتخذ حاجبا. وتولى أمر الدعوة وقراءة ما يُقرأ في القصر من مجالس الدعوة وكتبها ؛ وعلت منزلته. وفي خامس عشرى صفر وصل حاج البيت . وصلى الحاكم في رمضان بالناس جمعتين ؛ وخطب وصلى صلاة عيد الفطر ، وخطب ، وأصعد القاضي معه في جماعة ، وجلس على السباط .

وسارت قافلة الحاج أول دى القعدة بالكسوة والصّلات على العادة . وصلى الحاكم صلاة عيد النحر وخطب على الرسم ؛ وأجرى الناس في أصحابهم على عوائدهم . وعمل عيد الغدير على العادة ، وطاف الناس بالقصر على رسمهم .

= المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات . وتجمع الورقات الثانی في قلع فخار ، بعد تحرير وزنها ، ويوقد عليها الأتون ليلة ، ثم يعبر الفرع على الأصل ثم يضرب دنانير . ويعمل بالفضة ما يشبه ذلك . توانين الدواوين ؛ ٣٣١ - ٣٣٣ ؛ الخطط : ١ : ٤٤٥ .

سنة تسعين وثلاثمائة (١)

في أول يوم من المحرم ظهر الحاكم ودخل الناس فهنئوه بالعام .

كان سعر الخبز ستة عشر رطلاً بدرهم . وسقط لإصطبل فهد بن ابراهيم فمات له نحو ستين بغلة .

وفي حادى عشر صفر وصلت قافلة الحاج من غير أن يدخلوا إلى المدينة النبوية .

وفي سادس عشر من ربيع الآخر^(٢) أنهد الحاكم إلى برجوان عشية يستدعيه للركوب معه إلى المقدس^(٣) ، فجاء بعد بطاء وقد ضاق الوقت إلى القصر ، ودخل بالموكب ورؤساء الدولة والكتاب إلى الباب الذى يخرج منه الحاكم إلى المقدس ، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم وهو يصيح : قُتل مولاي ، وكان عقيق عيناً لبرجوان في القصر وقد جعله على خزاناته الخاصة . فاضطرب الناس وبأذروا إلى باب القصر الكبير فوقفوا عنده ، وأشرف عليهم الحاكم . وقام زيدان ، صاحب المظلة ، فصاح بهم : من كان في الطاعة فليتنصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور ، فأنصرف الجميع . وكان قتل برجوان في بستان يعرف بدويرة التين [١٥٤] والعتاب كان الحاكم فيه مع زيدان فجاء برجوان ووقف مع زيدان . فسار الحاكم حتى خرج من باب الدويرة ، فعاجل زيدان وضرب برجوان بسكين كانت في خُفّه ،

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من ديسمبر سنة ٩٩٩ .

(٢) في نهاية الأرب للنويرى يحدد التاريخ بأنه الثالث عشر من ربيع الآخر .

(٣) ميناء القاهرة في زمن الفاطميين ومكانها قرب موقع حديقة الأزبكية . وقد انحسر النيل عنها في أواخر زمن الدولة الفاطمية فأصبحت بولاق ميناءها زمن الأيوبيين . المخطوط : ٢ .

وابتَدَرَه قوم ، وقد أعدوا له السكاكين والخناجر ، فقتل مكانه ، وحُزَّتْ رأسه وطُرح عليه حائط ^(١) .

وسبب ذلك أن برجوان لما بلغ النهاية قصر في الخدمة ، واستقلّ بلذاته وأقبل على سماع الغناء ، وكان كثير الطرب شديد الشغف به ، فكان يجمع المغنيين من الرجال والنساء بداره فيكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضي صدرُّ من النهار ويتكامل الناس على بابه ، فيركب إلى القصر ، ولا يمضي إلا ما يختار من غير مشاورة ، فلما استبد بالأمر تجرّد الحاكم للنظر .

وكان برجوان من استبداده يُكثر من الدّالة على الحاكم ، فحقّد عليه أموراً ، منها أنه ^٢ قال بعد قتله إنه كان سيِّئ الأدب جداً ، والله إنني لأذكر وقد استدعيته يوماً ونحن رُكبان فصار إلى ورجله على عنق دابّته وبطن خُفّه قبالة وجهي ، فشاغلته بالحديث ولم أره فكرة في ذلك . وغير ذلك مما يطول شرحه .

وأنهد الحاكم بعد قتل برجوان فأحضر كاتبه فهد بن ابراهيم في الليل وأمنّه ، وقال : أنت كاتبى وصاحبك عبدى ، وهو كان الواسطة بينى وبينك ، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه فجازيته عليها بما استوجبه ، فكن أنت على رَسْمِكَ في كتابتك آمناً على نفسك ومالك .

فكانت مدة نظر برجوان سنتين وثمانية أشهر غير يوم واحد . وبرجوان بفتح الباء الموحّدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون .

(١) يذكر النورى صاحب نهاية الأرب أن زيدان الصقل ، خادم الحاكم بأمر الله ، دس له عند الحاكم وكان من جملة ما قاله له : « إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الاخشيدى في أولاد سيده » . ويضيف النورى أنه كان في جملة ما وجد لبرجوان بعد مصرعه ألف صرّال ديبقى بألف تكة حرير ، وعلق على ذلك بقوله : « وناهيك بموجود يكون هذا من جلته . والبستان المذكور الذى قتل فيه برجوان هو بستان اللؤلؤ وبه قصر اللؤلؤ من مباني الفاطميين ويطل على الخليج ويشرف من شرفه على البستان الكافورى ومن غربه على الخليج . الخطط : ١ : ٤٦٧ ، ٤٨٧ ، ٢ : ٢٧ .

وبكر الناس إلى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر القائد وحده إلى القصر وأذن للناس ، فدخلوا إلى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرسٍ أشقر ، فوقف في صحن القصر قائماً ، وزيدان عن يمينه وأبو القاسم الفارق عن يساره ، والناس قيام بين يديه ، فقال لهم بنفسه من غير واسطة : إن برجوان عبدى ، استخدمته فنصح فأحسننت إليه ، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته ، والآن فأنتم شيوخ دولتى - وأشار إلى كتامة - وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم . والتفت إلى الأتراك وقال لهم : أنتم تربية العزيز بالله و [فى] مقام الأولاد ، وما لكل أحد عندى إلا ما يؤثره ويحبّه ، فكونوا على رسومكم ، وامضوا إلى منازلكم ، وخذلوا على أيدي سفهائكم . فدعوا جميعاً وقبلوا الأرض ، وانصرفوا .

وأمر بكتابة سجل أنشأه أبو منصور بن سُوَين كاتب الإنشاء ، قُرئ بسائر الجوامع فى مصر والقاهرة والجزيرة^(١) ، نصّه بعد البسملة :

« من عبد الله وولّيه ، المنصور أبى على ، الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين ، إلى سائر من شهد الصلاة الجامعة فى مساجد القاهرة المعزّية ومصر والجزيرة : سلامٌ عليكم معاشر المسلمين المصلّين فى يرمنا هذا فى الجوامع ، وسائر الناس كافة أجمعين ، فإن أمير المؤمنين بحمد إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جدّه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطاهرين . أما بعد ، فالحمد لله الذى قال ، وقوله الحق المبين : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا

(١) المراد بها جزيرة الروضة . وقد عرفت فى أوائل العصر الإسلامى باسم الجزيرة لوقوعها فى مجرى النيل ، وجزيرة مصر وجزيرة الفسطاط لوقوعها مقابل مدينة الفسطاط التى تطورت ونمت حتى عرفت باسم مدينة مصر . وعرفت كذلك باسم جزيرة المقياس حيث يوجد بها مقياس النيل الذى أنشأه أسامة بن يزيد التنوخى عامل الخراج زمن سليمان بن عبد الملك . وأصبحت تعرف أيضاً بجزيرة الحصن منذ بنى ابن طولون حصنه بها سنة ٢٦٣ . ثم عرفت باسم جزيرة الروضة بعد أن أنشأ بها الأنفل بن بدر الجمال بستاناً سماه الروضة ، سنة ٤٩٠ . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٧٢ حاشية : ٢ .

يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ .^(١) يحمد أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته ، وجعل إليه فيها دون بريته من الضبط والقبض ، والإبرام والنقص . معاشر الناس ، إن برجوان كان فيما مضى عبداً ناصحاً ، أَرْضَى أمير المؤمنين حيناً ، فاستخدمه كما يشاء فيما يشاء ، وفعل به ما شاء كما سبق في العلوم وجاز عليه في المختوم . قال الله عز وجل : «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ»^(٢) ولقد كان أمير المؤمنين ملكه ، فلما أساء ألبسه النقم ، لقول الله تعالى : «فَلَمَّا آسَفُونَا [٥٤ ب] انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ»^(٣) وقوله عز وجل : «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ»^(٤) ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . فحضره أمير المؤمنين عما صبا إليه ، ونزعه ما كان فيه ، وتمت مشيئة الله عز وجل ، ونفذ قضاؤه وتقديره فيه . «وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا»^(٥) . فَأَقْبَلُوا معاشر التجار والرعية على معايشكم واشتغلوا بأشغالكم ، فهو أعوذ لسانكم ، ولا تَطْغَوْا في أمر أنفسكم ، فلأمير المؤمنين الرأي فيه وفيكم . فمن كانت له منكم مطالبة أو حاجة فليَمْنُصْ إلى أمير المؤمنين بها ، فإنه مباشر ذلك لكم بنفسه ، وبابه مفتوح بينكم وبينه . وَاللَّهُ «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»^(٦) . وأنتم رعايا أمير المؤمنين المفتحة لها أبواب عدله وإحسانه وفضله . والله يريد فيها يريده ويعتمده من الخير لمن أطاعه من الأنعام ، والحماية لحمى الإسلام ، «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»^(٧) . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم الجمعة لثلاث بقين من

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) سورة الشورى : ٢٧ .

(٣) سورة الزخرف : ٥٥ .

(٤) سورة الملق : ٦ - ٧ .

(٥) سورة الإسراء : ٥٨ - مع إسقاط واو العطف .

(٦) سورة البقرة : ١٠٥ في الأصل : والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ثم شطبت الجملة الأخيرة وأضيف في مكانها : «والله واسع عليم» . وليس في كتاب الله آية بهذا النص فالمدول عن : «والله ذو الفضل العظيم» خطأ وتبدأ الآية كذلك : يختص برحمته . .

(٧) سورة هود : آية ٨٨ : «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» . وسورة الشورى : آية : ١٠ : «ذلكم الله رب عليه توكلت وإليه أنيب» .

شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة . وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطيّبين الأتقياء
وسلم تسليماً .

وكتبته سجلات على نسخة واحدة ، وأنفذت إلى سائر النواحي والأعمال .

ولثلاث خلون من جمادى الأولى خلّع على القائد الحسين بن جوهر ثوب ديباج أحمر ،
ومنديل أزرق مذهب ، وتقلد سيفاً عليه ذهب ، وحمل على فرس بسرج ولجام ذهب ،
وبين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها ، وخمسون ثوباً من كل فن . وردّ إليه الحاكم التوقيعات
والنظر في أمور الناس وتدبير المملكة وإنصاف المظلوم . وخلّع على فهد بن إبراهيم ، وحمل
على بغلة وبين يديه بغلة أخرى وعشرون ثوباً . فانصرف القائد ، وخلقه فهد وسائر الناس
بين يديه ، إلى داره . وتقدّم إلى فهد بالتوقيعات في رقاع الرافعين على رسمه ، وأن يعاضد
القائد حسينا في النظر ويعاونه ويخلفه إذا غاب . فكان القائد يبكر إلى القصر ومعه الرئيس
فهد ، فينظران في أمور الناس وينهيان الأمور إلى الحاكم ، والقائد متقدم وفهد يتبعه ،
فإذا دخلا إلى حضرة الحاكم جلس القائد وقام فهد خلفه فيعرضان الكتب والرقاع عليه .
وأمر القائد ألاّ يلقاه أحد من الناس على طريق ولا يركب إليه إلى داره أحد لقضاء حق
ولا سؤال في مصلحة ، ومن كان له حاجة يلقاه في القصر^(١) . ونهى الناس أن يخاطبوه في
الرقاع التي تكتب إليه بسيدنا ومولانا ، ولا يخاطبونه ويكاتبونه إلاّ بالقائد فقط ، ولا يخاطب
فهد ويكاتب إلاّ بالرئيس فقط .

وحمل فهد إلى الحاكم هدية ، منها ثلاثون بغلة بألوان من الأجلّة ، وعشرون فرساً منها
عشرة مسرجة ملجمة وعشرة بجلال ملونة ، وعشرون ألف دينار ، وسفط فيه حلة دبيقية^(٢)
مذهبة لم يرمثلها ، ودرج فيه جوهر ، وأسفاط كثيرة فيها البزّ الرفيع ، وخزانة مدهونة .

(١) في الأصل : فيلقاه .

(٢) نسبة إلى مدينة دبيق التي اشتهرت بصناعة الملابس الحريرية المزركشة ، وقد زالت . وكانت من أعمال الدقهلية
عند بحيرة المنزلة .

وأمر أبو جعفر محمد بن حسين بن مهذب ، صاحب بيت المال ، بإحضار تركة برجوان فوجد فيها مائة منديل شرب ملونة معمرة كلها على مائة شاشية^(١) ، وألف سروال دبيق بألف تكّة حرير أرمني ، ومن الثياب المخيطة والصّحاح والحلى والمصاغ والطيب والفُرُش مالا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، ومائة وخمسون فرسا لركابه ، وخمسون بغلة ، وثلثمائة رأس من بغال النقل ودواب الغلمان ، ومائة وخمسون سرجا منها عشرون من ذهب ، ومن الكتب شئ كثير .

لما ركب القائد حسين رأى جماعة من قواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه فوقف وقال : كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومما ليكه ، وليس والله أبرح من موضعي أو تنصرفوا عني ، ولا يلقاني أحد إلا في القصر . فانصرفوا . وأقام خدما من الصقالبة بنُوبٍ على الطريق يمنعون الناس من المصير إلى داره ومن لقائه إلا في القصر ، وجلس في موضع رسم له بالجلوس فيه .

وتقدم حسين بن جوهر إلى أبي الفتح مسعود الصقلبي صاحب الستر بأن يوصل الناس [١٥٥] بأشرهم إلى الحاكم ولا يمنع أحدا ، وأن يعرف رسم كل من يحضر ومن يجلس للتوقيع إذا وقع له . فدخل الناس ليأخذ رقاعهم وقصصهم ، ووقع فيها ، والحاكم في مكانه جالس يدخل إليه أرباب الحوائج ويشاور في الأمور المهمة .

ووصل إلى الحاكم جماعة ممن كان يدخل في الليل إلى العزيز ، وأمروا بملازمة القصر وقت جلوسه ودوام الجلوس بالعشايا ، فدخل أول ليلة ، وهي ليلة الأربعاء سابع جمادى الأولى ، القائد حسين والقائد فضل بن صالح والحسين بن الحسن البازيار . فجلس حسين بن جوهر من اليمين ، وإلى جانبه فضل بن صالح ودونه ابن البازيار ، وبعده أبو الحسن على بن

(١) مايليس على الرأس دون عمامة .

إبراهيم المرسى ، ويليهِ القاضى عبد العزيز بن محمد بن التَّعمان ؛ وجلس من اليسار رجاء ومسعود ابنا أبي الحسين ، ودونهما أبو الفتح منصور بن معشر الطبيب ، وأبو الحسين بن المغربي الكاتب وأخوه . ووقف عنده [عِدَّة] ^(١) من الأقارب وجماعة من القواد ، منهم مَنْجُوتكين وغيره ، ثم دخل بعد ذلك جماعة منهم ابن طاهر الوزان . فجرى الرسم على ذلك إلى اثني عشر جمادى الآخرة . ثم صار السلام يخرج فينصرفون إلَّا ابن البازيار وابن معشر الطبيب وعبد الأعلى بن هاشم من القرابة ، فإنهم يجلسون فربَّما أطالوا الجلوس وربما خدموا .

وركب الحاكم عِدَّة مرار إلى ناحية سردوس ^(٢) وإلى بركة الجب وإلى عين شمس وحلوان للصيد وغيره . وفى سابع عشرى جمادى الآخرة قرئ سجل على سائر منابر المساجد الجامعة بأن يلتب القائد حسين بن جوهر بقائد القواد . وخُلع على جابر بن منصور الجودرى جِيَّةٌ مثقلة ومنديل بذهب ، وخُويل بين يديه ثياب كثيرة وقُلْد بسيف ، وندب ناظرا فى السواحل ^(٣) والحسبة بمصر .

وأما الشام فإن جيش بن الصمصامة لما استقر بدمشق ، وقد خرب البلد وضعف وقلَّ ناسُه وطمعت رعيته ، فكان فيهم جهال يأخذون الخِفارة ويَطْمَعون فى أموال أهل السَّلامة ، فصارت لهم أموالٌ وخيول ومشى بين أيديهم الرجال ، وقويت نفوسهم ، وصاروا يوالون خروجهم مع جيشٍ فى وقائع الروم ، فوعدهم جيش بالأرزاق فاطمأنوا إليه . ثم إنه رتب جماعة وقبض على المذكورين وقيدهم ، وأمرَ بهم فحبسوا ، وأفاض عليهم العذاب حتى سلبهم

(١) زيد ما بين الحاصرتين لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

(٢) فى المخطوط للمقرئ وفى معجم البلدان وقوانين الدواوين أحاديث عن خليج سردوس يفهم منها أنه كان من الحوف الشرقى ، أى من منطقة القليوبية وأطراف الشرقية الحاليين ، ولا شئٌ غير هذا .

(٣) لمصر والقاهرة أكثر من ساحل أقدمها ساحل الجزيرة (جزيرة الروضة) ، ثم ساحل مصر على الجانب الشرقى ، ثم ساحل المقس الفاطمى الذى كان فى موقع ميدان رمسيس حاليا .

جميع أمهاتهم ، وتتبع من استتر منهم فضرب أعناقهم وصلبهم على أبواب البلد فلم يبق منهم أحد .

فلما خلا له البلد من حُمّال السلاح طمع في أهل القرى ، فعم كثيرا من الناس البلاد منه ، وشمل أهل المدينة والقرى ضرره ، حتى غلق أكثر الأسواق ، وضح الناس إلى الله بالدعاء وهو يعدّهم بحريق البلد وبذل السيف فيهم ، فهرب كثير من الناس عن البلد .

ووصل الخبر بقدم عسكر الروم ، فأخذ جيش في جمع العرب ، ونزل ملك الروم على شيزر وفيها عسكر من قبيل الحاكم ، فقاتلهم حتى ملكهم بآمان . ونزلت العرب الذين جمعهم جيش فيما بين حرستا^(١) والقابول^(٢) ، وانتقل الروم من شيزر إلى حمص فأخذوها وسبوا أهلها وأحرقوا ، وذلك في ذى الحجة سنة تسع وثمانين ، وهي دخلة الروم الثالثة إلى حمص ، فأقاموا بها وقد اشتد البرد وغلت عليهم الأسعار حتى بيعت العليقة عندهم بدينار فرحلوا ، وقد مات أكثر دوابهم ، إلى طرابلس ، فنزلوا عليها وهم في ضيق ، ثم رحلوا عنها إلى ميافارقين^(٣) وآمد^(٤) ، وهادنوهم . ثم ساروا إلى أرمينية .

وزاد جور جيش وأسرف في الظلم ، وكان به طرف جذام فاشتد به ، وسقط شعر بدنه ، ورشح جسمه واسود حتى انمحت سيحة وجهه وزاد وأروح سائر بدنه ، فكان يصيح :

(١) قرية كبيرة وسط بساتين دمشق ، بينها وبين المدينة أكثر من فرسخ . وهناك قرية أخرى من بساتين دمشق تعرف باسم حرستا المنطرة . معجم البلدان : ٣ : ٢٥١ .

(٢) هي القابول التي يذكر ياقوت أنها تبعد عن مدينة دمشق ميلا واحدا في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين . معجم البلدان : ٧ : ٤ .

(٣) أشهر مدينة بإقليم ديار بكر بأرض الجزيرة العراقية ، وكانت أصلا من الحصون الرومية ، ثم صار لها وإقليم ديار بكر أهمية خاصة في بعض عصور التاريخ الإسلامي كما في أيام الأسرة الأرتقية بين سنتي ٤٩٥ - ٦٢٩ في منطقة حصن كيفا . معجم البلدان : ٨ : ٢١٤ - ٢١٨ .

(٤) أجل مدن ديار بكر وأعظمها تحصينا ، تحيط بها مياه دجلة كالحلال ، وبها عيون قريبة يتناول ماؤها باليد . معجم البلدان : ١ : ٦١ - ٦٣ .

وَيُحَكِّمُ ۱ اِقتلوني ، اُريحوني ۱۱ إلى أن هلك يوم الأحد لسبع خلون من ربيع الآخر . فكان مقامه بدمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما^(١) . ووصل ابنه أبو عبد الله بتركته إلى القاهرة فخلع عليه الحاكم وحمله . ورفع زيدان إلى الحاكم دَرْجًا بخَطِّ جيش وفيه وصية وثبت بما خَلَفَ مفصلاً مشروحاً ، وأنَّ ذلك جميعه للأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله [٥٥ ب] لا يستحق أحد من أولاده منه درهما ؛ وكان ذلك يبلغ نحو مائتي ألف دينار ، ما بين عين ورخل ومتاع . وقد قال فيه جيش : لو زَيْدَان يتسلم ذلك فإنه على بغالٍ تحت القصر بظاهر القاهرة . فأخذ الحاكم الدَّرَجَ وأوصله لِابْنَيْ جيش ، وخلع عليهما ، وقال لهما بحضرة أولياء الدولة ووجوهها : قد وقفت على وصية أبيكما ، رحمه الله ، من عين ومتاع فيما وصى به ، فخلوه هنيئًا مباركًا لكما فيه . فانصَرَفَا بجميع التركة .

وأقطعت سيدة الملك على عبدة^(٢) سنة تسع وثمانين الخراجية إقطاعا مبلغه مائة ألف دينار ، منها ضياع في الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفاً وأربعمائة وخمسون ديناراً ؛ منها بوئيج^(٣) ستة آلاف وسبعمائة وخمسون ديناراً ، وصهرشت^(٤) سبعة عشر ألف دينار ، ودمنهور خمسة آلاف دينار ؛ وباقي ذلك ، وهو أحد وثلاثون ألف دينار وخمسمائة وخمسون ديناراً ، من دُور وبساتين ورسوم .

(١) يقول ابن القلانسي : « وكان سبب هلاكه ناسور خرج في سفله ، ولم يزل يستغيث من الألم ويتنوى الموت ويطلب أن يقتل نفسه فلا يتمكن ولا يمكن » . ذيل تاريخ دمشق : ٥٤ .
(٢) أي خراج السنة . يقال عبر المتاع والدرهم يعبرها : نظر كم وزنها وما هي . لسان العرب . انظر أيضا قوانين الدواوين : ٢٢١ ، ٤٥٧ .
(٣) من أعمال إقليم السيوطية ، وهي الآن أبو تيج .

(٤) لعلها صهرجت الحالية وهي اثنتان صهرجت الكبرى وصهرجت الصغرى ؛ والأولى بمركز ميت غمر على الشاطئ الشرقي لبرعة الساحل وفي الجنوب الشرقي لمنية العز بنحو أربعة كيلو مترات ، والثانية بمركز منية سمند في الجنوب الشرقي لناحية بشلا بنحو ألف قصبة وفي الشمال الشرقي لناحية فيشة بنا بنحو ثلثائة قصبة . قوانين الدواوين ، الحطط التوفيقية : ١٣ : ٢٧ .

وأما المغرب فإن الأستاذ برجوان لما ولى تدبير الدولة ثقل عليه أبو الحسن يانس الصقلي المزيزي^(١)، فإنه كان يتنافس في الرئاسة ، فتحيل حتى أخرجه إلى برقة كما تقدم ، فتوالت كتب تموصلت بن بكار^(٢) يسأله أن يأتيه أحد ليسلمه مدينة أطرابلس ، وتقدم إلى الحضرة . فقصد برجوان إبعاد يانس ، فكتب إليه حتى سار إليها وقدم إليها للنصف من جمادى الأولى سنة سبعين ، فسلمه تموصلت البلد ومضى إلى القاهرة وقد تأخر أكثر عسكره مع يانس ، فاختلفوا مع أصحابه حتى اقتتلوا وخرجوا أقبح خروج إلى إفريقية ، وشكوا ما نزل بهم إلى نصير الدولة أبي مناد باديس^(٣). فبعث القائد جعفر بن حبيب على عسكر، فقاتل يانس ، فقتل في رابع ذى القعدة . وبادر فتوح بن علي بن عقيان من أصحاب يانس إلى أطرابلس ، فدخلها، وانضم إليه بقية أصحابه وقاتل بها جعفر بن حبيب سنة إحدى وتسعين ، واستمد الحاكم ، فأمدّه ببيحي بن علي بن الأندلسي على عسكر ، فاختلف عليه أصحابه وعاد أقبح عود إلى القاهرة . فأراد الحاكم قتله ، فأظهر كتاب زيدان صاحب المظلة بخطه أن يدفع إليه المال من برقة ، وأنه قبض ذلك من مال الحضرة ، فلم يجد ببرقة مالا ينفقه على العساكر ، فقبل هذا العذر وقتل زيدان على ما فعل .

وكان مع يحيى بن علي عند خروجه من المغرب جماعة من بنى قرّة ، فكسروا عسكره ورجعوا إلى موضعهم ؛ فبعث الحاكم يستدعيهم إلى القاهرة ، فخافوا وامتنعوا ، فأعرض عنهم مدة ثم كتب إليهم أمانا ، فبعثوا رهائن منهم ، فأمرهم بالوصول إلى الإسكندرية ليقفوا على ما يأمرهم به ، فحذر أكثرهم ، وقدمت طائفة إلى الإسكندرية فقتلوا وحملت

(١) خصي من خدام العزيز بالله ، أنابه في الإشراف على القصور الفاطمية ، فلما توفي أقره الحاكم بأمر الله على ولايته وخلع عليه ، حتى نقل بعد ذلك إلى ولاية برقة . وإليه تنسب طائفة العسكر اليانسية الذين عرفت حارة اليانسية بهم . المخطوط : ١٦ : ٢ .

(٢) هو تموصلت بن بكار ، وكنيته أبو محمد ، الأسود الحاكى . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠٧ .

(٣) انظر معجم الأنساب لزيباور : ١٠٩ .

رءوسهم إلى القاهرة ، وقتل من كان بها من رهائنهم ؛ فنفرت عنه بنو قرّة ، وكان منهم ما يأتى ذكره من قيامهم مع أبي ركوّة .

وفى ثالث رجب خلع على أبي القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ونزل إلى الجامع العتيق وبين يديه ثيابٌ صَحَّاح ، وحمل على بغلتين مُسْرَجَتَيْن مُلْجَمَتَيْن ؛ وقرئ له سجل بالنظر في المظالم وسماع البينة فيها .

وَحُمِلَ رَحْلُ بَرَجْوَانٍ إِلَى الْقَصْرِ عَلَى ثَمَانِينَ حِمَارًا . وقرئ سجلٌ بالقصر نصه بعد البسطة : « معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين : إن الله - وله الكبرياء والعظمة - أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكانبة لغير الحضرة المقدسة بسيدنا أو مولانا فقد أحلَّ أمير المؤمنين دمه . فليُبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله » .

وأفطر في رمضان مع الحاكم جماعة رُتّبوا عن يمينه ويساره ؛ وصلى فيه جمعيتين بالناس ، وركب لفتح الخليج .

ووصل تموصلت بن بكار الأسود ، عبد ابن زيري^(١) ، وكان قد ولّاه طرابلس المغرب ، فجارَ على أهلها وأخذ منها مالا كثيرا وفرّ خوفا من مولاه ؛ فسار من طرابلس المغرب ، ومعه نيف وستون ولداً ما بين ذكر وأنثى ، في عسكر كبير ، بعد أن مرّ ببرقة ، ودفع ليانس [١٥٦] العزيزى متوليها ثلاثين ألف دينار لخاصّة نفقته ، وأنفق في عسكره ورجاله مالا كثيرا ، وسلّم إليه مخازن فيها العسل والسمن والقمح والشعير والزيت وغيره . فجلس له الحاكم وأجلسه ، فكان من كلامه للحاكم : قد وصلت إلى حضرة مولانا بالأهل والمال

(١) أبو مناد بن باديس ، ناصر الدولة ، من أسرة زيري التي حكمت لإفريقية والمغرب الأوسط في ظل الفاطميين ، ثم استقلالا عنهم . معجم الأنساب .

والولد ومعى ما يكفينى ويكفى عقبى عقبى ؛ ولكنّ الرجال الذين معى رجال مولانا ، وهو يحسن إليهم على ما يراه .

وأهدى إلى الحاكم مائة ألف دينار ومائة ألف درهم ، ونيفا وخمسين حملا من البزّ والظرف ، وثمانين فرسا منها أربعون بسرّجها ولُجُمها ؛ وأربعين بغلا ، وخمسين بُخْتِيَا^(١) بأكوارها^(٢) ، ومائتى جمل . فخلع عليه وعلى من حضر من أولاده ، وسار إلى دارٍ قد أُعِدَّتْ له فيها خمس وثلاثون حجرة ، فى كل حجرة آلاتها وفرشها ، فبلغت النفقة على هذه الدار خمسة آلاف دينار .

وفى يوم عيد الفطر صلّى الحاكم بالناس بالمصلّى ، وخطب على رسمه ، وأصعد ابن النعمان وعدة من القواد معه المنبر ، فجلس على الدرج .

ولخمس خلون من شوال أذن لابن عمار فى الركوب إلى القصر ، فركب ونزل حيث ينزل سائر الناس ، وواصل الركوب إلى الرابع عشر منه ، فأحضر عشيّة إلى القصر ، فجلس إلى بعد العشاء الآخرة ثم أذن له فى الانصراف ؛ فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك قد أوقفوا لقتله ، فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه هنالك ، ثم نقل إلى تربته بالقرافة ؛ فكانت مدة حياته بعد عزله ثلاث سنين وشهراً واحداً وثمانية عشر يوماً .

وسارت قافلة الحاج لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة . وعزل خود عن الشرطة السفلى ، وجُمِعَت الشرطة لمسعود الصقلي ، فنزل بالخلع والطبول والبندود إلى الجامع العتيق حتى قرئ سجلّه على المنبر .

(١) البخت والبختية ، بضم الباء فهما ، الإبل الخراسانية ، والجمع بخاق بالتشديد للياء ، وبخاق بالقصر وبخات ؛ والبخات بتشديد الخاء مقتنيا . القاموس المحيط .

(٢) الكور ، بضم الكاف ، الرجل بأداته ، والجمع أكوار ، وأكور بضم الواو ، وكوران ، وكوور . لسان العرب .

وفى ثالث ذى الحجة أمر الناس بتعليق القناديل على سائر الحوانيت وأبواب الدُّور
كلُّها ، وفى جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، ففعلوا .

وصلى الحاكم صلاة عيد النحر بالمصلى ، وخطب ، ونحر فى القصر على رسمه ، وجلس
على السَّماط . وكان الناس بين عبد العزيز بن النعمان وبين قاضى القضاة الحسين بن النعمان
فى شُرور وبلاء ؛ وذلك أن عبد العزيز قبل شهادة جماعة اختارهم ؛ فكان مَنْ حاكم خصمَه
إلى الحسين اختار خصمَه بالمرافعة إلى عبد العزيز وبالعكس . وكان عبد العزيز إذا جلس
للنظر فى المضالم حضر شهوده عنده وسمع شهادتهم وأشهدهم فيما يقول ويُمضى ؛ ولا يحضر
أحد منهم عند الحسين ولا يقرب داره ، ويقيد الشهود القدماء يشهدون عنده ، غير أنهم
لا يحضرون مجلس عبد العزيز مواصلين لذلك ولا يركبون معه .

وفىها عقد ليانس الصقلي على ولاية أطرابلس الغرب بعد موت المنصور بن بُلْكَيْن ،
فوصل إليها فى ألف وخمسمائة فارس وملكها . فبعث باديس بن جعفر بن حبيب على عسكر
فلقية على زنزوير ، واقتتلا يومين ، فانهزم عسكر يانس وقتل .

في المحرم واصل الحاكم الركوب في الليل في كل ليلة؛ وكان يركب إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق . وأمر الناس بالوقيد^(٢)، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة ، وزُينت الأسواق والقياسر^(٣) بأنواع الزينة ، وباعوا واشتروا ، وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل ، وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشرب والغناء واللهو . ومنع الرجال المشاة بين يدي الحاكم أن يقرب أحد من الناس الحاكم ، فزجرهم ، وقال لا تمنعوا أحداً ، فأحرق الناس به وأكثروا من الدعاء له . وزينت الصناعة^(٤)، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج وغلب النساء الرجال على الخروج في الليل ، وتزايد الزحام في الشوارع والطرق ، وتجاهروا بكثير من المسكرات ، وأفرط الأمر من ليلة التاسع عشر [٥٦ ب] إلى ليلة الرابع والعشرين فلما خرج الناس عن الحد أمر الحاكم ألا تخرج امرأة من العشاء ، فإن ظهرت نكل بها . ومنع الناس من الجلوس في الحوانيت .

وهبت في أول يوم من طوبة سُموم لم يُعهد مثله .

وورد سابق الحاج ، ثم قدمت قافلة الحاج في سادس عشر صفر .

(١) ويوافق أول المحرم منها الأول من ديسمبر سنة ١٠٠٠ .

(٢) وقدت النار - من باب وعد - توقدت وقودا بالضم ، ووقيدا بالفتح ، ووقدة بالكسر ، ووقدا ووقدانا بفتحين فيما . مختار الصحاح والمقصود تزيين المدينة بإضاءة الأنوار .

(٣) جمع قيسارية بمعنى السوق . قوانين الدواوين : ٣٨٧ ، ٤٥٧ . وأصل الكلمة إغريق ولا تبنى «Caesaria» نفس المصدر .

(٤) المكان المخصص لإنشاء السفن ، والحرب منها خاصة . وأول دار للصناعة أنشئت في مصر على ساحل جزيرة الروضة ، ثم نقلت على عهد الاخشيديين إلى ساحل مصر (الفسطاط) ، وانتقلت زمن الفاطميين إلى المقس في موقع ميدان محطة مصر الحالية . وفي عهد الأمر الفاطمي أعيدت إلى موقعها السابق بساحل مصر الفسطاط . الخطط : ١ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٩ .

وفي خامس ربيع الأول أعتق الحاكمُ زيدانَ ، صاحب المظلة^(١) ، وأمر أن يكتب على مكاتباته من زيدان مولى أمير المؤمنين .

وخلع على القاضي حسين بن النعمان وقيّد بين يديه بغلّتان بسروجهما ولجُمُهما ، وحُمِلَ إليه عدة ثياب لحضوره العتاقة .

وكثر وقود المصابيح في الشوارع والطرقات ، وأمر الناس بالاستكثار منها وبكنس الطرقات وحفر الموارد وتنظيفها .

وخلع على فتح ، غلام ابن فلاح ، وندب إلى الخروج على الأسطول .
وقبض على رجل شامي قال : لا أعرف على بن أبي طالب ، وأقول إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ، غير أني لا أعرف على بن أبي طالب . فحبس وروجع ؛ فأصرّ على أنه لا يعرف عليا ؛ ففرق به القائد حسين فلم يعترف بمعرفة على رضي الله عنه ، فخرج الأمر بقتله ، فضرب عنقه وصلب .

وفي سادس عشر جمادى الآخرة وصل رسول ملك الروم^(٢) ، فحشدت له العساكر من سائر الأعمال ، ووقفوا صفين والحاكم واقف ليراهم . وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح ، ونزل ، ومشى إلى القصر يقبل الأرض في طول المسافة حتى وصل إلى حضرة

(١) المظلة ، ويعبر عنها أيضا بالجتر ، والطير ، والقبة : قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، بأعلامها شكل طائر من فضة وقد يطل بالذهب . وعرفت زمن المماليك بالقبة والطير ، بينما كان يطلق عليها زمن الفاطميين المظلة . صبح الأعشى : ٤ « وكانت المظلة تتكون من اثني عشر شوزكا ، عرض أسفل كل شوزك شبر وطوله ثلاثة أذرع وثلاث ذراع ، وآخر الشوزك من فوق دقيق جدا ، فيجتمع ما بين الشواذك في رأس عمودها دائرة ، والعمود من الزان ملبس بأنايب الذهب ، وفي آخر أنبوبة تل الرأس فلكة بارزة قدر عرض إبهام ، فيشد آخر الشواذك في حلقة ذهب ؛ والمظلة أضلاع من خشب الخلاج مكسوة بالذهب على عدد الشواذك ، خفاف بطول الشواذك ، وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعضها تنضم وتنفتح ؛ ورأسها كالرمانة ويعلوها أيضا رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر . . . » النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٤ - ٨٥ .

(٢) الامبراطور باسيل الثاني .

الحاكم بالقصر ، وقد قُرش لإيوان القصر وعُلّق فيه تعاليق غريبة ، يقال إنه أمر بتفتيش خزائن القُرش إلى أن وُجد فيها أحداً وعشرين عِدلاً ذكرت السيّدَةُ رشيدَةُ بنت المعز أنها كانت في قطار القُرش المحمولة من القيروان إلى مصر مَعَ المعز في جملة أعدال ، وأن كُتّاب خزائن القُرش وجدوا على بعضها مكتوباً الحادى والثلاثون والثلاثمائة من عمل العبيد ، ديباج خَزّ ومذهب ؛ فقرش منه جميع الإيوان وسُتر جميع حيطانه بالتعاليق ، فكان جميع أرضه وحيطانه رفيعاً دليلاً على عظمته وسعته . وعُلّقت بصدر الإيوان العسجدة ، وهى درقة مطعّمة بفاخر الجواهر النفيس من كل أصنافه ، فأضاء لها ما حوله ، ووقعت عليها الشمس فلم تطفى الأبصار تأملها كلالاً . فدخل الرسول وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية .

وأنفذ الحاكم لأبى الحسن على بن إبراهيم النرسى ألف دينار وأربعة وعشرين قطعة ثياب مخنّارة ، وسُومِحَ بمبلغ ثلاثة آلاف دينار كانت عليه .

وجرى الرسم في الفطر طول شهر رمضان على مائة الحاكم كما تقدّم .

ولما كثر النزاع بين عبد العزيز بن النعمان والقاضى حسين بن النعمان كتب الحاكم بخطّه ورقة إلى الحسين ، نصّها بعد البسملة : « يا حسين أحسن الله عليك . إتصل بنا ما جرى من شاعات العوامّ ومن لا خير فيه ، وإرجافهم ، وأنكرنا أن يجرى مثله فيمن يَجِلّ محلك من خدمتنا ، إذ أنت قاضينا وداعينا وثقتنا . ونحن نتقدم بما يزيل ذلك ، ولم نجعل لأحد غيرك نظراً في شئ من القضايا والحكم ، ولا في شئ مما استخدمناك فيه ، ولا مكاتبة أحد من خلفائك بالحضرة وغيرها وسائر النواحي ، ولا أن نكتب أحدا منهم غيرك ؛ ومن تسمى غيرك بالقضاء فذلك على المجاز في اللفظ لا على الحقيقة . وقد منعنا غيرك أن يسجل في شئ فيتقدم إلى جميع الشهود والعدول بالألّا يشهدوا في سجلّ لأحد سواك . وإن تشاجر خصمان فدعى أحدهما إليك ودعى الآخر إلى غيرك كان الدّاعى

إلى غيرك عليه الرجوع إليك طائعا مكرها فأجر على ما أنت عليه من تنفيذ القضايا والأحكام مستعينا بالله عز وجل ، ثم بنا؛ ولك من جميل رأينا فيك مايسعدك في الدنيا والآخرة . وقد أذنَّا لك أن يكتتب جميع من يكتتب القاضي بقاضى القضاة كما جعلناك، وتكتتب من تكتتبه بذلك وتكتب به فى سجلاتك . فاعلم ذلك ، وأشهر أمرنا بجميع ما يقتضيه هذا التوقيع ليُمثَّل ولا يتجاوز . وفَّقك الله لرضاه [٥٧] ورضانا ، وأيدك على ذلك وأعانك عليه إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما .

فقرأه القاضى على سائر الشهود ، وأمر أن يكتب فى سجلاته قاضى القضاة ، وكتب بذلك وكتب عليه .

وجرى الرسم فى ركوب الحاكم لفتح الخليج^(١) وفى يوم العيد إلى المصلَّى على العادات .

وسارت قافلة الحاج للنصف من ذى القعدة بالكسوة والشمع والضَّلات ، وزينت البلد مرَّة فى شوال ثلاثة أيام ومرَّة فى ذى القعدة يوما . وجرى الرسم فى صلاة عيد النَّحر على ما تقدم ، ثم انصرف فنحر ودخل تربة القصر وحضر السَّباط .

وفيهما توفى أبو الفضل جعفر بن الفرات^(٢) ، فى ثالث ربيع الأول ، عن اثنتين وثمانين سنة

(١) من مراسم احتفال فتح الخليج - نعى رفع السد الواقع عند فم الخليج يوم وفاء النيل فى كل عام - أنه كان يحمل إلى المقياس (بجزيرة الروضة) من المطابخ نحو عشرة قناطير من الخبز وعشرة خراف مشوية ، وعشر جامات حلوى ، وعشر شحات ، ويتوجه القراء إلى مسجد المقياس للقراءة حتى يتم الوفاء ، فيركب الخليفة بزيه الذى يتزيا به للعيد ، دون مظلة ومعه الوزير ، وينزل بالصناعة ، ثم يركب العشارى (سفينة خاصة لمثل هذه المناسبة) ومعه خواصه وخواص الوزير ، والكل قيام إلا الوزير الذى يجلس مع الخليفة ، ثم يمر العشارى بجانب المقياس ، ثم يحضر الخليفة تخليق المقياس (تطييبه بالزعفران والمسك) ، ثم يعود إلى العشارى الذى يحمله إلى المقس أو إلى القصر . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٩ - ١٠٠ ، الخطط : ١ : ٤٧٠ ، ٤٩٣ .

(٢) أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات الوزير المحدث المعروف بابن حنْزَابة . برز فى مناصب الوزارة والكتابة والإشراف المسالى منذ أيام الإخشيد ، وقبض عليه أكثر من مرة ، وكان على وزارة مصر عندما قدمها جوهر الصقل الذى أقره على الوزارة . وحنْزَابة المرأة القصيرة ، وهى أم أبيه الفضل .

وثلاثة أشهر وخمسة أيام ؛ فصلى عليه القاضي حسين بن النعمان ، ودفن في داره . وكان من الفضل والعلم والدين بمنزلة ؛ وحدث وأسمع وأملى مجالس ، وكتب على الصحيحين مستخرجا . وكان كثير البر والصلات والصدقة ، شديد الغيرة حتى إنه ليحجب أولاده الأكابر عن حرمة وأهله وعن أمهاتهم . فإنه بلغه عن بعض أولاده أنه واقع أختا له وأحبها . وكان يتنصت منذ تجاوز أربعين سنة . ثم حُيِّل من مصر ودفن بالمدينة النبوية .

وفيهما قتل الحاكم مؤدبه أبا القاسم سعيد بن سعيد الفارقي يوم السبت لثمان بقين من جمادى الأولى وهو يسايره ، بأن أشار إلى الأتراك بعينيه بعد أن بيئت معهم قتله ، فأخذته السيوف ؛ وكان قد داخل الحاكم في أمور الدولة وقرأ عليه الرقاع واستأذنه في الأمور كهيئة الوزراء .

سنة احدى وتسعين وثلاثمائة (١)

فى المحرم قتل الحاكم ابن أبى نجدة ، وكان بقالا فترقت أحواله حتى ولّى الحسبة ودخل فيما لا يليق به ، وأساء فى معاملة الناس ، فاعتقل ، ثم قطعت يده ولسانه وشُهر على جمل وضربت عنقه .

وفى شعبان سارت هديّة إلى المغرب فيها ثلثمائة فرس بجلال وعشرة بمراكب ، وخمسة وأربعون بغلا تحمل السلاح والكسوة ، وعشرون بغلا تحمل صناديق فيها ذهب وفضة .

وفى شهر رمضان خلع على تموصلت بن بكار وقلد بسيف ، وحل على عشرة أفراس بمراكبها ، وقلد إمارة الشام .

وجرى الرمم فى سباط رمضان وصلاتى العيدين وخروج قافلة الحاج على ما تقدم .
وفىها توفى أبو نعيم سلمان [بن جعفر] بن فلاح فى ثامن جمادى الآخرة . وقُتِل عدة أناس

(١) هكذا ورد فى الأصل ، والواقع أن الحديث عن هذه السنة بدأ قبل ذلك بصفحات ، ويبدو أنه ألحق الأحداث المحدودة التى وردت هنا بعد هذا العنوان الجديد بالأحداث التى سبقت استدراكاً عليها خاصة وأن أول هذه الأحداث حدث فى شهر المحرم .

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة (١)

في نصف صفر قدم الحاج .

وفي ربيع الأول قرئ سجل برفع المنكرات وإبطالها وبمنع ذلك ، فُخِّمَ على عدة مواضع فيها المسكرات لِتُرَاق .

وابتدئ في عمارة جامع راشدة^(٢) ، وكان مكانه كنيسة فُتِي جامعاً ، وأقيمت فيه الجمعة ،

وفي ثامن جمادى الآخرة ضربت رقبة فهد بن إبراهيم ، وله منذ نظر في الرئاسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنى عشر يوماً . فحمل أخوه أبو غالب إلى سقيفة القصر من مال أخيه فهد جريات فيها خمسمائة ألف دينار . فلما خرج الحاكم سأل عنها فعُرف خبرها ، فأعرض عنها ، وبقيت هناك مدة ثم أمر بها فرُدَّت إلى أولاد فهد ، وقال لنا لم نقتله على مال ، فحملت إليهم ، ثم رفع أصحاب الأخبار عن أبي غالب كلمة تكلم بها ، فقتل وأحرق بالنار .

وخلع على أبي الحسن علي بن عمر بن العداس مكانه ، وخلع على ابنه محمد بن علي ، وعلى الحسين بن طاهر الوزان ، وحملوا في رابع عشره .
وسار الأمير ياروخ متقلدا طبرية وأعمالها .
وقبضت أموال من قبض عليه من النصاري الكتاب .

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من نوفمبر سنة ١٠٠١ .

(٢) ويذكر التويري في نهاية الأرب أن ابتداء عمارته كان في سابع عشر ربيع الآخر سنة ٣٩٣ . ويذكر في سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع وبني للنصارى فيه كنيسة ، فرفع أمره إلى الحاكم فأمر بهدم الكنيسة وأن يجعل موضعها مسجد ، ثم أمر بتوسيعه فخربت مقابر اليهود والنصارى ، وبني فيه منبر من طين . وعرف الجامع بهذا الاسم نسبة إلى أنه يقع في خطة راشدة ابن أدب بن جديلة ، من لحم ، بالفسطاط ، وكانت بالجبل المطل على بركة الحبش وهو الجبل المعروف بالرصد . ولا وجود الآن لهذا المسجد وموقعه يحى « إسطنبول عتر » بأثر النسي . المخطوط : ٢ : ٢٨٢ .

وأمر بإتمام بناء الجامع الذى ابتداءً بعمارته العزيز على يد وزيره يعقوب بن كلّس خارج باب الفتوح من القاهرة ، فقدرت النفقة عليه أربعين ألف دينار ، فابتدى بعمله (١) .

وفى خامس عشر من شهر رجب ضرب عنق أبى طاهر محمود بن النحوى الناظر فى أعمال الشام لكثرة تجبّره وعنفه بالناس .

وفى غرة شعبان جُمع فى الجامع الجديد بظاهر باب الفتوح .

وقطع الحاكم الركوب فى الليل .

وردّ إلى [٥٧ ب] أولاد فهد بن ابراهيم سرّوجهم المحلّة وأمروا بالركوب بها . وأطلق من اعتقل من الكتاب النصارى .

وصلى الحاكم فى رمضان بالناس أجمعين بعد ما خطب ، وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على الرسم . وأكثر من الحركة فى شهرى رمضان وشوال إلى دمنهور (٢) والأهرام وغيرهما . وسافر الحاجّ للنصف من ذى القعدة .

وأما الشام فإنه لما مات جَيْشُ بن الصَّمصامة فى شهر ربيع الآخر سنة تسعين ولى دمشق شيخ من المغاربة يقال له فحلّ بن تميم (٣) ، فلبث شهورا ومات ، فقدم عند الحاكم على [ابن جعفر (٤)] بن فلاح فنزل على دمشق ليومين بقيا من شوال ، وأقام بها غير مُنْبَسَطٍ اليد

(١) بدأ العزيز بالله عمارته سنة ٣٨٠ ، وصل الجمعة فيه فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ قبل أن تكتمل عمارته ، وموقعه بين بابى الفتوح والنصر داخل مدينة القاهرة ، وأشرف على بنائه الخافظ عبد النّى بن سعيد المصرى ، أبو محمد ، وكان إمام زمانه فى علم الحديث وحفظه ، انظر نهاية الأرب للنويرى ، النجوم الزاهرة : ٤ (فى مواضع) ، الخطط : ٢ : ٢٧٧ . ويعرف أيضا باسم الجامع الأنور .

(٢) لعل المقصود بها شبرا دمنهور ، وهى التى أصبحت تعرف منذ زمن الأيوبيين باسم شبرا الخيمة .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ يذكر ابن القلانسى أن اسمه تميم بن إسماعيل المغربى القائد ويعرف بفحل . ويزيد النويرى فى ألقابه : المعزى .

(٤) ما بين الحاصرتين من النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠١ ، ومن ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ .

في ماله . فلما كان في شهر رمضان ، سنة اثنتين وتسعين ، قدم من جهة الحاكم داعٍ يقال له خَتَكِين^(١) الملقَّب بالضَّيف إلى دمشق ، فبرز ابن فلاح وأقام بظاهر دمشق . فأراد الضيف أن ينقص الجند من أرزاقهم ، فشغبوا وساروا يريدون ابن عَبدون النصراني ، وكان على تدبير المال وعطاء الأرزاق ، فمنعهم الضيف وأغلظ في القول لهم ، وكان قليل المداراة ، فرجعوا إليه وقتلوه ، وانتهبوا دُورَ الكتَّاب والكنائس . وتحالف المغاربة والمشاركة من العسكر على أن يكونوا يداً واحدة في طلب الأرزاق ، وأنهم يمتنعون^(٢) مِن يطالبهم بما فعلوه ، وحلف لهم على [بن جعفر]^(٣) بن فلاح أنه معهم على ما اجتمعوا عليه . فبلغ ذلك الحاكم فقال : هذا قد عَمِيَ . فبعث يعزله عن دمشق ، فسار عنها في يسير من أصحابه ، وذلك في شوال منها . وتأخر العسكر بدمشق ، فقدم إليها تَمُوصَلت بن بكار من قِبَل الحاكم ، فلم يزل عليها إلى أن وَلِيَ مُفْلِح اللُّحياني^(٤) دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين . وكان خادما وفي وجهه شعر ، فسار إليها .

وفيهما قتل أبو علي الحسن بن عُسْلُوج^(٥) في المحرم وأحرق .

وقتل على بن عمر بن العدَّاس^(٦) في شعبان وأحرق .

(١) أبو منصور ختكين المضدى القائد . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠٥ ، ٢٢٢ . يقول ابن القلانسي : واقتضى رأيه أن ينقص واجبات الأجناد ويغالطهم ويظهر شيئا من التوفير ، وترك أمر تدبير الأولاد لكاتب نصراني يعرف بابن عبدون . ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ - ٥٨ . وهذا يتفق مع ما جاء هنا بالمتن .

(٢) في الأصل : وأنهم يمتنعوا . .

(٣) ما بين الحاصرتين من النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠١ ، ومن ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ .

(٤) كان قد تولى قبل ذلك مدينة صور . واسمه الكامل - طبقا لابن القلانسي - القائد أبو صالح مفلح الخادم اللحياني .

الخطط : ٢ : ٢٨٥ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٥٨ - ٦٢ .

(٥) لم أعثر إلا على عُسْلُوج بن الحسن وكان قد أشرف على الأموال أيام المعز لدين الله مقاسمة مع يعقوب بن كلثوم ، ثم عمل أيضا للعزيز بالله ، ولعله هو المقصود ، ويرجع ذلك ما جاء في الطيارة الملتصقة بهذه الصفحة بالأصل ؛ انظر الصفحة التالية (٦) أبو الحسن علي بن عمر ، ابن العداس ، تولى الوزارة للعزيز بالله بعد وفاة يعقوب بن كلثوم . وتولى النظارة كذلك بعد مصرع نهد بن إبراهيم النصراني أيام الحاكم وكانت رقبة نهد قد ضربت في ثامن جمادى الآخرة سنة ٣٩٢ بعد أن مكث في النظر خمس سنين وتسعة أشهر . انظر ما تقدم ، وكذلك النجوم الزاهرة : ٤ : ٥٢ .

وقتل الأستاذ أبو الفضل زيدان ، صاحب المظلة لعشر بقين من ذى الحجة ؛ ضرب عنقه .
وفيها استأذن عبدُ الأعلى بن الأمير هاشم بن المنصور أن يخرج إلى بعض ضياعه ،
فأذن له الحاكم ؛ فخرج بجماعة من ندمائه ؛ فبعث الحاكم عينا يأتيه بخبرهم ، فصاروا
إلى مُتَنَزِّهِهم فأكلوا وشربوا ، وجرى من حديثهم أن قال أحد أولاد المُغازي المنجم لابن
هاشم : لا بد لك من الخلافة ، فأنت إمام العصر . فلما عادوا ودخل ابن هاشم على الحاكم
وجلس أخرج الحاكم من تحت فراشه سيفاً مجرّداً وضربه به ، فحُيِّل إلى داره
وكتب يعتذر عن ذنبه إن كان قيل عنه ، ويحلف ويذكر أن ضربته سالمة ، ويسأل الإذن
في طبيب يعالجه ؛ فأجيب إلى ذلك .

فلما أفاق استأذن في الدخول إلى الحمام ، فأذن له ؛ فبعث الحاكم إلى الحمام من ذبحه
فيه وأتاه برأسه . وبعث إلى من حضر المجلس فقتلوا وأحرقوا بالنار ، وفيهم أولاد المُغازي
وابن خريطة وأولاد أبي الفضل بن الفرات وفتيان من كتامة . وتتابع القتل في الناس من
الجند والرعية بضروب مختلفة^(١) .

(١) في هذا المكان بالأصل طيارة جاء فيها « سنة أربع وتسعين وثلثمائة . قتل الحاكم بأمر الله جماعة منهم العسكري
منجمه ، وله أخبار ، وأبو علي عسلاج ، وابن غرة الكتاني ، وعلي بن البدول الشاعر الأعشى ، وعباس بن زبيرى الكتاني ،
والمقداد بن جعفر الكتاني ، وعلي بن سلمان الكتاني ، سقاء أخوه عقب غزوجه من الحمام شربة سويق فأت عند وصوله
إلى بيته ، وقال : قتلت قتلته مستورة وكانت أحب إلى من ضرب عنقه وإحرقه بالنار على عيون الأعداء . وقتل ابن أبي
خريطة صاحب برجوان ، وابن المغازل المنجم ، وجعفر بن محمد الديبى وأبو غالب أخو فهد بن إبراهيم ، وأبو إبراهيم سهل بن كلس
أخو يعقوب الوزير ، ورشيق الحمداني ، وإسماعيل بن سوار صاحب برجوان وابن حمود الكتاني ، ومخلف بن عبد الله بن
الكتاني ، ويعمى بن سليمان الكتاني ، ومحمد بن علي بن فلاح ، وابن قنطرية الكتاني . الحمد لله . القاضي الأجل أمين الدولة
أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي ، توفي بطرابلس الشام
ليلة السبت نصف رجب سنة أربع وستين وأربعمائة . أمير الجيوش المظفر مصطفى الملك حدة الإمام وسيفه منتخب الدولة
أنوشكين الدزبرى صمصام الدولة القاضي الأعز الأجل سند الحكام جلال الدولة وعمادها ذا المعالي صني أمير
المؤمنين القاضي الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن علي بن عياض . الوزير الأجل شرف الوزراء
تاج الرؤساء العادل الأمير الأوحده المكيين معز الدين مغيث المسلمين عمدة أمير المؤمنين أبو الفضل يحيى بن أحمد بن المدبر ،
تقلد الوزارة أولاً سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . الوزير الأجل الكامل الأوحده صني أمير المؤمنين وخالصة أبو الفتوح
محمد بن جعفر بن المغربي الأفضل عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم المعز بن باديس وزير مصر في اه . ويبدو
أن هذه الطيارة تتكون من بضع أحداث كان المؤلف يزمع اضافتها في مواضعها ، وأن هذه المعلومات لم تكن قد اكتسبت بعد .

سنة أربع وتسعين وثلاثمائة (١)

في محرّم خلع على مظفر الخادم الصقلي ، وحمل على ثلاث بغلات بمراكبها ، ومعه ثياب كثيرة ؛ وندب لحمل المظلة . وخلع على مُتَوَكِّي الْأَسْوَدَ وَحُمِلَ لَوَاؤُهُ بَبْرِقَةٍ . وقبض على أبي داود بن المطيع . وخلع على [صاحب]^(٢) ديوان النفقات وضرب عنقه بسبب أنه سرق مائتي ألف دينار ذهب .

وقدم مفلح اللّحياني إلى دمشق في المحرّم ، فسار عنها تَمُوصَلت يريد مصر ، ونزل بداريّا^(٣) فمات بها في ثاني صفر . فلما ورد خبر موته إلى الحاكم خلع على ولديه وحملهما .

وقدم الحاجّ في رابع عشره .

وفي ربيع الأول ألزم الناس بوقود القناديل بالليل في سائر الشوارع والأزقة بمصر . وخلع على أبي يعقوب بن تَسْطَاس المتطبّب وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة ، ومنحت له داراً بالقاهرة وفُرشت ، وألزم بالخدمة . وكان قد هلك منصور بن معشر [٥٨] الطبيب .

وهدمت كنيسة بجاناب جامع راشدة .

وفي جمادى الآخرة حُمِلَ إلى الشريف أبي الحسن على النرسى رسمه يجارى به العادة في كل سنة ، وهو من الثياب عشرون قطعة بنحو خمسمائة دينار .

وفي رجب قرئ سجلان ؛ أحدهما فيه إنكار الحاكم على من يخاطبه في المكاتبه بمولى الخلق أجمعين ؛ والآخر بمسير الحاج أول ذى القعدة^(٤) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثلاثين من أكتوبر سنة ١٠٠٣ . ويلاحظ أن المؤلف قد أسقط سنة ٣٩٣ من الحديث بعنوان مستقل ، وإن كان قد ذكر بعض أحداثها في أخبار السنة السابقة ٣٩٢ . وسيعود المؤلف إلى مثل هذا كثيراً .

(٢) ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٣) قرية كبيرة بغوطة دمشق . معجم البلدان ٤ : ٢٤ .

(٤) كانت العادة قبل ذلك أن يسير الحاج حول منتصف ذى القعدة ، وعندئذ لم يكن من السهل أن يدرك مناسك الحج والزيارة معا ، وسيتم بعد سنوات أن مرسوم آخر سيصدر بضرورة سير الحاج في منتصف شوال .

وقبض على ثلاثة عشر رجلاً ضربوا وشهروا على الجمال وحُبِسوا ثلاثة أيام بسبب أنهم
صَلُّوا صلاة الضحى

وفي شعبان خرج الكتاميون إلى باب الفتوح ، فترجّلوا وكشفوا رؤوسهم ، واستغاثوا
بعفو أمير المؤمنين فأُوصِلَ إلى الحاكم جماعة منهم ، فوعدهم ، وكتب لهم سجل قرئ بالقصر
والجوامع بالرضا عنهم وإعادتهم إلى رسومهم في التكرمة .

وأمر بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية .

وصلى الحاكم بالناس في رمضان صلاة الجمعة مرتين وخطب^(١) .

وفي سادس عشره صُرف الحسين بن النعمان عن القضاء . وكان قد ضرب في الجامع
فندب الحاكم جماعة من شيوخ الأضياف يركبون معه إلى كل مجلس فيه جماعة من الخاصة
وأمر أصحاب سيوف الحلّى بالمشى بين يديه في كل يوم . فكان إذا حضر إلى الجامع العتيق
وقام يصلي وقف جماعة الأضياف صفّاً خلفه يسترونه ، ولا يصلّي أحد منهم حتى يفرغ
من صلاته ويعود إلى مجلسه ؛ فإذا جلس في مجلسه كانوا قياماً عن يمينه وشماله . وهو أول
قاضي فعل ذلك معه ، وأول قاض كتب في سجلاته قاضي القضاة ؛ وعلت منزلته عند الحاكم
وتخصص به . وكان له عند الحاكم جماعة يمدحونه ويبالغون في الثناء عليه ، منهم ريحان
الليثاني وزيدان ومصلح الليثاني ؛ فانبسطت يده وعظم شأنه ؛ ولا عَنَ بين رجل وامرأته ؛
وتشدّد على الناس ؛ فكان إذا أبطأ شاهد^(٢) يوم جلوسه في الجامع عن الحضور إلى داره
والركوب معه رسم عليه وأغرمه مالاً ليأخذه . وألزم كتابه بملازمة داره دائماً . وكانت

(١) وكانت رسوم الفاطميين تقضى بأن يصل الخليفة الجمعة ثلاث مرات ، ويستريح الجمعة الرابعة .

(٢) كانت الشهادة وظيفة دينية يقوم بها الشهود المدلون ، فإذا حضر القاضي للحكم جلس الشهود المدلون حوله يمنة
ويسرة على مراتبهم في أقدمية تعديلهم . وكان الشهود المدلون يعينون من قبل الخليفة . صبح الأعشى : ٣ : ٨٦ .

إليه الدعوة أيضا . وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وقد أفضّل على جماعة من أهل العلم والأدب والبيوتات .

فكانت مدّة نظره في القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما . ومولده لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين . وهو أول قاضٍ أُحرق بعد قتله ، فإن الحاكم أحرّقه بعد ما قتله في سادس محرم الآتي ذكره .

وفي سادس عشر رمضان قُلِّد أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان القضاء إلى ما بيده من النظر في المظالم ، وخُلع عليه ، وقُلِّد سيفاً محلّياً بذهب ، وحُوِّل على بغلة وبين يديه سبط ثياب . فنزل في موكب عظيم إلى الجامع العتيق ، فجلس تحت المنبر ورقى أبو علي أحمد بن عبد السميع وقرأ سجلّه . وانصرف إلى داره فنزلها وحكم ، واستخلف على الحكم أبا الحسن مالك بن سعيد الفارقي مضافا إلى ما كان مستخلفاً عليه من الحكم في القاهرة . واستكتب أبا يوسف منال لحضرته والتوقيعات عنه ؛ ثم كتب له سجل بأخذ الفطرة والنجوى^(١) وحضور المجلس بالقصر وأخذ الدعوة على الناس ، وقراءة ما يُقرأ على من دخل الدعوة .

فحضر يوم الخميس الثاني عشر منه ، وقرأ ما جرى الرسم بقراءته في القصر ، وأخذ النجوى والفطرة ، وأوقف سائر الشهود الذين قبلهم حسين في أيامه ؛ وصرف عدّة من المستخلفين بالأعمال ؛ واستكتب أبا طالب ابن السندی فوقّع بين يديه ؛ واستكتب أبا القاسم على ابن عمر الوراق ؛ وكتب السجلات وكتب القضايا والأحكام . ولزم حسين داره وقد استبدّ خوفه ؛ وحملت كتب ديوان الحكم من داره إلى دار عبد العزيز .

(١) الفطرة والنجوى والخمس رسوم مالية تؤخذ من يعتنقون المذهب الفاطمي ، مع بعض رسوم أخرى تتفاوت بتفاوت مدى تمتع الأعضاء في فهم الدعوة والعمل في سبيلها . وكان يفرّد لكل جماعة من الناس مجلس خاص يناسب مكانتها الاجتماعية والمذهبية . انظر في الدعوة ورسومها ومراتبها : المخطوط : ١ : ٣٩١ - ٣٩٥ .

وفيه قرئ سجل بالإنكار على الكتاب ومن يجرى مجراهم في أخذ شيء من البراطيل^(١) ونحوها .

وركب الحاكم لصلاة العيد بالمصلّى ، فصلّى وخطب وحضر السباط بالقصر على رسمه في ذلك .

وبرزت قافلة الحاج في ثامن ذى القعدة بالكسوة والصّلات على العادة .

وصلّى الحاكم بالناس صلاة عيد النحر ، ونحر في الملعب^(٢) .

وفيهما قتل سهل بن يوسف [٥٨ ب] ، أخو يعقوب بن يوسف بن كلثوم الوزير ، بسبب قوة طمعه وكثرة شرّه . وعندما قُدم للقتل سأل أن يدفع الساعة ثلثمائة ألف دينار حينئذ يفدى بها نفسه ، فلم يُجب .

وقتل أيضا القائد أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار ، من أجل أنه كان إذا دخل من باب البحر^(٣) تكون رجله على عنق دابّته ويكون الحاكم في المنظرة التي على بابه ، فتصير رجله إلى وجه الحاكم ، وكان ابن البازيار قد اعتراه وجع النقرس ، فعذ ذلك الحاكم عليه دينا قتله به في شوال لسوء التوفيق .

وفيهما قدم من برقة عدّة من بنى قرّة إلى الإسكندرية ، فقتلوا عن آخرهم . وذلك أن يانس لما قُتل وصل عسكره إلى طرابلس ، فنازلهم القائد جعفر بن حبيب فزحف إليه فلقول

(١) البراطيل جمع برطيل بمعنى الرشوة . يقال برطل فلان فلانا : رشاه ، وبرطل ارتشى وهو المقصود هنا .
(البرطيل أيضا المعول) القاموس المحيط .

(٢) لعل المقصود به المنحر الذي اتخذته الفاطميون لنحر الأضاحي في عيد الأضحى ، ولنحر غيرها في عيد الغدير ، وموضعه أرض فضاء بالدرب الأصفر من حى الجالية . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٨ : حاشية : ٧ .

(٣) باب البحر من أبواب القصر الغربية ، سمي بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه عندما يريد التوجه إلى شاطئ المقدس للنزهة . وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضي بشارع بين القصرين .

ابن خزرون ففرّ منه ؛ وخرج فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يانس إلى فلفول وملّكوه
عليهم ؛ فقام بدعوة الحاكم ، وعقد الحاكم ليحيى بن علي بن حمّثون الأندلسيّ على أطرابلس
وكتب لبني قرّة أن يسيروا معه ، فمضّوا من برقة معه وخذلوه ؛ فعاد إلى القاهرة ورجع
بنو قرّة إلى برقة وأظهروا الخلاف ؛ فأمنّهم الحاكم حتى قدّموا وحدهم إلى إسكندرية فقتلوا.
واستقرت أطرابلس بيد فلفول وتداولها بنوه^(١).

(١) بعد أن توفى فلفول سنة أربعمائة .

سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١) :

في سابع محرم قرئ سجل في الجوامع يأمر اليهود والنصارى بشد الزنار ولبس الغيار^(٢) ،
وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين .

وفيه فحش كثير وقدح في حق الشيخين رضى الله عنهما .

وقرئ سجل في الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية المحببة كاذت لمعاوية بن أبي سفيان ،
والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضى الله عنها ، والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل^(٣) .
وفيه المنع من عجن الخبز بالرجل ، والمنع من أكل الدنيس^(٤) ، والمنع من ذبح البقر التي
لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي ، وما سواها من الأيام لا يذبح منها إلا ما لا يصلح للحرث .

وفيه النكير على النخاسين والتشديد عليهم في المنع من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة .
وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ، ويؤذن لصلاة العصر
في أول الساعة التاسعة . وإصلاح المكايل والموازين والنهي عن البخس فيهما ، والمنع من
بيع الفقاع^(٥) وعمله ألبتة لما يؤثر عن علي رضى الله عنه من كراهة شرب الفقاع .

وضرب في الطرقات بالأجراس ونودي ألا يدخل الحمام أحدٌ إلا بمئزر ، وألا تكشف
امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج . ولا يباع شيء من السمك بغير قشر ،

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٠٠٤ .

(٢) تكرر هذا أيام الفاطميين ، فكان لايسح لأهل الذمة باستخدام المسلمين في الأعمال الحفيرة ، وفرض عليهم شد
الزناد حول أوساطهم وحمل الصلبان أو القرامى بزنة خمسة أوطال في أعناقهم .

(٣) عرف المتوكل بكراهة العلويين ، ومن صور ذلك أنه أمر بهدم قبر الحسين بن علي بكريلاه وهدم ماحوله من
المنازل والدور وأن يحرق ويذمر ويسقى ، ويمنع الناس من إتيانه أو زيارته .

(٤) نوع من السمك الصغير لا قشر له .

(٥) شراب كالرمان ، سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد . القاموس المحيط . ويصنع هذا الشراب من الشعير .

النجوم الزاهرة : ٤ : ٩ .

ولا يصطاده أحد من الصيادين . وتُتَبَّعَت الحمامات وقبض على جماعة وُجِدوا بغير مئزر
فضربوا وشُهِرُوا .

وفيه برزت العساكر لقتال بنى قُرّة وسارت .

وكتب في صفر على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق من ظاهره وباطنه في جميع
جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحُجَر والمقابر والصّحراء بسبّ السلف ولَعْنَهُمْ ، ونقش
ذلك ولُؤْن بالأصباغ والذهب ، وعمل كذلك على أبواب القياسر وأبواب الدور ، وأكْرَه
على عمل ذلك . وأقبل الناس من النواحي والضّياع فدخلوا في الدعوة ، وجعل لهم يوم وللنساء
يوم ؛ فكثرا لزدحام ومات في الزحمة عدّة^(١) .

ولما دخل الحاجّ نالهم من العامة سبٌّ ويطش ؛ فإنهم طلبوا منهم سبّ السلف ولَعْنَهُمْ ،
فامتنعوا .

ونودى في القاهرة : لا يخرج أحد بعد المغرب [إلى] الطريق ولا يظهر بها لبيع ولا شراء
فامتثل الناس لذلك .

وفي ربيع الأول تُتَبَّعَت الدُّورُ وَمَنْ يُعْرِف بعمل المسكرات ، وكُتِرَ من أوعيتها شئٌ كثير .

وفيه أمر الحاكم بشونة تحت الجبل مُلِئَتْ بالسُّنَط والبوص والخُلفاء ؛ فتحوِّف الناس
كافة ، مَنْ يَتَعَلَّق بخدمة الدولة من الأولياء والقواد والكتاب ، وسائر الرعية من
العوام . وقويت الشُّفاعات وكثر الاضطراب ، فاجتمع سائر الكتاب والمتصرِّفين من المسلمين
والنصارى ، وخرجوا بأجمعهم في خامسه إلى الرياحين^(٢) بالقاهرة ؛ وما زالوا يقبلون الأرض

(١) في الخطط : ١ : ٣٩١ - ٣٩٥ تفصيل لمراحل الدعوة ومراسمها ومجالسها المختصة بكل جماعة بعينها والرسوم
التي يدفعها المتمنون إليها . راجع أيضا : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية : محمد عبد الله عنان .

(٢) لعل المقصود بها الريمانية وهي حارة نسبت إلى جماعة الريمانية وهي فئة من عسكر الفاطميين نزلوا بها وقت
إنشاء القاهرة فعرفوا بها . وقد اتخذت هذه الحارة اسم بهاء الدين تراقوش ، أيام صلاح الدين ، إذ أنه سكن بها .

حتى وصلوا إلى القصر ، [١٥٩] فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويضجّون ويسألون العفو عنهم ، ومعهم رقعة قد كُتبت عن الجميع . ثم دخلوا باب القصر وهم يسألون أن يُعفى عنهم ولا يسأل فيهم قول ساع يسعى فيهم . وسلّموا رقعتهم لقائد القوّاد ، فأوصلها إلى الحاكم ، فعفا عنهم وأمرهم على لسان قائد القواد بالانصراف والبكور لقراءة سجلّ بالعفو عنهم ؛ فانصرفوا بعد العصر . وقرئ من الغد سجلّ كتب نسخة للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود بالأمان والعفو عنهم .

وفي ليلة التاسع منه ولد للحاكم ولد ، فجلس في صبيحتها للهناء ، وأمر بإحراق الشونة فأحرقت . وكان سابعُ المولود^(١) ، فأُخرج على يد خادِمٍ إلى قائد القواد ، فتسلّمه حتى أعد المزين شعره ؛ و ذبح عنه الشريف أبو الحسن النرسي العقيقة بيده ، وحمل عثمان الحاجب الدّم والعقيقة ، فأمر له بألف دينار وفرس ملجم وعدّة ثياب من أجل حَمَل الدّم والعقيقة ؛ ودُفع إلى المزيّن مائتا دينار وفرس . وسُمّي المولود بالحارث وكُنّي بابيّ الأشبال .

وخرج قائد القواد إلى سائر الأتراك والديلم والعرقاء وقال : مولانا يقرأ عليكم السلام ويقول قد سمّيت مولاكم الأمير الحارث وكُنّيته أبا الأشبال . فقبّل الجميع الأرض وأكثروا الدعاء ، وانصرفوا . وزُيّنت البلد أربعة أيام .

وفيه رسم الحاكم لجماعة من الأحداث أن يتقافزوا من موضع عالٍ في القصر ، ورسم لكل منهم بِرِصْلَةٍ ؛ فحضر جماعة وتقافزوا ، فمات منهم نحو ثلاثين إنسانا من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك ؛ ووُضع لمن قفز ماله .

وفي ربيع الآخر اشتد خوف كافة الناس من الحاكم ، فكتب ما شاء الله من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصة وزمامهم ومنّ معهم من الحمدانية ، والبكجورية ، والغلمان العرقاء ،

(١) أى حل اليوم السابع .

والماليك ، وصبيان الدار ، وأصحاب الإقطاعات ، والمرتقة ، والغلمان الحاكمة القُدُم .
وكتب أمان لجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعد ما تجمّعوا وساروا إلى تربة
العزیز وضجّوا بالبكاء وكشفوا رؤوسهم . وكتب عدة سجلات بأمانات للدليم والخيل
والغلمان الشراعية ، والغلمان المرتاحية ، والغلمان البشارية ، والغلمان المفرقة العجم وغيرهم ،
والنقباء ، والروم المرتقة^(١) . وكتب عدة أخرى بأمان الزويلين ، والمنادين ، والبطالين ،
والبرقيين ، والعطوفية ، والجوانية ، والجودرية ، والمظفرية ، والصنهاجيين ، وعبيد الشراء
بالحسينية ، والميمونية ، والفرجية . وكتب أمان لمؤذني أبواب القصر ، وأمانات لسائر
البيازرة والشهادين والحجابين ، وأمانات أخر لعدة أقوام ، كل ذلك بعد سؤلهم وتقربهم .

وفيه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع
شيء ، وطرحت بالصحراء وبشاطئ النيل ؛ وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور
في كل مكان ، ففعل ذلك .

وفي جمادى الآخرة فتحت دار الحكمة^(٢) بالقاهرة ، وجلس الفقهاء فيها ، وحُمِلت
الكتب اليها ، ودخلها الناس للنسخ من كتبها وللقراءة . وانتصب فيها الفقهاء والقراء
والنُّحاة وغيرهم من أرباب العلوم ، وقُرِئت ، وأقيم فيها خدام لخدمتها ، وأُجريت الأرزاق
على مَنْ بها من فقيه وغيره ؛ وجُعِلَ فيها ما يُحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام .

(١) هذا عنصر يستحق الاهتمام إذ أننا لانجد في الجيش الفاطمي وحرس القصر جماعات تنسب فقط إلى قبائلها
كالكتامين والزويلين واللواتيين ، أو إلى قادتها كالحمدانيين والبكوريين ، أو إلى وظائف بعينها كالوزيرية والركابية ، وإنما
نجد الجند المرتقة الذين يتكسبون بالجندية مثل هؤلاء الروم المرتقة وانظر المصطنعة .

(٢) وتعرف أيضا بدار العلم . يقول المقرئ في الخطط : ونقل إليها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من
الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المسوبة مالم ير مثله مجتمعا لأحد من الملوك ، وأباح ذلك
كله للناس فحضرها الناس على طبقاتهم لقراءة الكتب أو للنسخ أو للتعليم ، وأحضر الحاكم إليها جماعات من أهل الحساب
والمنطق والفقهاء والأطباء المناظرة بين يديه ، فكانت كل جماعة تحضر على انفرادها . وأغلقها الأفضل بن بدر الجبال ، ثم
أنشئت دار أخرى جديدة سنة ٥١٧ ، أنشأها الوزير المأمون البطاحي . الخطط : ١ : ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ .

وفيه اشتد الطلب على الركابية^(١) المستخدمين في الركاب بعد أن قتل منهم في يومين أكثر من خمسين نفسا فتنفّسوا ، وامتنع أحد من الناس أن يمشى بين يديه غلام أو شاكرى^(٢) ، فكانت القواد ومن جرى رسمه أن يكونوا بين يديه يسرون وحدهم ، وإذا نزل أحدهم للسلام أمسك خادمه الدابة ، ثم عُفِيَ عنهم وكتب لهم أمان . وكتب لعدة من الناس عدة أمانات .

وفيه مُنِعَ كلُّ أحدٍ ممن يركب أن يدخل من باب القاهرة راكبا ، ومُنِعَ المكاريون أن يدخلوا بحميرهم ؛ ومُنِعَ الناس من الجلوس على باب الزهومة^(٣) من التجار وغيرهم ؛ ومُنِعَ كلُّ أحدٍ أن يمشى مُلاصِقَ القصر من باب الزهومة [٥٩ ب] إلى باب الزمرد . ثم أُذِنَ للمكاريين في الدخول وكتب لهم أمان . وتخوّف الناس ، فخرج أهل الأسواق على طبقاتهم ، كل طائفة تسأل كتابة أمان ، فكتب ما ينيف عن المائة أمان لأهل الأسواق خاصة ، قُرِئت كلها في القصر ودُفعت لأربابها ، وكلُّها على نسخة واحدة . وهي بعد البسملة :

« هذا كتاب من عبد الله وولّيه المنصور أبي على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، لأهل مشهد عبد الله إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان سيّدنا محمد خاتم النبيين ، وأبيننا على خير الوصيّين ، وذرية النبوة المهديّين آبائنا ، صلى الله على الرسول ووصيّيه وعليهم أجمعين . وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال . لا خوف عليكم ، ولا تهديد بسوء إليكم ، إلّا في حدّ يقام بواجبه ، وحقّ يُوجد لمستوجبه . فليوثق

(١) الركابية والركابدارية الذين يحملون الفاشية بين يدي السلطان أو الخليفة في المواكب ، وهم تابعون لبيت الركاب الذي تكون به السرج والجم ونحوها . والفاشية السرج أو الفطاء المزركش الذي يوضع على ظهر الفرس فوق البرذعة . صبح الأعشى : ٤ : ٧ ، ١٢ . والركابية أيضا المكارون العاديون في الأسواق .

(٢) الشاكرى : الساعى أو الرسول الذي يحمل الرسائل .

(٣) من الأبواب الغربية للقصر الكبير ، سمى بذلك لأن الخوم وحوائج الطعام كانت تدخل إلى القصر منه . والزهومة الزفر .

بذلك وليعول بأمان الله . وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . والحمد لله
وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية
النبوّة ، وسلّم تسليماً .

وفي يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان وُلِدَ للحاكم ولد ذكر ، فجلس الحاكم يوم
الخميس للهناء . وكان السابع يوم الثلاثاء ، فحمله شكر الخادم ، وحضر أبو الحسن على
ابن إبراهيم النرسى وعق عنه ، وحضر المزيّن فحلق شعره وتناول ماله من الرسم . وسماه
الحاكم علياً وكناه أبا الحسن ؛ وهو الذى وَلِيَ الخلافة وتلقب بالظاهر .

وفيه قرش جامع راشدة . وركب الحاكم يوم عيد الفطر وعليه ثوب مُصمّت^(١) أصفر ،
وعلى رأسه منديل منكر ، وهو محنك^(٢) بذوابة والجوهر بين عينيه . وقيدَ بين يديه سِتَّةُ
أفراس بسروج مرصعة بالجوهر ، وست فيلّة ، وخمس زرافات ، فصلّى بالناس صلاة العيد
وخطبهم ، فلحن فى خطبته ظالمه حقّه والمرجفين به ، وأصعد معه قائد القواد وقاضى القضاة
عز الدين .

وفيه اضطرب السّعر واختلف الناس فى الدّراهم والصرف ، فكانت المعاملة بالدراهم
الزائدة والقطع ، واستقر سعرها على ستة وعشرين درهماً بدينار^(٣) .

(١) الثوب المصمت الذى لا يتخلط لونه لون آخر . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٩٣ .

(٢) يعنى أنه أدار عمامته على حنكه كما تفعل بعض جماعات العرب والمغاربة .

(٣) يبدو أن التعامل بالدراهم ، فى مصر الفاطمية ، يرجع إلى عصر الخليفة الحاكم الذى توقع قلة الإنتاج من الذهب
إزاء الزيادة فى استخدامه لأغراض مختلفة والإقبال الهائل على اختزانه ، فهداه تفكيره إلى إتخاذ هذه الخطوة حتى لا تفاجأ
البلاد بأحداث قد تعسر مواجهتها . وبذلك أصبحت مصر تستعمل نظام النقدين ، وأخذت الدولة تحدد نسبة كل من النوعين
للاخر طبقاً للظروف وقد صحب استعمال هذه العملة النقدية الفضية الجديدة أزمة نقدية يبدو أن مآذرك هنا صورة لها ، وقد
حدث مثلها فى سنة سبع وتسعين وثلثمائة فاضطرب سعر الدرهم المتزايد بالنسبة لسعر الدينار فيبلغ - كما جاء فى المتن - ستة
وعشرين درهماً بدينار ، وبلغ سنة سبع وتسعين وثلثمائة أربعة وثلثين درهماً بدينار . فاضطربت أمور الناس وتدخلت الحكومة
بصور متعددة لحماية نقدها . انظر حالة مصر الاقتصادية فى عصر الفاطميين لراشد البراوى : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وفى أول ذى القعدة برزت قافلة الحاج إلى مصلى القاهرة ، ثم رُفِعَتْ إلى جُبِّ عميرة
فى سابعه ، وسارت ليلة العاشر منه بالكسوة للكعبة والرَّسُوم على العادة .

وفيه كُسِرَ الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً وسبعة أصابع ، وهو آخر يوم من
مِسرَى . وحضر الحاكم وعلى رأسه تاج مكلَّل بالجواهر . ونُودِيَ فى الناس بأن يلعبوا بالماء
فى النَّوْزُوز على عادتهم ، ففعلوا .

ونزل الحاكم يوم النحر إلى المصلى ، فصلَّى بالناس وخطب ، ونحر بها ثلاث بُدُن ،
وعاد إلى القصر فحضر السَّماط ، ثم نَحَرَ فى الملعب إحدى وعشرين بَدَنَةً ، وواصلَ النحر
أَيَّامًا .

وفىها قُتِلَ القاضى حسين بنُ النعمان ، ضُربت رقبته ثم أُحرق بالنار . وذلك أن
مُنْتَظَمًا رفع رقعةً إلى الحاكم يذكر فيها أن أباه تُوفَّى وترك له عشرين ألف دينار ، وأنها
فى ديوان القاضى ، وقد أخذ منها رزق أوقاف معلومة . وأنَّ القاضى حسين بن النعمان
عرَّفه أن ماله قد نجز . فدعا به وأوقفه على الرقعة ، فقال كقوله للرجل من أنه قد استوفى
ماله من أجرة . وأمر بإحضار ديوان القاضى ، فأحضر من ساعته ، فوجد أنَّ الذى وصل
إلى الرجل أيسرُ ماله . فعُدَّد على القاضى حسين ما أقطعه وأجرى له وما أزاح من عِلَّله
لثلاثا يتعرض إلى ما نهاه عنه مِنْ هذا وأمثاله . فقال : العفو والتوبة ، فأمر به فُضِّرت
عنقه وأُحرق .

وقتل عدَّة أناس يزيد عددهم على مائة نفس ، ضربت أعناقهم وصلبوا ،

وقتل عبد الأعلى بن هاشم من القرابة ، لأنه كان يتحدث بأنَّه يلى الخلافة ، وأنه
كان يجمع قوما ويعدهم بولاية الأعمال . وقد تقدَّم خبره .

فيها ذكر المسبّحى خبر أبي ركة الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى (٢) ولّد بالأندلس وقدم القيروان ، فانتصب يعلم الصّبيان بها القرآن ، ثم دخل إلى مصر فأقام بها وبأريافها يعلم الصّبيان مدّة ، ثم خرج إلى [١٦٠] الإسكندرية وقد أكثر الحاكم من الإيقاع ببني قرّة وأكثر من قتلهم وتحريقهم بالنار، فخلعوا طاعته . وسبب ذلك أن بنى قرّة كان شيخهم مختار بن القاسم ، فلما بعث الحاكم يحيى بن على الأندلسى يخرج فلفول بن سعيد بن خزرون بطرابلس على صنهاجة ساروا معه إلى طرابلس ، وجرت الهزيمة عليه ورجعوا إلى برقة . فتنكر لهم الحاكم ، فامتنعوا عليه ، فبعث لهم بالأمان ؛ فقدم وفدّهم إلى الإسكندرية فقتلهم عن آخرهم سنة أربع وتسعين . وكان عندهم معلّم القرآن واسمه الوليد بن هشام ، يُنسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بنى أمية ؛ وكان يزعم أن له أثارة من علم ، ويخبر بأنّه سيملك ما ملكه آباؤه ، وكان يقال له أبو ركة . فدعاهم إلى نفسه فبايعوه ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله .

ثم بعث إلى لواتة ومزانة وزناتة فاستجابوا له ؛ ورحل إلى برقة ، والناس يُبَاكرونه في كلّ يوم فيُسلّمون عليه بالخلافة ويقبلون له الأرض ، فيجلس في وسطهم ويقول : أنا واحد منكم وما أريد شيئا من هذه الدّنيا ، ولا أطلبها إلّا لكم ، وليس معى مالٌ أعطيكم

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن من أكتوبر سنة ١٠٠٥ .

(٢) وكفى أبا ركة لركة كان يحملها في أسفاره على طريقة الصوفية . ابن الأثير : ٩ : ٦٨ . « وقد تعاظم أمره على الحاكم حتى عزم على الخروج إلى الشام وبرز إلى بلبيس بالعساكر والأموال ، فأشير عليه بالعود إلى مصر ، فعاد . »
النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٢ . ويذكر ابن القلانسي أن أبا ركة كتب بآيات شعرية إلى الحاكم وأرسلها مع ختكين الداعى استلها بقوله : يا أمير المؤمنين إن الذنوب عظيمة ، والدماء حرام مالم يحلها سنطك ، وقد أحسنت وأسأت ، وما ظلمت إلا نفسى . وسلم ختكين الرقعة إلى القائد الحسين بن جوهر الذى رفعها إلى الحاكم . ولكن ذلك لم ينجه من مصيره . ذيل تاريخ دمشق : ٦٥ - ٦٦ .

وإنمّا لي عليكم طاعة ، وإن نصرتموني نصرتم أنفسكم ، وإن قاتلتهم معي أخذتم حقيكم بأيديكم فيقولون له : يا أمير المؤمنين نحن مبايعون لأمرك مطيعون لك ، فمُرنا بأمرك .

لَمْ يَزَلْ مَعَهُمْ يَطُوفُ قَرْىَ بَرْقَةَ وَيَأْخُذُ الْبَيْعَةَ ، إِلَى أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَبَرْقَةَ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْحَاكِمُ جَيْشًا عَلَيْهِ يَنَالُ الطَّوِيلَ التُّرْكِي فِي نِصْفِ شَعْبَانِ سَنَةِ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ ، فَوَاقَعَهُ أَبُو رَكُوةَ وَقَتْلَهُ وَمُعْظَمَ عَسْكَرِهِ ، وَظَفِيرَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ وَالنَّعْمِ الْجَلِيلَةِ بِمَا قَوَى بِهِ ، وَاشْتَدَّ بِأَسِهِ .

وَكَانَ فِي ظَهْرِ أَبِي رَكُوةَ طَلَعَ كَوْكَبُ الذُّوَابَةِ ، فَكَانَ يَضِيءُ كَالْقَمَرِ وَلَهُ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ ، وَيَقْوَى وَيَكْثُرُ نُورُهُ وَأَمَرَ أَبِي رَكُوةَ يَشْتَدُّ وَيَعْظُمُ . فَأَقَامَ هَذَا الْكَوْكَبُ شَهْرًا ، ثُمَّ اضْمَحَلَّ نُورُهُ وَضَعُفَ لَمَعَانُهُ وَأَخَذَ أَمْرَ أَبِي رَكُوةَ يَنْقُصُ وَيَضْعُفُ إِلَى أَنْ أَخِذَا أَسِيرًا ، فَغَابَ الْكَوْكَبُ وَلَمْ يَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَكَانَ شَأْنُ هَذَا الْكَوْكَبِ فِي دَلَالَتِهِ عَلَى أَبِي رَكُوةَ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ .

وَابْتَدَأَ الْحَاكِمُ فِي تَجْرِيدِ الْعَسَاكِرِ شَيْثًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَنَزَلَ أَبُو رَكُوةَ بَعْدَ ظَفَرِهِ عَلَى بَرْقَةَ فَحَاصَرَهَا ، وَصَنَدَلَ الْحَاكِمُ أَمِيرُهَا يَقَاتِلُهُ ، حَتَّى اشْتَدَّ الْحِصَارُ وَمُنِعَ أَهْلُ بَرْقَةَ مِنَ الْمَبَرَةِ ، فَفَرَّ صَنْدَلٌ ، وَمَعَهُ شِيُوخُ الْبَلَدِ ، إِلَى الْحَاكِمِ ، وَحُتُّهُ عَلَى بَعْثِ الْجِيُوشِ ، وَأَعْلَمَهُ بِقُوَّةِ أَبِي رَكُوةَ وَاسْتَفْحَالَ أَمْرِهِ . وَدَخَلَ أَبُو رَكُوةَ إِلَى مَدِينَةِ بَرْقَةَ وَاسْتَخْرَجَ الْأَمْوَالَ ، وَأَقْطَعَ بَنِي قَرْةَ أَعْمَالَ مِصْرَ ، مِثْلَ دَمِيَاظٍ وَتَنْيَسَ وَالْمَحَلَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَكَتَبَ خَطَّهُ بِذَلِكَ ؛ وَأَقْطَعَ دُورَ الْقَوَادِ وَالْأَكَابِرِ الَّتِي بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ ؛ وَجَدَّدَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ . فَتَدَبَّحَ الْحَاكِمُ لِقِتَالِهِ الْقَائِدَ أَبَا الْفَتْوحِ فَضْلَ بْنَ صَالِحٍ ^(١) فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ وَتَسْعِينَ ، وَاتَّبَعَهُ بِالْعَسَاكِرِ فَاجْتَمَعَتْ

(١) هُوَ الْفَضْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَسِيرُونَ فِي رُكَابِ الْعَزِيزِ بِإِثْنِهِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ الْقَوَادِ الْكِبَارِ عَلَى زَمَنِ الْحَاكِمِ . نَظَّمَ فِيهِ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الْغَفَّارِ ، شَاعِرُ الْحَاكِمِ ، أَيْيَاتًا مِمَّنْ نَقِصِدُهُ فِي مَدْحِ الْحَاكِمِ ، مِنْهَا :

إِنَّمَا الْفَضْلُ غُرَّةٌ فِي وَجْهِهِ الْمَدَائِحِ
أَرِيحِي ، رِيَاحِهِ عِبَقَاتِ الرِّوَانِحِ
كَمِثَّةٍ الْجُرْدِ كَفِّهِ بَيْنَ غَدَادِ وَرَالِحِ
لِنَحْنِ تَصْلُحِ الْأُمُورَ بِرَأْيِ ابْنِ صَالِحِ

انظر : الفاطميون في مصر : ١٥٨ - ١٥٩ .

بالإسكندرية ، وسار بها ، فلقية أبو ركوة بذات الحمام^(١) . وكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة العسكر والاحتواء على ما فيه من مال وسلاح ؛ فعظم شأن أبي ركوة .

ووردت الجند على الحاكم بذلك للنصف من رمضان ، فكان من تدبير الحاكم أن دعا بوجوه رجاله وقواده ، فأمرهم أن يكتبوا أبا ركوة ويعرفوه أنهم على مذهبه ورأيه ، وأنه إن توجه إليهم وقرب منهم صاروا في جملته وقتلوا معه ؛ وذكروا ما يقاسونه من قتل وجوههم وأكابرهم ، وأنهم لا يأمنون في ليلهم ولا نهارهم ، مع ما يسمعون من انتقاص الشرف ونحو هذا . فكتبوا بذلك وأنفذوا إليه عدة كتب من كل واحد منهم كتابا مع رسوله .

فلما تواتر ذلك عليه وثق به ولم يشك فيه ، وحشد جموعه ووعدهم بأموال مصر ونعمها ، وسار . فخلع الحاكم على أبي الحسن علي بن فلاح ، وسيّره إلى ضبط بركة الحبش في عسكر ، فأقام بها أياما ؛ ثم عدى إلى الجيزة ، وتلاحقت به العساكر براً وبحراً . واضطربت الأسعار بمصر ، وعدم الخبز وبيع مَبْلُولاً ستّة أرطال بدرهم ، وكان يباع عشرة أرطال بدرهم ، وأنفق في العساكر [٦٠ ب] المتوجهة لكل واحد أربعة وعشرين دينارا .

وكُتِبَ على بن صفّوح بن دغفل بن الجراح الطائي ، فحضر في سابع عشر شوال ، وخُلع عليه ، وطوّق بطوق من ذهب ، وحمل .

وتزايد سعر الدقيق والخبز وروايا الماء ، وازدحم الناس عليها .

وخُلع على القائد فضل بن صالح ثوبٌ ديباج مثقل طميم أحمر ومنديل ذهب ، وقُلِّدَ بسيف وحُمِّلَ على فرس بمركب ذهب ، وبين يديه تسعة من الخيل وثلاثون بنداً مذهبة

(١) هناك عدة قرى تحمل اسم الحمام ، منها واحدة يقسم إبنوب شرق النيل على مسافة ساعة منه وجنوب إبنوب على مسافة نصف ساعة ، ولذا يقال إبنوب الحمام ؟ وقرية أخرى جنوب مدينة أدفو من أعمال إسنا ، وثالثة في أول بلاد الفيوم .
الخطط التوفيقيّة : ١ : ٧٥ . وفي القاموس المحيط : ذات الحمام قرية بين الإسكندرية وإفريقية .

وأربعة عشر سفطا فيها أنواع الثياب . وسار إلى الجيزة ، وأكمل لكل واحد من العساكر السائرة خمسون دينارا . ونزلت إليه خزانة السلاح^(١) .

وورد الخبر بنَهَب الفَيَّوم ؛ فجهزت إليها سرية ، فأوقعوا بأصحاب أبي ركة وبعثوا إلى القاهرة بعدة ردوس طيف بها .

وسار القائد فضل من الجيزة في رابع ذى القعدة والغلاء بالعسكر ، فبيعت الوبية من الشعير بخمسة دراهم والخبز ثلاثة أرطال بدرهم .

وأقام على بن فلاح في مضاربه بالجيزة ، وحُمل إليه خيمة وخمسة أفراس بمراكبها ، وسيف ، وألفا دينار وثلاثون ثوبا ، فأنفق في أصحابه .

فلما كان في ثامن عشر ذى القعدة وقع في الناس خَوْفٌ في الليل وضجيج ، فنزلت العساكر طائفة بعد طائفة ، والناس جُلُوس في الشوارع وعلى أبواب الدُور ليلَهُم كلُّه ، يبتهلون بالدعاء بالنصر ، فلحقّت هذه العساكر بابن فلاح وهو بالجيزة ؛ فسيّر عسكرياً إلى الفَيَّوم ، وأقام على خوف ووجل . فبلغ أبا ركة إقامة على بن فلاح بالجيزة ، فأسرع إليه وكبس عسكره ونهب سواده ؛ وأخذت خزائن السلاح ؛ ووقع القتال الشديد فقتل خلق كثير من أصحابه وجرح خلق لا يحصى . ولما نزلت خزائن السلاح من عند الحاكم مع قائد القوادر ، وعظم البكاء والضجيج على شاطئ النيل لكثرة القتلى في العسكر ، منع ابن فلاح من حمل الموتى إلى مصر ، وأمر بدفنهم في الجيزة . وافتقد كثير من العسكر فلم يُعلم لهم خبر ، ولم يَسَلَم من العسكر إلا القليل ؛ فغلقت الأسواق ، وجلس الناس بالشوارع

(١) خزانة السلاح كانت بالقصر الكبير في صدر الشباك الذي يجلس فيه الخليفة تحت القبة . الخطط : ١ : ٤٠٧ . وكان الخلفاء يقومون بتفتيشها من وقت لآخر ، كما كانوا يقومون بتفتيش سائر الخزائن ، وفي مناسبات التفتيش يعطى لأمين الخزائن مبلغ معين تفضلا من الخليفة ، فكان أمين خزائن السلاح يحصل على خمسة وعشرين دينارا . الفاطميون في مصر : ٢٦٥ . نقلنا عن خطط المقرئ .

غماً لما جرى على العسكر ؛ وتزايد البكاء من الناس على فقد آبائهم ومعارفهم . وباتوا وأصبحوا يوم السبت العشرين منه ، فورد الخبر بدخول أبي ركوّة في جموعه إلى الفيوم ؛ وسار فضل بن صالح لقتاله ، فالتقى معه في ثالث ذى الحجة وحاربه ، فكانت وقعة عظيمة قُتِلَ فيها مالا يحصى كثرة . وانهزم أبو ركوّة ، واستأمن بنو كلاب وغيرهم من العرب . فسارت العساكر في طلب أبي ركوّة ، وحضرت الرعوس من الفيوم ومعها الأسرى ، وهي تجاوز ستة آلاف رأس ومائة أسير ، فطيف بها بالبلد ، وقُتِلَ الأسرى بالسيف بعد مالحقهم أنواع البلاء بيد العامة ، يَصْفَعُونَ أَقْفِيَتَهُمْ وَيَنْتِفُونَ لِحَاهُمْ ، ويضربونهم ، حتى تفتحت أكتاف كثير منهم ، فكان أمراً مهولاً . وتواتر مجئ من أخذ من عسكر أبي ركوّة فجئ بخلق كثير وعدّة رعوس .

ودخل ابن فلاح من الجيزة فعُخِلَ عليه . واستمر القائد فضل في طلب أبي ركوّة وهو يبعث بمن قُبِضَ عليه من الرجال وبرعوس من يقتلهم شيئاً بعد شيء . وعاد عليّ بن الجراح من عند القائد فضل فعُخِلَ عليه .

وفي الثاني من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ورد الخبر من القائد الفضل بن صالح بحصول أبي ركوّة ووقوعه في يده ، فابتهج الناس لذلك ؛ وخُلع على قائد القواد وعلى أولاده وعلى البدويّ الذي خرج في طلب أبي ركوّة حتى أدركه ببلد النوبة ؛ وعلى أبي القاسم عليّ بن القائد فضل ، وعلى ابنه . وذلك أن أبا ركوّة دخل بعد هزيمته إلى بلد النوبة ، فقتلته القائد فضل وبعث إلى ملك النوبة بالقبض على أبي ركوّة ، وسير إليه عسكرياً مع الكتاب . فلما بلغوا أطراف النوبة وجدوا أبا ركوّة قد اختفى بدير هناك وله فيه أربعة عشر يوماً ، فدلّتهم عليه رجل من العرب^(١) ، فقبضوا عليه في ربيع الأول منها

(١) راسم هذا الدير دير أبي شودة في أطراف النوبة وكان المساعد على القبض عليه الشيخ أبو المكارم هبة الله . ويذكر النوري ، نقلاً عن بعض المؤرخين ، أنه اعتبرت الأكياس التي خرجت مع القائد فضل لما خرج للقاء أبي ركوّة فكانت زنتها فوارع خمسة وعشرين قنطاراً ، وأن جملة ما أنفق في هذه الفتنة ألف ألف دينار . نهاية الأرب .

وأتوا به إلى القائد فضل . فسار به إلى مصر ونزل بركة الحبش^(١) يوم الجمعة للنصف من جمادى الآخرة ، فخرج إليه قائد القواد بسائر [رجال] الدولة ، وسلم عليه ، وأبو ركة [١٦١] في مضرب ومعه القائد فضل ؛ فأقام هناك إلى بكرة يوم الأحد سابع عشره ؛ فسار من بركة الحبش بعساكره وأبو ركة على جمل فوق سرير ، وعليه ثوب مُشَهَّر ، وفوق رأسه طرطور طويل ومعه رجل يمسكه . وذلك أنه لما ألبس الطرطور صاح : ياأبا الفتوح ، ما كذا ضُيِّت لي . فصُفَع صَفْعَة منكرة وأمسك يديه هذا القائد خلفه ، وقد اجتمع الناس من كل جهة ، فكان جمعا لم يَر مثله كثرة ، وأُوجرت الدور والحوانيت بحمله^(٢) وبات الناس على الطرقات حتى وُصل به إلى القصر ، فأوقف ساعة على باب القصر وهو يشير بأصبعه ويطلب العفو ، والصفعُ في قفاه ؛ ويقال له قَبِل الأرض فيقبَل ، ثم سِير به إلى مسجد تَبَر . فلما خرج من باب القاهرة أشار إلى الناس يرجمونه بالحجر والاجر ، ويصفعونه وينتفون لحيته ، حتى عاين الموت مرارا ، إلى أن بلغ مسجد تبر ، فَضْرَب عنقه وُصِّل جسده ؛ وحُيِّل رأسه إلى الحاكم ؛ فخلع على القائد فضل وغيره من القواد والعرفاء الذين كانوا معه ، وخلع على قائد القواد . فكان يوماً عظيماً مَهُولاً لكثرة اجتماع الناس .

(١) بركة الحبش وهي بركة المغافر وبركة حير وبركة الأشراف ، واشتهرت ببركة الحبش ، وهي بركة لم تكن عميقة المياه ، وإنما كانت حوضاً زراعياً يغمره النيل وقت الفيضان عبر خليج يعرف بخليج بني وال كان يستمد مياهه من النيل جنوب الفسطاط ، فيتحول الحوض وقت الفيضان إلى ما يشبه البركة . وعرفت ببركة الحبش لأنها كانت من ممتلكات بعض الرهبان الأقباش . النجوم الزاهرة : ٦ : ٣٨٠٢ . وأول من زرع هذا الحوض قرة بن شريك ، والى مصر ٩١ - ٩٦ هـ . وعرفت ببركة الأشراف لأنها صارت يبعد الأمويين وقفاً على الطالبين . وكانت من أكبر منزهات مصر . الخطط : ١ : ٤٨٦ ، ٢ : ١٥٢ - ١٥٧ ، قوانين الدواوين : ١٠٢ .

(٢) هكذا في الأصل : فقد يكون المعنى : « وأُنقلت الدور والحوانيت بحمل هذا الجمع » أو لعل صحة العبارة « وأجرت الدور والحوانيت بحملة » .

وأقاموا ليلتين في الدوانيت والشوارع وعلى أبواب الدور يظهرون المسرة والفرح^(١).

وأظهر أبو ركة في مواقف الألم صبرا وتجلدا ؛ وكان لا يخاطب القائد الفضل إلا باسمه أو بكنيته . ولما أقام في بركة الحبش ، وخرج الناس ورأوه ، كان يسأل من يلقاه عن اسمه وكان ينلو القرآن ويترحم على السلف . وكان شاباً أسمر تعلوه حمرة ، مُسْتَنّ الوجه طويل الجبهة ، أشهل^(٢) ، بزُرقة ، أقنى ، صغير اللحية ، أَصْهَب^(٣) إلى الشقرة ظاهر القلوب تبين فيه الجِد ، لا يكاد يتجاوز ثلاثين سنة يوم قُتل . ويقال إنه وكَدَ رجل من موالى بنى أمية ..

ولما قُتل أبو ركة نفذت الكتب إلى الأعمال كلها بخبر الفتح . فلما كان في رجب ورد شيوخ كل ناحية وقضائها ، وقضاة الشام وشيوخه ، لتهنئة الحاكم بالظفر وأخذ أبي ركة . وقدم أبو الفتوح حسن بن جعفر الحسنى أمير مكة في شعبان لتهنئته ، فخلع عليه وأكرمه ، وأنزل بدار بَرْجَوَان .

وفيه أرجف الناس بأن القائد فضل بن صالح ينظر في أمور الدولة وتدبيرها بدل قائد القواد حسين بن جوهر ؛ وكان بينهما في الباطن تباعدٌ من جهة الرتبة والحسد عليها : وكان القائد فضل قد تفاقم وعظمَ تَبَهُهُ وترفعه على قائد القواد في قوله وفعله : قال المسيحي : قال لي الحاكم بأمر الله وقد جرى حديث أبي ركة : ما أردت قتله ولكن جرى في أمره

(١) كان بالقاهرة شيخ يقال له الأزارى إذا خرج خارجي صنع له طرطورا وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة ، وأخذ قردا وجعل في يده درة يعلمه أن يضرب بها الخارجى من روائه ، ويعطى في سبيل ذلك مائة دينار وعشر قطع ثياب . وقد اشترك هذا الأزارى مع قرده في موكب التشهير بأبي ركة . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٦ . ويذكر صاحب النجوم الزاهرة في موته أن الحاكم أمر به أن يحمل إلى ظاهر القاهرة ويضرب عنقه على تلٍ بإزاء مسجد ريدان ، فحمل إلى هناك ، ولما أنزل فإذا به ميت فقطع رأسه وحمل إلى الحاكم فأمر بصلب جسده . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٧ .

(٢) الشلة في العين أن يشوب سوادها زرقة .

(٣) الصبغة والصبوبة احمرار الشعر .

ما لم يكن عن اختيارى ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ما قصّر عبدك الفضل بن صالح في خدمته ، قال : وإيش تظن أن فضل أخذ ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا قول الناس . فقال : والله العظيم ما أفلح فضل في حركته تلك ، ولا أنجح ميزاننا . أنفقنا ألف ألف دينار ذهباً صناعاً ، وإنما أخذه ملك النوبة وأنفذ به إلى . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وعلمت أن هذا مما قرّر قائد القوّاد الحسين بن جوهر في نفسه ليبطل فعل فضلي وخدمته ، فاستقر .

وأما خبر القاهرة فإنه جرى الأمر في يوم عاشوراء على العادة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين والتّاحة إلى جامع القاهرة^(١) ، فتظاهروا فيه بسبّ السّلف ، فقبض على رجل ونودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها ، وضربت عنقه . وتقدّم الأمر إلى أصحاب الشرطة ألا يتعرض أحد لسبّ السّلف ، ومن فعل ذلك قبض عليه ، فانكفّ الرعاع عن السبّ والتعرض للحاج .

وللنصف من صفر وردت قافلة الحاج .

وفي نصف ربيع الأول جمع الحاكم نحو ألتى باقة نرجس وأتحف بها الأولياء . واستهل رجب بيوم الأربعاء ، فخرج أمر الحاكم إلى أصحاب الدواوين بأن يؤرخوه بيوم الثلاثاء .

وفيه هبت ريح عاصفة ، ثم أرعدت ونزل المطر وفيه برّد كهيفة الصفائح إذا سقطت إلى الأرض تكسر ، فكان فيه ما يبلغ وزنه زيادة على أوقيتين ، وفيه ما هو قدر البيضة ، فغطى الأرض ، وأقام الناس أياماً يتبعونه في الأسواق . ولم يُعْهَد [٦١ ب] مثل ذلك بمصر .

(١) في مناسبة ذكرى استشهاد الحسين ، رضى الله عنه ، وكان هذا الاحتفال الحزين يقام في العراق أيضا على أيام

بني بويه .

وجرى الرسم في شهر رمضان كل ليلة على العادة ، وصلى الحاكم فيه بالناس صلاة الجمعة وخطب ثلاث مرات . وصلى يوم عيد الفطر بالناس وخطب بالمصلّى على عادته . وللنصف من ذى القعدة ^(١) سارت قافلة الحاج بكسوة الكعبة وصحلات الأشراف وغيرها على [ماجرى به الرسم] ^(٢) .

وفتح الخليج في السابع والعشرين من مسرى ^(٣) والماء على خمس عشرة ذراعاً وأصابع ، فلم يركب الحاكم لفتحه ؛ ولم يُوفِّ ست عشرة ذراعاً إلى ثامن توت ؛ فخلع على ابن أبي الرّدّاد ، وحُمِّل .

واجتمع الناس الذين جرت عادتهم بحضور القصر لسماع ما يُقرأ من كتب مجالس الدعوة ، فضربوا بأجمعهم ، ولم يُقرأ عليهم شيء .

وفيها رحل بنو قرّة من البحيرة بأرض مصر إلى ناحية من عمل برقة مع كبيرهم مختار بن قاسم .

(١) كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوماً في سنة ٣٩٤ بأن يسير الحاج أول ذى القعدة بعد أن كانت العادة قد جرت بخروجه في منتصفه ، وبهذا خرج الحاج هذه السنة في الموعد القديم .

(٢) زيد ما بين الحاصرتين استعانة بما ورد في السنوات السابقة في مثل هذه المناسبة وفي الأصل فراغ صغير بعد كلمة « عل » .

(٣) ويوافق اليوم الثاني والعشرين من ذى القعدة . وكانت الشؤون الزراعية تخضع لتوقيت السنة القبطية ، وهي ثلثائة وستون يوماً ، ومعها النسيخ خمسة أيام وربع يوم تحل بعد انقضاء شهر مسرى ، وفي كل أربع سنين تكون النسيخ ستة أيام وتسمى عندئذ الكبيس . قوانين الدواوين : ٣٥٨ .

سنة سبع وتسعين وثلثمائة (١) :

في شهر ربيع الأول تزايد أمر الدراهم القطع المتزايدة ، فبلغت أربعة و ثلاثين درهماً بدینار ، ونزع السعر واضطربت أمور الناس . فرُفعت هذه الدراهم ، وأنزل من بيت المال بعشرين صندوقاً فيها الدراهم الجدد لتفرّق على الصَّيارِفة . وقرئ سجلٌ برفع تلك الدراهم والمنع من المعاملة بها ، وأنظر مَنْ في يده منها شيءٌ ثلاثة أيام ، وأمر الناس بحمل ما كان منها إلى دار الضرب ، فقلق الناس ، وبلغ كل درهم من الجدد أربعة دراهم من القطع . وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم ، فنودي أن يكون الخبز كل اثني عشر رطلاً بدرهم جديد ، واللحم رطلين بدرهم ، وسُعر أكثر الأشياء ، واستقرَّ كلُّ دينار بثمانين درهماً من الجدد . وسكن أمر الناس بعد ما ضُرب كثير من الباعة بالسيّاط وشهّروا . وقُبض على جماعة من أصحاب الفُتّاع والسّمّاكين ، وكُبست الحمامات ، وضُرب جماعة لمخالفتهم ما نهوا عنه وشهّروا .

وفي تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بِمَحْوِ ما هو مكتوبٌ على المساجد والأبواب وغيرها من سبِّ السلف ، فمُحى بأسره ، وطاف متولّي الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه .

وقرئ سجلٌ بترك الخوض فيما لا يعني ، واشتغال كل أحد بمعيشتة عن الخوض في أعمال أمير المؤمنين وأوامره .

وجرى الأمر في الفطر على السّماط ليالي رمضان ، وفي صلاة الحاكم بالناس يوم الجمعة على ما تقدّم .

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٠٦ .

وركب الحاكم لفتح الخليج في ذى القعدة والماء على أربعة عشر ذراعاً وأصابع ، وهو ناسع توت ، فانتهى بعد فتح الخليج ماء النيل إلى ستة عشر أصبعاً من خمسة عشر ذراعاً ، ثم نقص ، فتحرك السعر وازدحم الناس على شراء الغلال وابتدأت الشدة .

وفيها مات يعقوب بن نسطاس النصراني ، طبيب الحاكم ، سكران في بركة ماء ، فحُمِلَ إلى الكنيسة في تابوت ، وشُقَّ به البلد ، ثم أُعيد إلى داره فدفن بها ، وسائر أهل الدولة في جنازته ومعه شموع كثيرة تَتَّقِدُ ، ومداخن عدَّة فيها بخور . وكان طبيب وقته ، عارفاً بالطب ، آية في الحفظ ، ما يُغْنِي له قط صوت إلا حفظه . ولو غَنَاه مائة مغنٍ في مجلس واحد لَحَفِظَ سائر ما غَنَوْه به وتكلم على ألحانها وأشعارها . وكانت له يدٌ في المَوسِيقَا ، وانفرد بخدمة الحاكم في الطَّبِّ فَأَثَرى ، وترك زيادة على عشرين ألف دينار هينا ، سوى الثياب وغيرها .

وتوفي الأمير مَنجُوتكين لأربع خلون من ذى الحجة ، فصلى عليه الحاكم .

سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (١) :

في المحرم ابتدأ نقص ماء النيل من ثامن عشر توت ، فاشتد الأمر ، وبيع الخبز مبلولا ، وضرب جماعة من الحَبَّازِينَ وشُهِرُوا لتعلُّر وجود الخبز بالعشايا .

ووصل الحاج لثمان بقين من صفر .

وفي ربيع الأول خلع على عليّ [بن جعفر] بن فلاح بولاية دمشق حربا وخراجا (٢) . واشتد الغلاء . فلما كان ليلة عيد الشعانين (٣) مُنِع النَّصَارَى من تزيين كنائسهم على ما هيَ عادتهم ، وقبض على جماعة منهم في رجب ، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس وإثباته في دواوين السلطان ، وكُتِبَ إلى سائر الأعمال بذلك . وأُحْرِقَ صلبان كثيرة على باب الجامع وفي الشرطة .

وفي يوم الجمعة سادس عشر رجب وليّ مالك بن سعيد الفارقي القضاء وتخلع عليه في بيت المال قميص مُصَنَّم وعمامة [٦٢ ١] مذهبة وطيلسان محشى مذهب ، وقُلتَ بسيف . وقرأ سجلته أحمد بن عبد السميع وهو قائم ، فخرج وبين يديه سبط ثياب ، وحُمِلَ على بغلة وبين يديه بغلتان . وكان مالك بن سعيد لما قُرئ سجلته قائما على قدميه ، وكلما مرّ ذكر

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من سبتمبر سنة ١٠٠٧ .

(٢) بعد عزل أبي صالح مفلح الحياي الذي كان يعاونه في شئون الخراج والمال الكاتب النصراني منصور بن عبدون .

ذيل تاريخ دمشق : ٦٢ - ٦٦ .

(٣) عيد الشعانين هو عيد الزيتون ، ومعنى الشعانين : التسبيح ، ويكون في سابع أحد من صومهم . وسنتهم فيه أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة ، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنبر (الحمار) في القدس ودخله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان هذا العيد من المواسم التي تزين فيها كنائس النصارى بمصر . وفي رجب سنة ٣٩٨ ، هذه ، منع الحاكم الاحتفال به وقبض على عدد من وجددهم يحملون الخوص . الخطط :

١ : ٢٦٤ .

أمير المؤمنين قَبْل الأرض . ثم سار من القصر إلى الجامع العتيق ، وكلما مرَّ بباب من أبواب القصر نزل عن بغلته وقَبِل الباب . فلما وصل إلى الجامع وقف خلف المنبر قائماً حتى انتهت قراءة السجل ، وقَبِل الأرض كلما ذكر أمير المؤمنين . ثم عاد إلى داره بالقاهرة وتسلم كتب الدعوة التي تُقرأ بالقصر على الأولياء .^(١)

وفي يوم الجمعة سابع شعبان اجتمع أهل الدولة في القصر بعد ما طُلبوا لذلك ، وأمروا الأيَّام لأحد ، فخرج خادماً وأسراً إلى صاحب السُّر كلاماً ، فصاح : صالح بن عليّ ؛ فقام صالح بن عليّ الرُّوزباري ، فأخذ بيده ولا يعلم أحد ما يُراد به . فأدخل إلى بيت المال ، ثم خرج وعليه دُرّاعة مصمتة وعمامة مذهبة ، ومعه مسعود صاحب السُّر ، فجلس بحضرة قائد القواد ، وأخرج سجلاً قرأه ابن عبد السميع ، فإذا فيه ردُّ سائر الأمور التي ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر إليه . فعندما سمع في السجل صالح ذكره قام وقَبِل الأرض . ولما انتهى ابن عبد السميع من القراءة قام قائد القواد وقبل خدَّ صالح وهنأه وانصرف . فخرج صالح وبين يديه عدة أسفاط وثلاث بغلات بسروجها ولُجُمها . قال المسبّحي : قال لي الحاكم بأمر الله ، أخضرتُ ابن سُورين وحلفته على الإنجيل أن يكتب سجلاً صالح بن عليّ ولا يُطْلِع عليه أحداً من ابن جوهر ولا غيره ، وقلت له إنك تعرف ما أجازى به من يخالف أمرى فكُنْ منه على يقين . فوالله ما اطلع عليه أحد غيري وغيره ، حتى كان .

وجلس صالح في مجلس قائد القواد من القصر ، ووقع عن الحاكم : ورفع إليه الأولياء وسائر المتصرفين قصصهم وأحوالهم ، ونقّذ أوامر الحاكم ، وطالعه بما تجب مطالعته به . وقُلِّد ديوان الشام ، الذي كان يتولاه ، لأبى عبد الله الموصلي الكاتب . وخلع على الشريف

(١) راجع : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، للتعرف على طبيعة هذه الدعوة ورسومها ومجالسها وكذلك : الخطط للمقرئ ، الذي يفصل الحديث عنها ويعطيه .

أبى الحسن على بن إبراهيم النرسى لنقابة الطالبين وحمل على فرسين ، وقرئ سجله في القصر والجامع .

وخلع على صقر اليهودى وحمل على بغلة ، وقيد إليه ثلاث بغلات بسروج ولُجُم ثقال وحمل معه عشرون سبط ثياب ، وأنزل في دار قُرشت وزينت ، وعلق على أبوابها وحجرها الستور ، وأعطى فيها جميع ما يحتاج إليه ، وقيل له هذه دارك ، فحصل له في ساعة واحدة ما قيمته عشرة آلاف دينار . واستقر طبيب الحاكم عوضا عن ابن نسطاس .

وورد الخبر بأن ابن الجراح فرّ بعد قتل جماعة من أصحابه . وخلع على ياروخ وسار إلى دمشق وتبعه عسكر كثير .

واستهل رمضان ، فحضر الأسماط مع الحاكم القائد صالح قائد القواد^(١) ، والقاضى مالك بن سعيد ، وجلس فوق القاضى عبد العزيز بن النعمان . وقد صلى الحاكم بالناس صلاة الجمعة في جامع راشدة ، وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على ما جرت عادته به ، وأصعد معه المنبر وقت الخطبة قائد القواد صالح بن على ومالك بن سعيد القاضى والشريف النرسى وجماعة .

وفي ثالث شوال أمر الحاكم قائد القواد [السابق]^(٢) حسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز بن النعمان بأن يلزما داريهما^(٣) ، ومُنعا من الر كوب وسائر أولادهما ، فلبسوا الصوف وامتنع الداخل إليهم ، وجلسوا على الحصر .

وفي ذى القعدة ولى غالب بن مالك الشرطتين والحسبة والنظر في البلد ، وقرئ سجله بالجامع العتيق وجامع ابن طولون ، وصرف خود ومسعود .

(١) في الأصل : وقائد القواد ، وهو خطأ لأن صالحا هو نفسه قائد القواد وقد سبق ذكر ذلك في الأسطر القليلة السابقة ، وسيرد كذلك بعد أسطر .

(٢) زيد مابين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) في الأصل : دورهما . ولعل هذا يشبه عقوبة تحديد الإقامة التي تتبع في الدول الحديثة في أيامنا هذه .

وفي ثالث عشره سارت قافلة الحاج .

وفي تاسع عشره عفا الحاكم عن قائد القواد والقاضى عبد العزيز ، وأذن لهما فى الركوب فركبا إلى القصر بزبهما من غير حلق شعر ولا تغيير حال .

وتوقفت زيادة النيل ؛ فاستسقى الناس ، وخرجوا ومعهم النساء والصبيان مرتين .
وقرئ سجله بإبطال المكوس والمؤن التى تؤخذ [٦٢ ب] من المسافرين عن الغلال والأرز .

وصلّى الحاكم صلاة عيد النحر ، وخطب ونحر فى المصلى والملاعب على عادته ورسمه
وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم . وتعتذر وجوده . وجرى الرسم فى عيد القدير على عادته . واشتد تكالبُ الناس على الخبز ، فاجتمعوا وضجُّوا من قلته وسواده ؛ ورفعوا للحاكم قصة مع رغبة ، وكانت الحملة الدقيق^(١) قد بلغت ستة دنانير .

وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشر ذراعا ، فبلغ التليس^(٢) أربعة دنانير والويبة من الأرز بدينار ، واللحم كل رطلين بدرهم ، ولحم البقر رطلين ونصفا بدرهم ، والبصل عشرة أرطال بدرهم والخبز ثمان أواق بدرهم ، وزيت الوقود الرطل بدرهم .
وفيهما خرج النصارى من مصر إلى القدس لحضور الفصح بقُمامة^(٣) على عادتهم فى كل

(١) الحملة من الدقيق توازى ثلثائة رطل مصرى ، والرطل يساوى اثنتى عشرة أوقية زنة كل منها اثنا عشر درهما .
قوانين الدواوين : ٣٦٥ ، ٤٥٥ .

(٢) التليس وزن مائة وخمسين رطلا ، أو نصف حملة . قوانين الدواوين ٣٦٥ .

(٣) المقصود بها كنيسة القيامة بالقدس ، وقد أمر الحاكم بهدمها فى هذه السنة فكتب بذلك أمر فيه « فليصر طولها مرصا وسقفها أرضا » نهاية الأرب .

وأصل تسميتها بالقمامة تاريخى يرجع إل أن القبر المقدس بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج سور بيت المقدس ، وهو الموضع الذى يزعم أن المسيح صلب فيه . معجم البلدان : ٧ : ١٥٨ - ١٥٩ .

سنة بتجمل عظيم كما يخرج المسلمون إلى الحج ، فسأل الحاكم ختكين الضيف العضدي^(١) ، أحد قواده ، عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة ، فقال هذه بيعة تعظمها النصارى ويحج إليها من جميع البلاد ، وتأتيها الملوك ، وتحمل إليها الأموال العظيمة ، والثياب والستور والفُرُش والقناديل ، والصلبان المصوغة من الذهب والفضة ، والأواني من ذلك ؛ وبها من ذلك شيء عظيم . فإذا كان يوم الفصح واجتمع النصارى بقمامة ، ونُصبت الصُلبان ، وعُلِّقت القناديل في المذبح ، تحيلوا في إيصال النار إليه بدهن البيلسان مع دهن الزئبق ، فيحدث له ضياء ساطع يظن من يراه أنها نار نزلت من السماء . فأنكر الحاكم ذلك ، وتقدم إلى بشر بن سُورين كاتب الإنشاء ، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعي أن يقصد القدس ويهدم قمامة ويُنهبها الناس حتى يغني أثرها . ففعل ذلك . ثم أمر بهدم ما في أعمال مملكته من البيع والكنائس ، فخُوف أن تهدم النصارى ما في بلادها من مساجد المسلمين فأمسك عن ذلك^(٢) .

(١) وكان قد عزل عن دمشق سنة ٣٩٦ بعد أن فشل في تنفيذ سياسة توفير الأموال بإنقاص مرتبات الأجناد . انظر

فيل تاريخ دمشق : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) جاء في نهاية الأرب : « وفيها في قاسع عشر ذي الحجة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق المكس وكنائس

ساعة الروم ، فهدم جميع ذلك » .

سنة تسع وتسعين وثلاثمائة (١) :

في ثالث المحرم نظر أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني في ديوان الخراج بانفراده من غير شريك .

وفي تاسعه ، وهو نصف توت ، أشيع وفاء النيل ، وخُلع على ابن أبي الرّدّاد^(٢) ، فابتدأ في النقص قبل أن يوفي ستة عشر ذراعاً من تاسع عشر توت ؛ فأمر الناس كافةً بالألا يتظاهر أحد منهم على شاطئ النيل بشئ من الغناء ، ولا يسمع في دار ولا يشرب في المراكب . وكبست عدة دور ، وقُبض على جماعة .

وقدم الحاجّ في حادى عشرى صفر .

ونودى ألا يدخل أحد الحمام إلا بمِئزر ، ولا يمشى اليهود والنصارى إلا بالغيار ، وضربوا على ترك ذلك . وكبست الحمامات وأخذ منها جماعة وشهّروا من أجل أنهم وُجدوا بغير مِئزر .

ومُنح أن يدخل أحد إلى سوق الرقيق إلا أن يكون بائعاً أو مشترياً ، وأفرد الجوارى من الغلمان ، وجعل لكل منهم يوم .

ومنع من نصب الشراعات التي كانت النساء تنصبها في المقابر أيام الزيارة . وأشيع بين الناس بأن النبيذ يُمنع من بيعه ، فازدحموا على شرائه ، وبيع منه شئ كثير ، فعزّ حتى بيع كل عشر جرارٍ بدينار ، ولم يوجد لكثرة طلابه .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من سبتمبر سنة ١٠٠٨ .

(٢) المشرف على مقياس النيل ؛ وكان هذا الإشراف في أسرته من أيام بكار بن قتيبة قاضي المتوكل الذي تلقى كتاباً من الخليفة يأمره ألا يتول أمر المقياس إلا مسلم يختاره ، فاختار أبا الرّدّاد عبد الله بن عبد السلام المؤدّب وأجرى عليه الرزق سنة سبع وأربعين وتوارثه أولاده . قوانين الدواوين : ٧٥ - ٧٦ .

ودنح كلَّ أحد من الناس أن يخرج من منزله قبل صلاة الصبح وبعد صلاة العشاء^(١) ، واشتد الأمر في هذا ، واعتُقل جماعة خالفوا ما أمر به .

وقرئ سجل بترك الخوض فيما لا يعنى ، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك .

وقرئ سجل في ربيع الأول بالمنع من حمل النبيذ والموز ، وحذر من التظاهر بشئ منه أو من الفقاع ، والدَّليْنس ، والسمك الذى لا قشر له ، والترمس المعقن .

وقرئ آخر في سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم ، لكثرة ما اشتهر عندهم وداخلهم من الخوف بما يجرى من أوامر الحضرة في البلد .

وفي حادى عشر جمادى الآخرة قبض على عبد العزيز بن النعمان ؛ وطلب حسين بن جوهر ففرَّ هو وابناه [٦٣] وجماعة . وكثر الصَّباح في دار عبد العزيز ، وغلَّقت حوانيت القاهرة وأسواقها . فأخرج عن عبد العزيز وتودى في القاهرة بألا يغلق أحد . ثم ردَّ حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه ، وصاروا إلى الحاكم فأمرهم بالانصراف إلى دورهم ؛ وخُلع عليه وعلى عبد العزيز وعلى أولادهما ، وكُتب لهما أمانان .

وفي رجب كثرت الأمراض في الناس . وفشا الموت . وتخوَّف الناس من الحاكم فكتب عدة أمانات لأناس شتى . وأقطع مالك بن سعيد ناحية برنشت^(٢) .

(١) ما أشبه هذا بما يحدث في أيامنا هذه حين يصدر قرار بمنع التجول في الدول المصرية في أوقات الفتن . وقد سبق إل مثل هذه الخطوة زياد بن أبيه ، ابن أبي سفيان ، في العراق ، إذ قال في خطبته البترام : « فإياي ودليج الليل فإن لا أوق بمدليج إلا سفكت دمه . . . » وقد أتى برجل ظهر أنه خالف قرار منع التجول ، فاعتذر بأنه لم يعلم به لتغيبه بالصحراء في طلب ناقة له ضلت ، فقال زياد : « والله إني لا أظنك إلا صادقاً ولكن في قتلك صلاحاً للأمة » . وأمر بقتله .

(٢) برنشت يفتح الباء والنون ، من أعمال الجزيرة . قوانين الدواوين : ١١٧ .

وفي شعبان تراخت الأسعار .

وفي رمضان قرئ سجل فيه « يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون^(١) » ، ولا يُعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ، ويفطرون ، وصلاة الخمسين للذين بما جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولأهم عنها يُدفعون^(٢) ؛ ويخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التربع عليها المرتعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ؛ لا يسب أحد من السلف ، ولا يحاسب على الواصف فيهم بما يصف ، والحالف منهم بما حلف ؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده.

وفيه ركب سائر العرائف والأولياء وأكثر أهل البلد إلى القصر وقد عظمت الزحمة ، واصطفت العساكر حول القصر بالسلاح ، ولم يعرف أحد ما هذا الاجتماع ؛ فخرج صالح ابن علي بالخلع على فرس بسرج ولجام ذهب ، وبين يديه فرسان وسفط ثياب ، وسجل يتضمن أنه لقب بثقة ثقات السيف والقلم .

وأعيد عبد العزيز بن النعمان إلى النظر في المظالم .

وتزايدت الأمراض وكثر موت الناس ، وعزت الأدوية ؛ فبلغ السكر أربعة دراهم للرطل ، وبذر الرمان كل أوقية بدرهم ، ودهن البنفسج كل أوقية بدينار ، والعناب والإجاص كل أوقيتين بدرهم وباقة لينوفر بدينار ، والبطيخة بثلاثة دنانير .

(١) لا يقيد الفاطميون أتباعهم عند الصيام والفطر بروية الهلال وإنما يحكون الحساب وحده أو الحساب مع الرؤية ، ويقولون الرؤية والحساب كالظاهر والباطن ، فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد والحساب كالباطن لأنه معقول . ونرى هذا أيضا في كثير من المناسبات حين يشاهد هلال شهر ما فيصدر قرار من القصر الفاطمي بيده الشهر في يوم آخر ، سابق أو لاحق ، وسنجد أمثلة لهذا في خلال هذا الكتاب .

(٢) بهامش الأصل عبارة نصها : « وبخطه : صلاة التراويح أقامها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمر الناس بها في شهر رمضان ستة أربع عشرة بجميع من الصحابة ، فأم الناس أبي بن كعب بالمدينة وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة التراويح . واستمر الصحابة بعده يقيمونها ، وكان على رضي الله عنه إذا مر ليال رمضان فرأى القناديل تزهو وسمع القرآن يقرأ قال : نور الله قبر من نور علينا مساجدنا . وصليت عشرين ركعة لأنهم وزعوا القرآن عليها ليكون الختم في آخر الشهر » .

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد الفطر وصلى القاضي مالك بن سعيد بالناس في المصلّى
وخطب .

وفي ذى القعدة أعيدت المكوس التي كانت رفعت .

وسارت قافلة الحاجّ في النصف منه .

وحمل سباط عيد النحر يوم التاسع من ذى الحجة على عادته ، غير أنه أبطل منه .
الملاهي والخيال واللعب الذي كان يعمل في كل سنة .

وصلى القاضي بالناس صلاة عيد النحر وخطب .

وفي يوم عيد الغدير^(١) منع الناس من عمله . ودرست كنائس كانت بطريق المكس
وكنيسة بحارة الرّوم من القاهرة ونُهب ما فيها . وقتل في هذه الليلة كثير من الخدم
والصّقالبة والكتّاب بعد أن قُطعت أيديهم بالساطور على خشبة من وسط الدراع .

وفيهما مات أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المنجم لثلاث خلون من
جمادى الأولى^(٢) ، وقتل القائد فضل بن صالح ، ضُربت رقبته ليُتَشع بقين من ذى القعدة .

(١) يقول المقرئى إنه لم يكن عيداً مشروعاً ولا عمله أحد من سلف الأئمة ، وأول ما عرف بالإسلام في العراق أيام
معز الدولة على بن بويه سنة ٣٥٢ فاتخذته الشيعة من بعده عيداً لهم استناداً إلى حديث رواه البراء بن عازب ، رضى الله عنه ،
عن النبي صل الله عليه وسلم ، في سفر عند غدیر خم « إذ صل عليه السلام ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال :
ألسّم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . قالوا : بلى . قال : ألسّم تعلمون أنّي أولى بكل مؤمن من نفسه . قالوا : بلى .
قال : من كنت مولاه فعل مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . قال البراء : فلقبه عمر بن الخطاب ، رضى الله
عنه ، فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة . الخطط : ١ : ٣٨٨ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدوق المصري المنجم ، صاحب الزيج
الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس . يقول ابن خلكان إنه رآه في أربع مجلدات . ويرى ابن خلكان عن غيره أن ابن يونس
كان أبلاً مغفلاً يعم على طرطور طويل ويعمل رداءه فوق العمامة ، رث الثياب . ويذكر أنه مع هذا كان له إصابة بدعية غريبة
في النجامة لا يشاركه فيها غيره ، وكان أحد الشهود ، وكان متفنناً في علوم كثيرة ، يضرب بالعود ، وله شعر حسن . وفيات
الأعيان : ١ : ١٧٤ - ١٧٥ .

وقتل أبو أسامة جنادة أسامة بن محمد اللغوى^(١) لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة ،
ومعه الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوى ؛ واستتر عبد الغنى بن سعيد ؛ وكان ذلك
بسبب اجتماعهم بدار العلم وجلوسهم فيها .

وقتل رجاء بن أبى الحسين من أجل أنه صلى صلاة التراويح فى شهر رمضان .
وقُتِل أصحابُ الأخبار عن آخرهم لكثرة أذيتهم الناس بالكذب عليهم وأخذهم
الأموال من الناس .

وفىها قتل أبو على بن ثمال الخفاجى متولى الرحبة^(٢) من قبل الحاكم ، وملكها بعده
صالح بن مرداس الكلابى متملك حلب^(٣) .

(١) هكذا فى الأصل ولم أهتم إلى التعريف به فيما لدى من مراجع ولعل صحة العبارة : وقتل أبو أسامة جنادة بن
أسامة . . . الخ .

(٢) المقصود بها رحبة مالك بن طوق صاحبها أيام هارون الرشيد ، وهى على خمسة أيام من حلب وثمانية أيام من
دمشق معجم البلدان : ٤ : ١٣٦ - ١٣٨ .

(٣) أسد الدولة أبو على ، من بنى كلاب ، رأس الأسرة المرداسية التى حكمت حلب بين سنتى ٤١٤ - ٤٧٢
(١٠٢٣ - ١٠٧٩) بعد نزاع استمر فترة مع الفاطميين . معجم الأنساب لزمارور .

سنة أربعمئة (١) :

في حادى عشر صفر صُرف أبو الفضل صالح بن على الروزبارى ثقة ثقات السيف والقلم ، وقُرّر مكانه أبو نصر بن عبدون الكاتب النصرانى ؛ فوقّع من الحاكم فيما كان بوقّع فيه صالح ، ونظر فيما كان ينظر فيه ، وأُذن لصالح فى الركوب إلى القصر .

وسار ابن عبدون فى الموكب مع الشيوخ فى المنتهى وقال مثلى لا يساير أمير المؤمنين بأعلى من ذلك .

وكتب من إنشاء ابن سُورين [٦٣ب] لخدم قَمَامَة بالقدس .

وأحدث الحاكم ديوانا سماه الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم .
ووصل الحاجّ فى حادى عشر منه .

وفى ربيع الأول كثرت الأمراض والموت ، وعزت الأدوية المطلوبة للمرضى .

وشُهر جماعة وُجد عندهم فقاع وملوخية وترمس ودلينس بعد ضربهم .
وهُدم دير القصير^(٢) ونهب .

ولُقب ابن عبدون بالقاضى ، وكتب له سجلّ بذلك ، وحُمِل على بغلتين .

واشتدّ الأمرُ على اليهود والنصارى فى إلزامهم لبس الغيار .

وُرِدَ إقطاع حسين بن جوهر إليه وإلى أولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان ، وقُرئ لهم بذلك سجلّ .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٠٠٩ .

(٢) دير القصير ، ضد الطويل ، ويسمى دير بنحس القصير ، ودير البغل ، ودير هرقل . فوق جبل المقطم على سطح قلته مطلق على الصحراء والنيل ، مقابل قرية المصرة . المخطوط : ٢ : ٥٠٢ ، ٥٠٩ هـ .

وصلّى القاضى بالناس صلاة عيد الفطر على الرسم .

وقرئ سجل بإبطال ما كان يؤخذ على أيدي القضاة من الخمس والفطرة والنجوى .
في تاسع ذى القعدة قرّ حسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان وأولاده
بجماعة منهم في أموال وسلاح ، وخرجوا ليلاً ، فلما أصبحوا سبّ الحاكم خيلاً في
طلبهم نحو وجرة فلم يدركوهم . وأحيط بدورهم ، فأخذت للديوان المفرد . وقرّ أبو القاسم
الحسين بن المغربي^(١) في زى حمّال إلى حسّان بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح .

وفيه قرى عدّة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية ، والأتراك ، والقضاة ،
والشهود ، وسائر الأولياء والأمناء ، والرعية ، والكتاب ، والأطباء ، والخدام السود ،
والخدام الصقالبة ؛ لكل طائفة أمان .

وحُمل سائر ما في دُور حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان إلى القصر بعد أن احصاه
القاضى مالك بن سعيد وضبطه .

وقرئ سجل بقطع مجالس الحكمة التي كانت تُقرأ على الأولياء في يومى الخميس
والجمعة .

وقرئ سجل في الجامع العتيق بإقبال الناس على شأنهم وتركهم الخوض فيما لا يعنيههم
وسجل آخر برّد التشويب في الأذان ، والإذن للناس في صلاة الضحى وصلاة القنوت . ثم
جُمع في سائر الجوامع وقرئ عليهم سجل بأن يتركوا الأذان يحى على خير العمل ، ويزاد في
أذان الفجر : الصلاة خير من النوم ؛ وأن يكون ذلك من مؤذنى القصر عند قولهم :
السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله ، فامتلئ الناس وعمل .

--(١) واستجار بحسان بن الجراح فأجاره بعد أن استمع منه إلى قصيدة يمدحه بها ويؤكد فيها شهادته وكرمه مع
المستجدين . وكان أبو القاسم عالماً أديباً بليغاً على ذكاء جم وبراعة في الكتابة ، فأقام لدى ابن الجراح فترة ثم رحل إلى العراق
على زمن القادر بالله ، وتولّى الوزارة للأمير قرواش أمير بني عقيل بالموصل . ودفن بالكوفة . ذيل تاريخ دمشق : ٦٢ : ٦٤ .

وسار محمد بن نزال بعسكر إلى الشام^(١) .
وقرئ سجلٌ مُنَدَّد فيه بشرب النبيذ وجميع أنواع المسكر .
وصلَّى الحاكم بالناس في المصلَّى صلاة عيد الحر ، وخطب ونحر ، وحضر السَّماط
على رسمه .
وقرئت عدة أمانات بالقصر .
وفيه سارت المساكر بعدة مواضع تطلب قائد القواد حسين بن جوهر وصهره عبد العزيز ،
وشاع الخبر بأنَّه عند بني قرة .
وقرئ سجلٌ في الجوامع بالرُّخصة فيما كان يُشدَّد فيه في الجمعة الماضية من أمر النبيذ .
وقُتِل في هذه السنة عدَّة كثيرة من الخُدَّام والفراشين والكتاب وغيرهم .
ومات أبو منصور بشر بن عبيد الله بن سُورين كاتب السجلات في صفر . وتوفي صقر
اليهودي ، طبيب الحاكم في ربيع الآخر . وتوفي أبو عبد الله اليمنى المؤرخ ، وله تاريخ
النحاة ، وسيرة جوهر القائد . وقُتِل أبو الفضل صالح بن علي الروزباري ليلة الثاني
عشر من شوال . وقُتِل غالب بن هلال متولَّى الشرطتين والحسبة في شوال .

(١) واليِّ عليها بعد عزل القائد حامد بن ملهم ، ولكنه لم يلبث أن عزل في رمضان من نفس السنة (٤٠٠ هـ) .
ذيل تاريخ دمشق : ٦٦ .

سنة احدى واربعمائة (١) :

فى رابع المحرم صُرف ابن عبْدُون الثُّصرانى ، وتُخلع على أحمد بن محمد القُشورى الكاتب ، وقرئ سجله فى القصر بأنّه تقلّد الوساطة والسُّفارة بين أولياء أمير المؤمنين الحاكم وبينه ، وأمر الرّعايا ، وفُوضت له الأمور وعُوّل عليه فيها .

وكان سببُ صَرْفِ ابن عبْدُون عن الوساطة والسُّفارة أنّ كُتِب الحاكم تكررّت إلى قائد القواد حسين بن جوهر وإلى صهره عبد العزيز بن النعمان بأمانتهم وعوْدِهِمْ ، فأبى ابن جوهر أن يدخل وابن عبْدُون واسطة ، وقال : أنا أحسنت إليه أيام نظرى فسعى فُ إلى أمير المؤمنين ونال منى كل منال ؛ لا أعود أبدا وهو وزير . فصُرف لذلك ، وحضر حسين وعبد [١٦٤] العزيز ومن خرج معهما ، فنزل سائر أهل الدولة إلى لقائه ، وتلقته الخلع ، وأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره عبد العزيز ؛ وقيد بين أيديهم الدواب . فعندما وصلوا إلى باب القاهرة ترجّلوا ومشّوا ، ومشى معهم سائر الناس إلى القصر ؛ فمشلوا بحضرة الحاكم ، ثم خرجوا وقد عُفِيَ عنهم . وأُذِن للحسين أن يكاتّب بقائد القواد ، ويكون اسمه تالياً لقبه ، وأن يخاطب بذلك ؛ فانصرف إلى داره ؛ فكان يوما عظيما . وحُمِل إليه جميع ما قبض له من مال وغيره ، وأنعم عليه . وواصل هو وعبد العزيز الركوب إلى القصر .

وكُتِب لابن عبْدُون أمان خطّه الحاكم بيده ؛ وكان يقول عنه : ما خدمنى أحد ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبْدُون . ولقد جمع لى من الأموال ما هو خارج فى أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠١٠ .

وأقام ابن القشورى على رسمه ينظر عشرة أيام ، إلى ثالث عشره ؛ فبينما هو يوقع
إذ قبض عليه وضربت رقبته من أجل أنه بلغ الحاكم عنه أنه يبالغ في تعظيم حسين بن
جوهر ، وأكثر من السؤال فى حوائجه .

وفى يومه أجلس أبو الخير بن زُرعة بن عيسى بن تَسْطُورس الكاتب النصرانى
فى مكان ابن القشورى ؛ وأمر أن يوقع عن الحاكم فى أوامره ، فجلس ونظر فى الوساطة
والسفارة بغير خَلَع . ومنع من الر كوب فى المراكب بالخليج ؛ وسُدت أبواب القاهرة
التي مما إلى الخليج ، وأبواب الدُّور والطاقت المطلَّة عليه والخُوخ^(١) .

وخُلِع على قاضى القضاة مالك ، وقُلِّد النظر فى المظالم مع القضاء ؛ وقرئ سجلُّه بالجامع .
وكتِّب سجلُّ بإعادة مجالس الحكمة . وأُخذ النحوى^(٢) . وشُدَّ على النصرانى فى لبس
الغيار بالعمائم الشديدة السواد ، دون ما عداها من الألوان .

وفيه قُبِض على حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان ، واعتُقِلا ثلاثة أيام ، ثم
حلفا أنهما لا يغيبان عن الحضرة وأشهدا على أنفسهما بذلك ، وأُفرج عنهما ؛ وحلف لهما
الحاكم فى أمان كتبه لهما .

واعتُقِل ابن عبدُون ، وأمر بعمل حسابه ؛ ثم ضُربت عنقه وقُبِض ماله .

(١) الخوخة بضم الخاء الأولى الكوة تؤدى الضوء إلى البيت ، - ومخترق ما بين كل دارين ماعليه باب . القاموس
المهبط .

(٢) أبو ظاهر محمود بن محمد النحوى من أهل بغداد ه قدم إلى مصر وتعاون مع ابن العداس ضد فهد بن إبراهيم
النصرانى حتى قتله الحاكم وول ابن العداس مكانه فى النظر وول النحوى الشام . ولم يلبث أن صار إلى ماصار إليه فهد .
إذ دبر الحاكم قتل ابن النحوى بالرملة فضربت عنقه وأرسلت إلى مصر ثم ضربت عنق ابن العداس . راجع ابن القلانسى ؛
ذيل تاريخ دمشق : ٨٠ وما بعدها .

وفي سابع عشر صفر وصل الحاج من غير زيارة المدينة النبوية ، فأمر أن يكون مسير الحاج للنسك من شوال^(١) وأن يبدؤوا بزيارة المدينة ، وكتب بذلك إلى سائر الأعمال .

وفي سابع ربيع الآخر خلع على زُرعة بن عيسى بن نسطورس ، وحُمِل ، وقرئ له سجل في القصر لقَّب فيه بالشفاف .

وخلع على أبي القاسم على بن أحمد الزيدى ، وقرئ له سجل بنقابة الطالبين^(٢) .

وقرئ سجل في سائر الجوامع ، فيه النهى عن مُعارضة الإمام فيما يفعله ، وترك الخوض فيما لا يعنى ، وأن يؤذَن بحى على خير العمل ، ويترك من أذان الصبح قول : الصلاة خير من النوم ، والمنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح ، وإعادة الدعوة والمجلس على الرسم . فكان بين المنع من ذلك والإذن به خمسة أشهر .

وضرب جماعة وشهروا لبيعهم الملوخية والسّمك الذى لا قشر له . وقبض على جماعة بسبب بيع النبل واعتقلوا ، وكُبست مواضع ذلك . ومنع النصارى من الغطاس فلم يتظاهروا على شاطئ البحر بما جرت عادتهم به .

وفي ثانى عشر جمادى الآخرة ركب حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان على رسمهما إلى القصر ، فلما خرج المتسلم قيل لحسين وعبد العزيز و أبى على أخى الفضل ،

(١) كانت العادة قبل سنة ٣٩٤ أن يسير الحاج في منتصف ذى القعدة ، فصدر مرسوم حاكى في سنة ٣٩٤ بأن يتقدم سيره إلى أول ذى القعدة ، وقد تفقد هذا سنتين ، ففى سنة ٣٩٦ خرجت قافلة الحاج في منتصف ذى القعدة ، ثم بعد ذلك حول هذا التاريخ ، حتى صدر مرسوم هذه السنة : ٤٠١ ، بأن تخرج القافلة منتصف شوال .

(٢) نقابة الطالبين هيئة رسمية أنشأها الفاطميون للنظر في شئون العلويين ، وكان يتولى رئاستها واحد من كبار شيوخهم وأجلهم قدرا ، يسهر على صحة الأنساب وإثباتها ورعاية مصالح العلويين وعود مرضاهم والسير في جنازهم . وعرفت هذه النقابة فيما بعد باسم نقابة الأشراف ، ولها نظير في القسم الشرقى من البلاد الإسلامية ، في ظل العباسيين . النجوم الزاهرة ؛ الحاكم بأمر الله محمد عبد الله عنان .

أطيعوا لأمر تريده الحضرة منكم . فجلس الثلاثة وانصرف الناس ، فقبض على ثلاثتهم
وقُتلوا في وقت واحد ، وأُحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم ، فوجد لحسين بن جواهر في
جملة ما وجد سبعة آلاف مبطنة حريرا من سائر أنواع الديباج والعنابي وغيره ،
وتسع مئزر صيني مملوءة حب كافور قنصوري وزن الحبة الواحدة ثلاثة مثاقيل .
وأخذت الأمانات والسجلات التي كتبت لهم . واستدعى أولاد حسين وأولاد عبد العزيز
ووعدهوا [٦٤ ب] بالجميل وخلع عليهم ، وحملوا على دواب .

وفيه ذهبت نعجة فوجد في بطنها حمل وجهه كوجه انسان .

وفي شعبان وقّع قاضي القضاة مالك إلى سائر الشهود بخروج الأمر العالي المعظم أن يكون
الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الأحد .

واشتد الأمر في منع المسكرات ، وتنبع مواضعها . وأبطلت عدة جهات من جهات
المكوس والرسوم . ومنع الغناء واللهو ، وأمر ألا يتباع مغنية ، وألا يجتمع الناس في الصحراء
ومنع النساء من الحمام . وأن يكون الخروج للحج في سابع شوال .

وركب الحاكم لصلاة العيد على رسمه .

وفي ثاني شوال سار على [بن جعفر] بن فلاح بالعساكر لقتال حسّان بن علي بن
مفرّج بن دغفل بن الجراح عند هزيمته ياروخ وقبضه عليه وعلى أصحابه بالرملة ،
فقاتلهم في ثالث عشره وقتل منهم وظهر عليهم ، وخلع طاعة الحاكم ، وأقام الدعوة لأبي
الفتوح حسين بن جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن
عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني ، أمير مكة . وقتل ياروخ^(١) .

(١) سبب خروج بني الجراح أن ابن عبدون الكاتب النصراني سعى ببني المغرب عند الحاكم فقتل أخو الوزير أبي
القاسم وثلاثة من أهل بيته ولجأ الوزير إلى حسان بن المقرج بن دغفل بن الجراح ، ثم حسن له أن يخرج عن طاعة الحاكم
ففعل هو وقومه وقتلوا عامل الحاكم على الرملة ، ودعوا للحسني المذكور في المتن ولقبوه الراشد بالله . فأرسل الحاكم إليهم
جيشا بقيادة ياروخ المذكور الذي هزم بين رفح والداروم ، ونقل ياروخ إلى الرملة وقتل بها صبورا . فلجأ الحاكم إلى
الدبلوماسية حتى نجح في إصلاح الأمور . نهاية الأرب .

وفيه تأخر الحاجّ إلى نصف ذى القعدة ، فخرجوا في سابع عشره ، ورجعوا في ثالث عشره من القلزم ؛ فلم يحجّ أحد من مصر في هذه السنة .

وصلّى مالك بن سعيد بالناس صلاة عيد النحر ، وخطب ، ونحر في المصلّى والملعب مدة أيام النحر . ولم يركب الحاكم ولا نحر .

وفيهما مات أبو الحسن على بن ابراهيم النرسي نقيب الطالبين في رابع ربيع الآخر وقد أناف على السبعين .

وقتل فيها من الكتاب والرؤساء والخدام والعامة والنساء عدد كثير جدا ؛ قتلهم الحاكم .

وفيهما خطب قرّواش بن المقلّد بن المسيّب ، أمير بني عقيل^(١) ، للحاكم بالموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها ؛ فكان أول الخطبة : « الحمد لله الذي أنجّلت بنوره غمرات الغضب ، وأنهدّت بعظمته أركان التّصّب ، وأطلع بقدرته شمس الحق من المغرب » . ثم بطلت الخطبة بعد شهر وأعيدت لبني العباس .

(١) قرّواش بن مقلّد بن المسيّب العقيليّ ثافي أمراء العقيلين الذين حكموا الموصل وما التحق بها بين سنتيّ ٣٨٦ - ٣٨٩
(٩٩٦ - ١٠٩٦) . ولقب قرّواش بمعتد الله ، أما أبوه مقلّد ، أول أمراء هذه الأسرة ، فكان يلقب حسام الدولة .
انظر : Mohammadan Dynasties . وقد أحضر قرّواش الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم وخلع عليه قباء ديبقيا
ومعامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين وقلده سيفا وأعطاه نسخة ما يخطب به . وتجد نص الخطبة في النجوم
الزاهرة : ٤ : ٢٢٥ - ٢٢٧ .

سنة اثنتين وأربعمائة (١) :

في المحرم قُلِّدت الشرطتان لمحمد بن نزال ، وأمر بتتبع المنكرات والمنع منها ، وألّا يباع زبيب أكثر من خمسة أرتال ، ولا تباع الجرار . ومُنِع النَّصارى من الاجتماع في عيد الصليب (٢) ، وأن يظهروا في المضيّ إلى الكنائس .

وأوفى النيل ستّة عشر ذراعا في رابع عشر صفر ، وهو سادس عشر توت .
وفي تاسع ربيع الآخر نُحِّلِع على غَيْن الخادم وقُلِّد بسيف ، وقرئ سجلّه بأنّه لُقِّب بقائد القواد فليُكَاتَب بذلك ويكَاتَب به ، وقيدَ معه عشرة أفراس بسروجها ولُجُمها .
وهدمت اللؤلؤة (٣) .

وفي جمادى الآخرة مُنِع بيع قليل الزبيب وكثيره ، وكُوْنِبَ بالمنع من حفلِه ، وألّقي في النيل منه شيء كثير .

وفي رجب قُطِع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى كان يقام في الثلاثة أشهر لمن يبيت بجامع القاهرة في ليالى الجمع والأنصاف . وحضر القاضى مالك إلى جامع القاهرة في ليلة النصف من رجب . واجتمع الناس بالقرافة (٤) على عادتهم في كثرة اللعب والمزاح .

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من أغسطس سنة ١٠١١ .

(٢) ويحتفل به في اليوم السابع عشر من شهر توت وكان من الأعياد المستحدثة، وسببه عندهم ظهور الصليب على يد هيلانة أم الإمبراطور تسطنطين : الخطط : ١ : ٢٦٦ .

(٣) منظره للفاطميين على الخليج كانت تعرف باسم قصر اللؤلؤة ، بالقرب من باب القنطرة ، وكانت من أبهى المباني العاطمية وأعظمها زخرفة كانت تشرف من شرقها على البستان الكالورى ومن غربها على الخليج الذى لم يكن فيه من المباني شيء ، فكان الجالس في المنظره يشرف على الهاتين المترامية وجميع أرض الطباله وسائر أرض اللوق ، بناها العزيز بالله . الخطط : ١ : ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٤) هى في الأصل المقبرة الإسلامية التى أنشأها ابن العاص بأمر ابن الخطاب في سفح المقطم ، وكان المقومس قدسآل ابن العاص أن يبيعه إياها بسبعين ألف دينار لأن بها غراس الجنة . والقرافة هم بنو غصن بن سيف بن وائل بن المغافرة ، وقيل قرافة اسم امرأة من بنى وائل . ويذكر ياقوت أن القرافة مقبرة عظيمة بمصر لقبيلة من المغافرة يقال لهم بنو قرافة . =

وقرئ سجل في القصر بأن أحداً لا يلتبس من أمير المؤمنين زيادة رزق ولا صلة ولا إقطاع ولا غير ذلك من المنافع .

واستهل شعبان يوم الاثنين ، فأمر أن يجعل أوله يوم الثلاثاء ؛ وأخذ جميع ما عند التجار من السلاح بضمنه للخزانة . ومُنِع النساء من الخروج بعد العشاء الآخرة .

وفي ليلة النصف من شعبان كثر إيقادُ القناديل في المساجد ، وتنافس الناس في ذلك . وصلى مالك بن سعيد بالناس صلاة العيد .

وتشدد الأمر في الإنكار على بيع الفقاع والملوخية والسّمك الذي لا قشر له . ومُنِع الناس من الاجتماع في المآتم ومن اتباع الجنائز . وأُحرق زبيب كثير كان في محارق التجار . وجمع الشطرنج من أماكن متعددة [١٦٥] وأُحرق . وجمع الصيادون وحلّقوا أنهم لا يصطادون سمكا بغير قشر ، ومن فعل ذلك ضُربت رقبتة . وتَوَالى إحراقُ الزبيب عدة أيام بحضرة الشهود ؛ وتولّى مؤنة الإنفاق على حملة وإحراقه متولّى ديوان النفقات ؛ فأُحرق منه ألفان وثمانمائة وأربعون قطعة بلغت مؤنة الإنفاق عليها خمسة آلاف دينار في مدة خمسة عشر يوما .

وقرئ سجل بمنع الناس من السفر إلى مكّة في البرّ والبحر ، ومن حمل الأمتعة والأقوات إليها ؛ فرُدّ قومٌ خرجوا إلى الحجّ من الطريق .

= وقد أصبحت القرافة من المنزهات الجميلة العامرة أيام الفاطميين ، ذلك أن الرؤساء كانوا يلزمون جامع الأولياء بها في الصيف ويحضرون الحلوى والأشربة والجرايات ، فكثُر الطفيليون به وانتشرت المساجد وعمرت المنطقة لأجل ما يحمل إليها وما يعمل فيها من الحلالات والحومات والأطعمة وقد قيل فيها :

إن القرافة قد حوت ضدين من دنيا وأخرى ، فهي نعم المنزل
يفنى الخليج بها السماع مواسلا ويطوف حول قبورها المتبتل

الخطوط : ٢ : ٤٤٣ - ٤٤٥ .

ومرض غين الخادم ، فركب الحاكم لعبادته ، وسير إليه خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا مُسرَّجة مُلحمة ؛ وقلَّد الشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة ، والنظر في جميع الأموال والأحوال . ونزل إلى الجامع العتيق ومعه سائر العسكر بخلعه ، وقرئ سجَّله وفيه تشدُّده في المسكرات والمنع من بيع الفقاع والملوخية والسّمك الذي لا قشر له ، والمنع من الملاهي ومن اجتماع الناس في المآتم واتباع الجنائز ، والمنع من بيع العسل إلا أن يكون ثلاثة أرطال فما دونها .

وفي ذى الحجة وردت هدية تنيس على العادة في كل سنة .

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد النحر ، فصلى بالناس مالك بن سعيد وخطب . ولم يخرج من النساء إلى الصحراء فلم تُر امرأة على قبر .

ومُنِع من الاجتماع على شاطئ النيل ، ومن ركوب النساء المراكب مع الرجال وخروجهن إلى مواضع الحرج مع الرجال . وفيه عُمِل عيد الغدير على رسمه وفُرِّقت فيه دراهم كثيرة .

ومنع من بيع العنب وألا يُتجاوز في بيعه أربعة أرطال ، ومنع من اعتصاره ، فبيع كلُّ ثمانية أرطال بدرهم ، وطُرح كثير منه في الطرقات ، وأمر بدوِّسه ، ومنع من بيعه ألبتة ، وغُرِّق ما حمل منه في النيل . وبعث شاهدين إلى الجيزة فأخذ جميع ما على الكروم من الأعناب وطرح تحت أرجل البقر لدوِّسه ، وبعث بذلك إلى عدة جهات . وتُبَّع مَنْ يَبِيعُ العنب ، واشتد الأمر فيه بحيث لم يستطع أحد بيعه ؛ فاتفق أن شيخا حمل خمرا له على حماز وهرب ، فصَدَفَهُ الحاكم عند فائلة النهار على جسر ضيِّق ، فقال له : من أين أقبلت ؟ قال من أرض الله الضيِّقة . فقال : يا شيخ ، أرض الله ضيقة ؟ فقال : لو لم تكن ضيقة ما جمعتني وإياك على هذا الجسر . فضحك منه وتركه .

وفيهما أخذ بنو قرجه هدية باديس بن المنصور صاحب إفريقية وزحفوا إلى برقة ،
ففرّ عاملها في البحر وقتحوها . وفيه نزع السعر .

وفيهما مات أبو القاسم وليّ الدولة ابن خيران الكاتب في شهر رمضان .

وانتهى ماء النيل في زيادته إلى ستة عشر ذراعا ونصف [ذراع] (١) .

(١) في هذه السنة في شهر ربيع الآخر عقد القادر بالله ، الخليفة العباسي ، مجلسا أحضره عددا من العلماء والأشراف ببغداد للطنن في مصحة نسب الفاطميين إلى بيت النبوة « فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر ، وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم - حكم الله عليه باليوار والخزى والتكال - ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد - لا أسعده الله - فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بمبيد الله وتلقب بالمهدى هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس - عليه وعليهم اللعنة - أديعاه خوارج لانسب لهم في ولد عل بن أبي طالب . . . » ونجد تفصيل ذلك وقصته في كتب كثيرة منها الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٢٩ - ٢٣١ ، والكامل لابن الأثير : ٩ : ٨١ .

سنة ثلاث وأربعمائة^(١) :

في محرم نُخِتم على مخازن العسل وجميع ما عند التجار والبيعة منه ؛ ورُفعت مكوش الساحل . ومنع الناس من عمل حُزن عاشوراء . وغرَّق في أربعة أيام خمسة آلاف وواحد وخمسون زيراً من أزيار العسل . ونَزَعَ السعر ، وكثُرُ الازدحام على الخبز ، ففرَّق الحاكم مالا على الفقراء . وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح ، وحَمَلَه من لم يحمله قطُّ من العوامِّ والصُّنَّاع ، وكثر الكلام فيه ، فقرئُ سجلُّ على منابر الجوامع بتطمين الناس وإعراضهم عن سماع أقوال المرجفين .

وفي ثاني ربيع الأول خُلع على أبي الحسن على [بن جعفر] بن فلاح ولقب قطب الدولة ، وقرئ له سجل بالتقدّم على سائر الكتاميين والنظر في أحوالهم ، والسفارة بينهم وبين أمير المؤمنين . وحُمِل على فرس وبين يديه ثياب .

وهلك زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطُورس من علته في ثاني عشره ؛ فكانت مدّة نظره في الوساطة سنتين وشهرا ؛ فتأسف الحاكم على فقدته من غير قتل ، وقال ما أسفت على شيء قطُّ أسفِي على خلاص ابن نسطورس من سيفي ، وكنت أودُّ ضَرْبَ عنقه ، لأنّه أفسد دولتي ، وخانني ونافق عليّ ، وكتب إلى حسان بن الجراح في المداجاة [٦٥ب] عليّ وأنه يبعث من يهرب به إليه .

وخُلع على إخوته الثلاثة وأقرّوا على ما بأيديهم من الدواوين . وأمر النصارى إلا الحبايرة بلبس العمام السود والطبالسة السود ، وأن يعلّق النصارى في أعناقهم صلبان الخشب ، ويكون ركب مُروجهم من خشب ، ولا يركب أحد منهم خيلا ، وأنهم يركبون البغال

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٠١٢ .

والحمير ، وألاً يركبوا السروج واللجم محلاًة ، وأن تكون سُروجهم ولُجُمُهم بسيور سود ، وأنهم يشدون الزنانير على أوساطهم ، ولا يستعملون مسلماً ، ولا يشترون عبداً ولا أمة ؛ وأذن للناس في البحث عنهم وتتبع آثارهم في ذلك ، فأسلم عدَّة من النَّصارى الكُتَّاب وغيرهم . وشدد الأمر عليهم ، ومنع المكاريون من تركيبهم ، وأخذوا بتسوية السروج والخفاف ومنعوا من ركوب النيل مع نواتية مسلمين .

واستدعى الحاكم حسين بن طاهر الوزان - وكان منقطعاً إلى غين الخادم الأسود - وعرض عليه الوساطة فأجاب بشريطة أن يكون لكل قبيل من طوائف العسكر زمام عليهم يرجعون إليه ، ويكون نظره على الأزيمة ، فيجعل لكل طائفة يوماً ينظر في أمورهم وخاصة زمامهم فقط ؛ ففعل ذلك ، وخلع عليه . وفوض في الوساطة والتوقيع ، وقرئ سجله بالقصر في تاسع عشر ربيع الأول . وأمر الحاكم فنقش على خاتمه : بنصر الله العظم الولي^(١) ينتصر الإمام أبو علي .

وفيه أمر النَّصارى بعمل ركب السروج من خشب الجَمِيز .

وقبض على جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وضربوا وحبسوا .

وألزم النصارى أن يكون الصليب الذي في أعناقهم طوله ذراع في مثله ، وكثرت إهاناتهم وضيق عليهم ؛ وأمروا أن تكون زنة الصليب خمسة أرتال وأن يكون فوق الثياب مكشوقاً ، ففعلوا ذلك . ولما اشتدت عليهم الأمور تظاهر كثير منهم بالإسلام ، فوقع الأمر بهدم الكنائس^(٢) ، وأقطعت بجميع مبانيها وبمآلها من ربايع وأراض لجماعة^(٣) ، وعملت مساجد وأذن في بعضها وبيعت أوانيها . ووجد في المعلقة^(٤) بمصر وفي كنيسة

(١) في الأصل بنصر الله العظيم المولى . . . والمثبت هنا أولى وأيسر وهو مأخوذ عن الخطط : ٢ : ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ويوافق ما جاء في نهاية الأرب .

(٢) فسأل جماعة من النصارى أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنوها مساجد . نهاية الأرب .

(٣) من الصقالبة والفراشين والسعدية ، ولم يرد سؤال من سأله شيئاً منها . نهاية الأرب .

(٤) كنيسة المعلقة بمدينة مصر في خط قصر الشمع ، على اسم البيدة مريم المذراء . الخطط : ٢ .

بو شنوده مال جزيل من مصاغ وثياب وغيره . وتتابع هدم الكنائس ، وكتب إلى الأعمال
بهدمها فهدمت .

وأشيع سير أبي الفتوح أمير مكة من الرملة إلى الحجاز ، وكان قد قدم إليها فبايعه
ابن الجراح ولقبه بالراشد بالله أمير المؤمنين ، ودعا له بالرملة^(١) .

وفي جمادى الأولى لُقِّبَ الحسينُ بن طاهر الوزان بأمين الأمناء وكتب له سجل بذلك .
وظهر لحسين بن جوهر مال عظيم ، فأنعم به الحاكم على ورثته ولم يعرض لشيء منه .

وفي ذلك الحين كان وصولُ أبي الفتوح إلى مكة وإقامته الدعوة للحاكم بها ، وضربت
السكة باسمه . وابتدأ مالك بن سعيد بعمل رصد^(٢) فلم يتم .

وفي جمادى الآخرة اشتد الإنكار بسبب الفقاع والزبيب والسّمك . وقُبض على جماعة
فاعتقلوا وأمر بضرب أعناقهم ، ثم أطلقوا . وتشدد في [منع]^(٣) ذبح الإيقار السالة
من العيب ومنع النساء من الغناء والنشيد . وأقطعت الكنائس والديارات بنواحي بمصر لكل
من التمسها .

(١) وكان أبو القاسم الوزير المنزب الذي خرج على الحاكم «قد خطب الجمعة التي ببيع فيها لأبي الفتوح بالخلافة ،
وافتح الخطبة بالآيات الأولى من سورة القصص : « طم تلك آيات الكتاب المبين » نثلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق
لقوم يؤمنون . . . » الآيات وأشار إلى مصر ، يعنى الحاكم بأمر الله . وسبب عودة أبي الفتوح إلى مكة أن الحاكم لجأ إلى
ملاوذة بنى الجراح بعد أن فشل في محاربتهم ، فأدرك أبو الفتوح أنه لا مقام له إذا تم الصلح فادعى أن أخاه قد ثار بمكة
وأن واجبه يدعوه إلى العودة إليها لإخماد الثورة . انظر تفصيل ذلك في نهاية الأرب .

(٢) الرصد مكان مرتفع يطل من غربيه على راشدة ومن قبله على بركة الحبش ، يحسبه من رآه من ناحية راشدة جبلا ،
وهو من شرقيه سهل يتوصل إليه من القرافة دون ارتقاء . وقد بدأ عمل الرصد في عهد الحاكم لكنه لم يتم فأنه الأفضل بن بدر
الجالى إذ أقام فوقه كرة لرصد الكواكب . وسبب اهتمام الأفضل بذلك أنه حمل إليه تقويم سنة خمائة للهجرة ، قيل مائة تقويم ،
فوجد فيها اختلافا كبيرا ، فأنكر ذلك وجع أهل العلم والحساب وسأل عن السبب فقيل له التقويم الشامي يحسب على رأى الزيج
المأمون المهجور ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمي وهو أحدث وأصح ، وأشاروا عليه بعمل رصد مستجد يصحح الحساب
وتحصل به الفائدة والسمة والذكر الباقي . فشرع في ذلك وأتمه . الخطط : ١ : ١٢٥ - ١٢٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق .

وفى رجب قرئ سجل بمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم ، وبمنعهم من تقبيل ركبته ويده عند السلام عليه فى المواكب ، والانتهاى عن التخلُّق بأخلاق أهل الشرك من الانحناء إلى الأرض فإنَّه صنيع الروم ؛ وأمرُوا أن يكون للسلام عليه : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . ونُهِوا عن الصَّلَاة عليه فى المكاتب والمخاطبة ، وأن تكون مكاتبتُهم فى رقاعهم ومراسلاتهم بإنهاء الحال ، ويقتصر فى الدعاء على سلام الله وتحياته وتوَالى بركاته على أمير المؤمنين ، ويدعى له بما سبق من الدعاء لاغير . فلما كان يوم الجمعة لم يقل الخطيب سوى : اللهم صلِّ على محمد المصطفى وسلِّم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلِّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على [١٦٦] سرِّك وخليفتك .

وأُنزل من القصر سبع صناديق فيها ألف ومائتان وتسعون مصحفاً إلى الجامع العتيق ليقراً فيها الناس . وأُحصيت المساجد التى لاغلة لها فكانت ثمانمائة مسجد ونيف ، فأُطلق لها فى كل شهر تسعة آلاف ومائتا درهم وعشرون درهماً ، لكل مسجد اثنا عشر درهماً . ومُنِع من ضرب الطبول والأبواق التى كانت تُضرب حول القصر فى الليل ، فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق . وأُنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً . وأُبطلت مكوس الحسبة ، وأُذن للناس بالتأهب للحج فى البرِّ والبحر .

وفى رمضان صلى الحاكم بالناس مرّة فى جامعهِ براشدة ، ومرة بجامعه خارج باب الفتوح

وفيه ظهر جراد كثير حتى أُبيع فى الأسواق . وصلى بالجامع العتيق بمصر جمعة ، وهو أول من صلى فيه من الخلفاء الفاطميين . ومُنِع النساء من الجلوس فى الطرقات للنظر إليه . وأخذ القصص^(١) بيده ووقف لأهلها وسمع كلامهم ؛ وخالطه العوامُّ وحالوا بينه وبين

(١) القصص هى الرقاع التى يكتبها أصحاب المظالم يحكون فيها ما وقع بهم من ظلم ويسألون رفعه .

موكبهُ . واشتَمَاحُهُ قوم فوصلهم بصلات كثيرة ؛ وأهدى إليه قوم مصاحف فقبلها وأجازهم عليها . ووقف عليه اثنان من تربة عمرو بن العاص وشكَّوْا أن حبسهما قُبْض عليه للديوان من أيام العزيز ، فخلع عليهما ووصلهما بألف دينار . وكثرت في هذا الشهر إنعاماته—، فتوقَّف أمينُ الأمراء حسين بن طاهر الوزان في ذلك ، فكتب إليه الحاكم بخطّه بعد البسملة :

الحمد لله كما هو أهله .

أصبحت لا أرجو ولا أتقى سوى إلهي ، وله الفضل
جسدي نببي ، وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل
المال مال الله عزَّ وجلَّ ، والخلق عباد الله ، ونحن أمناؤه في الأرض . أطلق أرزاق
الناس ولا تقطعها . والسلام .

وركب في يوم الفطر إلى المصلّى بغير شيء مما كان يظهر في هذا اليوم من الزينة والجنائب^(١) ونحوها ، فكان في عشرة أفراس جياذ بين يديه بسرُوج ولُجَم مُحَلَّاة بالفضة البيضاء الخفيفة ، ومظلة بيضاء بغير ذهب ، وعليه بياض بغير طُرُز ولاذهب ولاجوهر في عمامته ، ولم يُنمِرَش المنبر .

وفيه وقعت فتنة بين طوائف العسكر شَهِرُوا فيها السلاح ، فركب الحاكم وأصاح

بينهم

وولد لعبد الرحيم بن إلياس [ابن]^(٢) عم الحاكم مولود فبعث إليه ثلاثة أفراس مسرجة

(١) الجنائب جمع جنيب وهي الخيول التي كانت تسير وراء السلطان أو الخليفة لاحتمال الحاجة إليها . انظر محيط

المحيط ؛ Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل والتصحيح استعانة بما سيجيء بعد قليل ، وبما جاء في الخطط : ٢ : ٢٨٨ ؛

وبما جاء في النجوم الزاهرة : ٤ : ٣٣٥ .

ملجمة ومائة قطعة من الثياب وخمسة آلاف دينار عينا وسائر ما كان لأبيه ألى الأشبال المتوفى ، وكان شيخا جليلا .

ومنع الناس من سب السلف وضرب فى ذلك رجلٌ وشهرٌ ، ونودى عليه : هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ، وتبرأ الناس . فشق هذا على كثير من الناس ، وتجمعوا يستغيثون بباب القصر : لاطاقة لنا بمخاصمة أحد أو الصبر لكل ماجرى ؛ فصرفوا ونهوا ، فمضوا وهم يستغيثون فى الطرقات . فقرأ سِجْلُ بالقصر فيه الترحم على السلف من الصحابة والنهى عن الخوض فى مثل ذلك . ورأى فى طريقه وقد ركب لَوْحًا فيه سبٌ على السلف فأنكره ووقف حتى قُلع . وتتبع الألواح التى فيها شئٌ من ذلك ، فقلعت كلها ، ومحى ما كان على الحيطان منها حتى لم يبق لها أثر . وشدد فى الإنكار على من خالف ذلك ، ووعد عليه بالعقوبة .

وسارت قافلة الحاج فى رابع عشر ذى القعدة إلى بِرَكَةِ الجُبِّ ثم رجعوا من ليلتهم^(١) . وخلع على قطب الدولة ألى الحسن على بن فلاح وسار فى عسكر لقتال ابن الجراح . وأفلك ابنا عبد الرحيم بن إلياس بزوجتى حسين بن جوهر ، وقرأ كتابهما فى القصر ، وقد كتبنا فى ثوب مصمت وفى رأس كل منهما بخط الحاكم : « يعقد هذا النكاح بمشيئة الله وعونه ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وخلع على ابنى عبد الرحيم وحمل عنهما المهر وهو ألفا دينار .

وصلّى الحاكمُ بالناس صلاة عيد النحر كهيئته فى عيد الفطر ؛ ونحر عنه عبد الرحيم والمؤذنون يكبرون خلفه كما يفعلون بين يدى الحاكم ، والقاضى مالك إلى جنبه ومعه الرُمح

(١) - لعل السر فى رجوع الحاج بعد خروجهم -الفتنة- التى وقعت بين طوائف العسكر وخوف استفحالها . أو لعل السبب أنهم خرجوا متأخرين عن الموعد الذى كان قد تحدد منذ سنوات والذى كان سبب تعديده أنهم كانوا إذا خرجوا متأخرين لا يتمكنون من زيارة الروضة الشريفة . وقد صدر مرسوم سنة ٤٠١ بالخروج فى منتصف شوال وبالبده بزيارة الروضة الشريفة .

[٦٦ ب] ، وكلما رمى الرمح لينحدر به قبّله قبل أن يسحر به ؛ فعل ذلك ثمانية أيام ، فبعث إليه الحاكم ثياباً جليلة وجواهر ثمينة ، وحمله على فرس بسرّج مرصع بالجواهر . وواصل الحاكم الركوب إلى الصحراء بحثاً في رجله ، وعلى رأسه قُوطَةً . وكان يركب كل ليلة بعد المغرب . ووقف إليه خراساني يذكر أنه أخذ منه متاعٌ برسم الخزانة ولم يُدفع إليه ثمنه ، فدفع إليه جميع ما كان له وهو نحو خمسة آلاف دينار ، فشقّ به البلد ، وكثر الدُّعاء للحاكم . وحُمِلَ إلى عبد الرحيم عشرة آلاف دينار في أكياس مكتوب عليها : لابن عمنا وأعزُّ الخلق علينا عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهديّ بالله ، سلّمه الله وبلّغنا فيه ما نوّملّه .

وبعث إلى ملك الروم هدية مبلغ سبعة آلاف دينار . وفيها وصلت هدية الحاكم إلى نصير الدولة أبي مناد^(١) مع عبد العزيز بن أبي كُدَيْنَةَ لثلاث عشرة خلت من المحرم ، ومعه سجلٌ بإضافة برقة وأعمالها إليه ؛ فخرج إلى لقائه ومعه القضاة والأعيان ، فكان يوماً مشهوداً . وفي أواخر رجب فُلج أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن أبي الحسين أمير صقلية^(٢) ، فتعطلّ جانبُه الأيسر ، فقام بالأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف وكان بيده سجلّ الحاكم بولايته بعد أبيه ؛ ثم وصل إليه سجلّ لقب فيه تاج الدولة وسيف الملك . ثم أنفذ إليه تشریفٌ ، وعقد له لواء ، وزيد في لقبه الملك .

وفي ذى القعدة مات مفرّج بن دغفل بن الجراح برمّلة لُد^(٣) ، من فلسطين .

(١) أبو مناد باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري ، صاحب إفريقية في ظل الفاطميين بين سنتي ٣٧٦ - ٤٠٦ (٩٩٦ - ١٠١٦) . معجم الأنساب .

(٢) يسميه زامباور في معجم الأنساب ، اعتماداً على مصادر متعددة ، أبا الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن ، ويذكر أنه اعتزل سنة ٣٨٨ ليخلفه جعفر بن يوسف ، أبو محمد المذكور في المتن . وهما من الولاة الكلبيين الذين حكموا صقلية بين سنتي ٣٣٦ - ٤٦٤ (٩٤٧ - ١٠٧١) مع شيء كبير من الاضطراب بسبب ضعف الفاطميين وتدخل النورماندين .

(٣) يعرفها ياقوت بأنها قرية قرب بيت المقدس من أرض فلسطين . معجم البلدان : ٧ : ٣٢٦ - ٣٢٧ . وهي الآن مدينة عظيمة .

سنة أربع وأربعمئة (١) :

في محرم أمر ألا يدخل يهودى ولا نصرانى الحمام إلا ويكون مع اليهودى جرس ومع النصرانى صليب . ونهى عن الكلام فى النجوم ، فتخيب عدّة من المنجّمين وبقي منهم جماعة وطردوا ، وحذّر الناس أن يخفوا أحداً منهم ، فأظهر جماعة منهم التوبة فعفى عنهم ، وحلفوا ألا ينظروا فى النجوم .

وأمر بغلق سائر الدواوين وجميع الأماكن التى تباع فيها الغلال والفواكه وغيرها ثلاثة أيام من آخر حزن عاشوراء ، فلما كان يوم عاشوراء أغلقت سائر حوانيت مصر والقاهرة بأسرها إلا حوانيت الخبّازين . ونزل الذين عادتهم النزول فى يوم عاشوراء إلى القاهرة من المنشدين وغيرهم أفراداً غير مجتمعين ولا متكلمين ، فما اجتمع اثنان فى موضع . وخرج الحاكم فى أمره وبذيله القاضى إلى بلبيس ، فنظر إلى العسكر المجهّز مع على بن قلاّح ، وعاد من الغد ، ورحل العسكر .

وأكثر الحاكم فى هذا الشهر من الصدقات وإعطاء الأموال الكثيرة جداً . وأعتق سائر مماليكه وجواريه . وفتح فيه الخليج يوم السابع عشر من مشرى والمساء على أربعة عشر ذراعاً وثمانية أصابع .

وفى أول صفر صُرف القائد غين عن الشرطتين والحسبة ، وتقلدها مظفر الصقلبى حامل المظلة . وأذن لليهود والنصارى فى مسيرهم إلى حيث ساروا من بلاد الروم . وورد الخير بوصول عساكر مصر ودمشق إلى الرملة وخروج العرب منها . وأمر ببناء جامع الإسكندرية وأطلق مالا كثيراً للصدقة والتفرقة .

وفيه جُمع سائر الناس على اختلافهم بالقصر وقرئ عليهم سجل بأن أبا القاسم

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من يوليو سنة ١٠١٣ .

عبد الرحيم بن إلياس بن أبي علي بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله قد جعله الحاكم بأمر الله ولي عهد المسلمين في حياته والخليفة بعد وفاته ، وأمر الناس بالسَّلام عليه وأن يقولوا له في سلامهم عليه : السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين ؛ وتعيّن له محل يجلس فيه من القصر . ثم قرئ السَّجِلُّ على منابر البلد وبالإسكندرية ؛ وبعث بذلك سجلاً إلى إفريقية ، فقرأ بجامع القيروان وغيره ، وأثبت اسمه مع اسم الحاكم في البُود والسُّكَّة والطَّرَاز . فعظم ذلك على نصير الدولة أبي مناد باديس وقال : لَوْلَا أن الإمام لا يُعترض عليه في تدبير لكَاتبته ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بني عمه .

وخلع على عبد الغنى بن سعيد ودفع له ألف وخمسمائة دينار وخمس عشرة قطعة ثياب ، وحمل على بغلة [١٦٧] ولرفيقه مثل ذاك . وسير مع رسول متملك الروم بهدية عظيمة .

وبلغ الحاكم أن أبا القاسم على بن أحمد الزيدى النقيب عليه عشرون ألف دينار ، فوَّع له بها مما علكه من الخراج ، وبعث له بثلاثة آلاف دينار أخرى .

وكثر ركوب الحاكم وهو بدُرَّاعة صوف بيضاء وعمامة فُوطة ، وفي رجله حذاء عربي بقِبَالَيْن^(١) ؛ فأقبل الناس إليه بالرقاع ما بين متظلم أو مُستَمْنَع ؛ فأجزل في الصَّلات والعطايا ما بين دُور ودَرَاهِم وثياب ، فلم يرد أحد خائباً . ورد ما كان في الديوان من الصَّبياع والأملاك المأخوذة لأربابها ، وأقطع كثيراً من الناس عدة آذر . وفي ربيع الأول بسط الحاكم يده بالعطاء .

وفي ثامن عشر ربيع الآخر أمر الحاكم بقطع يدَي أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي^(٢) ، فقُطعتا جميعاً ؛ وهو يومئذ كاتب قائد القواد غين . وسبب ذلك أنه كان في خدمة ست

(١) قبال النعل ، ككتاب ، زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها . القاموس المحيط .

(٢) جرجرايا من أعمال النهروان بين واسط وبغداد في الجهة الشرقية لنهر دجلة . ذكر ياقوت أنها كانت غربة في زمنه . معجم البلدان : ٣ : ٨٠ .

الملك ، أخت الحاكم ، فانفصل عنها . وهى غير راضية عنه ، وخدم عند غين ، ثم بعث إليها رقعة يستعطفها ، فارتابت منه وسيرتها فى طيِّ دُرْجها^(١) إلى الحاكم ، فأمر بقطع يديه وقد اشتد غيظه . ويقال بل كان عقيل صاحب الخبر يحملُ الرِّقاع بالخبر إلى القائد غين ليوصلها إلى الحاكم وهى مختومة ؛ فجاءه فى يوم بالرقاع على عادته فدفعها غين إلى كاتبه أبى القاسم الجرجرائى حتى يجد فراغا فيحملها إلى الحاكم ، ففك الجرجرائى الختم وقرأها ، فإذا فى بعضها طعنٌ على غين وذكره بسوء ، فقطع ذلك الموضع من الرقعة وحكّه وأصلحه ، وأعاد الختم . فبلغ ذلك عقيلا فأوصله إلى الحاكم فأمر بقطع يديه .

وفى ثالث جمادى الأولى قطعت يد غين بعد قطع يد كاتبه الجرجرائى بخمسة عشر يوماً ، وكانت يده [الأخرى^(٢)] قد قطعت قبل ذلك بثلاث سنين وشهر ، فصار مقطوع اليدين^(٣) . ثم إن الحاكم بعث إليه بآلاف من الذهب وعدة [أسفاط]^(٤) من الثياب وأمر بمداواته . وأبطل عدة مكوس من جهات كثيرة . فلما كان فى ثالث عشره أمر بقطع لسان غين فقطع^(٥) .

وفى رجب أمر برفع ما يؤخذ من الشرطتين ؛ وقتل الكلاب ، فقتلت بأجمعها ، وأبطل مكس الرطب ومكس دار الصّابون ، ومبلغه ستة عشر ألف دينار ؛ وأطلق أموالاً جزيلة للصدقة . وأكثر من الركوب فى الليل . ونزل ليلة النصف من شعبان إلى القرافة ومشى فيها وتصدّق بشئ كثير ، وأبطل عدّة جهات من جهات المكس . ومنع النساء أن يخرجن إلى

(١) الدرج بالذال المفتوحة والراء الساكنة القرطاس الذى يكتب فيه ، ويحرك . القاموس المحيط .

(٢) زيادة يقتضيه السياق .

(٣) « ولما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم فبعث إليه بالأطباء » . الخطط : ٢ : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٤) ما بين الحاصرتين مضاف من الخطط : ٢ : ٢٩٨ .

(٥) « وحمل إلى الحاكم فسير إليه الأطباء ومات بعد ذلك » . نفس المصدر .

الطُّرقات في ليل أو نهار سواء أكانت المرأة شابة أم عجوزاً ، فاحتبسْنَ في بيوتهن ولم تُر امرأة في طريق ، وأغلقت حماماتهن ، وامتنع الأساكفة^(١) من عمل خفاف النساء وفتحَ طُلَّت حوانيتهم .

وفي سادس عشره وقع في الناس خَوْفٌ وفزع من شناعة القول وكثرة إشاعته بأنَّ السيف قد وقع في الناس ، فتهاربَ الناسُ وغُلِّقت الحوانيت فلم يكن سوى القلب . وضُرب قوم خالفوا النهى عن بيع الملوخية والسّمك الذي لا قشر له وشهُروا . وضرب كثير من النساء من أجل خروجهن من البيوت وحُيسنَ . وقرئ سجلٌ بالمتن من تفتيش المسافرين في البحر والبرِّ والنهى عن التعرّض .

وفي رمضان صلّى بالناس في الجوامع الأربعة : جامع القاهرة ، والجامع خارج باب الفتوح ، وجامع عمرو ، وجامع راشدة^(٢) ؛ وتصدّق بأموال كثيرة ؛ ودعا فوق المنابر بنفسه لعبد الرحيم بن إلياس ، فقال : اللهم استجب منى في ابن عمى وولى عهدى والخليفة من بعدى ، عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهديّ بالله أمير المؤمنين ، كما استجبت من موسى في أخيه هرون .

وفيه ركب قائد القوّاد غين إلى القصر في موكب عظيم ، فخلع عليه . وضرب على السكة اسم عبد الرحيم ولى عهد المسلمين . ومُنِعَ مَنْ عادته الطّواف في الأعياد بالأسواق لأخذ الهبات من الرّجالة والبواقين^(٣) . واجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر في يوم الخميس ثامن عشره لسماع ما يقرؤه القاضي من كتب مجالس الحكم ، فمنعوا [٦٧ ب] من ذلك .

(١) الأسكف بالفتح والإسكاف بالكسر والأسكون بالضم والسكاف كشداد والسيكف كصيفل : الخفاف . أو الإسكاف كل صانع سوى الخفاف فإنه الأسكف . القاموس المحيط .

(٢) جرت عادة الفاطميين على حضور ثلاث جمع فقط من رمضان ، وكانوا يرتاحون الجمعة الرابعة . وقد صل الحاكم جمعتين فقط أكثر من مرة . أما هذه السنة فقد صل الجمعة أربع مرات دون راحة .

(٣) نافخى الأبواق .

وركب لصلاة الجمعة بجامع القاهرة ، فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر ، فوقف لهم وأخذ رِقَاعَهُمْ ، وحادثَهُمْ ، وضاحَكَهُمْ ، فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه ومحادثته العوام إلى غروب الشمس ، ووقع صلات كثيرة . وركب لصلاة العيد بغير زىّ الخلافة ، ومظلتَه بيضاء ، وعبد الرحيم يسايره وهو حاملُ الرمح الذي من عادة الخليفة حمله^(١) ، وأصعده معه المنبر ودَعَا له . ولم يعمل في القصر سباط ، ولا رُوِيَتْ امرأة ، ولا أبيع شيءٌ ممَّا عادته يباع في الأعياد من اللُّعب والتَّمَاثِيل . واشتدَّ الأمر في منع النساء من الخروج ، وحُبِسَ عدة عجائز وخَدَمٌ وُجِدْنَ في الطرقات .

وواصل الركوب في الليل . وأطلق لخليج الإسكندرية خمسة عشر ألف دينار .

وَقُرِئَ سَجَلٌ بَأَن كُلِّ مَنْ كانت له مظلمة فليرفعها إلى وليّ العهد ؛ فجلس عبد الرحيم ورفعت إليه الرقاع فوقَّع عليها . وللنصف من ذى القعدة سار الحاج . وفي يوم النحر ركب عبد الرحيم بالعساكر إلى المصلَّى فصلى بالناس وخطب ، ونحر بالمصلَّى وبالمَلْعَب ، ولم يُعْمَل سباطٌ بالقصر .

وواصل الحاكم الركوب في العشايا . واصطنع خادما وكتابا أسود كناه بأبي الرضا سعد ، وأعطاه من الجواهر والأموال ما يحلّ وصفها ، وأقطعه إقطاعات كثيرة ؛ فقصده الناس لحوائجهم ولزموا بابه لِإِهمَّتْهم ، فتكلم لهم مع الحاكم فلم يردَّ سؤاله في شيء . وكان مما يسأل فيه إقطاعات للناس تتجاوز خمسين ألف دينار .

وفيه بعث أبو منادباديس ، أمير إفريقية ، حميد بن تموصلت على عسكر إلى برقة ، فخرج منها خرد الصقلي إلى مصر فتسلمها حميد .

(١) وكان من بين مظاهر الزينة والأبهة كالسيف ، ولهما مكانة خاصة في المراكب فالرمح « لطيف في غلاف منظوم من لؤلؤ » ، وله سنان مختصر بحلية ذهب ، وله شخص مختص بحمله . و« السيف الخاص ، وجلته ذهب مرصعة بالجواهر في خريطة مرموقة بالذهب ، لا يظهر سوى رأسه ، فيخرج مع المظلة ، وحامله أمير عظيم القدر وهو أكبر أمير » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٦ .

في المحرم تزايد وقوع النار وكثر الحرق في الأماكن ، فأمر الناس باتخاذ القناديل على الحوائث وعلى أربابها ، وطرحت السقائف والرواشين^(٢) وأمر بقتل الكلاب ، فقتل منها كثير . وعظم الحريق ، ووقعت في أمره شناعات من القول ، فقرئ سجل في الجوامع بزجر السفهاء والكف عن أحوال تفعل ، وأن يدخل الناس إلى دورهم من بعد صلاة العشاء . فأغلقت الدور والحوائث والدروب من بعد صلاة المغرب وكثر الكلام وعظم الترحم في الليل .

وفيه وصل على [بن جعفر] بن فلاح من الشام . ووصلت قافلة الحاج في تاسع صفر من غير زيارة المدينة ، وقد أصابهم خوف شديد ، وهلك منهم خلق كثير من الجوع والعطش^(٣) .

وفيه ركب الحاكم مرتين ، فرفعت إليه الرقاع ، فأمر برافعيها فحسبوا . وحبس^(٤) عدة قياصر وأملأه مع سبع ضياع بإطفيح^(٥) وطوخ^(٦) على القراء والمؤذنين

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من يوليو سنة ١٠١٤ .

(٢) السقيفة : الصفة . والروشن : الكوة . القاموس المحيط .

(٣) اضطرب الحج في هذه السنوات بسبب اضطراب الأحوال في الحجاز وخروج الأعراب على الحاج ونهبهم وسلبهم ، وقد امتنع الحج من العراق لنفس السبب مرات ، مثلاً في السنوات : ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، وقبل ذلك أكثر من مرة .

(٤) حبس بمعنى أوقف . والقياسر جمع قيسارية وهي السوق .

(٥) إطفيح من أعمال مركز الصف بالجيزة الآن . وكانت عاصمة إقليم الإطفيحية الذي يمتد جنوباً شرق النيل . انظر :

السلوك : ١ : ٨٤٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٢ .

(٦) يورد ابن عماق أسماء أربعة عشر موقعا تعرف باسم طوخ مضافا إلى اسم آخر . منها : طوخ الأقلام ، طوخ البنتون ، طوخ الجبل ، طوخ الخيل ، طوخ تنده ، طوخ دمنو . . . وغيرها .

بالجوامع وعلى ملء المصانع^(١) والمارستان^(٢) وضمن الأكفان .

وفي ربيع الأول واصل الركوب وأخذ الرقاع ووقف مع الناس طويلا ، ثم امتنع من أخذ الرقاع وأمر أن ترفع إلى عبد الرحيم وإلى القاضي مالك ، وإلى أمين الأمناء ، فتناولوا الرقاع . وأكثر من الهبات والصّلات والإقطاع والخلع^١ .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ربيع الآخر ركب في الليل على رسمه إلى الجُب^(٣) وتلاحق به الناس وفيهم قاضى القضاة مالك بن سعيد ، فلما أقبل على الحاكم أعرض عنه فتأخر ، وإذا بصقلى يقال له غادى ، يتولى السّتر والحجّية ، أخذه وسار به إلى القُصور وألقاه مطروحا بالأرض ، فمرّ به الحاكم وأمر بمواراته ، فدفن هناك بثيابه وخُفيّه . وكانت مدّة نظره في الأحكام عشرين سنة ، منها ستّ سنين وتسعة أشهر قاضى القضاة وبقاها خلافة لِبْنى النّعمان . وكان ينظر في القضاء والمظالم والأحباس ، والدعوة ، ودار الضرب ، ودار العيار ، وأمر الأضياف ؛ فعلت منزلته وقصده الناس في حوائجهم لكثرة اختصاصه بالحاكم وتزايد إقطاعاته من الدّور بفُرُشها والضّياع العديدة ، ومواصلة الركوب معه ليلا ونهارا ، ومشاورته في أمور الدولة ونظره في أمور الدواوين كلها . وكان سخيا جوادا

(١) المصنعة بفتح الميم وضم النون وفتحها كالحوض يجمع فيه ماء المطر . مختار الصحاح .

(٢) المارستان : بيت المرضى ، مغرب ، وأول من بنى المارستان في الإسلام الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٨ هـ ، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بحبس المجذمين لتلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى الميان الأرزاق . وألحق ابن طولون بجامعه خزانة للأدوية والأشربة يجلس فيها الطبيب يوم الجمعة لحادث يحدث للمعاشرين للصلاة . وأنشأ مارستانا كاملا سنة ٢٥٩ وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك ، وأمر ألا يخرج المريض من هذا المارستان إلا إذا أكل فروجا ورغبها علامة الشفاء . وتتابع إنشاء المارستانات بعد ذلك فنما في مصر المارستان الكافورى ومارستان المغافر وغيرها . الخطط : ٢ : ٤٠٥ - ٤٠٧ .

(٣) من منتزهات القاهرة كان الخليفة الفاطمى يخرج إليه للترهة راكبا ومعه النساء والحشم . وهو ينسب إلى عميرة فيقال جب عميرة بن تميم التجيبى . وتعرف هذه المنطقة أيضا ببركة الجب أو بركة الحجاج إذ يجتمع بها الحجاج قبل سفرهم . الخطط : ١ : ٤٨٩ . وهذا الجب غير الجب الذى كان يحبس به الأرااء بالقلمة وقد عمره المنصور قلاوون ٦٨١ . الخطط : ٢ : ٢١٣ .

فصيحاً [١٦٨] بليغاً ، لم يُضَبَّطْ عليه قطَّ صباحٌ ولا حدةٌ ، ولا صُمِّعت منه في خطَّاباته أبداً كلمةٌ فيها فُحشٌ ولا قذعٌ ولا قبحٌ .

وكان سبب قتله أنه اتَّهم بموالاة سيدة الملك^(١) ومراعاتها ، وكان الحاكم قد انفلق منها فلما قُتل استدعى الحاكم أولاده وخاطبهم ، ولم يتعرَّض لشيء من تركة أبيهم ، وأمر ابنه أبا الفرج أن يركب في الموكب ، وأقره على إقطاعه ، ومبلغه في السنة خمسة عشر ألف دينار .

وفي جمادى الأولى ردَّ الحاكم على بنى عمرو بن العاص حبس جدِّهم عمرو بن العاص ، ومبلغه في الشهر نحو مائتى دينار .

وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب في اليوم الواحد عدة مرات ، وعظمت هباته وعطيائه . ثم أمر بابتياح الحمير ، وصار يركبها من تحت السرداب^(٢) إلى باب البستان إلى المقس ، ويغلق الأبواب التي يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه ، ومنع الناس من الخروج إلى هذه المواضع .

وفي جمادى الآخرة قدم رسول ملك الروم ، فاصطفت العساكر من باب القصر إلى سقاية ريدان^(٣) بِعُدِّهَا وأسلحتها ، وركب الحاكم بصوفٍ أبيض وعمامة مفضوطة بمظلة مثلها ، وولَّى العهد يسايره وعليه ثوب مثقل ، ومعهم الجواهر . وأحضر الرسول ومعه

(١) هي الأميرة سلطنة ست الملك ، أخت الخليفة الحاكم بأمر الله .

(٢) أنشأ المنز بعد دخوله القاهرة وزعم أن طالعه قضى عليه بذلك ، وتوارى فيه نحو ستة أناب فيها العزيز بالله وعهد له . وكان المفارقة إذا رأوا غماما ترجلوا وسلموا يزعمون أن المنز فيه . ثم خرج المنز بعد ذلك وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت تلمع كاللؤلؤ ، وجلس للناس كما كان يفعل . النجوم الزاهرة : ٤ : ٧١ ، ٧٤ .

(٣) كانت في الأصل بستاناً لريدان الصقلي أحد خدام العزيز بالله ، وعرفت فيما بعد باسم الريدانية وهي قربة المباسية الحالية . السلوك : ١ : ١٣٧ : حاشية : ٦ .

عبد الغنى بن سعيد يهدية إلى القصر ، فخلع على عبد الغنى ، وأنزل الرسول في دار بالقاهرة وبلغ الحاكم أن ثلاثة من الركابية^(١) أخذوا هبة من الرسول ، فأمر بقتلهم ، فقتلوا من أجل ذلك .

وفي جمادى الآخرة ركب الحاكم ومعه أمين الأمانة ، الحسين بن طاهر الوزان ، على رسمه ؛ فلما انتهى إلى حارة كتامة^(٢) خارج باب القاهرة أمر فضربت رقبة ابن الوزان ودُفن مكانه . فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما ؛ وكان توقيع عن الحاكم : الحمد لله وعليه توكل . وتقدم الأمر لسائر أرباب الدواوين بلزوم دواوينهم . واعتلّ الحاكم أياما فركب على حمار بشائية مكشوفة ، وأكثر من الحركة في العشيات إلى المقس والتعدية إلى الجيزة وهو على الحمار . وأكثر من الركوب في النيل .

وفي حادى عشر شعبان أمر أصحاب الدواوين بأن يمثلوا ما يرسم به عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب ، متولّى ديوان النفقات ، وأخوه أبو عبد الله الحسين ، وجُعلا في الوساطة والسفارة ، ثم قرئ لهما سجلٌ بذلك ، وخلع عليهما وخملا ؛ فوقعا ، وكان توقيعهما : الحمد لله حمدا يرضاه .

وفي حادى عشره خلّع على أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام ، وأعطى سجلاً بتقليده قضاء القضاة ، وحُمِل على بغلة بسرّج ولجام مصفّح بالذهب ، وقيد بين يديه بغلة أخرى ، ونزل إلى الجامع فقرئ سجلّه على المنبر ، وفيه : « فقلدك أمير المؤمنين القضاء والصلاة والخطابة بحضرته ، والحكم فيما وراء حجابيه من القاهرة المعزّة ،

(١) الركابية والركابدارية : العاملون في بيت الركاب الذى تكون به السروج والجم ونحوها . صبح الأمتى :

١٢٠٧ . ١

(٢) نسبة إلى قبيلة كتامة الذين كانوا يكونون العدد الغالب من جنه الفاطميين في العصر الأول ، وقد قدموا مع جوهر . وموضع هذه الحارة اليوم المنطقة التى تتوسطها حارة الأزهرى وعطفة الدويدارى وما يتصل بهما في الجنوب الشرق للجامع الأزهر . النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٦ حاشية : ٤ .

ومصر وأعمالها . والإسكندرية ، والحرمين ، وبرقة ، والمغرب ، وصقلية ؛ مع الإشراف على دُور الضرب بهذه الأعمال . والنظر في أحباس الجوامع والمساجد ، وأرزاق المرتزقة ووُجوه البر ؛ وتستخلف على الحكم » . ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة . وكانت دواوين الحكام في دورهم فجعلها بالجامع ، وجعل جلوسه بالجامع العتيق يومى الاثنين والخميس ، وبالقاهرة يوم الثلاثاء ، ولحضور القصر يوم السبت .

وفي يوم الجمعة رابع رمضان ركب ولّى العهد ، فصلى بالجامع الأنور^(١) الجديد بباب الفتوح في موكب الخلافة ، ثم صلى جمعة أخرى بجامع القاهرة ثم جمعتين بالجامع الجديد . وفيه كثرت صلاتُ الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج في ذلك عن الحد . وركب ولّى العهد يوم الفطر في موكب الخلافة ، وصلى بالناس في المصلى ، وخطب . وخرج الحاكم عن المعهود في العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذين يجدفون به في العشارى^(٢) . وأقطع المشاعلية^(٣) ، وكثيرا من الوجوه والأقارب ، وبنى قُرة ، فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها .

وفي نصفه قتل ابنا أبى السيد ، حسين [٦٨] وعبد الرحيم ، ضربت أعناقهما بالقصر ، فكانت مدة نظرهما اثنين وتسعين يوما .

وواصل الركوب في كل غداة وهو على الحمار . وقرئ سجل بأن يكون ما يرفعه الناس من حوائجهم في ثلاثة أيام ، يوم السبت للكتاميين والمغاربة ، ويوم الاثنين

(١) هو جامع الحاكم ، وكان يعرف أيضا باسم جامع القاهرة .

(٢) العشارى ، والعشيرة ، نوع من السفن التى كان يركبها الخليفة في النيل أيام النزهة والاحتفالات ، مثل احتفال فتح سد الخليج ، هــى* بحيث يجلس الخليفة في وسادته يحيط به رجال الدولة والحراس في بيت خشبى يحكم على السطح ، بينما الأمطمة والحوايج والملاحون أسفل السفينة .

(٣) الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة ، وهم الضوية وأرباب الضوء : Doxy; supp. Diet, Ar.

للمشاركة ، ويوم الخميس لسائر الناس كافة ؛ وأن يتجنبوا لقاء أمير المؤمنين ليلاً ونهاراً بالرقاع ، فما يتعلق بالمظالم فإلى ولي العهد ، وما يتعلق بالدعوى فإلى قاضى القضاة ، وما استصعب من ذلك ينتهى إلى أمير المؤمنين .

وفى سابع عشره تقلد أبو العباس فضل بن جعفر بن الفرات الوساطة ، ولم يُخلع عليه ؛ فجلس ووقع ، ثم قتل فى اليوم الخامس من جلوسه .

وتشدد الأمر فى منع النساء من الخروج فى الطرقات ومن التطلع فى الطيقتان ، بأشهرهن^(١) ، شباهن وعجائزهن . ومنع مؤذنو القصر وجامع القاهرة من قولهم بعد الأذان : السلام على أمير المؤمنين ، وأن يقولوا بعد الأذان : السلام من الله .

وفيه غلب بنو قرّة على الإسكندرية وأعمالها . وأقطع القاضى ابن أبي العوام ناحية تلبانة عدى^(٢) . وأكثر الحاكم فيه من الركوب ، فركب فى يوم واحد ست مرات ، تارة على فرس ، وأخرى على حمار ، ومرة فى محفة تحمل على الأعناق ، ومرة فى عشارى فى النيل بشاشية لاعمامة عليها . وأكثر من إقطاع الإقطاعات للجنود وعبيد الشراء . واستمر على مواصلة الركوب إلى ليلة النحر قرب العشاء ، وشق البلد والطرادون يفرقون الناس عنه . وصلى ولي العهد صلاة عيد النحر ، ولم يضعّ بشئ ؛ ونهى الناس عن ذبح البقر .

وفيه قلّد ذو الرياستين قطب الدولة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الوساطة والسفارة . وفيها بعث نصير الدولة أبو مناد باديس من إفريقية هدية عظيمة إلى الغاية للحاكم بأمر الله ، فوصلت إلى مدينة برقة لأربع عشرة بقية من رجب ، وسارت منها فى

(١) فى الأصل : بأسرهم .

(٢) تلبانة عدى من نواحي المرتاحية ، وأخرى بنفس الاسم فى خوف رمسيس (ناحية البحيرة) وهما غير تلبانة الأبراج ، وتلبانة الواقعة بالشرقية بمركز منيا القمح . قوانين الدواوين : ١٢٢ ، ١٢٣ ؛ السلوك : ١ ؛ ٣٥٣ ؛ المخطط التوفيقية : ٩ : ٤٠ - ٤١ .

سابع رمضان حتى وصلت لُك^(١) فأخذها بنو قُرّة عن آخرها . وكانوا قد انتجعوا مع كبيرهم مختار بن قاسم من البحيرة ، ومَعَهُم مواشيهم ، وقصدوا مدينة برقة ، ففرّ منها حميد بن تموصلت إلى إفريقية ، فملك برقة مختار بن قاسم .

وفيهما بعث الحاكم عبد العزيز بن أبي كُدَيْنة ، ومعه أبو القاسم بن حسن ، إلى إفريقية بخلع وسيوف وتشريف لمنصور بن نصير الدولة أبي مناد باديس لولاية مايتولاد أبوه في حياته وبعد وفاته ، ولقبه عزيز الدولة .

(١) يذكر ياقوت في التعريف بها أنها بين الإسكندرية وطرابلس الغرب ! ولم أجدها في غيره . ورأيت في المغرب للبكري مدينة لكاي بالقرب من المهديّة • ويعرفها الدكتور حسن إبراهيم حسن بما يشبه تعريف النوري لها إذ قال : قرية قريبة من برقة . وهذا أقرب التعريفات لها بما يناسب الحادثة المذكورة هنا إذ هاجم بنو قُرّة الهدية بعد أن ابتعدت عن مدينة برقة . معجم البلدان : ٧ : ٣٣٧ ؛ المغرب : ١٢٦ ؛ الفاطميون في مصر : ٢٩٥ ؛ نهاية الأرب للنوري .

سنة ست وأربعمائة (١) :

فيها عُرض الاستيثار^(٢) على الحاكم بأسماء الفقهاء والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر ، فكانت جملته في كل سنة واحداً وسبعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثي وربع دينار ؛ فأمضى جميع ذلك .

وفيها زاد ماء النيل وغرق الضياع ، وغلت الأسعار ، وهلك البساتين ، وامتلأ كل مكان من المدينة ، وغرق المقياس وانتهت الزيادة إلى ثلاث أصابع من إحدى وعشرين ذراعاً ؛ وبلغ الماء إلى نصف النخل مما يلي بركة الحبش ، وغرق المعتوق^(٣) ! . ولم يبق طريق يُسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادي والعشرين من يونيو سنة ١٠١٥ .

(٢) في اللغة الاستيثار : المشاورة . ويذكر المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أن معنى الاستيثار المجلس ، وذلك في شرح قول المقرئى : « وفيها رسم بعمل استيثار يجمع أرباب الرواتب والرزق ليحضرُوا بتواقيهم للعرض ، ويقطع من يختار منهم » اهـ . ويبدو أن المقصود - كما يفهم من هذا النص ومن المتن هنا - القائمة الرسمية التي تحوى أسماء . . . للاعتدال . ولعل هذا كان الأصل في استعمال كلمة « الاستيثار » التي تستخدم حالياً في أمور رسمية تستدعى الاعتدال والموافقة ؛ مثل استيثار المرتبات ، استيثار التقديم إلى المدارس ، استيثار التقديم لشغل الوظائف . راجع السلوك : ١ : ٨٥٠ .

(٣) هكذا في المتن . وسيرد في أحداث سنة ١٠١٥ أنها من أعمال الكوم الأحمر عند فم الخليج على جانبه الغربى .

سنة ثمان وأربعمائة (١) :

قدم مصر داع عجمي^(٢) اسمه محمد بن اسماعيل الدّرزي واتصل بالحاكم فأنعم عليه . ودعا الناس إلى القول بإلهية الحاكم ، فأنكر الناس عليه ذلك ، ووثب به أحد الأتراك ومحمد في موكب الحاكم فقتله ، وثارت الفتنة ، فنهبت داره وغلقت أبواب القاهرة . واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل فيها جماعة من الدّرزية ، وقبض على التركي قاتل الدّرزي وحبس ثم قتل .

ثم ظهر داع آخر اسمه حمزة بن أحمد ، وتلقّب بالهادي ، وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة ، ودعا إلى مقالة الدّرزي ، وبث دعاته في أعمال مصر والشام ، وترخّص في أعمال الشريعة ، وأباح الأمهات والبنات ونحوهن ، وأسقط جميع التكالييف في الصلاة والصّوم ونحو ذلك . فاستجاب له خلق كثير ، فظهر من حينئذ مذهب الدّرزية ببلاد صيدا وببيروت وساحل الشام^(٣) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثلاثين من مايو سنة ١٠١٧ . ويلاحظ أنه لم يتحدث عن سنة ٤٠٧ هـ . وقد سبق مثل ذلك ، وسيرد مثله أيضا .

(٢) في الأصل داعيا عجميا .

(٣) وهو أعجمي من الزوزن ويلقب باللباد وعرف بهادي المستجيبين ، واتخذ لنفسه رجلا لقبهم باللقاب خاصة منهم رجل يقال له سفير القدرة . نهاية الأرب للنوري . ومسجد تبر المذكور خارج القاهرة ، وكان يسمى أيضا مسجد التبر ، والبئر ، والجميزة ، أنشأه تبر أحد أمراء كافور الاخشيدى ، وقد اشترك في مقاومة الفاطميين لدى دخولهم مصر ، وقبض عليه بالشام بعد أن فر إليها ، وضرب ، وقتل ، وسلخ ، وصلب . المخطوط : ٢ : ٤١٣ .

في آخر شوال ركب الوزير عليّ بن جعفر بن فلاح إلى البرك التي قبل الخليج خارج القاهرة ، فثار عليه فارسان ، فأخذه أحدهما فآلقاه ، وفرّاً ، فلم يُعرف خبرهما ، وحمل إلى داره فمات من الأخذ . وولى الوزارة بعده الظهير صاعد بن عيسى بن نسطورس فأقام إلى رابع ذى الحجة . وقيل تولّى بعده شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان .

وفيهما عزل الحاكم سديد الدولة^(٢) عن دمشق ، وولّيتها عبد الرحيم بن إلياس ، وسار إليها لعشرين من جمادى الآخرة^(٣) ، فبينما هو في قصره إذ هجم عليه قوم ملثمون فقتلوا جماعة من غلمانته ، ثم أخذوه ووضعوه في صندوق وحملوه إلى مصر . فلم يكن بها أكثر من شهرين ، ثم أعيد إلى دمشق فأقام بها ليلة العيد . وورد من مصر رجل يقال له أبو الداود المغربي ومعه جماعة ، وأخرجوا عبد الرحيم وضربوا وجهه ؛ وأصبح الناس يوم العيد وليس لهم من يصلى بهم . وعجب الناس من هذه الأمور .

وفيهما صومع الصعيد الأعلى بما عليه وهو أربعة وستون ألف دينار وسبعمائة وخمسة وستون ديناراً .

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من مايو سنة ١٠١٨ .

(٢) سديد الدولة أبو منصور ، وكان قد وصلها واليا لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٨ فوصله كتاب العزل في الخامس من ربيع الآخر سنة ٤٠٩ . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ .

(٣) يذكر ابن القلانسي أنه وصل دمشق لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١٠ ، وأنه ظل على ولايتها إلى يوم الأحد لثان بقين من ربيع الأول سنة ٤١١ . وهذا يكون قد بقى بها أكثر من الشهرين اللذين ورد ذكرهما في المتن . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ : ٧٠ .

سنة عشر وأربعمائة (١) :

فيها اشتد الغلاء بديار مصر حتى أبيع الدقيق رطلا بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم ، ومات كثير من الناس بالجوع . وبلغت عدة من مات في مدة رمضان وشوال وذى القعدة ، مائتي ألف وسبعين ألفا سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك

وفي سنة عشر وأربعمائة سیر الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن اليزيد إلى شرف الدولة الحاكمية أبي نعيم المعز بن نصير الدولة أبي مناد باديس ، ومعه سيف مكلل بنفيس الجواهر وخلعة من لباسه ، فقدم المنصورية (٢) لست بقين من صفر سنة إحدى عشرة . وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقراً عليه سجلاً عظيماً ، فكانت أيام فرح . ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبي كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علماً منسوجة بالذهب ، فخلع على أبي القاسم ومحمد ، وحسلاً ، وطيف بهما في القيروان والأعلام المذكورة بين أيديهما .

وليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فقد الحاكم . وسبب فقدته أن أخته ست الكل سلطنة كانت امرأة حازمة ، وكانت أتن منه ، فدار بينها وبينه يوماً كلام ، فرماها بالفجور وقال لها : أنت حامل . فراسلت سيف الدين حسين بن علي بن دواس ، من مقدمي كتامة ، وكان قد تخوف من الحاكم ، وتوعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه . فأحضرت ست الكل عبيدين وحلفتهم على كتمان الأمر ، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلا الحاكم . فأصعد إلى الجبل في الليل ، وكان الحاكم قد رأى أن عليه قطعاً (٣) ،

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع من مايو سنة ١٠١٩ .

(٢) أنشأها المنصور بن القائم سنة ٣٣٧ بالقرب من القيروان ، وبقيت عاصمة الفاطميين حتى انتقلوا إلى مصر فصارت حاضرة بني باديس حتى خربت سنة ٤٤٢ . معجم البلدان : ١٧٨ : ٨ .

(٣) لم أهتم إلى مايقنع في تفسير معنى « القطع » المذكور هنا . وقد ورد مثيل له أول قدوم المعز إلى مصر إذ كان مغرى بالنجوم ، فنظر في طالع مولده فحكم له « بقطع » فيه ، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه ، فأشار عليه أن يعمل سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه إل حين جواز الوقت ، ففعل ذلك . انظر النجوم الزاهرة : ٤ : ٧٠ - ٧١ .

فلما كان في الليلة التي فيها قال لأمه : على قطع في هذه الليلة وعلامة ذلك ظهور كوكب الذنابة ؛ ودفع إليها خمسمائة ألف دينار ذخيرة لها^(١) ، فمنعته من الركوب ، ونام . ثم انتبه آخر الليل وقام ليركب ، فتعلقت به ، فامتنع ومضى ، وركب الحمار إلى باب القاهرة ، ففتح له أبو عروس صاحب الشرطة الباب وأغلقه خلفه ، وخرج متبعا له . قال : فسمعتُه يقول : ظهر والله الكوكب ؛ ولم يكن معه سوى ركابٍ وصبيٍّ يحمل دواته . فعارضه وسط الجبل سبع فوارس من بني قرّة ، فخدموه وسألوه الأمان وأن يسعفهم بما يُصلح شأنهم ، فأمّنهم ، وأمر الركابي أن يحملهم إلى الخازن يدفع إليهم عشرة آلاف درهم . ودخل الشعب الذي كان يدخله وقد وقف العبدان له ، فضرباه حتى مات ، وطرحاه ، وشقّا جوفه ولفّاه في كساء ، وقتلا الصبي وغرّقا حماره ؛ وحملا الحاكم في كساء إلى أخته فدفنته . وأقامت مدة ، وأحضرت الوزير خطير الملك وعرفته الحال ، وأمرته أن يكاتب عبد الرحيم بن إلياس يستدعيه من دمشق . فكتب إليه على لسان الحاكم يأمره بالمبادرة ، واستدعت ألف ألف دينار فرقته في الأولياء وبعثت قائد الساحل . فلما قدم عبد الرحيم عدل به إلى تنيس فقتل بها^(٢) .

واضطرب الناس لغيبة [٦٩ب] الحاكم ، فأرسلت إليهم : إنه أخبرني أنه يغيب سبعة أيام ، وإنه يواصلني بأوامره . ورتبت رسلا يمشون عنها إلى الحاكم ويجيئون منه

(١) في النجوم الزاهرة : « فلما كان في تلك الليلة قال لوالدته على في هذه الليلة وفي غد قطع عظيم والدليل عليه علامة تظهر في السماء طلوع نجم سماء ، وكأن بك وقد انتهكت وهلكت مع أختي فإن ما أخاف عليك أضر منها . فتسلمى هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة ، وفيها صناديق تشتمل على ثلثمائة ألف دينار ، خذها وحوليا إلى قصرك تكون ذخيرة لك » . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٧ .

(٢) في النجوم الزاهرة أكثر من رواية عن صورة وفاة ولي العهد ، نقلها صاحبها عن عدة من المؤرخين . فنها أن صاحب تنيس بعث به إلى ست الملك فحبسته في دار وواصلته بالملاطفات حتى مرضت فأحضرت الظاهر لإعزاز دين الله وحذرت منه ، وأرسلت معضاد الخادم لقتله ففعل . ورواية أخرى تقول إنه حبس في داره مدة وحمل إليه يوما بطيخ ومعه سكين فأدخلها في سرتة حتى غابت ، ومات منتحرا . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٩٣ - ١٩٤ .

إليها . ففي أثناء ذلك اشتدت شوكتها ، وكفّ الناس عن الاستقصاء في المسألة . وأحضرت ابن دؤاس وواطأته على أخذ البيعة للظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم ، وأظهرته وعلى رأسه تاج جدّه العزيز . وقام ابن دؤاس فقال لمن حضر من أهل الدولة ، تقول لكم مولائنا هذا مولاكم فسلموا عليه . وقبل ابن دؤاس الأرض ، فبايع الناس إلا غلاما تركيا كان عمل ليلا بين يدي الحاكم فإنّه قال : لأبايع حتى أعرف خبر مولاي . فقتل ، وقام ابن دؤاس بتدبير الأمر . ثم إن ست الملك دسّت عليه وقتلته وقتلت جميع من أطلع على سرها ، وقتلت جماعة خافتهم . ثم لم تطل أيامها وماتت بعد أيام .

قال ابن أبي طى لما ذكر هذا الخبر في كيفية قتل الحاكم : وكان الحاكم شديد السطوة ، عظيم الهيبة جريئا على سفك الدماء . خطب له على منابر مصر والشام وإفريقية . وكان يتشبه بالمأمون ويقصد مقاصده واشتغل بعلوم الأوائل ، واعتدّ بعلوم النجوم ، وعمل له رصدًا ، ووقف الكواكب ، واتخذ بيتا بالمقطم ينقطع فيه عن الناس ويخلو لمخاطبة الكواكب . وكان يركب الحمار وعليه ثياب الرهبان ، ووراءه غلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسيف والورق في كيس معلق في كتفه وهو يمشي وراءه ؛ فإذا مرّ بسوق انهزم الناس واستتروا عنه ، ويطرق أبواب الحوانيت فلا ينظرون إليه ، إلّا أن يكون لأحد منهم حاجة فإنّه يقف عليه ويكتب العبد بين يديه ما يأمره به في رقعة إلى الوزير .

وكان لا يحضره الجيش إلّا في الأعياد ، فيركب في ذلك اليوم بشيابه على الفرس . وكان مُهاباً عند أهل مملكته ، وكان لا يحضر مجالس الجدل ويحتجب أياما كثيرة مشغلا بما هو فيه ، وكان له سعي في إظهار كلمته ، فبعث دعائه إلى خراسان وأقام فيها مذهب الشيعة ، واستجاب له عالم عظيم ، فبعث إلى البلاد بالأموال في استمالة الرجال إلى ما يريد .

وكلن أبو عبد الله أنوشتكين النجاري^(١) الدرزي أول رجل تكلم بدعوته ، وأمر برفع ما جاء به الشرع ، وسير مذهبه إلى بلاد الشام والساحل ، ولهم مذهب في كتمان السر لا يُطْلَعُونَ عليه من ليس منهم . وكان الدرزي يبيع البنات والأمهات والأخوات . فقام الناس عليه بمصر وقتلوه ، فقتل الحاكم به سبعين رجلا . وأنفذ الدرزي إلى الحجر الأسود برجل ضربه وكسره ، وادعى الربوبية . وقدم رجل يقال له يحيى اللباد ، ويعرف بالزوزني الأخرم^(٢) ، فساعده على ذلك ، ونشط جماعة على الخروج عن الشريعة .

وركب يوما من القاهرة في خمسين رجلا من أصحابه إلى مصر ، ودخل الجامع بدايته ، وأصحابه كذلك ، فسلم إلى القاضي رقعة فيها : باسم الحاكم الرحمن الرحيم ، فأنكر القاضي ذلك ، وثار الناس بهم وقتلوه ، وشاع هذا في الناس فلعنوه^(٣) . ويقال إنه خرج يوما وعليه قباء أطلس وفي وسطه سيف ، فخلع القباء وقال : هذا الظاهر قد خلعت ، ثم جرد السيف وقال : هذا الباطن قد سللته .

قال : وفي السنة التي قتل فيها الحاكم أشاع أنه يريد أن ينزل في أول رمضان إلى الجامع ومعه الطعام ، فمن أبي الأكل قتله . وكان دعائه إذا ركب يقولون : السلام عليك يا واحد يا أحد ، ويغلون فيه الغلو المفرط . وادعى أنه حصل له كتاب الجفر . ولما غلب على الحرمين وعد العلويين أهل المدينة إذا هم مكنونه من فتح دار جعفر بن محمد الصادق بوعود كثيرة ، لفتحها ، وكانت مغلقة ، فإذا فيها قعب خشب ومصحف وسرير سعف وقدر ، ولم تكن

(١) ولقب نفسه سند الهادي وحياة المستجيبين . نهاية الأرب .

(٢) في نهاية الأرب أن الأخرم شخص آخر يسمى حسن بن حيدرة الفرغاني ، وقد ظهر قبل أنوشتكين النجاري ، في سنة ٤٠٩ هـ ، وبينما كان يسير في موكبه في أحد الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ وأوقعه عن فرسه ووالى الضرب عليه حتى قتله ، فأمر الحاكم بقتله لوقته . ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . نفس المصدر .

(٣) واسم القاضي - قاضي القضاة - أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام . توفي سنة ٤١٨ هـ . النجوم الزاهرة :

١٨٣ : حاشية ٣ نقلا عن الكندي .

فتحت قبل ذلك^(١) ، فرأى بالسريـر « وأخذ أعداءه وهدم بيعة قمامة في سنة ثمان وثمانين
وثلاثمائة » ؛ وخرج رسمه إلى الوزير على لسان خادـم أن يكتب : أمرت حضرة الإمامة بهدم
قمامة ، وأن يُجعل علوها خفضا ، وسماؤها أرضا .

وبلغه [١٧٠] أن المغاربة تلعنه ، فقرب الفقهاء المالكية وأمرهم بتدريس مذهب
مالك بن أنس في الجامع . وكان يحب العلماء ويقدم مايرد فيه ، وإذا رأى رأيا عزم
عليه وأمضاه . وكتب إليه رجل : إن فلانا مات وخلف مالا ، فوقع بخطه على ظهر الرقعة :
السعاية قبيحة إن كانت صحيحة . وكتب إليه آخر : إن فلانا مات وخلف بنتا ، وقد
أخذت جميع مال أبيها ، فوقع على ظهر الرقعة : المال مال الله ، واليتيم جبره الله ، والساعي
لعنه الله ، وعلى مذهبنا يجوز أن ترث البنت جميع مال أبيها . ومنع النساء الخروج
من البيوت ، ففيل إن فيهن من لاتجد من يقوم بشأنها فتموت جوعا ، فأمر الباعة
بالتطواف في السكك وأن يبيعوهن من خلف الأبواب ويناولوهن بمغارف طوال السواعد .
وكان أمر ألا يكشف مغطى ، فسكر رجل ونام في قارعة الطريق وغطى نفسه بمنديل ،
فصار الناس يمرّون به ولا يقدر أحد أن يكشف عنه . فمرّ به الحاكم وهو كذلك ، فوقف عليه
وقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا مغطى ، وقد أمر أمير المؤمنين ألا يكشف مغطى . فضحك
وطرح عنده مالا ، وقال : استعن بهذا على ستر أمرك . وقرر الحاكم بعد ابن الفرات ذا
الرياستين قطب الدولة أبا الحسن على بن جعفر بن فلاح ، واستمر إلى أن قتل الحاكم .

انتهى ما ذكره ابن أبي طى ، وفيه تحامل شعر به واحد من مؤرخي مصر ذكره .

وقال الروحى على ما حكاه عنه ابن سعيد : ولم يزل الحاكم خليفة إلى سنة إحدى
عشرة وأربعمائة ، فخرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال ، فطاف ليلته كلها على رسمه

(١) وقد حدث هذا في سنة أربعمائة ؛ وكان الذى فتح الحجرة القائد ختكين الضيف المضى الداعى ، وحضر معه
إلى مصر جماعة من العلويين فرد الحاكم عليهم السريـر وأخذ الباقي وقال أنا أحق به ، فانصرفوا داعين عليه . التجوم الزاهرة :

وأصبح عند قبر الفقاعى^(١) ، ثم توجه إلى شرقى حلوان ، وتبعه ركابيان ، فأعادهما .
وبقى الناس على رسومهم يخرجون يلتسمسون رجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور ،
ثم خرج خواص من بطانته فبلغوا دير القَصِير ، ثم أَمَعُوا في الدخول في الجبل ، فبينما
هم كذلك إذ بَصُرُوا بالحمار الذى كان راكبه على قُنَّة الجبل وقد ضربت يده بسيف
فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه . وتُتَبَّع الأثر فقاد إلى أثر الحمار في الأرض وأثر راجل
خلفه وراجل قُدَّامه ؛ فلم يزالوا يقصُّون هذا القصص حتى انتهوا إلى البركة التى في شرقى
حلوان ، فنزل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهى سبع جباب ، ووجدت مزررة فيها آثار
السكاكين ، فلم يشك في قتله^(٢) . فكانت مدته ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وكانت
رلايته خمسا وعشرين سنة وشهرا . وكسفت الشمس يوم موته . وكان جوادا بالمال
سفَّاكا للدماء قتل عددا كثيرا من أمائل دولته وغيرهم صبورا ، وكانت سيرته من أعجب
السير .

قال : ومنع النساء من الخروج إلى الطُّرقات ليلا ونهارا ، ومنع الأساكفة من عمل
الخفاف المنجدة لمن ؛ فأقمن على ذلك سبع سنين وسبعة أشهر إلى خلافة الظاهر .

قال أحمد بن الحسين بن أحمد الروذبارى في كتاب^(١) الأدباء على ما نقله ابن سعيد :
وقتل الحاكم ركابيا له بحرية في يده على باب جامع عمرو بن العاص وشق بطنه بيده .
وعم بالقتل بين وزير وكاتب وقاض وطبيب وشاعر ونحوى ومُغْنٍّ ومختار وصاحب ستر

(١) كان في طريق الذهاب من القاهرة إلى ناحية البساتين ، وموقعه اليوم قراة سيدى عقبة على بعد ٥٠٠ متر تقريبا
غرب مسجد سيدى عقبة وقبل مسجد الإمام الشافعى . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٥ : حاشية : ٤ .
(٢) يقول ابن تغرى بردى في صدد الخطة التى دبرتها أخت الحاكم لقتله إنها أعطت الميدين اللذين أحضرهما سيف الدولة
ابن دواس سكينين من عمل المخاربة تسمى الواحدة منهما « يافورت » ولهما رأس كرأس المبيض الذى يفصد به الهجام .
النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٧ .

(١) في الأصل هنا كلمة لم أمتد إلى قراءة سليمة لها حتى بعد الاستعانة بما لدى من مراجع .

وحمّائاً وطباخ وابن عم وصاحب حرب وصاحب خَبر ويهودى ونصراني ، وقطع حتى أبدى الجوارى في قصره . وكان في مدته القتلُ والغيلة حتى على الوزراء وأعيان الدولة يخرج عليهم من يقتلهم ويجرحهم . وخطفت العمائم جهاراً بالنهار ، وكان لعبيد الشراء في مدته مصائب وخطوب في الناس . وكان المقتول ربّما جُرّ في الأسواق ، فأوقع ذلك فتنة عظيمة .

قال : كان الحاكم يركب حماراً يسمّى القمر ويغبرُّ به على الناس . وكان له صوفيّة يرقصون بين يديه ولم عليه جارٍ مستمر . ووقف رجل للحاكم فصاح عليه ، فمات لِوَقْتِهِ . وكانت غيبته إلى يوم جلوس ولده الظاهر ثلاثة وأربعين يوماً .

قال ابن سعيد عن مجموع وقف عليه : وواصل الحاكم في ركوبه الوقوف على المعروف بابن الأرزق الشواء ومحدثه بدار فرح ، وخلع عليه وأجازه . وفي يوم استدعى الحاكم أحد الركابيّة السودان المصطنعة [٧٠ ب] ليحضر إلى حانوت ابن الأرزق الشواء ، فوقفه بين اثنين ورماه برمح ، ثم أضجعه ، واستدعى سكيناً فذبحه بيده ، ثم استدعى شاطورا ففرق بين رأسه وجسده ، ثم استدعى ماء فغسل يده بأشنان ثم ركب . وحُمِلَ المقتول إلى الشرطة فأقام ليلة ثم دفن بالصحراء . ثم بعث المؤمن بعد ثلاثة أيام فنبشه وغسله وأنفذ إليه أكفانا كفن بها ، ثم أمر قاضي القضاة بالصلاة عليه ، وأمر ألا يتخلف أحد فحضر الشهود وأهل السوق ، وصلى عليه قاضي القضاة ، ودفن بالقرافة ، وواراه قاضي القضاة وجعل التراب تحت خده ، وأمر ببناء قبره وتبيضه في وقته ، ففعل ذلك . وتظلم إليه رجل في ركوبه إلى مصر في ناصح الركابي ، فوقف عليه وسأل ناصحا عن دعواه فظهر أنها صحيحة ، فأمر أن يدفع ماله إليه ، فلم يجد معه في الوقت ذلك القدر ، فألزمه ببيع فرسه الذي كان راكبا عليه ، فباعه ووَفَّى الرجل ما كان له عليه ، كل ذلك بحضرته وهو واقف على ظهر دابته ، ثم سار .

وقال الفوطى : كان الحاكم أجود الخلفاء بماله ، وبه تفشت حاله فيما سفكه من الدماء التى لا يحصىها إلا الله . وكان الأمر فى مدة العزيز فيه انحلال وعفو كبير عن الناس ، وظنوا أن ذلك يجوز فى مدة الحاكم وجروا على رسمهم ، فتجرد له منهم مُطلع على جميع أمورهم غير مُطرح لعقوبة ، فهلك الجَم الغفير منهم . وكان فى مدة أبيه العزيز بالله قد تكشف على أقوام ممن يطعن فى الدولة ويسىء المقالة فيها ، فلما صارت له الخلافة انتقم منهم أشد انتقام وعمهم بالعقوبة .

قال : ومن حكايته المشهورة فى العدل أن رجلا عربيا ورد على مصر من سجلماسة^(١) يريد الحج ، فأودع ماله عند رجل فى السوق ، فلما عاد من الحج طلب ماله فأبى أن يدفعه إليه . فتوصل إلى أن أطلع الحاكم على أمره ، فقال له اجلس فى دكان مقابلا لدكانه ، فإذا جرت فى ذلك السوق فاعمل كأنك تعرفنى وكأنى أعرفك . فلما مر الحاكم وقف على الرجل وسأل عن حاله وأكثر معه الوقوف ، وانصرف فجاء الرجل الذى عنده الوديعة إلى الرجل وأكب عليه وسأله الصفيح عما سلف منه ، وأحضر إليه جميع ماله . فعرف الحاكم بذلك ، فأصبح الذى أنكر الوديعة مقتولا معلقا برجله .

وكان نقش خاتمه : بنصر الولي العلي ينتصر الإمام أبو علي^(٢) .

(١) مدينة فى جنوب المغرب الأقصى ، بينها وبين فاس عشرة أيام ، وتقع على طريق من يريد غانة التى كانت - ولا تزال - تعرف بإنتاج الذهب معجم البلدان : ٥ : ٤١ .

(٢) سبق فى أثناء الحديث من سنة ثلاث وأربعمائة أن نقش خاتمه كان : بنصر الله العظيم الولي ينتصر الإمام أبو علي .

وخطب له معتمد الدولة ، أبو المنيع قرواش بن المقلد^(١) بالموصل والأنبار وقصر ابن هبيرة^(٢) والمدائن .

ومن خط ابن الصيرفي يروى أن الإمام الحاكم بأمر الله قال لبعض الأعيان الذين شربهم بمجالسته وميزهم بمحاورته ، فقال : أكلت حتى شبع ، وشربت حتى رويت ، والشبع والرئ غايتهما الأكل والشرب ، فإذا قلت ونمت ، فنقول : حتى إذا أتى شيء جعلته غاية النوم ؟ فلم يحر جوابا ورغب إلى كرمه في الإفادة ، فقال نمت حتى ريت ، والروث غاية النوم ، وأنشد :

فأما نعيمُ بن مُرٍّ فالفاهمُ القومُ روثاً نياماً^(٣)

(١) رأس أمراء بني عقيل ، أصحاب الموصل ، تولى الإمارة بلقب معتمد الدولة بين سنتي ٣٩١-٤٤٢ (١٠٠٠-١٠٥٠) وقرواش ، بفتح القاف ، معناه بالتركية عبد أسود . النجوم الزاهرة : ٥ : ٤٩ ، ومبطله ابن خلكان بكسر القاف ؛
Mohammadan Dynasties

(٢) تنسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الذي كان قد تولى العراق من قبل آخر الخلفاء الأمويين ، مروان بن محمد ؛ بنى هذا القصر قرب الأنبار ، وقد دخله السفاح بعد إعلان الخلافة العباسية وأتمه وماء المشامية ، لكن الناس ظلوا يطلقون عليه اسمه القديم . معجم البلدان : ٧ : ١١٢-١١٣ .

(٣) هذا البيت غير مكتمل الاثران عروضيا .

الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على ابن الحاكم بأمر الله أبي على منصور

أمه أم ولد تدعى رقية ، ويقال اسمها آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز ، وإن ست الملك سلطنة ، أخت الحاكم ، كانت تعادى آمنة هذه . ومولده بالقصر من القاهرة على مضي ثلاث ساعات من ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان ، سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وبويع بالخلافة في يوم عيد الأضحى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر^(١)

واتفق في هذا اليوم أن صَلَّى للحاكم في خطبة العيد ، ثم بويع الظاهر بعد عودة القاضي من المصلى ، فكان بين الدعاء في الخطبة للحاكم وبين أخذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات ، ولم يتفق مثل ذلك .

وتوفي ببستان الدكة^(٢) خارج القاهرة ، في ليلة الأحد النصف من شعبان سنة سبع

(١) قال صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٤٧ ، نقلا عن مرآة الزمان ، إنه وتل الخلافة وله من العمر ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام . وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان : ١ : ٤٦٣ - ٤٦٤ أنه تولى بعد فقد أبيه بمدة ، لأن أبيه فقد في السابع والعشرين من شوال ، وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده الظاهر في يوم النحر . ويذكر ابن الأثير : ٩ : ١١٠ أن الجند أقاموا خمسة أيام بعد غياب الحاكم ثم اجتمعوا إلى ست الملك وحدوثها في أمر غيبته فأجلتهم يومين ؛ فلما كان اليوم السابع ألبست أبا الحسن عل ابن أخيها الحاكم أفضل الملابس والجند مجتمعون للموعظ المحدد ، ثم صاح الوزير : يا عبيد الدولة مولانا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فبايموا له ، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله . (ويلاحظ أن ابن الأثير يكتبه أبا الحسن ويكتبه ابن خلكان أبا هاشم ، ويذكر صاحب النجوم الكنيتهن مما) .

(٢) الدكة كان مكانها بستانا من أعظم بساتين القاهرة فيما بين أراضي اللوق والمقس ، وبه منظر للثغاف الفاطميين تشرف طاقاتها على النيل الأعظم ولا يحول بينها وبين الجزيرة شئ . وقد زالت بزوال الدولة الفاطمية وبني الناس في موضعه . المخطوط : ٢ : ١٢٠ - ١٢١ .

وعشرين وأربعمائة ، وعمره إحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام . ومدة خلافتة خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، كانت فيها قصص وأنباء .

ذلك أنه لما [١٧١] فقد الحاكم استدعت السيدة ست الملك سيف الدولة حسين بن علي بن دؤاس الكتامي إلى حيث كانت جالسة وقالت له : المَعُول في قيام هذه الدَّعوة عليك ، وهذا الصبي ولدك ، وينبغي أن تتولى الخدمة إلى غاية وسعك وتبذل فيها كل ما عندك . فقبل الأرض وشكر ودعا ، ووعد بالإخلاص في الطاعة ، وبلوغ ما في القدرة والاستطاعة . فأخرجت عليّ بن الحاكم بأمر الله ولقبته الظاهر لإعزاز دين الله ، وألبسته تاج المعز جد أبيه ، وهوتا ج مرصع بالجواهر الفاخرة ، وجعلت على رأسه مظلة مرصعة . وأركبته فرسا رائعا بمركب ذهب مرصع ، وأخرجت بين يديه الأمير الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك أبا الحسن عمار بن محمد ونسيما صاحب السيف ، في عدّة من الأستاذين^(١) تخدم . فلما برز وشوهد تقدم الوزير وصاح : يا عبيد الدولة ، مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ، فقبل ابن دؤاس الأرض ومَرَّغ خديّة بين يديه ، وفعل ما يتلوه من سائر طبقات العسكر مثل ذلك ؛ وضربت البوقات والطبول ، وعلا الصياح بالتكبير والتهليل ، والظاهر يسلم على الناس يمينا وشمالا . وفتحت أبواب القصر ، وأدخل الناس على العموم حتى سلّموا ومدحوا ؛ ولم يزل واقفا لهم إلى الظهر . ثم صُرفوا وجُمعوا من غد وأخذت البيعة عليهم ، ووضع العطاء ، وأطلق مال الفضل للجند كافة ؛ ولم يعجز خلافاً من أحد ، إلا أنّ غلاما تركيا كان يحمل الرمح بين يدي الحاكم قال لا أباع حتى أعرف خبر مولاي ؛ فأخذ وسُحب على وجهه وغرق في النيل ؛ وقامت الهيبة .

(١) الأستاذون : الخدام والطواشي ، ومنهم أرباب الوظائف المختصون بشئون الخليفة واحتياجاته ، وأعظمهم مكانة الأستاذون المختصون الذين يدرون عما هم على أحوالهم ، وهم أقرب الخدام إلى الخليفة ، ومنهم من يحمل رسائل الخليفة إلى الوزير ، ومن يشرف على إعداد مجلسه . . الخ . . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٧ .

وكتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم وقيام الظاهر ، ورسم لهم أخذ البيعة على نفوسهم ومن عندهم من سائر طبقات الناس . وأقيمت المآتم على الحاكم في القصور والقاهرة ثلاثة أيام . وجمعت السيدة عامة أهل مصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة ، ووعدتهم حسن السيرة والمعاملة ، وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم في كل وقت ، والمطالعة بحيف إن لحقهم من عامل أو ناظر ليفعل في ذلك ما توجه السياسة العادلة . وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرف في أمورهن . وارتفعت جواهر كان الحاكم وهبها ، وحلّت إقطاعا ، أقطعها ورتبت الأمور ترتيبا أصلحها وهذبها .

وزارت ابن دؤاس في منزله ، وجعلت مصادر التدبير على يده . فلما أحكمت ما أحكمته وأكّدت ما أكّده ، أحضرت ابن دؤاس وقالت له : قد علمت ما بيني وبينك من الموائيق والعهود ، وأنا امرأة ، وإنما أريد هذا الملك لهذا الصبي ، وقد أحسن الله المعونة ، وأجرى الأمور على المحبة ، وأنت زعيم الدولة فيها والمنظور إليه منها ، وقد رأيت أن أنجز وعدك وأظهره ، وأردّ إليك أمر السیادتين ، مضافا إلى الشرطتين ، وأجعل أمرك في الأمور والخزائن نافذا ، ورأيك في التقارير والتدبيرات معتمدا ، إذ كنت المولى المخلص والشريك المخالط ، وأشرفك بخلع وحُملان^(١) يظهر للخاص والعام بها موضعك ومحلّك ، وتخصّصك وتحققك . فادخل الخزائن واختر كل ماتريد لفخامته ولجلالته ، واطلب يوماً تختار لتفاض فيه عليك الخلع ويُقرأ العهد بتقليدك . فلما سمع من ذلك ما سمع سرّ به وقبّل الأرض شكرا عليه . وشاع هذا الحديث فر كب الناس إليه وهنشوه بالنعم المتجردة له .

وأحضرت السيدة بعد ذلك كاتب ابن دؤاس وقالت له : قد تقدمنا إلى سيف الدولة بما عرفته ، وبما اعتمد التخفيف فيما أطعمه أو وقف فيه دون الغاية التي نريدها ، وينبغي لك أن تعمل أنت تذكرة بجميع ما يستوفى فيه شروط المنزلة التي قدمناه إليها ، والحال

(١) الحملان بالضم ، ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة . القاموس المحيط .

التي أهّلناه لها ، وتستظهر له لا عليه في ذلك ، وتحضرها لنقف عليها وننجز ما فيها .
فقبل الأرض وقال : السّمع والطّاعة . فقالت له واكتب أيضا رقعةً واذا كر فيها مبلغ
جاريك لنوقع بإضعافه ، وقد أمرنا عاجلاً باعطائك ألف دينار وعشرين قطعة ثياباً
وبغلين بمركبين . فأعاد الشكر والدعاء ، وصار إلى [٧١ب] ابن دواس فأعلمه ما خوطب
به وعومل به من حسن الاعتقاد فيه ؛ فتضاعف سروره بذلك ، ووافقه على ما كتب به
التذكرة من الثياب ، والسيوف المحلاة ، والمناطق المرصعة ، والدواب والمراكب الذهب
الثقيلة ، وغير ذلك من أسباب التّشريفات الزائدة ؛ وعاد الكاتب بها فعرضها ، وتقدم
باعداد جميع ما فيها ، وكتب له العهد . وأخضر ابن دواس وبنو عمه وكاتبه ، وامتلاً القصر
بالخاصّة والعامة ، وخرج مفضّاد الخادم ، وكان قريباً من السيدة ، وهو أستاذ الظاهر ، فحمل
ابن دواس إلى الخزّانة حتى يشاهد ما أعد له ، وكان عظيماً جليلاً ، وقال له : السيدة تقول لك
إن أردت مزيداً فاطلبه ، فقبل الأرض ودعا ، وعاد فجلس في صُفّة على باب السّتر ووجوه
الدولة بين يديه ، وكل منهم يتطأطأ له ويعطيه من نفسه كل ما يتقرب إليه به .

فلما تعالى النهار خرج نسيم الصقلي صاحب السّتر والسيف ، وبين يديه مائة رجل
تعرف بالسّعدية ، يختصون بركاب السلطان ويحملون سيوفاً محلاة بين يديه ، ويعرفون
لأجلها بأصحاب سيوف الجلي ؛ وقد جرت عادتهم في أيام الحاكم بأن يتولوا
قتل من يؤمّر بقتله . وقال لابن دواس : أمير المؤمنين يسلم عليك . فقام وقبل الأرض ،
وفعل الناس مثل ما فعله ؛ وقال : قد جعل هؤلاء القوم - يعني أصحاب السيوف - برسمك
إكراماً لك وتنوياً بك . فقبل الأرض ثلاثاً ومرّغ خديه ، ودعا هو والحاضرون للظاهر
بما يدعى لمثله به ؛ ووقف القوم قياماً بين يديه . فعاد نسيم فالتقى ماجرى ، فرسمت له السيدة
أن يخرج ويضبط أبواب القصر بالخدم والصقالبه ، ففعل . وقالت له بعد ذلك ، اخرج
وقف بين يديّ ابن دواس وقل : يا عبيد مولانا ، أمير المؤمنين يقول لكم هذا قاتل مولانا

الحاكم . وأَعْلَهُ بالسيف وأمر العبيد السعدية بأن يقتلوه . فخرج نسيم ومعه جماعة من الصقالبة وفعل ما أمر به ، وأخذ رأس ابن دؤاس ودخل به إلى حضرة السيدة فوضعه بين يديها . فأمرته بإيفاد الصقالبة^(١) إلى دُورِه والتوكيل به والقبض على جميع أسبابه ، وقتل كاتبه ، وإخراج جثته ورميها على باب القصر ، ففعل جميع ذلك . ولم يعترض فيه معترض ، وتفرق الناس .

وأحضِرَ مَوْجُودُ ابن دؤاس فوجدت في بعض صناديقه السكين التي كان يحملها الحاكم في كُتْمِه أخذت عند قتله . وأقامت جثة ابن دؤاس ثلاثة أيام ، ومناد ينادى عليها : هذا جزء من غدر بمواليه ، ثم دُفِعَ إلى عبيده فدفنوه .

وقبضت السيدة بعد هذا على خطير الملك عمار بن محمد . وكان يتولى ديوان الإنشاء وإليه زم^(٢) المشاركة والأثرak ، وهو الوساطة بين الحضرة وبين هذه الطوائف ، ثم خلع عليه في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، ووقع عن حضرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ما يوقع عليه الحاكم ، فجعل توقيعه : الحمد لله رب العالمين ، ثم قام بعد الحاكم بالبيعة لأمر المؤمنين الظاهر كما تقدم . وفي سنة اثني عشرة خُلع عليه للوساطة وكتب سجله بذلك ، وزال أمره في ذى القعدة من السنة المذكورة ، فكانت مُدَّةَ سبعة أشهر وأياما ، وقتل في الحج .

وولى بعده بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن ، وكان يتولى الشرطة السفلى ثم خلع عليه أولا بالصعيد في جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة ، ثم ولى ديوان الإنشاء

(١) الصقالبة جماعة حر الألوان صلب الشعوب تجاور بلادهم بلاد الخزر (عند بحر قزوين - الخزر) وبعض بلاد الروم ، وكانوا يصلون إلى مصر مع النخاسين تجار الرقيق ، تكاثر عددهم أيام الفاطميين حتى أصبحوا يكونون عنصرا هاما من عناصر الجيش والحرس الفاطميين .

(٢) وظيفة الزمام من وظائف الأستاذين المحتكين يشرف شاغلها على ديوان بيته أو على فئة بعينها من الخدم أو جماعة الحرس . . . الخ .

عوضاً عن ابن خيران ؛ وخلع عليه للوساطة في محرم سنة ثلاث عشرة عوضاً عن خطير الملك ؛ ثم قبض عليه في العشرين من شوال منها في القصر ، فاعتقل وزال أمره ، وكانت مدة وساطته تسعة أشهر . ثم أخرج في يومه مسحوباً ، وسجن ، ثم أخرج من الغد وقتل في الفج ؛ فوجد له من العَيْن ستمائة وعشرون ألف دينار .

وَقَتَلَتِ السيدة جماعة ممن كان اطلَّع على سرِّها في قتل الحاكم ، وعظمت هيبتها في نفوس الأبعد والأقرب .

وفي سنة ثمان عشرة شرب الظاهر الخمر وترخَّص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقع ، وأكل الملوخية وسائر أصناف السمك ، فأقبل الناس على اللهو .

وكان قد وَلِيَ حلب غلام يعرف بِأَمِير الأمراء عزيز الدولة أَبِي شجاع فأنك الوحيدى، غلام مَنجُوتَكين ، في شهر رمضان سنة سبع وأربعمئة ، وكان أَرْمَنِيَا دِينًا عَاقِلًا ، فَوَلَاهُ الحاكم بِأَمْرِ اللَّهِ [١٧٢] حلب وأعمالها ، وَلَقَّبَهُ أَمِيرُ الأمراء وعزيز الدولة تاج الملة . ودخل حلب يوم الأحد ثانی شهر رمضان منها ؛ وتمكن من البلد واستفحل أمره وعظم شأنه ، فعصى الحاكم^(١) ، ودعا لنفسه على المنبر ، وضرب السكة باسمه . فمات الحاكم عقب ذلك . فإلطفته السيدة وآنسته ، وواصلته بما مال إليه من حمل الخلع والخيول بالمرآكب في سنة الثنى عشرة حتى استمالت قلبه . ولم نزل تُعمل الحيلة حتى أَفْسَدَتْ عليه غلاماً له يعرف بِبَدر ، كان يملك أمره وغلمانته تحت يده ، وبذلت له العطاء الجزيل على الفتك به ، ووعدته أن تقيمه مقامه في موضعه . وكان لعزيز الدولة غلام هندي يهواه ويحبه حباً شديداً ؛ فاستَغَوَاهُ بدر وقال له : قد عرفتُ من مولاك ملالاً لك وتغيُّراً منه فيك ، وأطلعتُ منه على عَزْمَةٍ في قتلِكَ ، ودفعته دفعات عنك لأننى لا أَشْتَهِي أن يتمَّ مكروه عليك .

(١) في الأصل : فعصى على الحاكم .

وتركه مدة ووهب له دنانير وثيرا ، وأظهر له المحبة ، وتوصل إلى أن خلا به ثم قال له : إن علم نبأ التعبير عزيز الدولة قتلنا ، وما إشفاقى على نفسى وإنما إشفاقى عليك . فقال له الصبي : فأى شئ أعمل يا مولاي ؟ قال : قد عرفت محبتى لك ، وإن ساعدتنى اصطنعتك وأعطيتك ، وعشنا جميعا فى خفض وأمن . قال له : فارسم ما شئت حتى أفعله ؛ قال : تحلف لى حتى أقول لك ؛ فاستحلفه وخدعه ، ووافقه على قتل عزيز الدولة . فقال له الصبي كيف أقتله ؟ قال : الليلة يشرب ، وسأزيد فى سقيه حتى أسكره ؛ فإذا استدعاك على الرسم لغمزه^(١) ونام فقم كأنك تهريق ماء ، فخذ سيفه واضربه حتى تفرغ منه . فقبل الصبي وصيته . وكان عزيز الدولة فى الصيد ؛ فلما عاد دخل الحمام وخرج منه فأكل ثم انتقل إلى مجلس الشراب ؛ وحضر من جرت العادة بحضوره من ندمائه ، ثم قام فى آخر وقت وقد تبين فيه السكر ، والصبي بين يديه يحمل سيفه حتى وافى إلى مرقده واستلقى على فراشه ؛ وأمر الغلام أن يغمزه . فلما مضى هزيع من الليل وثقل عزيز الدولة فى النوم وتحقق الصبي ذلك سلّ السيف وضربه به ، وكان سيفا ماضيا ، ففلق رأسه ، وأتبع الضربة بأخرى فقتله . ودخل بدر وشاهده ميتا ، فصاح ، واستدعى غلمان الدولة وأمرهم بقتل الصبي ، فقتلوه ؛ وحوّط الخزان والقلعة .

وشاع قتل عزيز الدولة ؛ وكان ذلك فى ليلة السبت الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة . وكتب بدر إلى السيدة بقتله ، فأجابته ، وأظهرت الوجد على عزيز الدولة ، وشكرت بدرأ على ما كان منه فى ضبط الأمر وحراسة الخزائن ؛ ولقبته وفى الدولة ، وقلدته موضع مولاه ، ووهبت له جميع ما حازه .

(١) غمزه يغمزه مثل نخسه . القاموس المحيط . ولعل المقصود به ما يسمى بالتكبيس الذى يقوم به بعض الخدم أو الجوارى للسادة قبيل النوم .

وكان سديد الدولة على بن أحمد الضيف ناظرا بالشام^(١)، فتلطف ببدر غلام عزيز الدولة حتى تسلم البلد منه والقلعة ، وولاهما أصحاب الظاهر . وسبب ذلك أن كتابا وصل إليه من الظاهر بخطه يطيب نفسه ، وأظهر هذا الكتاب في حلب، في أيام الملك رضوان أخذه من بعض أهلها ، وكان في ورق إبريسم أسمر عريض ، فيه ثلاثون سطرا بخط وسط . وكان صدر الكتاب : عرض بعضرتنا يابدر - سلمك الله - ما كتبت على يد كاتبك ابن مدبر ، وعرفنا ما قصدته ، ولم نسي ظناً بك لقول فيك ولا شناعة ذكر . وقد بعثنا بأحد ثقاتنا إليك وهو على بن أحمد الضيف ليجدد الأخذ عليك . فلما دخل ابن الضيف على بدر بالكتاب استرسل إليه وطرح القيد في رجليه ، فقبض عليه وأنزله من القلعة . وأقام بحلب سنة . وسلمها موصوف الخادم إلى أصحاب الظاهر وثقانه .

وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة في ذي الحجة والناس يطوفون بالكعبة قصد رجل دَيْلَمِي^٥ من الباطنية الحجر الأسود فضربه بدبوس فكسره ، وقتل في الحال ، وقتل معه جماعة ذكر أنهم كانوا معه وعلى اعتقاده الخبيث^(٢) .

ولما تسلم بدر مدينة حلب من عزيز الدولة فاتك بقي بها سنتين ، ثم ملكها موصوف

(١) يعرف القلقشندي بوظيفة ناظر نظار الشام فيقول « وهو الذي يقوم مقام الوزير بالديار المصرية » السلوك :

١ : ٦٦٧ : حاشية : ٣ .

(٢) جاء في النجوم الزاهرة : لما وصل الحاج المصري إلى مكة المشرفة وثب شخص من الحاج إلى الحجر الأسود وضربه بدبوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه ، وعاجله الناس فقتلوه . ثم ينقل عن هلال الصابي كتابا كتبه الظاهر بيدوه بالنعي على جماعة ذهبت في اللو في عل بن أبي طالب أمدا بعيدا وادعت فيه ما ادعت النصاري في المسيح ، ثم نجمت عنها فرقة وقالوا في آباءه وأجداده منكر من القول وزورا . ثم يتبرأ الظاهر من هذه الاتجاهات ويتطرق إلى حادثة الحجر الأسود ويستنكرها ويتبرأ من مرتكبيها ، ويختم الكتاب بقوله « لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيما ومقاما جسيما أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج - لعنه الله - من إحراق البيت وهدمه وإزالة بنيانه ودمه » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٤٨ - ٢٥٠ . انظر أيضا : الكامل : ٩ : ١١٤ - ١١٥ .

الخادم . واستدعى منتخب الدولة أنوثتكيين الذّبري^(١) من قيساريّة^(٢) ؛ فلما كان في الرّملة خرج إليه توقيعٌ بولاية فلسطين ، فدخلها في المحرم سنة أربع عشرة ؛ فخافه حسان بن مفرج بن دغفل [٧٢ب] بن الجراح ؛ وجرت له معه وقائع وحروب انتصر فيها الذّبري على حسان وعظم أمره . فسعى إلى به الوزير فقبض عليه بعسقلان .

وكان قد ولي الوزارة الأمير شمس الملك المكيين الأمين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان بعد قتل بدر الدولة أبي الفتح موسى بن الحسن في المحرم سنة أربع عشرة ، ورّد إليه النظر في الرجال والأموال . فجرى له مع نجيب الدولة على رسمه فيما يتولاه من ديوان تئيس ودمياط ، والجيش الحاكي ، ودواوين السيدة ست الملك ، ولا يكون لشمس الملك في ذلك نظر .

وبعث الظاهر رسولا إلى بلاد إفريقية ، فقدم مدينة المنصوريّة لأربع بقين من جمادى الأولى ، ومعه تشریف جليل لشريف الدولة أبي تمم المعز بن باديس ، وثلاثة أفراس بسروج ثقيلة ، وخلعة ومنجوقان^(٣) قد نسجا بالذهب على قصب من الفضة ، وعشرون بنداً مذهبة ، وسجلٌ لُتّب فيه بشرف الدولة وعضدها . فتلقاه شرف الدولة ، وقرئ السجل بجامع القيروان .

(١) تحدث ابن القلانسي عن هذا القائد بتطويل فكان ما قال إنه تميز في عمله بالشجاعة والشهامة وحسن السيامة والنصفة في العسكرية والرعية وتشتيت شمل أولى الفساد من الأعراب وغيرهم . وذكر أنه لقب الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالي . ومولده بلاد ماوراء النهر حيث سبي وبيع ، وانتقل في الخدمة حتى وصل دمشق سنة ٤٠٠ فاشتراه القائد تزر بن أونيم الديلمي . ثم انتقل إلى ملكية الحاكم سنة ٤٠٣ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سيد الدولة الضيف في السكر إلى الشام سنة ٤٠٦ . ثم تولي بعلبك ، ثم قيسارية ، ثم انتقل في الوظائف حتى انتهى إلى ولاية دمشق . ذيل تاريخ دمشق : ٧١ وما بعدها .

(٢) على الساحل الشامى ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . معجم البلدان : ٧ : ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) المنجوق . نوع من الأعلام والبند .

وأهل جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وأربعمائة بيوم الثلاثاء ، فففيه خلع على أبى
الفرج بن مالك بن سعيد ثوب وعمامة مذهبان ، ورداء محشى مذهب ، وحمل على بغلة
بسرّج ولجام محلى ؛ وقلد قضاء تنيس وسار إليها . وخلع على أحد أولاد ابن جراح
ثوب مثقل مذهب وعمامة طائفة ، وحمل على فرسين بسرّجين ولجامين مذهبيين . وفى
غده ركب الظاهر إلى نواحي القصور وعاد .

وفى ثالثة وصلت نحو المائة رأس من جهة ابن البازيار وشهرت .

وهلك محمد بن عبد الله بن المدبر بأخذ الخطير عمار فى القصر . وفى رابعة وكُل بدكاكين
الرؤاسين فى جميع الأسواق ، وأخذ ما فيها من الرؤوس^(١) ؛ وكان قد طلب خمسمائة رأس
وألف رطل رقاقا .

وفى سادسه جلس الظاهر للسلام ، ودخل الناس على رؤسومهم ، وانصرفوا . وفى ثامنه
جُمع الناس كافةً إلى صحن الإيوان بالقصر ، وخرج رفق الخادم ومعه منشور وسجل ،
فسلّم المنشور إلى أبى طالب على بن عبد السميع العباسى الخطيب ، فرق المنبر وقرأه على
الكافة . فتضمن أن جماعة من أوغاد الأرياف يرتكبون الجرائم ويختُمون بأهل الدولة من
الولاة . فنُهِوا عن حمايتهم . فلما فرغ من قراءته استدعى أبو عبد الله محمد بن على بن
ابراهيم النرسى ، نقيب الطالبين إلى الخزانة الخاصة ، فخلع عليه ثوب دبيق مذهب
مصنف بأطواق ، ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهب ، وعلى رأسه عمامة شرب
مذهب . وخرج وفى يده سجل يتضمن استمراره فى النقابة على عادته ، وكان قد أرجف
بصرفه عنها .

(١) يقع سوق الرؤاسين على رأس سويقة أمير الجيوش ، وقيل له ذلك من أجل أن هناك خاناً تصنع فيه الرؤوس .
وكان من أحسن أسواق القاهرة ، فيه عدة من الباعين ، ويشتمل أيضا على نحو عشرين حانوتا مملوءة بأصناف المأكّل .
المخطوط : ٢ : ٩٥ .

وفى تاسعه ركب الظاهر فى عساكره إلى عين شمس ، وعاد . وفى يوم الجمعة حادى عشره كان نَوْرُوزُ القِبْطِ ، وانتهت زيادة النيل فيه إلى أربعة عشر ذراعاً وأصبع واحد .

وفيه خطب بجامع راشدة على منبره خطبتان فى وقت واحد . وذلك أن أباً طالب على ابن عبد السميع خطب بهذا الجامع بعد سفر العفيف البخارى إلى الشام بأمر قاضى القضاة ، فسعى ابن عُصْفُورَة ببعض الخدّام حتى خرج له الأمر بأن يخطب ، فخطبا معاً أحدهما دون الآخر . ثم استقرّ أبو طالب فى الخطابة وأن يحلّفه ابن عصفورة .

وفى ثالث عشره ركب الظاهر لفتح الخليج وسدّ البلد إلى الصّناعة^(١) ، فطرح بين يديه عشاري^(٢) . ثم سار على شارع الحمر إلى سدّ الخليج ، ففتح بين يديه ولعبت العشاريات فيه ، وكان يوماً حسناً . وكان عليه وقت نزوله إلى مصر قميص طميم مذهب ، وعلى رأسه شاشية مرصمة ؛ وعاد وعليه ثياب بيض دبيقية مذهبة وعمامة شرب مسكى مذهبة .

وفى ثانى عشره وصلت هدية من المحدث بأسوان ، وهى عشرون فرساً ، وثمانون بُخْتِيّاً وعدّة عبيد وإماء سُودَان ، وفهد ، وغنم ثوبية ، وطيور ، ونسانس ، وأنياب فيلة .

وفى ثلاثة أيام ، آخرها سلخه ، انصرف ماء النّيل انصرافاً فاحشاً ولم تَرَوْا منه الضّياع ، وكثُر ضجيج الناس واستغاثتهم ، وخرج أكثرهم بالمصاحف منشورة إلى الجبل يدعون الله

(١) المقصود فتح سد النيل عند منطقة فرم الخليج . وقد تقدم شئ من التعريف بهذا الاحتفال .

والمقصود بالصناعة دار الصناعة « الترسانة » وهى المكان المخصص لإنشاء وتعمير السفن والمراكب بأنواعها : حربية وتجارية أو للزّهة . وقد نقلت دار الصناعة زمن الفاطميين إلى منطقة المقس فى موضع ميدان رمسيس ، أو محطة مصر ، الحال . لكن يظهر من النص هنا أن هذا الاحتفال كان يقام فى موقع دار صناعة مصر (الفسطاط) التى كانت على ساحل مصر جهة الشرق وهى التى أنشأها الإخشيد . وكانت أول دار للصناعة فى مصر الإسلامية بجزيرة الروضة على ساحلها الجنوبي الشرق . الخطط : ٤٧٠ - ٤٩٣ .

(٢) العشاري سفينة صغيرة للزّهة وللخلافة بصفة خاصة ، وهى من طابقتين أعلاهما لمجلس الخليفة ووزيره وخاصته ، وأسفلها لموانج والمأكولات والأدوات التى يحتاج إليها فى الزّهة ، وللتوتية . وكان العشاري الذى يركبه الخليفة لفتح سد الخليج لا يحمل إلا الخليفة والوزير وعدة قليلة من الخاصة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٠٠ .

فلم يُعَاذُوا . وتعذر وجود [٧٣ ا] الخبز ، وازدحم الناس على شراء الغلال ، ووقف سعر التليس على دينار إلا أنه لا يوجد إذا طلب ، وأبيع سراً التليس القمح بدينارين ، والحملة الدقيق بدينارين وربع ، والخبز أربعة أرتال بدرهم ، وثمن الحمل الدقيق بعشرين درهماً^(١)

وأهل شهر رجب بيوم الأربعاء . وفي ثلثه توجه أبو القاسم بن رزق البغدادى فى الرسالة إلى الحجاز . وفي خامسه خلع على داود بن يعقوب الكتامى ثوب مثقل وعمامة ، وقلد الحسبة والأسواق والسواحل ، فنزل فى موكب عظيم وبين يديه اثنتا عشرة نجيبة تحيط به إلى مجلس الحسبة بمصر ، فنظر فى الأسعار عوضاً عن ابن غرة فاستقامت الأحوال . وقلد ذو القرنين أبو المطاع بن الحسن بن حمدان الإسكندرية وأعمالها غرباً وأمر ولده فاضل ولقب عظيم الدولة ، واستقر عوضه والى البلد .

وفيه قرئ بالإشراق سجل برفع المناكر وترك التظاهر بشئ منها ، وألا يخرج النساء من بعد العصر إلى الطرقات بالقرافة ، وأن تُنَزَّه هذه الأشهر الشريفة عن المناكير ، وألا يجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجزيرة والجيزة وبالقرافة على شئ منها ومن المحظورات ، وأن يمنع الغناء ظاهراً إلا بالقضيب فإنه مباح .

وفى ثامنه قلد محمد بن عبد الله بن مدبر ديوان الخراج شريكاً . وركب الظاهر إلى مسحد تبر ، وعاد . وفى خلد تعذر وجود الخبز ، وأمر ببخله فى الماء فى القصارى ، قليل وبيع ثلاثة أرتال بدرهم ، ثم وجد . وفتحت مخازن جماعة من أهل الدولة .

(١) التليس مائة وخمسون رطلاً مصرياً والحملة ثلثائة رطل . قوانين الدواوين : ٣٦٥ . وهذا شئ غريب : أن يكون تليس القمح ، وهو ما يوازى نصف حلة الدقيق وزناً ، بدينارين بينما تكون حلة الدقيق بدينارين وربع دينار . ويذكر ابن ماق أن الرطل المصرى يساوى مائة وأربعة وأربعين درهماً . قوانين الدواوين : ٥٤٥ .

سنة خمس عشرة وأربعمئة (١) :

أهل المحرم بيوم السبت . وفي تاسعه أخذ رجلٌ يقال له أبو زكريّا ، كان نصرانياً فأسلم ، وكتب الحديث وقرأ القرآن ، وحجّ . ثم ارتد إلى النصرانية وقال : ما عول في سحر نبيكم ؛ فضرب عنقه بعد ما ثبت عليه هذا . وفي ثالث عشره أخذ كتابي يعرف بأحمد بن طاطوا وعليه أثر السفر ، فزعم أنّه ورد من الكوفة ، وأنه كان مع الحاكم بأمر الله ، أرسله إلى الناس لينتهوا عما هم عليه ؛ فضرب عنقه .

ولسبع عشرة بقيت منه سار أبو القاسم بن رزق البغدادى إلى صقلية بسجلاً وهدية فيها مغنيات من القصر . وفيه ركب الظاهر إلى نواحي عين شمس وعليه ثوب ينكي^(٢) أحمر معلم^(٣) مذهب ، على رأسه عمامة شرب ينكي مذهب ؛ وعاد .

ولعشر بقين منه امتنع شمس الملك الأمين المكين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان من النظر في الوساطة حنقاً من الشريفين العجميين ، لأنهما يتوليان الأمر دونه ، ومكاتبه أعمال الشام وغيره ، وقراءة التّخريج^(٤) ، وعرض كتب البريد وكتب المطلقات ؛ وأقام في داره ثلاثة أيام . فاستدعاه الظاهر وأمره بالعود إلى خدمته ، فعاد إلى النظر ، وجلس على رسمه على باب الذهب^(٥) يأمر وينهى .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من مارس سنة ١٠٢٤ . ويلاحظ أنه لم يرد ذكر مستقل للسنوات ٤١١ - ٤١٤ .

(٢) هذه كلمة إنجليزية الأصل تدل على اللون الوردي الخفيف Pink . وهذا تطويع للكلمة الأجنبية بتعريبها إذ لم يجد الكاتب بين يديه الكلمة العربية التي تحقق غرضه .

(٣) أعلمت الثوب جعلت له علماً من طراز وغيره ، وهي العلامة . المصباح المنير .

(٤) لعل المقصود بالتخريج ما يقوم به المستوفى الذي ينه متولى الديوان على ما يجب استخراجاً من المال في حينه ، ويقوم الجرائد ، ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ، ويستوفيه ، ويخرج ما يجب تخريجه فيه ، ويخرج الأموال ويعمل المطالبات . قوانين الدواوين : ٣٠١ .

(٥) من الأبواب الغربية للقصر الكبير الفاطمي ، وكانت تدخل منه المواكب وجميع أهل الدولة .

ولخمس بقين منه كان ثالث فصح النصارى . فاجتمع بقنطرة المقدس من النصارى
والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم فى لهو وتهتك قبيح ،
واختلاط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر ، حتى حُمِلت النساء فى قفاف الحمالين من
شدة السكر ؛ فكان المنكر شديدا فى هذا اليوم .

وركب الظاهر فى موكب إلى المقدس بعمامة شرب مفوظة بسواد ، وثوب ديبقى
مُدِيرٌ بسواد ، فدار هناك طويلا وعاد .

ولثلاث بقين منه ورد من أهل الريف زيادة على خمسة آلاف رجل فارين من عُدَّة الدولة
وعمادها ، رفق الخادم ، متولى السيارة بأسفل الأرض لعسفه . وقدم الخبر باحتماع العرب
المهلايين والكلابيين وبنى قره وجهينة على الخارجى بالصعيد ؛ وبعث حيدرة بن نقبيان ،
مُتَوَلِّى الصعيد ، يطلب عسكريا ، فسُيِّر إليه خلق من العبيد ، والباطلية ، والبرقية ،
وغيرهم .

[وأهل] صفر وأوله الاثنين . فى ثلاث قدم الحاج وفيه خلائق من أهل خراسان ، معهم
أمتعة ، ورسول صاحب خراسان^(١) بهدية إلى الظاهر ؛ فأكرم وأنزل . وكان من خبرهم أن حاج
خراسان تأخر عن الحج فى سنتى عشرة وإحدى عشرة ، فاستغاث الناس بالسلطان يمين
الدولة أبى القاسم محمود بن سُبُكْتِكِين^(٢) ، فتقدم إلى قاضى قضاة مملكة أبى محمد الناصحى
فى الحج ، ونادى بذلك [٧٣ ب] فى أعمال خراسان ، وأطلق للعربان ثلاثين ألف دينار
سوى ما سيرة للصدقات ؛ فساروا وحجوا ، وعادوا سالمين . ثم حجوا بعد ذلك فى سنة

(١) أبو هل الحسن بن محمد المعروف بمسك ، والى خراسان من قبل يمين الدولة محمود بن سُبُكْتِكِين . النجوم

الزاهرة : ٤ : ٢٦٠ .

(٢) صاحب غزنة . وكان قبل ذلك واليا بخراسان (قبل أن يخضعها سلاطين غزنة) . توفى سنة ٤٢١ (١٠٣٠) .

مجمع الأسباب ؛ Mohammadan Dynasties

أربع عشرة ، ومنهم أبو علي الحسن بن محمد المعروف بحسّك ، صاحب عين الدولة والخصيص به ، وفي مهمته ما يدفع إلى العرب في طريق مكة وغيرها من رسومهم ؛ فدفع كل من استضعفه ، ووعد من قوى جانبه وخيفته أذيتة بإزاحة علبتهم عند مرجعه ، واحتج عليهم بأوقفت وضيقه وخيفة الفت ، فأخروا مطالبته . فلما قضى الحج وعاد بمن معه إلى المدينة النبوية اجتمع هو وأبو الحسن محمد بن الحسن الأقساسي العلوي ، أمير الحاج البغدادي ، وعدة من وجوه الناس ، للنظر في أمر العرب ، فاستقر رأيهم على السير إلى الرملة من وادي القرى والمضي على الشام إلى بغداد . فساروا إلى الرملة ، وقدم الخبر بقدمهم إليها على الظاهر في ثاني عشر صفر ، وقالوا إنهم في ستين ألف جمل ومائتي ألف إنسان - بكتاب بعث به إليه الأقساسي يستأذنه فيه على عبور بلاد الشام . فسر بذلك وكتب إلى جميع ولاية الشام بتلقيهم وإنزالهم ، وإكرام مقدمهم ، وعمارة البلاد لهم بالطعام والعلف ، وإطلاق الصلوات للفقهاء والقراء وإقامة الأنزال الكثيرة لحسّك ، صاحب عين الدولة ، والتناهي في إكرامه . وتقدم إلى مقدمي عساكر الشام بحفظهم والمسير في صحبتهم ، وأن يتسلمهم صالح بن مرداس^(١) من دمشق ويوصلهم الرحبة^(٢) ، ويدفع إلى الأقساسي ألف دينار وعدة كثيرة من الثياب ، وإلى حسّك مثل ذلك ؛ وقيد إليه فرس بركب ذهب . فساروا من الرملة موقورين مجبورين شاكرين حتى وصوا إلى بغداد ، وعرج حسّك عنها خوفا من الإنكار عليه . فاشتد ما فعله الظاهر على الخليفة القادر بالله ، وأنكر عودتهم على الشام ، وصرف الأقساسي عما كان إليه وقبضه ؛ وأنكر على حسّك ، وكتب فيه إلى عين الدولة ، واستدعى منه الفرس والقماش والخلع الواصلة إلى حسّك

(١) أول أمراء الأسرة المرداسية التي حكمت حلب بين سنتي ٤١٤ - ٤٧٢ (١٠٢٣ - ١٠٧٩) .

(٢) هناك أكثر من رحبة من أشهرها رحبة مالك بن طلق على مسافة خمسة أيام من حلب وثمانية أيام من دمشق ومائة فرسخ من بغداد ، وهي على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا ، ولعلها المقصودة هنا . وهناك رحبة بضم الراء قرية بجزاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة . معجم البلدان : ٤ : ٢٣٤ - ٢٣٩ .

لُتُحْرَقَ بَبَعْدَادَ ؛ فَبِعَثَ بِهَا فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سِتْ عَشْرَةَ ؛ فَأُحْرِقَتْ بِمَحْضَرٍ مِنَ النَّاسِ
وَسُبِّكَ الذَّهَبُ وَفُرِّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ . وَغَنِمَ الظَّاهِرُ حَسَنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ حَاجِّ خِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ
النَّهْرِ ، لَمَّا كَانَ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَزِيَارَتِهِمْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ .

وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ وَافَى عِمَادُ الدَّوْلَةِ رَفَقَ مِنَ السَّيَارَةِ بَعْدَ عَظِيمَةٍ وَثَلَاثُمِائَةِ رَأْسٍ مِنَ الْخَيْلِ
وَالْبَغَالِ فَإِنَّهُ أَخَذَ كُلَّ فَرَسٍ وَجَدَهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ بِنْدًا مَذْهَبَةً ، وَعَشْرُونَ مَنُجُوقًا ،
فَتَلَقَّاهُ جَمِيعُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ . وَكَانَتْ عِدَّةٌ مِنْ قَتْلِهِ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَهِيَ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ
يَوْمًا ، مَائَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ . وَقَدَّمَ زَيْنُ الْمَلِكِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ مَسْعُودٍ مَصْرُوفًا عَنْ مَدِينَةِ
مَنْوَرٍ ، فَتُلِّقَى وَأُكْرِمَ .

وَفِي سَادِسِ عَشْرِهِ رَكِبَ الظَّاهِرُ إِلَى نَاحِيَةِ عَيْنِ شَمْسٍ وَعَادَ . وَقَدَّمَ الْخَبِيرُ مِنْ حَسَنِ بْنِ جَعْفَرٍ
الْحَسَنِيَّ أَنَّهُ أَقَامَ الدَّعْوَةَ لِلظَّاهِرِ بِعَرَفَاتٍ وَغَيْرِهَا ، وَمَنْعَ أَهْلِ خِرَاسَانَ مِنَ الدَّعْوَةِ لِصَاحِبِهِمْ .
وَلِثَلَاثِ عَشْرَةٍ بَقِيَتْ مِنْهُ رَكِبَ الظَّاهِرُ إِلَى الْمَشْتَمَى ^(١) ، وَدَخَلَ حِمَامَ نَجَاحِ الطُّوْلُونِيِّ ،
ثُمَّ رَكِبَ الْعَشَارِيَّاتِ فِي النَّيْلِ إِلَى الْمَعْتُوقِ بِالْكُومِ الْأَحْمَرِ ^(٢) ، وَقَطَعَ لَهُ الْجِسْرَ حَتَّى عَبَرَهُ ،
ثُمَّ عَادَ إِلَى الْقَصْرِ .

وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِأَحَدِي عَشْرَةٍ بَقِيَتْ مِنْهُ جُمُوعُ النَّاسِ كَافَّةً إِلَى الْإِيْوَانِ بِالْقَصْرِ ، فَلَمَّا
اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي صَحْنِ الْإِيْوَانِ خَرَجَ الْقَائِدُ أَبُو الْفَوَارِسِ مَعْضَادُ ، الْخَادِمُ الْأَسْوَدُ ، وَعَلَيْهِ
ثَوْبٌ طَمِيمٌ حَسَنٌ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ شَرِبَ ، طَائِرَةٌ كَثِيرًا ، بِالذَّهَبِ مُحْرَقِ اللَّوْنِ ، وَمَعَهُ سِجِلٌّ
قُرِئَ عَلَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ بِتَلْقِيهِهِ بِالْقَائِدِ عَزَّ الدَّوْلَةُ وَسَنَانُهَا أَيْ الْفَوَارِسِ مَعْضَادِ الظَّاهِرِيِّ ،

(١) الْمَشْتَمَى مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلزَّهَةِ . الْخَطُّطُ : ١ : ٤٩٠ .

(٢) مِنْ أَعْمَالِ الْجَيْزِيَّةِ . قَوَانِينُ الدَّرَاوِينِ : ١٠٠ . وَهَنَّاكَ مَكَانٌ آخَرُ عُرِفَ بِالْكُومِ الْأَحْمَرِ كَانَ يَرِاقَعَا عِنْدَ فَمِ
الْمَلِيجِ حُلَّ جَانِبَيْهِ الْغَرِيِّ ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هُنَا وَقَدْ سُمِيَ الْكُومُ الْآخَرُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ بِهِ أَقْنَةُ الطُّوبِ . الْخَطُّطُ : ١ :

وأنَّ أمير المؤمنين لقَّبه وكناه ؛ وهو سجل بليغ . ثم حُمِلَ بعد قراءته على أربعة من الخيل بسروج مصفحة ثقال ، وعليه سيف ذهب تقلَّد به ؛ وخرج جميع المصطنعة وسائر القواد والناس معه إلى داره ؛ فكان يوما حسنا .

وفيه ورد الخبر بأنَّ الثائر الذي قام بالصعيد الأعلى أنزل حيدرة بن نقيايان حتى حصل في يده ، وكان شريفاً حسنيا ، فأقرَّ أنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرَّقوا [١٧٤] في البلاد ، فمنهم من مضى إلى برقة ومنهم من مضى إلى العراق ، وأنه أظهر له قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التي كانت عليه . فقال له حيدرة ولم تقتله ؟ فقال : غرَّتُ الله وللإسلام ؛ فقال : وكيف قتلتَه ؟ فأخرج سكيناً فضرب بها فؤاد نفسه ، فمات بعدما قال هكذا قتلتَه . فقطع حيدرة رأسه وأنفذه إلى الحضرة مع ما وجدته منه .

وقدم الخبر بوقوع الحرب بين بنى قُرَّة ببرقة .

ولعشرٍ بقين منه جلس الظاهر في قصر الذهب^(١) بعد أن زَيْنَ وبُسيط وعُلِّقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة ، وعُلِّق جميع السقائف كلها بالستور وفرشت بالفروش . وحضر أمراء الأتراك وقد لبسوا أفخر ثياب من المثل^(٢) والطميم ، وحضر جميع الكتّامين وسائر الجند ؛ ودخل الناس أجمعون ؛ ووقف شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان على عِمين السريير ، وبقيةُ الناس وكافةُ عبيد الدولة قيام ، فلم يجلس أحد . وحجى بالرسول الوارد من خراسان ومعه ابنٌ له صغير فقبَّل الثراب للظاهر ، ثم أمر أن يُطوَّف به القصر كله ، فطاف جميع القصور المعمورة ؛ وقام الظاهر وانصرف الناس . ولثمانٍ بقين منه أهدى

(١) قصر الذهب هو قاعة الذهب ، إحدى قاعات القصر الكبير وكان يدخل إليها من باب الذهب ومن باب البحر ، وكلاهما من أبواب القصر الغربية . موضع القصر الآن خلف مدرسة النحاسين من شارع بيت القاضي وحارة بيت القاضي بجى الجمالية . النجوم الزاهرة : ٤ : ١١٣ . وكان الخلفاء يجلسون به للموكب يومى الاثنين والخميس وبه كان يعمل سباط شهر رمضان . الخطط : ١ : ٣٨٥ .

(٢) الثوب المثل : المنسوج بخيوط الذهب .

هذا الرسول إلى الحضرة المطهرة نحو خمس عشرة ناقة محملة ورقاً ظلحا وإهليلجا^(١) وغير ذلك ، فقبل منه .

ولسبع بقين منه تُسَلَّم ديوانُ الكتاميين من الأمير شمس الملك [مسعود بن ظاهر]
الوزان ، ورُدَّ النظر فيه إلى القائد عزَّ الدولة ، فاستخدم في تدبير أهواله أبا اليسر
اصطخر بن مينا الأسويطي شركةً بينه وبين صمدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الوافد ،
ونظر هو في أمر رجاله وفي التوقيع في أيامهم . ثم بعد أيام أخذ من شمس الملك بعض
إقطاعه ، وقبض منه ، ورد إلى يمين الدولة سعادة وبقية في يده بقية الأعمال . وفي هذا
الشهر سار ذو القرنين ابن حمدان^(٢) إلى دمشق .

شهر ربيع الأول ؛ أوله الثلاثاء . في خامسه وصلت هديّة والى الفيوم ، وهى مائة
وخمسون فرساً بأجلّة . وفي سادسه خرج الأمر لابن خالد الغرابيلى ، متولّى ديوان البريد ،
بأن يُسَلَّم إلى صاحب ديوان الشام جميع مايرد من حساب الشام ، ورُفِعت يد شمس الملك
عنه . ورسم أن يكون الشيخ العميد محسن بن بدواس زمماً^(٣) على أبى عبد الله محمد بن
أحمد الجرجرائى فى ديوان الشام ، مفرداً عن نظر شمس الملك ؛ كما أفرد ديوان الكتاميين
عن نظره . فصارت هذه العصبة منفردة بمعضاد فى التدبير والتقرير ، وهم الشريفان العجميان

(١) شجر عظام كالطلاح ، ككتاب ، والإهليلج شجر له ثمر ، منه الأصفر والأسود وهو النضيج ، ومنه كابل
يحفظ العقل ويزيل الصداع وينفع فى الخواثيق . وكان بالقاهرة مكان يعرف بصحراء الإهليلج ، شرق الخندق ، تنهى إليها
صارة خطة الحسينية بالقاهرة من جهة باب الفتوح ، وقد كثر بها شجر الإهليلج الهنئى فعرفت به . المخطوط : ٢ : ١٢٨ ؛
القاموس المحيط .

(٢) وهو الأمير وجيه الدولة أبو المطاع بن الحسن بن حمدان . وكان قد تولى دمشق قبل ذلك أيام الحاكم بأمر الله
سنة ٤٠١ ، وتولاها للمرة الثانية سنة ٤١٢ ؛ وهذه هى المرة الثالثة . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ - ٧١ .

(٣) وهى وظيفة تشبه وظيفة المشارف ، واختصاصاته أن يكون عمل الديوان محوطاً بقبضه ، محفوظاً بخطة ، يكتب
خطه على مايرفع من الحساب وما يخرج من الوصولات .

والجزّجَرَّائِيان عصب الدولة أَبُو القاسم علي بن أحمد وأخوه أَبُو عبد الله محمد بن أحمد ،
ومحسن بن بدواس (١) وابن خيران (٢) . وفي رابع عشره خُلِعَ
على جناح بن يزيد الكتامي ، وحمل على فرسين ، وقُلِدَّ طبريّة .

وفي سابع عشره ركب الظاهر وعاد . وفي هذا الشهر اشتد غلاء القمح ، وبيع التِّلّيس
بثلاثة دنانير ، والشّعير أربع وبيات بدينار ، والخبز رطلين ونصفا بدرهم . وعزّ
وجود التبن فأُبيع الحمل بدينار ، وغلّت أصناف الحبوب وعامة مايؤكل . ولم يُرَ (٣)
النَّيل فيما تقدّم من السنين أقل نقصانا منه في هذه السنة .

وفي ثالث عشره ركب الظاهر إلى مسجد تبر ، وعاد . وفيه نزل القائد الأجل
معضاد والشيخ العميد أَبُو القاسم الجزّجَرَّائِيّ ومحسن بن بدواس صاحب بيت المال إلى
مصر ، فاثبتوا تركة (٤) بنت أبي عبد الله بن نصر امرأة أبي جعفر (٤) بن قائد القواد
الحسين بن جوهر ، فوجد فيها (٤) وبرادات مُكَلَّلة بالجوهر ، وأمرُ جليل من المال
والجوهر — لأنَّ للسلطان منها الثلث .

وفي هذا الشهر أمر ببناء حظير دائرٍ على مقياس النيل بالجزيرة ، ووُكِّلَ به الشريف
أبو طالب محمد بن (٤) العجمي متولى الصناعة ، فبناه بالحجر الأبيض ، وأنفق عليه
مالا كثيرا . ونقل إليه الحجر من حظير كبير كان مبنيا على الشاطئ بناحية طرا (٥) .

(١) فراغ في الأصل يسع نحو ثلاث كلمات .

(٢) ولي الدولة أبو علي بن خيران ، كاتب ديوان الانشاء : ذيل تاريخ دمشق : ٨٠ .

(٣) في الأصل : ولم يزل النيل . . . والمثبت هنا أولى لمناسبته ارتفاع الأسعار وانعدام بعض الأصناف .

(٤) مواقع هذه الكلمات بيّاض بالأصل كل منها يسع كلمة واحدة .

(٥) في الطريق إلى المعادى وحلوان . وكانت تعد من أعمال الإطفيحية التي تمتد جنوبا شرق النيل . انظر قوانين

الدواوين : ٨٢ — ٨٣ ، ١٦٢ ؛ السلوك : ١ : ٨٤٣ .

وفيه دخل كلبٌ إلى الجامع العتيق بمصر فطاف بالجامع بأُشره ، فقام إليه الناس وقتلوه في الصّحن ، فجرى دمه على الحصر فقتلت بعد إخراجِه من الجامع .

وقد وصلت هدّية من بلد التّوبة فيها عبيد وإماء ، وخشب أبنوس ، وفيلة ، وزرافات

[٧٤ ب] . شهر ربيع الآخر ، أوله الخميس . في رابعه ورد الخبر بأن عبد الله ابن إدريس الجعفرى ومعه أحدُ بنى جراح طَرَقَ آيلة^(١) ونهبها ، وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار وغلالا ، وسبى النساء والأطفال . وسبب ذلك أنه سأل حسان بن جراح أن يُرَدَّ إلى ولايته على وادى القرى^(٢) ، ورغب أن يتوسط له مع الظاهر ، فلم يجبه ، ففعل ما فعل . فخرجت سريةٌ من القاهرة لحربه .

وفيه نزل الظاهر إلى البيارستان متنكرا في عبيده ، فطافه ، وأطلق لكل من المجانين خمسين درهما ، وللقيم عليهم خمسمائة درهم ؛ ورسم بعمارته وإجراء الماء إليه على رسمه ، وأن يُطَبَّخ للمجانين كلّ يوم ما يأكلونه بعد أدويتهم . وفي ثامنه قدم الخبر بنهب عبد الله بن إدريس بلد العريش وإحراقه وأخذ جميع ما كان فيه بمعاونة بعض أولاد ابن جراح . وفيه اجتمع في قافلة المغرب خلق من التجار ومعهم من الأموال قريب من مائتى ألف دينار بالجيزة ، فأنذروا بطائفة من العبيد والجّالة والقيصريّة قد تجمعوا لنهبهم فبعث معهم نحو ثلثمائة فارس وأربعمائة راجل ، وساروا إلى المغرب .

(١) مدينة معروفة على قة القلزم ، أول حدود الحجاز ، كانت محطة للقوافل وجمع المكوس في الأزمنة المتعاقبة ، بينها وبين القدس ست مراحل . من أخبارها أنه في سنة ٥٦٦ كان الفرنج قد ملكوها وتحصنوا بقلعتها فأنشأ صلاح الدين صفنا وحلها مفصلة على الجبال ثم جمعها بعضها إلى بعض عند حصنها في البحر فأكل حصارها حتى تمكن من فتحها . معجم البلدان : ١ : ٣٩١ ؛ كتاب الروضتين لأبي شامة ، المخطط التوفيقية : ٨ : ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) يطلق على البلاد الواقعة بين دمشق وأطراف الحجاز ، وقد يمتد هذا الإطلاق إلى أطراف المدينة المنورة . قارن معجم البلدان : ٨ : ٣٧٥ .

وفى ثامن عشره جلس الظاهر للناس فى المجلس الذى كان يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ،
ودخل الناس إليه من باب العيد على طبقاتهم . ودخل ناصر الدولة حسين بن الحسن
ابن حمدان ، متولى طرابلس ، وقد صرف عنها ، فتلقى بالبندود وعدتها أربعون
بنداً ملونة ، وخمس بنود مذهبة ، وعدة من الطبول ؛ فقَبِلَ التراب ، ثم قبل يد الظاهر ،
هو والشريف الحسنى ابن موسى المقيم بدمشق ؛ ووقفوا ؛ فأمر بالجلوس على يسار القائد
معضاد فجلسا . ثم انقضى السلام وانصرف الناس . فلما كان وسط النهار نزلت طائفة
من جوارى القصر فى طائفة من الخدم إلى دار الجواهر ودار الصرف ودار الأتماط ، فابتاعوا
ما أحبوا . وعادوا .

ولسبع بقين منه ركب الظاهر بغير مظلة فى عساكره ومراكبه إلى مسجد تبر ، وعاد ؛
ثم نزل عقب ذلك مختفياً إلى الجزيرة والبساتين . وركب من الغد فى العشاريات إلى الجزيرة
وما والاها ، وعاد . وفى عشية السبت ، لست بقين منه ، غرق حداثاً فى النيل ، فطرده
الماء إلى الشط ، وأراد أهله حمله ، فمنعهم أصحاب الشريف أبى طالب العجمى ، متولى
الصناعة ، من ذلك ، وطالبوهم عنه بدينارين وقيراطين ، واجب الصناعة من حق من
غرق فى النيل ، فدفع إليهم ذلك ، وحمل الرجل حتى غسل ودفن فى يوم الأربعاء .

وللبلتين بقيتا منه جلس الظاهر فى قصر أبيه بباب الذهب على سريرته المصقول المذهب ،
وعليه ثوب ديبقى معلم ، وعمامة شرب مثقل مذهبة ، وتحتة فرش ديبقى مذهب ، ودخل
الناس من باب العيد فسلموا ، وجلس من عادته الجلوس ساعة ؛ ثم انصرفوا .

وفى هذا الشهر ارتفع السعر من أجل أن المراكب الواصلة بالقمح أخذت كلها
ورُفعت إلى القصر من المقس . وفيه طاف العامة والسوقة أسواق مصر بالطبول والأبواق
يجمعون من التجار والباعة ما ينفقونه فى مضيئهم إلى سجن يوسف ، فقليل لهم شغلنا
بعدم الأقوات يمنعنا عن هذا . فأنهوا حالهم إلى الظاهر ، فرسم لشافى الدولة أبى طاهر بن

كافى ، متولى الشرطة السفلى ، بتقرير الرسم على التجار حتى يدفعوا إلى العامة ما جرت به رسومهم ، وأذن لهم فى الخروج إلى سجن يوسف ، ووعدوا أن يطلق لهم الظاهر ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الحبس ، فخرجوا .

[شهر] جمادى الأولى ؛ أوله الجمعة . فيه ركب الظاهر مبكرا مع حرمة وخدمه إلى المشتبه فأقام يومه . وفى ثالثه ركب بعساكره إلى عين شمس وعاد .

وكان الشريف أبو طالب بن العجمى صاحب الصناعة قد تنكر على ابن أبي الرِّدَاد ، وأهانته ، وتقابحا فى الخطاب ، فضربه الشريف واعتقله . فأقام قاضى القضاة أبو العباس أحمد بن أبي العوام مشارفين على ابن أبي الرِّدَاد ، لسؤاله القاضى فى ذلك ، وهما أبو الحسن سليمان بن رستم ، والخليل بن أحمد بن خليل لينهيها إليه ما يصح من أمر المقياس ، فوجدا مجارى الماء مسددة ، ووجدا ابن الرِّدَاد يتناول فى كل سنة خمسين دينارا لكنس المجارى ، ووجدا الماء قد [١٧٥] انتهى إلى حد ، فلما فتحت المجارى طلع الماء إلى حد أكثر من الحد الذى كان عليه

وفى رابعه نزل صقلبي من صقلية القصر بمنشورٍ معظَّم إلى قاضى القضاة ، وهو بالجامع العتيق ، فأمره بقراءته على المنبر ، فأراد أبو طالب على بن عبد السميع العباسى أن يتولى قراءته دون أخيه أبي جعفر ، وهو الأكبر ، وقد صرف عن قراءة السجلات وليس له إلا خطابة الجامع العتيق . فقال له أبو جعفر : ويحك : ما تحتشم منى لِسْنِي ولأننى أخوك الأكبر ، ولأننى هُرِعتُ لمولانا الحاكم بأمر الله ، قدس الله روحه ، وقد هَمَّ بضرب عنقك حتى خلصتك من القتل وضمنت له عَنكَ التوبة والإنابة ! ! فدفع القاضى السجل إلى أبي جعفر ، فقرأه فوق المنبر على كافة الناس . ومضمونه أنه انتهى إلى أمير المؤمنين أن المستخدَمين فى الصناعة يعتمدون تعويق من ينزل البحر من الناس ، ويمنعون القوارب

من إنقاذ مَنْ يلتبس الخلاص منهم ليأخذوا على ذلك واجباً قد أقامه متولّى الصناعة ، محمد الحسينى العجمى ، على كل غريقٍ دينارين ونصفاً ، وأنّ ذلك لما أنهى إلى حضرة أمير المؤمنين أنكره وأكبره ، ومنع من أخذ درهم واحد فما فوقه عما هذا سببهُ ، والمنع منه . فكثير الدعاء للظاهر .

وفى ثامن ركب الظاهر فى خاصته وخدمه إلى الرميّة بظاهر المقس ، فطاف طويلاً ثم عاد .

وفى تاسعه ركب القائد الأجل عز الدولة ومصطفىها معضاد الخادم الأسود فى جميع الأتراك ووُجوه القواد ، وشقّ مدينة مصر إلى الصنّاعة ، ثم خرج منها وعدّى بِمَنْ معه إلى الجيزة ، حتى رتب للظاهر عسكرياً بقيم معه هناك ، وأخذ فى يوم الاثنين حادى عشره أربع عشاريات وأربعة عشر بغلاً من بغال النقل ، ومعه خاصّته وحرمه إلى سجن يوسف . وعاد منه يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه . وركب فيه إلى مسجد تبر وعاد .

وأقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطوفون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ، ويطلعون إلى القاهرة بذلك برسم أمير المؤمنين ، ويعودون ومعهم سجلٌ قد كتب لهم بئلاً يُعَارَضُ أحدٌ منهم فى ذهابه وعودته . ولم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم . وكان دخولهم من سجن يوسف فى سادس عشره ، فشقوا الشارع بالخيال والسماجات والتماثيل ، وتعطلّ الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم ومعاشهم ، واجتمع خلق كثير لنظرهم . وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك ، وأطلق لهم ثمانية آلاف درهم وكانوا فى اثنى عشر سوقاً .

وفى عشريه قتل طائفة من القيصريّة غلاماً من الأتراك ، فركب الأتراك بالسلاح وقاتلوا القيصريّة ، فتكافؤا ، ولم يجسُر أحد منهم على الإيقاع بصاحبه . وفى ثانى عشريه ركب الظاهر النبل ومضى إلى بستان السيّدة العمة ، ثم إلى خيمة وردان لأنّهم مقيمون

في الجزيرة للتنزه هناك . ولم تزل العشاريات تلعب في البحر الليل كله والمسرة متصلة بينهم ؛ فقدم في آخر النهار مركب يحمل حطبا من الصعيد ، فقلب نُوتِيَّتَه وقطع الجسر ، وغرق مركبان منه ، وقطع ثلاث قطع ، وغرق عشاريان بمن فيهما .

وفي هذا الشهر كوتب أبو الحارث نقيان بن محمد بن نقيان الخيملى ، متولى حرب تنيس ودمياط ، بالمسير إلى حلب ليتسلمها عوضا عن محمد سند الدولة أبن محمد الحسن ابن محمد بن نقيان الكتامى عند وصول هديته إلى الحضرة ؛ فسار . وكان من خبر مدينة حلب أن عزيز الدولة فاتكا لما قتل وأقيم من بعده غلامه بدر مكانه ، ثم قبض عليه على بن الضيف ، وأقام بحلب سنة ، وولى سند الدولة أبو محمد الحسن بن نقيان فنزل صالح بن مرداس الكلابي على حلب ونازلها ؛ وقد كره الناس ابن نقيان وموصوفا الخادم لسوء سيرتهما ، فسلموا البلد إلى صالح . والتجأ ابن نقيان وموصوف إلى القلعة وتحصنا بها ؛ فاستخلف صالح على مدينة حلب أبا منصور سليمان بن طوق ، ومضى إلى بعلبك فملك قلاعتها بعد حرب ، وقتل جماعة من أصحاب الظاهر . واجتمع هو وحسان بن جراح وإخوته ، وسان ابن عليان على فلسطين وتحالفوا [٧٥ ب] على اجتماع كلمتهم ومحاربة الظاهر ، وتقاسموا البلاد كما سيأتى ذكره إن شاء الله .

وأما ابن طوق فإنه حصر قلعة حلب حتى أخذها بمباطنة من أهلها وأمسك ابن نقيان وموصوفا ، فقتل ابن نقيان في يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، واعتقل موصوفا . فركب أبو الحارث بن نقيان البحر من تنيس إلى طرابلس ، ودخل حلب يوم الأحد سابع عشرين جمادى الأولى هذا ، وملكها ، وسمى سابق الدولة أبو طاهر بن كافى متولى الشرطة السفلى بمصر من قبل بدر الدولة بأخذ تنيس ودمياط ، واستخلف أخاه جلال الدين على الشرطتين العليا والسفلى من قبل بدر الدولة .

وفي رابع عشره ركب الظاهر إلى طرف الخندق وعاد ؛ ثم ركب من الغد إلى مسجد
تبر وعاد .

[شهر] جمادى الآخرة ؛ أوله الأحد . فيه جلس الظاهر للناس للسلام عليه ، فدخلوا
على رسومهم ، فسلموا وانصرفوا . وفي رابعه ركب إلى مسجد تبر في عساكره ، وعاد ،
فطلب البغاء من الطيور فحمل إليهم منها شيء كثير ، فابتاع ما أحب بأوفر الأثمان .
وفي ثامنه جلس للسلام ، فدخل الناس فسلموا وانصرفوا ؛ ثم ركب إلى المشتى . وركب
في ثاني عشره إلى مسجد تبر في مواكبه ، فلقيه عند سقاية ريدان خادم أسود يقال له عنبر ،
كان مقربا للحاكم بأمر الله ، كثر كلامه فطرده السيدة ، فقال : يا أمير المؤمنين خذ
لنفسك ، فوَحَقَّ ما في هذا المصحف - وأخرج مصحفا - إن أباك باقٍ ، وبعد قليل يجيء
إلى قصره ، وقد نصحتك . فقبض عليه واعتقل ، وقيل إنه اختلَّ عقله .

وفيه قرر الشريف الكبير أبو طالب الحسنى العجمى القزوينى والشيخ نجيب الدولة
أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدواس مع القائد الأجل
معضاد أن يكون دخولهم على الظاهر الأخير في كل خلوة ، وأنهم يكفونه أمر الاهتمام
بالدولة ليتوفر على لذاته ، وينفردوا بالتدبير . واستقر أمر الثلاثة على الدخول في كل يوم
على الانفراد وألا يستدعى معهم [أحد] . وصار شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان ،
ومظفر صاحب المظلة ، وولى الدولة ابن خيران ، وداعى الدعاة ، ونقيب نقباء الطالبيين ،
وقاضى القضاة ربما دخلوا في كل عشرين يوما مرة ، وهؤلاء الثلاثة الذين يقضون ويُمضون
ويشيرون ويفعلون في أمر الدولة ما يروونه ، مع اجتماعهم بمعضاد دون كل أحد .

وفي سابع عشره ركب الظاهر في العساكر ورجال الدولة بأحسن زى وأكمل عُدَّة ،
وركب عبيد الدولة بالآلات والسلاح والطريقة الحسنة والعُدَّة الكاملة . وشقَّ شارع مصر

إلى صناعة الجسر ، وعليه ثوب طميم مثقل وعمامة مذهبة طميم ، وعلى رأسه مظلة حمراء مثقلة مذهبة ، فغير ولبس ثوبا دبيقيا أبيض مذهبا وعمامة شرب بيضاء مذهبة ، وركب فرسا كُميئًا وقف عند الصناعة ووجد الجد في طرح مركب حربى جديد ، فتعذر طرحه ، فتركه وسار لفتح الخليج . فورد الخبر بأن سبّار الضيف متولى سد الخليج أمر بتخفيضه ليقرب أمره عند حضور أمير المؤمنين لفتحه ، فغلبه الماء وانكسر السد . فلما وصل الظاهر إلى السد وقف بجاذبه الشرق ، وعبرت العشاريات مزينة على العادة ، ولعبت ، ثم عاد إلى قصره ، فكان من الأيام المشهودة .

وفي تاسع عشره نودى في مدينة مصر بألا يتعرض أحد لذبح شئ من الأبقار بوجه ولا سبب ، فإن من تعرض لذلك حلّ دمه وماله ، لأن الناس عدموا العوامل^(١) في هذه السنة ، وكانوا على عادتهم في ابتياع الفواكه والخمور والحيوانات ، إلا أن أمرهم في ذلك كان أقلّ للغلاء وتعذر الأصناف . وضرب فيه بالأجراس في آخر النهار ألا يلعب أحد بالماء ببلد مصر في يوم التوروز ، ولا في القاهرة . فطلع الجزأرون يستغيثون في منعهم من ذبح الأبقار ، وأن عندهم منها ما ابتاعوه وأنفقوا عليه في علفه حمل الدنانير ، وليس هو ما يعمل ولا يصلح للزراعة ، فإن الرأس من البقر يُقوّم عليهم بمائة دينار وأكثر . وسألوا الإذن في ذبح ما عندهم ، فأجيبوا إلى ذلك . وذبحوا في هذه الثلاثة الأيام ما لا يحصى كثرة ، وبيع بطن البقر ولحمه رطلا بدرهم ، وازدحم الناس [١٧٦] في طلبه . فلما كان آخر

(١) المقصود بالعوامل ما يصلح منها لمحرث والسقى ونحو ذلك من عمل الفلاحة . وفي النجوم الزاهرة أنه كتب على لسان الظاهر في هذا الصدد كتاب قرئ على الناس ، منه " إن الله تعالى يتابع نعمته وبالحق حكته خلق ضرور الأنعام ، وعمل فيها منافع الأنعام ، فوجب أن تحمي البقر المخصوصة بمهارة الأرض ، المذلة لمصلحة الخلق ، فإن في ذبحها غاية الفساد ، وإضراراً للبلاد والبلاد . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٥٢ . وقد أصدر الحاكم بأمر الله مثل هذا الأمر في مناسبات مشابهة . وكان الحجاج ابن يوسف الثقفي من أوائل حكام المسلمين الذين اتخذوا مثل هذا القرار عندما ول العراق للأمويين .

نهار الثلاثاء رابع عشره ، وهو رابع النوروز ، أحضر المحتسب الجزارين والهراسين^(١) ومنهم من ذبح الأبقار ، فانقطع بيع لحمها من الأسواق .

وفي خامس عشره ركب الظاهر إلى مسجد تبر في عساكره ، وعاد .

شهر رجب ؛ أوله الاثنين . في ثانيه ركب الظاهر إلى نواحي القصور وعليه عمامة ياقوتية مذهبة وثوب ديبقى بياض مذهب بغير مظلة ؛ وعاد .

وفيه قدم الخبر بأن منتخب الدولة أنوشتكين الدزبري متولى حرب فلسطين ، أنفذ إلى بيت جبرين^(٢) ، إقطاع حسان بن جراح ، من قبض على أمواله ؛ فبعث إلى أعوان الدزبري وأخذهم وضرب أعناقهم . فلما بلغ ذلك الدزبري قبض بالرملة على أبي الغول الحسن بن فيروز ، صاحب حسان ، وعلى كاتبه وسجنهما في حصن ياقا مقيدتين .

وفي رابعه زين العامة أسواق البلد ، وخلّقوا^(٣) وجوه الصبيان ، ونادوا بوفاء النيل ستة عشر ذراعا ، فخلع على ابن أبي الرّداد خلعا ديبقية مذهبة ورداء محشوا مذهباً وعمامة شرب مذهبة ، وحمل على بغلين بسرّجين . ولجأ مذهبين ، أحد السّرجين مُصَفَّح ، وأعطى ست عشرة قطعة ثياب وثلاثة آلاف درهم . وبلغ الماء اصبعين من سبعة عشر ذراعا ، فكان يوما حسنا كثر فيه سرور الناس .

وفيه خلع على بقى الخادم الأسود ، غلام بدر الدولة نافذ ، ثوب مثقل طميم وعمامة قاضي مذهبة ، وسيف ذهب ؛ وقُلّد الشرطتين بمصر ؛ وحمل على فرس بسرّج ولجام مذهب ،

(١) الذين يعملون الهريسة ، وهى الخبز المفرى . وكانت هذه الهريسة تعمل بكثرة في أيام الأعياد ، وق القرافة في ليال الصيف ، مع سائر المشروبات والخلوى المتنوعة وتباع مع الخبز بما يشبه " الساندوتش " في أيامنا هذه .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها بليد بين بيت المقدس وغزة ، ومنها إلى القدس مرحلتان وإلى غزة أقل من ذلك ، وكان بها قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الصليبيين . معجم البلدان : ٢ : ٣٢١ .

(٣) الغلوق كصبور وكتاب ضرب من الطيب ، وخلقه بالخلوق طيبه وزينه . القاموس المحيط .

عوضاً عن جلال الدولة^(١) ابن كافي . ونزل إلى الشرطة السفلى في جمع كثير ، فنظر في الحسبة مضافاً إلى الشرطتين ، وأمر أن يباع الخبز الجشكار كل خمسة أرطال بدرهم ، والحواري أربعة أرطال بدرهم^(٢) . فغلقت الطواحين والحوانيت جميعها ، وأصبح البلد يوم الجمعة ، خامسه ، على حالٍ صعبة من تعذر الأخباز وعدم الدقيق . فلما كان غداة يوم السبت ، سادسه ، أعيد دوّاس بن يعقوب الكتاني للحسبة وصُرف بقي الحسبة والشرطة ؛ فأقام يوماً واحداً وانصرف . ونودي أن يكون الخبز الذي يباع في الأفران خمسة أرطال بدرهم ، وتباع بقية الأخباز بغير تسعير ، فظهرت الأخباز بالأسواق ، وبيع الخبز السُميد رطلين ونصفاً بدرهم ، وما دونه ثلاثة أرطال بدرهم .

وفي عاشره ركب الظاهر إلى نواحي القصور بغير مظلة ، وعاد .

وكانت ليلة النُصف من رجب ليلةً مشهودة ، حضرها الظاهر والسيدات وخدم الخاصة والمبطنعة وغيرهم ، وسائر العوام والرعايا ، وكان مجمعا لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله . وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد^(٣) .

وفيه ورد الخبر بأن حسان بن جرّاح [خرج] عن الطاعة . وكان سبب ذلك أنه فسد ما بينه وبين الدّزبري ، واستوحش كل واحد من الآخر ؛ فكتب الدّزبري إلى الظاهر يذكر له تغيير حسان في خدمته ، وفساد نيته في طاعته ؛ ويستأذنه في حربته ؛ فكان ما تقدم

(١) يياض في الأصل يتسع لكلمة واحدة .

(٢) الجشكار أردأ أنواع الدقيق والحواري الدقيق الأبيض ، أو هو لباب الدقيق ، وهو العلامة أيضا .

(٣) يتحدث المقرري عن ليال الوقود (الوقيد) فيذكر أنه كانت توقد فيها التناير والقناديل والشمع في أماكن الاحتفالات ، ويصحب هذا بالإكثار من الأطعمة والحلوى والبخور في مجامر الذهب والفضة . ويذكر من ليالي الوقيد : ليالي الجمع والنصف من رجب ومن شعبان ، كما يتحدث عن مواكب الخلفاء والقاضي في الموكب الرسمي ويصف هذا الموكب بما يدل على مدى احتفال الفاطميين بهذه الأعياد . ويذكر كذلك أن الحاكم بأمر الله أبطل مثل هذه الاحتفالات . كما يشير في هذه المناسبة إلى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يصيح في أهل مكة ويقول : يا أهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم فأنضحوا فجاجكم لحاج بيت الله وأحرسوه حتى يصبحوا . الخطط : ١ : ٤٦٥ - ٤٦٧ .

ذكره . ثم اتفق أن اعتل حسان علّة أنشئ منها ، وكثر الإرجاف به فيها ، وكتب أصحاب الأخبار يذكرونها إلى الظاهر ؛ فكاتب الذّبري يقصده وانتهاز الفرصة في أمره ، فسار إليه وهو بناحية نابلس . فبلغ حسان عن سيره ، وقد أبل من مرضه فاستنهض أهله وأصحابه ، وجمع نحواً من ثلاثة آلاف فارس ، وتلقى الذّبري ، فعاد إلى الرملة وحسان في إثره ، فحصره واستدعى رجاله من الجبال والشراة إليه ، فصار إليه منهم عدد كثير . وقتله الذّبري على باب الرملة ثلاثة أيام بلياليها بعد ما كبس حسان طبرية ، ونهبها ، وقتل من بها ، وفرّ منها متولّيها مجد الدولة فتاح بن بويه الكتامي إلى عكا . فبلغ حسان ، عن أخيه ثابت ، أنه انتهى إلى الذّبري ، فبعث جريدة^(١) كبست حلة ثابت ونهبتها .

وفيه أفرد صدّقة بن يوسف الفلاحى بالنظر في ديوان الكتاميين . وأقام الظاهر أياماً لم يركب ولم يدخل إليه أحد .

وفى حادى عشره ورد الخبر بأن حسان بن جراح اجتمع مع سنان بن عليان بن البنا ، وانضم إليه سائر إخوته ، وساروا جميعاً بظاهر فلسطين ؛ فقابلهم [٧٦ ب] الذّبري كما تقدم ، إلى أن فارقه ثابت بن جراح ولحق بأخيه حسان . وقدمت نجدة من صالح بن مرّكاس لحسان ، فبعث الذّبري يطلب من الظاهر نجدة بألف فارس وألف راجل ، فجزدت جماعة يسيرة ، ودفع إلى كل فارس أربعون ديناراً ، فاشتملت الجريدة على ألفي فارس وراجل ، تولى النفقة فيهم معضاد الخادم والشريف العجمي ونجيب الدولة الجرجاني . فلم يخرج من الجريدة إلّا طائفة يسيرة مضوا إلى الرّيش ؛ وبطل أمر من تجرّد بعد ذلك .

وسعى بمحسن بن بدواس بأنه كاتب حسان بن جراح يحرضه على الفتنة ، وكاتب ملك الروم^(٢) يطمعه في الدولة . وانتصب له الطائفة التي تحضر عند الظاهر في المعاملة .

(١) الجريدة الفرقة من العسكر الفرسان لا رجالة بينهم ، والفرقة من الجند إذا خرجت بسرعة من غير أنقال لمهمة تستدعى الإسراع في الخروج . لسان العرب ؛ Dozy, Supp Dict. Ar.
(٢) وهو الإمبراطور باسيل الثاني .

وفى ثانى عشره ورد الخبر بأن الدّزبرى غلب عن مقاومة حسان ، ففرّ من الرملة آخر الليل فى عشرة من الغلمان الأتراك ، وسار فى ليلته إلى قيساريّة . وذلك أن حسانا هجم برجاله على بعض حوانيت الرملة ، وطرح النار ووضع السيف ، ثم دخل بجموعه ، بعد فرار الدّزبرى ، إلى المدينة ، فنهبوا الأموال واستباحوا الحرم ، وقتلوا القتل الذريع . وعندما دخل حسان إلى المدينة ترّجل من باب البلد وقبّل التراب من باب المدينة إلى دار الإمارة ، ثم أحضر القاضى وشيوخ فلسطين وأشهدهم أنه عبد الدولة وخادمها وصنيعتها ، وداخل تحت طاعتها ، وأنه لا يبدأ أحداً من أهل البلد بسوء ، وإنما كره مقام الدزبرى فى الرملة ، وذكر سوء ما عامله به وأنّ ذلك أوجب قتاله ؛ وأن البلد للأمير المؤمنين يولّى فيه من رغب فيه من عبيده ، فيسمع له ويطيع ، ويخدمه طاعة لله ولمولانا صلوات الله عليه . وأقام نصر الدين نزال واليا على الرملة ، وقال هذا عبد أمير المؤمنين وابن عبده ، يضبط البلد إلى أن يصل أمر أمير المؤمنين . فخلع على القادم بهذا الخبر وكثر السرور به .

وفى ثالث عشره خلع على سنى الدولة حمد ، ابن أخى الباهر ، وقلد سيارات أسفل الأرض عوضاً عن عدة الدولة بقى الخادم الأسود ، وحمل على فرس بسرج مصفح مغموس ، وألبس عمامة مذهبة وثوبا طميا .

وفى آخره ورد الخبر بأن حسان بن جراح إنما أظهر ماتقدّم ذكره حيلة وخديعة . وذلك أنه أحضر العسكرية بالرملة ، وقرأ عليهم ملطفا وصل إليه من الحضرة يعتذر إليه فيه ، ويعلم أنّ اعتقال أبى الغول وكاتبه لم يكن عن رأى أمير المؤمنين ، وإنما جرى من الدّزبرى برأيه . فلما أوقف العسكرية على الملطف قبلوا خطّ أمير المؤمنين وعرفوه ، أمرهم أن يسيروا به إلى عسقلان ويؤقفوا أهلها عليه ، فإن كانوا تحت السمع والطاعة لأمير المؤمنين فليسلم الحسن بن سرور الأنصارى الكاتب إلى ، وإلا سرت إلى عسقلان ونقضتها حجرا حجرا ونهبتها وقتلت أهلها . فمضى العسكرية بالملطف إلى عسقلان ،

وأوقفوا عليه الوالى والعسكر ، فسُلِّمَ إليهم أبو الغول ورفيقه . فلما وصلا إلى حَسَّان ركب لوقته وخَشِبَ سبعين رجلا من العسكرية ، وقتل طائفة من الحمدانية وغيرهم ، ووضع السيف والنَّهَب في الرملة ، وأضرَم النار في الدور والخوانيت حتى جعلها دَكًّا ، وسبى النساء والأولاد ، وقبض على تحرير الوحيدى وأخذ منه أربعين ألف دينار . وأخذ من مبارك الدولة فتح ، المقيم بالقدس ، ثلاثين ألف دينار ، وأخذ جميع ما جَمَعَ الدَّزْبَرى .

وأزجف بمصر أن خمسمائة فارس بعثها حَسَّان إلى العريش ، ثم لم يُعْلَم أين قصدت ، فخاف الناس أن يَطْرُقَهم في القرافة ، فانتقل أهل القرافة إلى مصر ، وانتقل جماعة من بلبيس إلى مصر . فسار بديع الصقلبي في الرسالة إلى حَسَّان . وتحرك السعر بمصر ، واضطربت العامة . وندب مائة فارس من القبطية للإقامة بالقرافة لحفظ الناس ، فإن الخوف اشتدَّ حتى لم يَطْلُعُ أحد إلى القرافة ، وتحملوا منها ، فمَنَعُوا من النُّقْلة وأعيدوا إليها .

وجرت الأمور في هذه الشهور المباركة على ما كان الرسم جرى به من عمارة المساجد والجوامع وتكثير القناديل والزيت وكثرة [١٧٧] الوقيد . وقد دخل الشريف العجمي إلى الظاهر ، فأظهر أنه براعى أمر الدولة ويتخوف ما يجرى من الفساد ، فأمر الظاهر بأن يجتمع مع الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدواس ، صاحب بيت المال ، وأن يدبِّر الأمور بما يراه . فاستدعى المذكورين وقال لابن بدواس : احمل المال الذى عندك لينفق في الرجال . قال : ما عندى إلَّا يسيرٌ ، ووالله لو طلبتم منى دينارا واحدا ما مكنتكم منه لأنه موفور لخواص مُهِمَّات مولانا صلوات الله عليه . فقال الشريف : فتَقَرَّض من التجار وتُصادر من تجب مصادرتي ، فقال الجرجرائى : وأى مال مع التجار وتجار مصر هَلَكى من الغلاء ؛ لكن إن أردتم المال فَمِنْ أَمِّ الحاكم بأمر الله ، قدس الله روحه ، وعمته ؛ وبالجمله فقد أغنى الله مولانا ، صلوات الله عليه ، بتوافر أمواله وتراث آبائه الأئمة الطاهرين عَمَّا نراه نحن أو نقوله بآرائنا . فأمسك الشريف عن غير رضا .

وفيه سُيِّر جماعة من المجردين في المراكب الحربية لحفظ حصون الشام ، فساروا إلى تنيس ودمياط ، ومَضَوْا إلى صُور وطرابلس وغيرها . وجُرِّدت طائفة إلى بلبس لحفظها .

[شهر] شعبان ، أوله الأربعاء . فيه قدم أحد إخوة حسان بن جراح ، فتلقَى وأكرم وأنزل في دار حسين بن جوهر ، وحمل إليه القُرُش والآلات الفضة ، ونحو ذلك مما يصلح لمثله ، وأقيمت له الجراية . وضمن أنه يخرج مع العسكر إلى الرملة ، فخلع عليه ، وحمل على قرسين ، وقلَّد بسيف ومنطقه ذهب . .

وفي خامسه جلس الظاهر في قصره للسلام ، ودخل الناس . فقال الكتاميون : يامولانا ، صلوات الله عليك ، بلغنا شُغل قلب مولانا بأمر ابن جراح ، ومَنْ هذا الكلب حتى يُشغَلَ قلبُ مولانا ، صلوات الله عليه ، به وما مقداره ؟ ! والله يامولانا إنَّ لك من العبيد ما لو أطلق مولانا سبيلهم عليه لقلعوه شعرة شعرة ، من عبيدك الكتاميين ، وعبيدك القيصرية ، والعبيد والباطلية والأثراك ، وسائر العرائف والقبائل . غير أننا قد هلكنا والله يامولانا فقرا وجوعا ، وليس لواحد منا مالٌ يرجع إليه ، ولو كانت لنا أموال لكفيننا هذا الأمر وغيره . فقال لهم : نسيم صاحبُ الستر : حسبكم ياشيوخ ، حسبكم فأمسكوا ، ولم يكن من الظاهر جواب .

وفيه ورد الخبر بأن حسان بن جراح كتب إلى صالح بن مرزاس يستدنيه ليقع الاجتماع على ما يدبران أمرهما ، فسار صالح ونزل على حلب ونازلها وأخذها ، كما تقدّم ، وأخذ بعليك ، وعظم أمره . واجتمع هو وصنصام الدولة سنان بن عليان بن البنا على حسان بفلسطين ، وتحالفوا على اجتماع الكلمة وأن يكونوا بدأ واحدة على صاحب مصر ، وقسموا البلاد بينهم ، فصار لحسان الرملة إلى باب مصر ، ولحمود أخيه طبرية وما يتصل بها

من الساحل ؛ ولسنان بن عليان دمشق وسوادها ، ولصالح مابقى من الشام إلى عانة^(١) . فاجتمع سنان مع صالح ومعهما حشود العرب ، وحصروا دمشق ونهبوا الفوطة^(٢) وسائر السواد ، وقتلوا فلاحى الضياع وانتهبوا أموالها ، وألحقوا في قتال أهل دمشق . فاجتمع الناس بدمشق إلى ذى القرنين ابن حمدان ، متولّياها ، وقرروا أن يكون القتال يوما يكون أمره [إليهم] ويوما يقاتل فيه عسكر السلطان . فاتصلت الحرب كل يوم ، وقتل من العسكر ومن أهل دمشق ومن العرب خلائق . ونُهبت مواشى الناس من الضياع وغلاتهم وأموالهم ؛ فأخذ لمعتمد الدولة^(٣) من ضياعه عشرة آلاف غرارة من القمح . وبعث حسان نجدة من رجاله إلى سنان ، وكان الشام بأسره قد اضطربت أحواله . وتغلّبت العربان على البلاد ، ونهبوا عامة أموال أهلها .

وفيه قدم صاعد بن مشعود ، عامل الصعيد الأعلى ، بائنتدعاء ، فغدا في سادسه شريكا لصدقة الفلاحى في ديوان الكتاميين .

وفى ثامنہ قدم الخبر من دمشق بأن سنان بن عليان بن البنالمنا وصلت إليه سرية حسان ابن جراح ، وهى نحو الثلاثة آلاف فارس ، طلب من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار يقومون له بها معجلة ومؤجلة^(٤) ، فمنعهم القاضى الشريف فخر الدولة [٧٧ ب] أبو يعلى حمزة ابن الحسن بن العباس بن الحسن بن أبي الجنّ الحسين بن على بن محمد بن على بن إسماعيل ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، ورأى أن يجمع ذلك

(١) عانة : بين الرقة رهيت مشرفة على الفرات ، كانت تمد من أعمال الجزيرة ، وبها قلعة حصينة . معجم البلدان : ١٠٢ : ٦ - ١٠٣ .

(٢) الفوطة الكورة التى منها دمشق ، تحيط بها جبال عالية لاسيما من جهة الشمال ، وبهاها تخرج من هذه الجبال وتندرج إلى الفوطة في عدة أنهر ، والفوطة كلها أشجار وأنهار متصلة ، قل أن يكون بها مزارع للمستغلات . نفس المصدر : ٣١٤ : ٦ - ٣١٥ .

(٣) بياض بالأصل يتسع لكلمتين .

(٤) في نهاية الأرب للنويرى : " فأجابه أهل البلد إلى ذلك فتمهم الشريف ابن الحسن " .

وينفقه في قتال العرب ؛ فوافقوه على ذلك وحلف الناس . وهدم دروب البلد وحملها إلى الجامع حتى لا يمتنع أهل البلد بالدُّروب ويُخلُّوا بين العسكر والعرب . ورُجِفَ بالناس ، فاشتدَّ القتال بينهم وبين العرب ، وقُتِلَ من العرب نحو المائتي فارس ، وأصيب سنان بسهم ، فطلب من الناس الصلح على ترك الحرب أربعين يوما . فلما تقرر ذلك خرج إليه الشريف ابن أبي الجن وشيوخ دمشق ووجوه الجند ، وحلَّفوا سنانا ووجوه العرب ، فاستقرَّ الأمر بينهم على هذا .

وورد الخبر بأن بنى قُرَّة أقاموا إنسانا دَعَوْه بأمر المؤمنين ببرقة ، وحملوا على رأسه المظلة . وفيه ظهر في النيل بأعمال أسفل الأرض فرس البحر .

وفيه ورد الخبر بأن التجريدة التي توجهت إلى تنيس طلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل ففرَّ منهم إلى دمياط ، فعاثوا في البلد وأفسدوا ، وقطعوا من يد عامل السلطان خمسة وعشرين قطعة ، وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار . فخرج إليهم عنبر ، الزُّمام ، في خمسين فارسا من عرفاتهم للقبض على الجناة وتأديبهم واسترجاع ما أخذوه .

وقدم الخبر بأن حسان بن الجراح كتب إلى سنان يُوبِّخُهُ على ما فعل ويَحْتِثُهُ على معاودة الحرب ، وَيَعِدُّهُ بالمدد ؛ فعاد إلى قتال أهل دمشق بعد ما كان قد انصرف عنها . فلإن حسانا بعد ما نهب الرملة وحمل منها أربعمئة جمل مُوقَرَّة مالا وثيابا ومصاغا وغير ذلك ، بعثها إلى جَلِيلِه وأضرَم النار في شوارعها ، وكسر الأمتعة ، حتى كان الناس يمشون في بحار من الصابون والزيت في أسواق مدينة الرملة . ثم وصل كتابه يسأل فيه لإضافة القُدس ونابلس إلى إقطاعه مُصانعةً له على الكف عن القتال ؛ وأن يُنْفَذَ إلى أبي الغول ثياب من ثياب الظاهر التي يلبسها وشاشية من شواشيه . فأنفذ إليه ذلك وأجيب إلى إقطاع نابلس مضافا إلى إقطاعه ، ولم يُجَبَّ إلى القدس .

وفي يوم السبت ثامن عشره دخل نسيم صاحب السنر بطائفة من الصقالبة إلى بيت المائ

والشيخ العميد محسن بن بدواس جالس وبين يديه حُشْبَانَاتُهُ ، فقال له : أجمع يا شيخ هذه القراطيس واختمها . فجمعها وختمها بخاتمها ، ثم أقامه وختم الخزائن ، وأخرجه راجلاً ، فاعتقله بحجرة من القصر . وركب رفق فختم بيت المال والخزانة الخاصة ودار ابن بدواس وسائر ما يتعلق به . فلما كان العشاء أخرج ابن بدواس فُضْرِبَتْ عنقه وهو يصيح : والله ما خُنت ولا سرقت ولا غَشَشْتُ ، وهذه منصوبة نُصِبْتُ على . وقيل إنه وُجِدَ عنده خطُّ حسان بن جراح ، وخطُّه عند حسان يحثُّه على الإيقاع بالدولة . وقيل إن هذا صُنِعَ عليه من أعمال الشريف العجمي . وقيل في سبب قتله مُعَانَدَتُهُ لمعضاد وعُدُولُهُ عنه إلى رفق الخادم وأنه كان استشار خليل الدولة محمد بن علي بن العداس صديقه لما عاداه هذه الطائفة ، فأشار عليه أن يباينهم بالعداوة ويكاشفهم بها . واستشار أيضا شمس الملك مسعود بن الوزان ، مع ما بينه وبينه من العداوة ، فأشار عليه بمثل ذلك . وقيل إن الظاهر أخرج كتاباً مختوماً إلى الشريف العجمي فنظره ، ثم رفعه إلى أبي القاسم الجرجاني فنظره ثم قال : هذا خطُّ ابن بدواس ، فقري ، فإذا فيه طعنٌ على الدولة ، وبآخره : إذا وافيت بالامساكر لم تجد أحداً تلقاك ولا يمانعك ، وإذا كتبتني فلا تنفذ كتبك إلا على أيدي الرهبان فإنهم الثقات المأمونون . فقال الظاهر : أي شيء يستحق هذا ؟ فقال الجرجاني : مولانا مالك العقو والسيف . فقال : انصرفوا . فلما خرجوا أمر بضرب عنقه . وقيل إنه وُجِدَ أغلف لأنه كان نُصْرَانِيًّا . ومن العجب أنه كان في غاية التحفظ والتحرز ، وكان يخاف أن يقتله الحاكم بأمر الله فنجا منه ، ثم لما أمن واطمأن كان حتفه .

في يوم الثلاثاء لليلة بقيت منه أخضر عز الدولة معضاد الكتاميين وأمرهم بالبُكُور من الغد ، وأمر الأتراك [١٧٨] وجميع العسكر بلبس السلاح ، وأن يتسلموا من الخزانة ما يخرج لهم من ذلك ، ويقف الجميع حول القصر حتى يؤمروا بما يفعلونه . فوقفوا من الغد بأجمعهم حول القصر إلى ضُحوة النهار ، فجاءهم الأمر بأن مولانا صلوات الله عليه يركب

فى غد ، فلىحضرف من لىس له منكم سلاح لىذفع إلىه من الخزانة ؛ فقال الكتامىون قد شغلنا الجوع وطلب الخبز عن هذا . فلما كان آخر النهار حمل قوم من مترجلة الكتامىين على سبعين فرسا ، وفرق فىهم وفى غيرهم السلاح .

شهر رمضان ، أوله الخمىس . فىه ركب الظاهر فى عساكره وعلىه قمىص مديّر مذهب دىبقى وعمامة مثله ، وعلى رأسه المظلة المذهبة يحملها بهاء الدولة مظفر الصقلى ، وخلفه ابن فتوح الكتائى يحمل الرمح ، وبين يديه الأتراك والكتامىون والقىصرىة والعبيد والباطلىة والدىلم وسائر الطوائف ؛ وركب رجال الدولة خلفه مع نسىم الصقلى ، وسار إلى مسجد تبر ، وعاد . وكان يوما حسنا من توافر الناس وكثرة الجمع والزى الحسن .

وفى يوم الجمعة ثانیه ركب أبضا إلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ، وعلىه طىلسان شرب مفوظ بعمامة بىاض مذهب ، وثياب دىبقىة ، والمظلة دىبقىة مذهب ، وطلع معه المنبر قاضى القضاة أحمد بن أبى العوام وإبراهىم الصانع المؤدب المروف بالجلس ، فأرخيا علىه سجدف القبة التى فى أعلا المنبر ، وهى مغشاة بمصمت بىاض ، والعنبر ببخر بين يديه فى المباخر الذهب والفضة والجوهر . فخطب ، ثم كشف عنه القاضى ونزل ، فصلى وعاد إلى قصره .

فى رابعه ورد الخبر بانصراف صالح بن مرّداس عن دمشق إلى حلب ، وأنّ كاتبه باع جمىع ما كان له بحلب من غلة ودار وآلة ، وخرج فجمع العرب وقصد حصار المدىنة .

فى خامسه ولى طبىب الخازن بىت المال ، وخلع علىه ، وحمل على بغلة بسرج ولجام ؛ وخلع على مىسرة الخازن ، وحمل على فرس بسرج ولجام مذهب ؛ وولى خزانة الخاصة وجعل عدّة الدولة رفق الخادم الأسود ، ىخرج إلیهما بالأوامر وىدخل . وخلع على ثلاثة من أولاد ابن جراح وحملوا على ستة أفراس .

وفي ثاني عشره -أخذ ديوان الشام من محمد بن أحمد الجرجرائي ورُدَّ إلى أبي طالب الغرابيلي .

وفي يوم الجمعة سادس عشره ركب الظاهر إلى الجامع الأنور^(١) خارج باب الفتوح وعليه رداء بياض محشئ قصباً ، وثياب بياض دبيقية ، وعمامة بياض مذهبة ، وفي يده القُضيب الجواهر ، وعلى رأسه مظلة مديرة فخطب ، ثم صلى ، وعاد .

وقدم الخبر بأن أهل دمشق هادئون سنان بن علوان إلى آخر الكوانين^(٢) . وقدم كتاب حسان بن جراح بأنه تحت الطاعة ، فلا يجب أن يشغل السلطان قلبه بأمر الشام ، وأنه يقوم بأمر فلسطين ويجبي خراجه وينفق في رجاله ، ودمشق فيها ابن عمه سنان ، صمصام الدولة ، وحلب مردود تدبيرها إلى صالح بن مرداس أسد الدولة ، وأنه قد كفى السلطان أمر الشام كله . فطرِدَ رسوله ولم يكتب له جواب .

وفي خامس عشره زيد في لقب منتخب الدولة أنوشتكين الذبيري أمير الأمراء^(٣) . وفي سابع عشره هرب ابن جراح ولحقا بحسان بن جراح ، وأخذ جميع ما كان في الدار التي أنزلوا فيها^(٤) ، وتركا أختاً لهما مريضاً ، فوكل به .

في سلخه حمل نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي سباط العيد على العادة ، وفيه مائتا قطعة من التماثيل السكر ، وسبعة قصور كبار من السكر ، وشق البلد بالخيال والطبالين والفرجية .

(١) وهو جامع الحاكم وجامع القاهرة .

(٢) هكانوفان : الأول يعني شهر ديسبر والثاني يعني شهر يناير .

(٣) وكانت ألقابه قبل ذلك : الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة ضد الدولة شرف المال . ذيل

تاريخ دمشق : ٧١ . وزيد على ذلك أيضا مصطفى الملك ، عدة الخلافة . نفس المصدر : ٧٤ .

(٤) في الأصل : التي أنزلوا فيها .

[شهر] شوال ، أوله السبت . فيه ركب الظاهر في عساكره ، وبين يديه فيلٌ وزرافات وبُنُود مذهبة بقصب وفضة ، والطبول تضرب والجناث تُقَادُ أمامه ، وجميعُ قواد الأتراك والمُصْطَنعة في السلاح ، وعليه ثوب خز بعمامة نظيره ، وفي يده القضيب ، وعليه السيف ومعه الرمح ، وعلى رأسه المظلة المذهبة يحملها مظفر ، وبين يديه الخدم السودان وعليهم أصناف المذهبات - إلى المصلّى . فصلّى ورقى المنبر ، واستدعى قاضى القضاة ، فطلع ، ثم استدعى إبراهيم الجليس المؤدّب ، فطلع ، ثم استدعى شمس الملك [٧٨ ب] أبا الفتح مسعود بن طاهر الوزّان ، فطلع ، ثم استدعى تاج الدولة^(١)

ابن أبي الحسين ، صاحب صقلية كان ، ثم استدعى زين الملك على بن مسعود بن أبي الحسين ، ثم استدعى عليّ بن فضل ، ثم عبد الله بن الحاجب ، ثم جُلْدُ بالبنديين المنصويين على المنبر^(٢) ، وخطب ، ثم نزل وعاد إلى قصره . وأحضِر السّمَاط فحضر أهل الدولة ، ولم يحضر الظاهر ، وكان في منظره يشاهدونه . وفي ثامنه صرف نجيب الدولة مجلى بن نسطورس عن ديوان الأَحْبَاس بِأبي غالب الصّيقِ النصراني كاتب ديوان الخراج . فيه ضربت خيمة بظاهر باب الفتوح ، ووَقَّع الاهتمام بتجريد العساكر إلى الشام .

وفي هذا الشهر تحرك السعر ، وبلغ التّلبّيس القمح دينارين وثلثين ، والتّلبّيس الشعير ديناراً واحداً ، والخبز رطلين بدرهم . وقدم الخبر بأن الحرب بمكة قامت بين الحسينيين والصليحيين ، فخرج منها أبو الفتوح حسن بن جعفر ، وأن الغلاء بها شديد .

(١) بياض في الأصل يتسع لتحوكلمتين .

(٢) كان من مهام الوزير في أيام الجمع والعيد أن يزر القبة على المنبر أثناء الخطبة . وكان يتدل على جانبي المنبر لواءان لستر الخليفة في أثناء الخطبة ، فإذا صعد الخليفة المنبر وقف على جانبي الدرج الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب وأسفهلار العساكر وصاحب السيف وصاحب الرسالة وصاحب دفتر المجلس ونقيب الأشراف الطالبين . فإذا نهض الخليفة للخطبة أشار الوزير إلى كل واحد من هؤلاء فيأخذ كل واحد نصيباً من اللواء الذى يحاذيه فيسترون الخليفة ويسترون . الخطط ، النجوم الزاهرة : ٤ .

وقدم الخبر بمحاربة الذُّزْبَرى لأصحاب حسان بن جراح على عسقلان ، وأن عِدَّة جند الذُّزْبَرى خمسة آلاف قد نهكتهم الحرب والغارات . وقبض على رجل قدَّمه حسان بن جراح إلى بنى قُرَّة بالبحيرة يدعُوهم إلى نُصْرته ويَهْدُهُم مواعيد كثيرة ، فأجابوه بالموافقة ، وأخذت منه الكتب وحبس .

وكانت ليلة الميلاد^(١) في يوم الخميس عشريه ، فاشتغل الناس عما كانوا يبتاعونه فيها من الفواكه والحلوى بما هم فيه من الأمراض ، وتواتر الموت ، بحيث لم تخل دار أحد من عِدَّة مرضى من الدَّم وأوجاع الحلق ، وبلغت الرِّمَّانة ثلاثة دراهم ، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهما ، والأوقية الشراب بدرهم ، والقمح ثلاثة دنانير التِّلَّيس ، والأردب الشعير ، بدينار ، والرطل اللحم ثمانية دراهم . وعز وجود شيء من الحيوان مثل الدجاج والفراريج ، وبلغت راوية الماء ثلاثة دراهم . فتهالك الناس من كل جهة ، وكسرت الأسواق ، فكانت الثياب والأمتعة ينادى عليها فلا يُوجَد من يدفع درهما فما فوقه .

وفيه قطع على حاج المغاربة الخارجين في البرِّ عهد تَمَدَّر أمر الحج ، فتقدمت جماعة من المغاربة القادمين من بلاد المغرب بغير أمير ، فلما جاؤوا بِرِّكة الجُبِّ قُطِع عليهم الطريق وأخذت أموالهم ، فهلك منهم عدة وعاد من بقى .

ذو القعدة ، أوله الأحد . فيه اشتدت عقوبة جواري محسن بن بدواس في طلب المال . وكانت ليلة الغطاس^(٢) في ليلة الأربعاء رابعه ، فجرى مَن هو صحيحٌ على العادة في شراء

(١) الميلاد اليوم الذى ولد فيه المسيح ، عليه السلام ، ويحتفل به نصارى مصر في التاسع والعشرين من كيهك . وكان من رسوم الفاطميين فيه أن تفرق فيه الجلمات المملوءة من الحلوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب ، وطيايف الزلاية والبورى . الخطط : ١ : ٤٩٤ .

(٢) ليلة الغطاس من أعياد النصارى التى كان يشارك فيها الفاطميون وإن كان الاحتفال بها جاريا قبل قدوم الفاطميين إلى مصر ، ويحتفل بها في الحادى عشر من شهر طوبة يخرج الناس فيها - مسلمين ونصارى - إلى النيل ويوقدون المشاعل والشموع ويركبون الزوارق ويضربون الخيام على الشاطئ ويكثر من إحضار المأككل والمشارب في آنية الذهب والفضة =

الفواكه والحملان وغير ذلك . ونزل الظاهر إلى قصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ، شكرًا ، مع حرمه ، بعد ما نزل القائد عدة الدولة رفق بأصناف الفرش لبسطه ، ونقل جميع المجاورين له ممن يسكن على النيل بالقرب منه ، وأزال المراكب المرساة هناك . وضرب بدر الدولة نافذ الخادم الأسود متولّي الشرطتين ، خيمة عند رأس الجسر ، وجلس على مرتبة مثقلة ومرتبة ديباج ، ووقف ابن كافى متولى الشرطة السفلى بين يديه . ونودى فى الناس ألا يختلط المسلمون مع النَّصارى عند نزولهم فى البحر بالليل . وأمر الظاهر القائد نافذًا أن يزيد فى وقيد النار والمشاعل فى الليل ، ففعل ، وكان وقيدًا طويلًا . وحضر القسيسون والشَّمَّاسة بالصُّلبان والنيران فقَسَّسُوا طويلًا وانصرفوا إلى حيث يغطسون . فمات فى هذه الليلة للظاهر طفلة سِنُّها ثلاث سنين وشهور ، وهى آخر ولد بقى له ، فعاد من آخر الليل إلى قصره بالقاهرة ، فشهد فى طريقه عدة أموات على الطرقات ، فأمر لهم بخمسمائة شُقَّة^(١) لأَكفانهم ، والنَّفقة عليهم حتى يُدفنوا .

وفى ثامنهِ حُنَّك ثلاثة من الخدم^(٢) وألبسوا العمائم الشرب البيض ، فتشبهوا بمن تقدّم من مُتَدَمِّى قُواد الخدم كميّرون وبدر ونصر العزيزى ونظرائهم . وهؤلاء المتمدّدون هم معضاد ومناد ورفق ، وأضيف إليهم فاتك ورجاء وسرور النصارى ، ونامق ؛ فجلسوا بحضرة الظاهر وهنأهم الناس بذلك .

وفيه اجتمع وفد الحجاز بباب القصر واستغاثوا ، [١٧٩] وقالوا : يا قوم قد جئناكم

وتكثر الملامى والأغاني والعزف ، وينطس المحتفلون فى التهريز معون أن ذلك أمان من الداء والأمراض . وكان من رسوم أهل الدولة أن يفرق فيهم الترنج والتارنج والليمون وأطنان القصب والسك برسوم مقررة لكل أرباب السيوف والأقلام .

المخطوط : ١ : ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(١) الشُقَّة : بكسر الشين ، شق من الثياب باستطالة ، وبالفم الثوب المستطيل . القاموس المحيط .

(٢) لبسوا العمامة وأداروها حول أحنكهم ، وبهذا صاروا من الأستاذين المحنكين ، أى من كبار الخدم المختصين بالخليفة لقضاء حوائجه .

وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع ، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة فاصرفونا فإننا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم فلم نأخذها ، ونريد إنسانا يكلمنا . فلم يجابوا بشيء . وكانوا قد مضوا قبل ذلك إلى رجال الدولة ، كمعضاد وغيره ، فصار يدفعهم هذا إلى هذا . فلما انصرفوا عن باب القصر خائبين بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلي ، صاحب المظلة ، ألف دينار من ماله ، فقالوا : لا نأخذ إلا ما يضلنا به أمير المؤمنين ، وهذه الصلة قد قبلناها ، والله مجازيك عليها ، ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا ؛ ففترقوها على خمسمائة نفس ، لكل واحد ديناران .

واشتد الغلاء والقحط بمصر ، فبيع الخبز السميد رطلين بدرهم ، والحملة الدقيق بأربعة دنانير وثلثين ، والتليس القمح بثلاثة دنانير ، واللحم أربع أواق بدرهم . وعظم الموت سيما في الفقراء ؛ وبلغ بالناس الجهد حتى إن جزأراً طرح عظما لكلب فطرد رجل الكلب وأخذ العظم منه وابتلهه نيثا ؛ وأكل المساكين الصماليخ من القنبيط^(١) واقتاتوا باليسير من كسب الوز وكسب السمسم ، وغلت عامة الحبوب . وغلا الماء لتعذر علف الدواب وعدم من يستقي عليها ؛ وبيعت راوية الجمل بثلاثة دراهم ، وراوية البغل بدرهمين ؛ واشتدت المسغبة . وقدم الخبر بشدة الموت بدمشق ، فمات من أهلها ألوف .

وفي نصفه ركب الظاهر وشرق مدينة مصر ، وخلفه المقوِّدون والمصطنعة ، وبين يديه الرقاصون ، فاستغاث الناس بضجة واحدة : الجوع يا أمير المؤمنين ، الجوع ؛ لم يصنع بنا هكذا أبوك ولا جدك ؛ فالله الله في أمرنا . فارتجت البلد بالضجيج حتى نزل إلى قصر العزيز على البحر ، فحضر أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصامة الكتامي وقد اختل

(١) لعل المقصود به ما يسميه أساتذة الأحياء الشاربخ ، جمع شراخ ، وهو الدعامة البيضاء التي تتجمع زهرات القنبيط في قتها .

عقله وحاله ، فوقفت تحت القصر وشتمه أقبح شتم ، وبالف فيما شتم به ، فضربه الرقاصون حتى سقط ، وجروه برجله وسحبوه إلى السجن بالشرطة ، فضربه متوليها ثلاثين درة واعتقله .

وتزايد أمر الغلاء ؛ ونزل دواس المحتسب برجاله ومعه السعدية ، وكتب مائة وخمسين مخزنا قمحا وختم عليها ؛ فأصبح الناس يوم الاثنين سادس عشره على أقبح صورة ، وكثر الصباح : الجوع الجوع ؛ ولم يظهر خبز ولا دقيق . وبيع الدقيق رطلا ونصفا بدرهم ، والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع .

وفيه خرج حاج المغاربة إلى مكة ، فلم يصحبهم أحد من أهل مصر ؛ وعندما عدوا بركة الجب خرج عليهم طائفة من القيصرية والعبيد ، وكانت بينهم وقعة هزمهم فيها المغاربة وجرحوا كثيرا منهم .

وفيه طلب المحتسب إلى القصر ، وهدد ، وقيل له : قد قتلت الناس جوعا وخربت البلاد على مولانا ، وهذا خطك بضمانك عمارة البلد بالأخباز والقمح إلى حين إدراك الغلة . فوعد بتلافى الأمر ، ونزل ، وأطلق القمح من المخازن للطحّانين ، وسعر عليهم دينارين ونصفا للتليس ، وأمرهم ببيع الحملة الدقيق بأربعة دنانير ، والخبز رطلين ونصفا بدرهم ، فسكن الحال قليلا^(١) .

وفيه أفرج عن محمد بن جيش بن الصمصامة .

وفي عشره ركب الظاهر إلى الصيد بسرؤوس^(٢) ، وعاد . وفي ثالث عشره عاد

(١) ليس هناك كبير فرق بين هذه الأسعار وما ذكر قبل أسطر في الحديث عن شدة الغلاء إذ بلغت حملة الدقيق عندئذ أربعة دنانير وثلاثين وتليس القمح ثلاثة دنانير .

(٢) من أعمال القليوبية قرب مدينة قليوب ، وهناك خليج حفر أيام الفراطة عرف باسم خليج سردوس . الخطط ؛ النجوم الزاهرة ؛ قوانين الدواوين : ٢٠٥ .

من خرج من حاج المغاربة بعدما نهبوا وجرحوا وسلبوا ، فلم يحج أحد في هذه السنة من مصر .

وفيه قرئ سجل بحطيطه جميع مكوس الغلة المباعة بساحل مصر ، وأن يبيع الناس بغير تسعير . وكثرت الأخباز ، وبيع القمح بدينارين ونصف وربع للتليس ، والخبز السميد رطلان بدرهم وربع ، والخبز الحواري رطلان بدرهم . وضرب عدده من الخبازين على خلطهم الطفل المسحوق في الأخباز .

وقدم الخبز أن حسان بن جراح أنفذ ألفي فارس فلم يعلم جهة قصدهم ، فاضطرب الناس لذلك ، ثم تبين أنها وردت إلى الفوما مع أبي الغول ، ففر الناس في المراكب إلى تنيس ، وأخذ الناس بمصر في إحراز أموالهم ، وفقد الخبز القمح والدقيق . ونفذت الكتب إلى الحوف (١) بدخول الرجال الجواله إلى الحضرة لتجدد عسكريا لحفظ [٧٩ ب] البلاد ، ثم أبطل ذلك خوفاً من نهبهم المدينة وكثرة كلفتهم .

ذو الحجة ، وأوله الثلاثاء . في رابعه ركب الظاهر في خاصته إلى عين شمس وعاد . وفي خامسه أطلق لوفد مكة ألف دينار يرتفقون بها وأمرت لهم أم الظاهر أيضا بشئ من عندها . وكثرت نقل الناس خوفاً من النهب في يوم الأضحى . وعمل سباط العيد السكر من عند نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائي ، وعدد قطعه وتمائيله مائة وسبع وخمسون قطعة وسبعة قصور كبار ، كلها من السكر ، وحمل في تاسعه إلى القصر ومعه الفرحية الطبالون ، وأفراس الخيل ، والسودان والصقالية على العادة .

(١) كان الوجه البحرى ينقسم إلى أربع نواح : الحوف الشرقى ، وكان يشمل عين شمس ومحافظات القليوبية والشرقية الحاليين ومدينتي الفرما والعريش ، وبعث الريف وكان يشمل مايسى الآن محافظة الدقهلية وجزءا من شمال مديرية الغربية ، والجزيرة وهى بقية الأرض الواقعة بين فرعى النيل ، والحوف الغربى أى مديرية البحيرة . اتعاظ : ١ : ١١٨ : حاشية : ١ نقلنا عن صبح الأعشى .

وفي عشية النهار تهاب الناس من دب عظيم سقط من الجبل إلى المقابر ، فانجفل الناس في درب الصحراء ظناً أن العبيد كبستهم ؛ فكان خوف شديد .

وفي يوم الخميس عاشره كان عيدُ النحر ، فركب الظاهر إلى المصلّى من باب الفتح على عادته بعد أن رسم لسائر العرائف أن تلزم كلّ عرافة مكانها وحارتها ، وتكون صلاةُ العسكر بأجمعهم في حاراتهم مع أزمتهم ، فامثلوا ذلك . وصلى وخطب بعد أن استدعى داعي الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان وسلّمه الثبت بأسماء من جرّت عادته بطلوع المنبر ، فاستدعى شمس الملك ، وبهاء الدولة مظفر صاحب المظلة ، وعلى بن مسعود ، وحسن ابن رجاء بن أبي الحسين ، وعلى بن فضل ، وإبراهيم الجليس ، وعبد الله بن الحاجب ، وتأخر القاضي وغيره لمرضهم فلم يشهدوا صلاة العيد . فلما انقضت الخطبة نزل الظاهر إلى المنحَر بالمصلّى ، فنحر ناقةً وعاد إلى قصره ؛ ومشى إلى المنحر بصحْن القصر تجاه ديوان الخراج فنحر تسعاً من النوق ثم انصرف . فحضر أبو الحسن على بن محمد الطريقي ، كاتب قاضي القضاة ، لتفرقة لحم الأضاحي على أبواب الرسم ، فنهبت العسكر وجرى عليه كل قبيح . ومُدَّ السّماط بحضرة الظاهر ، فلما جلس أهل الدولة عليه للأكل كبس العبيدُ القصر وهم يصيحون : الجوع ، نحن أحقّ بسماط مولانا عليه السلام ؛ ونهبوا جميع ماعلى السّماط وضرب بعضهم بعضاً والصقابة تضرّهم فلا يبالون . فكان أمراً صعباً وحسبُ الحاضرين أن نجّوا سالمين .

فلما كان الغد ركب الظاهر إلى الرّحبة في القصر تجاه ديوان الخراج ، فنحر ثلاث عشرة ناقة ، وعاد ، ففرقها الطريقي . وشُدَّ من الغد ، ثالث عيد النحر ، في مكان النحر خمس عشرة ناقة لتُنحر ، فلم يخرج الظاهر ، فحُلّي عنها ، ثم شُدَّ خمسُ نوق غيرها نحرها الطريقي وفرّقها .

وقدم الخبر بنهب العبيد الجواله بلداً بالأشْمُونين ؛ حصل لرجل واحد تسعمائة رأس من البقر وثلاثة آلاف رأس من الضأن .

وفي ثالث عشره ورد الخبر بأن الدّزبَرى أسرى من عسقلان وكبس حلّة لحسان بن جراح ، فقتل ثلاثين أسيراً وعدّة من النَّاس يبلغون آلافا ، ونهب نساء العرب ، وطلب نجدة ولوبألف فرس ؛ وأخبر أنه نزل فلسطين وصلّى بها العيد وهو خائفٌ من اجتماع العرب لحربه . فأخرج مضرباً ظاهرَ باب الفتوح لتجرّد العساكر ؛ فدافع أهل الدولة عن إمضاء ذلك . فورد الخبر بأن الدّزبَرى بعد ماضى العيد بمدينة الرملة انتقل إلى لُد بعد ما أوقع بحلّة فيها ولدٌ لأبى الغول فقتله ، وضرب أعناق أربعين رجلاً من الغمازين الذين كانوا يدلّون حسان بن جراح على الناس ، وأنه ينتظر النجدة بلُد ، فلم يخرج إليه أحد .

وفي يوم عيد الغدير^(١) وردَ الخبر بإقامة الدّعوة الظاهريّة بالبصرة والكوفة والموصل وعدة من بلاد المشرق ، وذلك لقلبة الأتراك على بغداد وإخراج الدّيلم عنها إلى البصرة ، فدعا الدّيلم للظاهر بها وبالكرخ^(٢) ، ودعا الأتراك ببغداد للقادر . وفيه جرى الناس بمصر في عيد الغدير على رسمهم ، وتزيّوا بأفخر زيهم ، وطلع المنشدّون إلى القصر يدعون وينشدون . وفيه نُصبت خيمة خارج باب الفتوح ليخرج تجريدة الدّزبَرى .

(١) تزعم الشيعة ، أن النّبي صلى الله عليه وسلم ، مر بوادى خم في حجة الوداع وأمسك بيد علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، وقال : " من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " . قارن الخطط : ١ : ٣٣٨ ، وفيه كثير من التفصيل .

(٢) الكرخ . لعل المقصود به كرخ بغداد وقد بدأ حيا في وسط بغداد والمحال حولها ثم تطورت أحوالها حتى صارت غلة وحدها ، وأهلها شيعة إمامية . معجم البلدان : ٧ : ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وفى حادى عشره نُهبت الدواب بسفط ونهيا^(١) من ثلاثين رجلاً من بنى قُرّة ، وقتلوا قاضى سفط ، واستاقوا مائة وخمسين فرساً لأهل الدولة ، وساقوا ثلاثمائة رَمَكَة^(٢) لمعضّاد وأربعة آلاف رأس من الضأن ؛ فلم يخرج أحد لطلبهم ، ولا أنكر شئ من ذلك . وفى ثانى عشره خرج معضاد والشريفان [١٨٠] وابن حمّاد الغرابيلى ونجيب الدولة الجرجرائى إلى الخيمة خارج باب الفتوح ، وحضر الكتّاميون ، فطُلب منهم مائة فارس لينتفك فيهم^(٣) ، فلم يحضروهم ، ونزعت الخيمة فعادوا أقبح عود .

وفى خامس عشره سار وفد مكة وقد دُفع إليهم نصف واجبهم ، ولم يرسل إلى أبى الفتوح بشئ ، فمضوا غير راضين . وفيه حمل مظفر صاحب المظلة إلى الحضرة عشرة آلاف دينار قرضاً ؛ واستدعى من الشريف أبى طالب العجمى متولّى الصناعة عشرة آلاف قرصاً ، فدافع ثم أجاب إلى حمل خمسة آلاف بعد أن يُضمّن له أمرٌ عادتُها إليه ، فضمن له الشيخ نجيب الدولة أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى ذلك ، فحملها .

واشتد الغلاء ؛ فبيع القمح بأربعة دنانير وثلاث التليس والحملة الدقيق بستة دنانير ، والخبز رطل وربيع بدرهم ؛ ونزل بالناس مسغبة شديدة . وفى ثالث عشره تجمع العبيد ومعهم عدة من النّهابة ، فبلغوا نحو الألفين ، يريدون نهب مدينة مصر ، فركب إليهم بدر الدولة نافذ فى عسكر بالسّلاح ، وأذن للناس عامّة بأنّ تعرض لهم من العبيد فليقتلوه ؛ فتحفظ الناس واستعدّوا . ثم ركب معضاد ونسيم إلى حيث تجمع العبيد ، وأحضروا

(١) سفط اسم لعدة قرى تعرف بالإضافة منها سفط الحمار ، رشيد ، العرفاء ، أبى تراب ، اللبن ؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة وكانت بالجزيرة (الجزيرة) فى الجنوب الغربى لناحية المتعدية بنحو ألف متر ، وفى الشمال الغربى لكفر طهرمس بنحو ٧٠٠ متر . ونهيا غرب سفط ، وهى وسط الحوض لا يوصل إليها زمن الفيضان إلا بالمراكب . الخطط التوفيقية : ١٧ : ٩ - ١٣ ، ج : ٣٤ - ٣٩ ؛ قوانين الدواوين : ٣٥٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٩ .

(٢) الرمكة ، بفتحين ، الأنثى من البراذين ، وجمعها رماك ورمكات وأرماك مثل ثمار وأثمار . مختار الصحاح .

(٣) استمدادا لتكوين التجربة العسكرية لحفظ البلاد ، وهى الخطوة التى سبق ذكرها قبل قليل .

أَزِمَّتْهُمْ وَالزَّمَوْهُمْ بَعَوْدَ الْعَبِيدِ إِلَى حَارَتِهِمْ ؛ فَقَالُوا : مَا أَرَدْنَا النَّهْبَ ، وَلَا نَرِيدُ إِلَّا مَا نَأْكُلُهُ مِنْ الْجُوعِ فَإِنَّ الْجُوعَ قَدْ اشْتَدَّ بِنَا وَأَكَلْنَا الْكِلَابَ . فَوَعَدُوا بِالنَّفَقَةِ مِنَ الْغَدِ ؛ فَعَادَ الْجَمِيعُ إِلَى حَارَاتِهِمْ . وَاجْتَمَعُوا مِنَ الْغَدِ وَقَصَصُوا السَّاحِلَ ، وَنَهَبُوا دُوراً وَطَرَحُوا فِيهَا النَّارَ ، وَأَخَذُوا مَا وَجَدُوهُ فِي السَّاحِلِ مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي الْحَوَانِيتِ ؛ وَدَخَلُوا إِلَى مَنَازِلِ أَهْلِ السَّلَاحِ فَنَهَبُوا مَا وَجَدُوا . فَرَكِبَ إِلَيْهِمْ نَافِذٌ وَقَاتَلَهُمْ ، فَجُرِحَ لَهُ فَرَسٌ وَقَتَلَ فَارِسٌ مِنْ غُلَمَانِهِ ، فَانصَرَفَ عَنْهُمْ . وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْمَصْرِيِّينَ بِالسَّلَاحِ فَقَاتَلُوهُمْ ؛ وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ مِنْ أَعْلَى الدُّورِ بِالْحِجَارَةِ وَالطُّوبِ وَالْجِرَارِ ، حَتَّى هَزَمُوهُمْ ؛ وَأَغْلَقَ النَّاسُ دُورَهُمْ ، وَحَفَرُوا دُونَهَا خَنَادِقَ . وَرَكِبَ مَعْضَادٌ وَجَمِيعُ الصَّقَالِبَةِ وَالْقَوَادِ ، فَطَرَدُوا الْعَبِيدَ عَنِ الْبَلَدِ إِلَى الْمَقَسِ ، وَلَقُوا فِي طَرِيقِهِمْ قَوْمًا مَعَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَمْتَعَةِ النَّاسِ الَّتِي نَهَبَتْ ، فَقَبِضُوا عَلَيْهِمْ ، وَضَرَبَ مَعْضَادٌ رِقَابَ تِسْعَةِ أَنْفُسٍ مِنْهُمْ وَرَمَى جِثَّتَهُمْ إِلَى الْكِلَابِ عِنْدَ الْحَمْرَاءِ وَالْمَشْتَهَى . ثُمَّ لَقِيَ سِتَّةَ نَفَرٍ مِنْهُمْ فَضَرَبَ رِقَابَهُمْ بِالْقَاهِرَةِ .

وَتَعَدَّرَ وَجُودَ الْخَبِزِ فَلَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهِ ، وَبِيعَ رَطْلًا بِدَرَاهِمٍ . وَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ عَلَى حَرَسٍ ، وَأَصْبَحُوا يَتَرَقَّبُونَ الْمَكْرُوهَ ، فَطَافَ النَّهَابَةُ أَسْوَاقُ الْقَاهِرَةِ وَالسُّوَيْقَةِ الَّتِي عِنْدَ بَابِ زَوَيْلَةَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ حَظِيٌّ الصَّقَلْبِيُّ وَمَعَهُ سَيْفٌ مِنَ الْحَضَرَةِ ، فَقَبِضَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، وَضَرَبَ رِقَابَهُمْ وَرَمَى جِثَّتَهُمْ إِلَى الْكِلَابِ عَلَى بَابِ زَوَيْلَةَ وَعَلَى بَابِ الْفَتْوحِ وَفِي سَوَاقِ السَّلَاحِ وَعِنْدَ شَرْطَةِ الْقَاهِرَةِ ؛ وَعَدَّتْهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا . وَوَجَدَ كِتَابًا يُقَالُ لَهُ سَلِيمَانُ ، قَدْ أَخَذَ حَمَارًا مَحْمَلًا دَقِيقًا ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ . وَأَحْضَرَ عُرْقَاءَ الْعَبِيدِ إِلَى التَّصَرُّعِ وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِي إِحْضَارِ الْجَنَّةِ مِنَ الْعَبِيدِ ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّفَقَةِ فِي الْعَبِيدِ .

وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ الْأَحَدِ سَابِعَ عَشْرَةَ يَسْتَعِيثُونَ إِلَى مَتَوَلَّى الشَّرْطَةِ السُّفْلَى مِنَ الْعَامَّةِ الَّتِي نَهَبَتْهُمْ ، فَقَبِضَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ بِكُومِ دِينَارٍ ، وَعُوقِبُوا حَتَّى أَقْرَأُوا بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ النَّهْبِ ، فَسَبَقُوا حَتَّى أَخْرَجُوهُ مِنْ كُومِ دِينَارٍ وَأَخَذَهُ أَرْبَابُهُ .

وقدم الخبر من حلب بأن صالح بن مرداس حاصر حلب ، ومازال بأهل البلد حتى فتحوا له أبوابها ، فدخل أصحابه وشرعوا في هدم أبراج السور ، فظنّ الناس أنه يريد بذلك أن يسلم حلب إلى الروم ، فاجتمعوا يمين في القلعة ، وقد تحصّن بها موصوف الصقلبي ، وحاربوا أصحاب صالح حتى أخرجوهم وقتلوا منهم مائتين وخمسين رجلا ، وامتنعوا منهم بالمدينة . ومن خبر ذلك أن صالح بن مرداس نزل على مدينة حلب في جمع كثير من بني كلاب وغيرهم ، فحصرها أشدّ حصر حتى أخذ المدينة صلحا من أهلها ، ودخلها في رابع عشر ذى القعدة سنة خمس عشرة هذه ، وتلقب بأسد الدولة . وامتنع موصوف [٨٠ ب] الصقلبي بالقلعة ، فاستخلف صالح على مدينة حلب كاتبه أبا منصور سليمان بن طوق ، ومضى إلى بعلبك فأخذها عنوة ، وقتل بها خلائق . واشتدت محاصرة سليمان بن طوق لقلعة حلب ، وصعد قلعتها حتى قلّ الماء والزاد بها ، فطلب موصوف منه أشياء اشترطها عليه وسلمه القلعة ، فأتى صالح حلب وصعد قلعتها ، وقتل موصوفاً ، ورتّب أموره ، وصار بيده من بعلبك إلى عانة (١) .

وقدم الخبر بأن حسان بن جراح جمع من العرب خلائق وقصد الرملة ، فمضى الدّزبري إلى عسقلان وتحصّن بها ، فقبض حسان على جماعة من أهل الرملة ممن سعى به وبأصحابه إلى الدّزبري ، وضرب أعناقهم ، وملك المدينة . فاجتمع الدّزبري مع مبارك الدولة فتح ، متولّي القدس ، وفتح بن بويه الكتاني ، وصار إليهم نحو الخمسة آلاف مقاتل ، وأوقعوا بحلة كبيرة لإخوة حسان ، وقتلوا ولداً لعلي بن جراح ، وهزموا من بها ٨

وقال ابن الرقيق : وكان بمصر من الغلاء والشّدّة وعدم الأقوات ما لم يُر مثله من زمن

(١) عانة : بين الرقة وهيت على نهر الفرات قرب حديثة النورة ، وبها قلعة حصينة وتعد من أعمال الجزيرة .

بعيد . بلغ الخبز ، إذا وجد ، رطلا بدرهم ، واللحم أربع أواقٍ بدرهم ، والرمانة الواحدة بدينار . وكان الناس في كل ناحية يصيحون بالجوع حتى يموتوا ، ويكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزا فلا يجده ؛ هذا مع الموت الذريع . والوباء الفظيع . وورّد كتاب بعض ثقات التجار يصف أنه أحصى مَنْ ماتَ تَمَنَ عُرفَ وكُفِّنَ ودُفِنَ من آخر شهر رمضان إلى بعض ذى القعدة فكانوا مائة ألف وسبعين ألف نفس ؛ وأما الغريب ومن لا يُعرف ومن يُلقَى في النيل ولا يجد مَنْ يقبره فأكثر من هذه العدة أضعافاً لا تُحصى .

وبلغ ماء النيل ستة عشر ذراعا وثمان أصابع .

ومات في هذه السنة مَن له ذكر أبو جعفر بن الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، يوم الخميس سادس المحرم ؛ وكان يعمل بيده أعمالا متقنة . وفي يوم الأربعاء عاشر صفر توفى مفضل بن أبي أحمد المهلبى بعد ماساءت حاله ؛ وكان أديبا جمّ الأدب غير منكور السيرة . وفي سابع عشره توفى أبو محمد بن يحيى الدقاق من شيوخ الحديث ومؤرخى أخبار مصر . وفي يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الأول توفى ابن أبي الحسين بن زولاق ، وكان أديبا ، ذيل على تاريخ أبيه المعروف بأبي الحسين . وفي يوم الخميس ثانى عشرى ربيع الآخر توفى أبو الحسن بن تحرير الشويزانى ، وهو أكبر من بقى من عُرفاء الإخشيدية ، فبعث الظاهر لكفنه مائتى دينار وعدة ثياب وطيبا كثيرا . وفي يوم الأحد عاشر جمادى الأولى توفى النمل الشاعر ، واسمه : ومن شعره (١) :

وتوفى سند الدولة أبو محمد حسن بن محمد بن محمد بن نقيان الكتامى ، متوليا مدينة حلب ، بها ، في يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر . وفي يوم الاثنين سادس

(١) قبل هاتين الكلمتين فراغ يتسع لاسم الشاعر الذى لم يذكره ، وبعدها فراغ يسع بضعة أبيات لم تذكر أيضا .

شعبان توفي عصب الدولة الحسين بن مفلح ابن أبي صالح القلعي ، وقد ساءت حاله وغلبه الدين . وفي ليلة الأحد تاسع عشره قُتل الشيخ العميد محسن بن بدواس مُتولى بيت المال وجابي الضرائب . وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر رمضان توفي نزار بن حُسين بن يُمن الكتامي ، مُتولى الشرطة السفلى بمصر ، بعدما ساءت حاله . وفي رابع عشره توفي الشريف العباسي الرابض لدواب الحاكم بأمر الله ، وكان شريفاً ، فلم يشهد أحد جنازته بغضاً له . وفي يوم الخميس سادس شوال توفي أبو عيسى ملامان بن محتاس بن بيوط الكتامي ، فصلّى عليه الظاهر . وفي تاسعه توفي مخلص الدولة منصور البكجورى ، أحد وجوه القوّاد الحمدانيّة القادمين من الشام ، وترك ستين ألف دينار ورثها ابنته ، فدفن في مقابر القاهرة . وفي ثالث عشره توفي الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود بن عبّيد الله المهدي ، وليّ عهد المؤمنين كان ، فدفن في تربة القصر ، وترك ولداً اسمه مسلم . وفيه توفيت عائشة جارية الأمير عبد الله بن المعز [١٨١] لدين الله ؛ وكانت من وجوه عجائز القصر ؛ وخلّفت أربعمئة ألف دينار . وفي يوم السبت رابع عشر ذى القعدة توفي جعفر بن أبي فروخ الكتامي الذى كان يتولّى الشرطة بمصر . وفي سابع عشره توفي أبو الفتح منصور المعروف بالتينى الشاعر ، ودفن بمقابر القاهرة . ومن شعره :

شديدٌ من الدنيا على الحرّ حاجة يؤمُّ بها مَنْ ليس من نظرائه

وقال من أبيات :

وما الناس إلا كالنّبات : مصوّح ليدوى ، ومُخَضَّرٌ لِيَنُمى ، ومُعْشَب
يُسَرِّبُهُ ماء الشّباب نضارة ويفرغ عنه حُسْنه حين يَنْضَب

ومنها :

تَفَرَّقُ أنواعُ المذمّات فى الورى ويجمعُها خُلُقُ الفتى حين يَكْذِب
إذا كانَ للإنسانَ عقلٌ ، فحيثُما توجّه لآقاهُ صديقٌ ومكسب

ينالُ الفتى بالخَفَضِ بُلْغَةَ عَيْشِهِ فيسعى إلى شيء سواها ، وينصّب
يُخَرَّبُ من أَخْرَاهَ مَالَيْسَ فَانِيَاً ويعمر من دُنْيَاهَ مايتخرَّب
على أَنَّ في الأَيَّامِ للمرءِ واعظاً بليغاً ، وفي صَرْفِ الزَّمانِ مؤدِّب

ومانت السيدة العزيزة ستُّ الملك ابنة العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي
تميم معدّ ، مستهل جمادى الآخرة^(١) ، بعلّة الدرب . وقد دبرّت أمور الدولة بعد فَقْدِ
أخيها الحاكم بأمر الله خمس سنين وثمانية أشهر ، أعادت فيها للملك غصارته ، واستردّت
بهجته ، وملأت الخزائن بأَصْنَافِ الأموال ، وقلّدت الأَكْفَاءَ جلائل الأعمال ، واصطنعت
الرجال^(٢) .

(١) وكان مولدها في ذى القعدة سنة ٣٥٩ ببلاد المغرب . نهاية الأرب .

(٢) يوجد هنا بالأصل عبارة نصها : يياض نحو ثلث صفحة .

سنة ست عشرة وأربعمائة^(١)

فيها أمر الظاهر بنفى مَنْ وُجِدَ من الفقهاء المالكية وغيرهم . وأمر الدعاة أن يُحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام^(٢) وكتاب الوزير يعقوب بن كلس في الفقه على مذهب آل البيت^(٣) ؛ وفرض المظاهر لن يحفظ ذلك مالا . وجلس الدعاة بالجامع للمناظرة^(٤).

سنة سبع عشرة وأربعمائة^(٥)

فيها ثار بالناس في مصر رُعاف عظيم . وزاد النيل فوق المعتاد حتى غرقت القرى^(٦). وفيها سقط الظاهر عن فرس ، وأُرجف بموته ، ثم عُوفى ، فتصدّق بمائة ألف دينار ، حُمِلَ منها إلى مكة والمدينة أربعون ألف دينار ، وإلى بلاد الشام عشرون ألف دينار ، وإلى بلاد المغرب عشرون ألف دينار ، وفُرق بمصر عشرون ألف دينار^(٧).

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من مارس سنة ١٠٢٥ .

(٢) لأبي عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الداعي الشيعي . نشره السيد آصف علي فيظلي بالقاهرة . سنة ١٩٥١ . ويقول عنه صاحب النجوم الزاهرة في أثناء الحديث عن سنة ٤١٤ « وفيها توفي محمد بن محمد بن النعمان ، أبو عبد الله فقيه الشيعة وشيخ الرافضة وعالمها ومصنف الكتب في مذهبها ، قرأ عليه الرضى والمرضى وغيرها من الرافضة ، وكان له منزلة عند بني بويه وعند ملوك الأطراف الرافضة . قلت : كان ضالا مضلا هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته ، فإن الجميع كانوا يقعون في حق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . عليهم من الله ما يستحقونه » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٥٨ .

(٣) وكان يهوديا من أهل بغداد ، ثم انتقل إلى الرملة وعمل بها ممسارا ، ثم انتقل إلى مصر زمن الإخشيديين وتولى الوزارة بها ، ثم هرب إلى المغرب وعاد إلى مصر في ركاب الفاطميين ، وترقت أحواله حتى تولى الوزارة للعزيز ، وألف كتابه هذا في فقه الشيعة والدعوة الفاطمية ، وأنشأ في قصره مكتبة ضخمة لخدمة مذهب الفاطميين ، وعقد به المجالس التعليمية لنشر هذا المذهب . وعندما مرض مرض الموت بكاه العزيز قائلا له ” وددت أنك تباع فأشتريك بمالي وورلدي “ ودفنه العزيز في قبة كان قد ابتناها ليدفن هو فيها ، وعطل الدواوين أياما لوفااته .

(٤) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض نحو سطرين .

(٥) ويوافق أول المحرم منها الثاني والعشرين من فبراير سنة ١٠٢٦ .

(٦) وصل النيل هذه السنة ست عشرة ذراعا وسبع أصابع . ويلاحظ أنه وصل في السنة السابقة ست عشرة ذراعا وأربع أصابع ، وفي السنة التالية ، ١٨ ، ست عشرة ذراعا وثلاث عشرة أصبعا . النجوم الزاهرة .

(٧) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض أربعة أسطر .

سنة ثمان عشرة وأربعمائة (١) :

فيها وقعت الهدنة بين ممتلك الروم (٢) وبين الظاهر عن ديار مصر والشام ، وكتب بينهما كتاب ؛ وتفردت الخطبة للظاهر ببلاد الروم . وفتح الجامع الذي بقسطنطينية ، وعمل له الحصر والقناديل ، وأقيم به مؤذن ؛ وعند ذلك أذن الظاهر في فتح كنيسة القمامة التي بالقدس (٣) ، فحمل إليها ملوك النصارى الأموال والآلات ، وأعادوها ، وارتد إلى دين النصرانية كثير ممن أسلم كرها في أيام الحاكم بأمر الله .

وفيها عزل الظاهر عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذباري ، وولى عوضه الوزير الأجل الكامل أوحد أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي .

وفيها اجتمع عسكري مضر ، ورافع بن أبي الليل مقدم طائفة الكلبيين ، وأنوشكين الدزيري لحرب حسان بن جراح (٤) ، فالتقوا لخمس بقين من ربيع الآخر على الأقحوانة (٥) ، فقتل صالح بن مرداس ، وانهمز حسان ، وقتل عدة ممن معه ، واستولى الدزيري على البلاد . فقدم شبل الدولة نصر ، ومعز الدولة شمال بعد أبيهما صالح بن مرداس ، وملكا أيضا الرحبة إلى بالس (٦) ومنبج (٧) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادي عشر من فبراير سنة ١٠٢٧ .

(٢) وهو عندئذ الإمبراطور قسطنطين الثامن .

(٣) وكان الحاكم قد أمر بهدمها وإغلاقها سنة ٣٩٨ .

(٤) وخرج الظاهر بنفسه لتوديع الجيش المصري عند خروجه ، واشترك صالح بن مرداس مع حسان بن مفرج في مقاومة جيوش الظاهر . ذيل تاريخ دمشق : ٧٣ ؛ نهاية الأرب للتوري . وسيرد ذكر هذه الحرب مرة أخرى سنة ٤٢٠ وهو تاريخها الحقيقي . قارن نهاية الأرب إذ تذكر في سنة ٤٢٠ أيضا .

(٥) من أعمال دمشق وبلاد نهر الأردن على شاطئ بحيرة طبرية . معجم البلدان : ١ : ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٦) بين حلب والركة ، كانت تقع على شاطئ الفرات ثم انحسر النهر عنها شيئا فشيئا حتى قال ياقوت إنها أصبحت على مسافة أربعة أميال من النهر في زمانه . معجم البلدان : ٢ : ٤٦ - ٤٧ .

(٧) من إقليم العواصم ، بينها وبين حلب عشرة فراسخ ، ومنها إلى الفرات ثلاثة . نفس المصدر : ٨ : ١٦٩ - ١٧١ .

سنة عشرين وأربعمائة^(١) :

فيها كانت فتنة بمصر بين [٨١ ب] المغاربة والأتراك ، قتل فيها جماعة ، وكان الظفر للأتراك ؛ ثم استظهرت المغاربة بمُعاونة العامة لهم ، فقتلوا عدّة كثيرة من الأتراك ، وأخرجوا مَنْ بقى منهم عن مصر . وكان خبط عظيم ، فدُخرج الظاهر رأسه من المنظرة وأشار إلى الناس ، فتبّلوا الأرض ، ثم بعث إليهم بالصلح ، فمشى الدعاة بينهم حتى اصطلحوا .

وفيه بعث المعز بن المنصور بن بُلْكَيْن بن زيري^(٢) هدية فيها عشرون جارية لم يُر كَحُشْنهنّ ، وعلى نُهودهنّ حقائق الفضة ؛ وثلاثة أفراس ، فيها كميت بسرج ذهب زنته قنطار ذهب ، وأشقر بسرج لؤلؤ ، وأدهم^(٣) بسرج فضة زنتها قنطار ؛ وثلاثة آلاف منا^(٤) زعفراناً ؛ وخمسون دُرّة بأغشية ديباج ، واثنان عشر صقلياً ؛ وعشرون خادماً سوداً ؛ وألف وخمسمائة ثوب خزّ وأربعمائة غفارة ؛ ورماح كثيرة جداً ؛ وألف قنطار شمعاً ؛ وثياب سُويّة وصقلية ؛ وعمائم عدّة ألوف . فجلس الظاهر في الإيوان على السرير الذهب ، وقرئ عليه كتابه ، وعُرضت هديته في يوم الأحد

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من يناير سنة ١٠٢٩ . ويلاحظ أنه لم يذكر عنواناً أو أخباراً لسنة ٤١٩ . وقد سبق مثل ذلك .

(٢) شرف الدولة المعز بن ناصر الدولة أبي مناد باديس بن عدة العزيز بالله المنصور بن يوسف ، ويعرف - شهرة - بالمعز بن باديس .

(٣) الكيت من الخيل بين الأسود والأحمر ، ويفرق بينه وبين الأشقر بالعرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فهو أشقر وإن كانا أسودين فهو الكيت . والدمة السواد ، ويقال فرس أدهم وبير أدهم إذا اشتدت وركته حتى ذهب بياسه . المصباح المنير .

(٤) المن : نوع من الأبطال وهو مائتا درهم وستون درهما . قوانين الدواوين : ٣٦٢ . والمن الذي يكال به السمن وغيره ، وقيل الذي يوزن به ، رطلان . المصباح المنير . والمن : المن ، وهو رطلان والجمع أمان . مختار الصحاح .

ثامن شوال . وبعث إليه هدية من دقّ تَنيس ودمياط وطرائف الهند واليمن ، وزرافة ،
وبُخْتاً خُراسانية تحمل قباباً فيها جوارى ، وأشياء عظيمة .

وفيها جهّز الظاهر أمير الجيوش أنوشتكين الدّزبَرى لقتال صالح بن مرّداس ، فالتقيا
بالأفحوانة من عمل طبرية على نهر الأردن ، واقتتلا أشدّ قتال ، فقتل صالح وولده الأصغر
في جمادى الأولى من سنة عشرين هذه (١) ، وحمل رأسهما إلى القاهرة . ونجا شبل الدولة
أبو كامل نصر بن صالح ، وأخوه أبو علوان عز الدولة ثَمَال إلى حلب ، فملكها شركة
بينهما . فكانت مدّة ملك صالح لحلب أربع سنين وأشهرًا .

(١) تقدم ذكر هذه الحرب في أحداث سنة ٤١٨ هـ . وهذا التاريخ ٤٢٠ هـ هو زمن اشتعالها وهزيمة حسان ومقتل صالح .

قرن نهاية الأرب للنويرى .

سنة احدى وعشرين وأربعمائة^(١) :

بايع النَّاسُ بولاية العهد للمُستنصر بن الظاهر ، وعمره ثمانية أشهر ؛ فخلع على كافة أهل الدولة وعُمل من الطعام ما كفى أهلَ القاهرة ومصر والطَّارئين من البلاد ، ونُثر مالٌ عظيم ؛ فلم يَبْقَ أَحَدٌ حتى وصل إليه من خير هذه البيعة . واجتمعت العامة تحت المنظرة من القصر ، واستغاثوا أَنْ يَشْرُفُوا بروية أمير المؤمنين ، فأشرف عليهم الظَّاهر من المنظرة ، فتمبَّلوا الأرض وانصرفوا .

وكان مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ قد طمع في حلب بعد تملك صالح بن مردَّاس لها ، فكاتب ممتلك^(٢) الروم يُرَغِّبه في حلب ويَعِدُّه ، إلى أَنْ خرج من القسطنطينية في هذه السنة ومعه ثلثمائة ألف ، حتى لم يبقَ بينه وبين حلب سوى يوم واحد اعتزل عنه ابن لؤلؤ ومعه رجل جليل من الروم يقال له ابن الدوقس في عشرة آلاف ؛ فعُخِفَ ممتلك الروم ورحل ، ثم قبض على ابن لؤلؤ وابن الدوقس في جماعة ووُكِّلَ منهزما لايملوى على شيء . وتبعه من عرب كلاب وغير نحو الألفى فارس في طائفة الأرمن ، ونهبوا الروم ، فاخذوا من خاصُّ الملك أربعمائة بغلة تحمل المال والثياب ، سوى ما ظفروا به لعامتهم ، بحيث أُبيع البَغْلُ في حلب بدينارين ؛ ولولا أَنَّ العرب تشاغلَت بالغنيمة لما أَفْلَتَ أَحَدٌ من الروم . ووُجِدَ من الروم آلافٌ كثيرة موقى عطشا . وكانت هذه الهزيمة يوم السبت خامس شعبان .

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع من يناير سنة ١٠٣٠ .

(٢) الامبراطور رومانوس الثالث .

سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة^(١) :

فيها نقص النيل نقصانا فاحشا ، فتحرك السعر ، وحملت غلال كثيرة من الشام إلى مصر ، ثم زاد النيل بعد أوان الزيادة بأربعة أشهر ، فكثر العَجَبُ من ذلك .

وكان الذَّزْبَرى لما استرجع البلاد الشامية من أيدي المتغلبين عليها ، إلا حَلَبَ فإنها بقيت بيد بنى صالح بن مرْدَاس ، انهزم حَسَّان بن جَرَّاح وإخوته من الذَّزْبَرى ، ولم يجدوا ملجأ ، فحملهم ذلك على أن دخل حَسَّان في طاعة ملك الروم ، وحمل على رأسه صليبا وصار في جُمْلته . ثم سار في هذه السَّنة بعسكر الروم وعلى رأسه الصليب ، ووصل إلى أَفَامِيَّة ، وهي من عمل الذَّزْبَرى ، فهزمها وسب كثيرا منها . فنادى الذَّزْبَرى بالغزاة ، وخرج ، فخافه نصر بن صالح وقرَّرَ لملك الروم على نفسه خمسمائة ألف درهم ، صرف ستين درهما بدينار ، على أن يحميه ، وذلك في جمادى الأولى ، فاتفق مرض الذَّزْبَرى بدمشق ، وأرجف به ، ثم عوفي^(٢) .

[١٨٢] سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة^(٣)

فيها أمر الظاهر بقتل دُعَاتِهِ ، فاضطربت الرعية وكثير من الجند لذلك ، وأخذ الدَّعَاة في إفساد أمره والتحدُّث بخلعه ، فأنفق أموالا جمَّة حتى استقرَّ أمره^(٤) .

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٣٠ .

(٢) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض سطر .

(٣) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٠٣١ .

(٤) بهامش الأصل عبارة تقول : بياض سطرين .

سنة أربع وعشرين وأربعمائة^(١) :

ركب ولي العهد ، ابن الظاهر ، من القاهرة إلى مصر وقد زُيّنت ، فكان إذا أقبل على الناس قبلوا له الأرض . ونُثر يومئذ على العامة خمسة آلاف دينار ، ونُثر على الخاصة عشرون ألف دينار ؛ فكان يوماً عظيماً .

وفي يوم الأحد ثامن عشر ذى القعدة قدمت هدية المعز بن باديس ، وهي جليلة القدر^(٢) .

سنة خمس وعشرين وأربعمائة^(٣) :

فيها قدم الخبر باستيلاء الأتراك على الأثر ببغداد ، وقلّت بها الأموال والرجال ، فبث الظاهر دُعائه فنشروا دعوته ببغداد في الناس .

وفيها ظهرت الطائفة الدرزية بجبل السَّمّاق^(٤) من الشام يدعون إلى الحاكم بأمر الله . فيها ظهرت الزلازل ببلاد الشام ، فخربت ربحا^(٥) ، ونصف الرملة وأكثر هكّا في قرى كثيرة ، وبُعد الماء من سواحل البحر المالح ساعتين ، ثم عاد كما كان^(٦) .

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع من ديسمبر سنة ١٠٣٢ .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطر .

(٣) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٣٣ .

(٤) وزعيم هذه الطائفة حمزة بن علي الدرزي ، الفارسي ، الملقب ولي الزمان وقائم الزمان . ودعا حمزة هذا إلى إلهية الحاكم بأمر الله ، وقد وضع تقويمًا خاصًا السنة الأولى منه توافق سنة ٤٠٨ هـ . وقد سبقت الإشارة إلى شيء من أمر هذه الطائفة في موقعه . انظر فصلاً خاصاً بهذه الطائفة في : الحاكم بأمر الله لمحمد عبد الله عنان . ٢٠٠ - ٢٠٨ . وجبل السَّمّاق من أعمال حلب القريبة يشتمل على مدن وقلاع كثيرة للإسماعيلية ، وليه يساتين ومزارع كثيرة ، والمياه الجارية به قليلة إلا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواطن مخصوصة ، وبه انتهت جميع أشجار الفواكه وبمض للقطن والسمسم ، وقيل سمى باسم السَّمّاق لأنه يلبث فيه بكثرة . معجم البلدان : ٣ : ٤٩ .

(٥) ربحا وأربحا مدينة قرب بيت المقدس في غور الأردن ، بينها وبين القدس خمسة فراسخ ، اشتهرت بإنتاجها العظيم من الفواكه والمراجل . معجم البلدان : ٤ : ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٦) بهامش الأصل : بياض سطر .

سنة ست وعشرين وأربعمائة^(١) :

فيها كثر الفأر بأراضي مصر وأكل زُرُوعاً كثيرة . وفيها كثر الوباء بمصر .
وفيها قَتَلَ الدَّزِيرِي شَبْلَ الدولة ثمال بن صالح بن مرْدَّاس ، في شعبان ، وملك
حلب ، وبعث إلى الظاهر بهدايا جليلة^(٢) .

سنة سبع وعشرين وأربعمائة^(٣) :

فيها انْعَقَدَت الهدنة بين الظاهر وبين ميخائيل^(٤) ملك الروم عشر سنين متوالية .
وفيها توفي الظاهر عن استسقاء طال به من نيِّف وعشرين سنة ، في يوم الأحد النُّصَف
من شعبان ؛ فكانت مدَّتُهُ خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما . وكانت
أيامه كلها سكونا ولينا^(٥) ، وهو مشغول بملاذَّه ونزَّهه وسماع المغنى ، وأمور الدولة بيد عمته
السيدة العزيز ست الملك ، وهى التى عَدَلَتْ بالخلافة إليه عن ولَّى العهد أبى هاشم العبَّاس بن دواد
ابن عُبيد الله المهدي ، وجىء بآبى هاشم فبايع والسَّيفُ على [رأسه] ، ثم جلس فكان آخر

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من نوفمبر سنة ١٠٣٤ .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطرين .

(٣) ويوافق أول المحرم منها الخامس من نوفمبر سنة ١٠٣٥ .

(٤) ميخائيل الرابع .

(٥) في هذا شيء من المبالغة فقد كَثُرَت القلاقل في عهده ، ولم تستقر شئون الشام دون فتن وحروب محالية ، وارتفعت
الأمصار في أكثر من مناسبة . والصحيح هو بإذكاره المؤلف بعد هذا مباشرة أن الظاهر أنصرف عن شئون الدولة إلى زُهِه
وملاذَّه وإلى سماع المغنى ؛ ولإلصاق لا بد أن نذكر أنه كان يحتل الصحة خيمته البنية وهذا كان عقبة في سبيل رعاية الدولة
إلى جانب تكاسله وانصرافه إلى ملاذَّه . ويقول مابن تبرى بزدي : " وكان الظاهر جنوداً يمدحاً ممحاً حلياً يحيا للزَّعة ،
ولابأس به بالنسبة لأبائه وأجداده " . النجوم الراهرة : ٤ : ٢٥٤ . وقال النويري : " وكان كرتما مشتغلا بملذاته ممولاً
على وزيره " . " وتولى ببستان الدكة بالمقس فركب الوزير الجرجرائى إلى البستان وخله إلى القصر " . " وكانت مدة عمره
إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام " . نهاية الأرب .

المهد به . وكان يشارُ بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي ، فأدخل عليه الشهود وهو يتشحط^(١) في دمه ، فأشهد أنه فعل ذلك بنفسه ، ثم قضى- نحبه . وأقامت سيِّدةُ الملك سيف الدين الحسين بن دؤاس والوزير عمار بن محمد في تدبير الدولة عن رأيها ، حتى قتلت ابن دؤاس ، فانفرد عمار بالأُمور إلى أن رتبت له في دهليز القصر مَنْ قتله . فتحدث حسن بن موسى الكاتب ، والأمر ليسَ الملك ، ولسانها ويدها أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائي . فلما ماتت السيدة ست الملك استقل الجرجرائي بالتدبير^(٢) .

(١) شحطه تشحيطا : صرجه بالدم فتشحط تضرج واضطرب فيه . القاموس المحيط .

(٢) بياض نحر ثلثي صفحة .

المُسْتَنْصِرُ بِاللَّهِ أَبُو تَمِيمٍ مَعَدَّ بْنُ الظَّاهِرِ لِاعْتِزَالِ دِينِ اللَّهِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبِي عَلِيٍّ مَنِصُّورٍ

أمه السيدة رصد . وُلِدَ يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الأولى سنة عشرين وأربعمائة
بالقاهرة ؛ والطلع عند ولادته من برج السرطان ثمانِ دَرَجٍ ؛ والشمس فيه على خمس عشرة
درجة ، والمشتري فيه على ستِّ درج ، وعطارد فيه على اثنتي عشرة درجة ؛ والقمر في الدلو
على ثلاث عشرة درجة ؛ وزُحَل في برج الثور على تسعٍ وعشرين درجة ؛ والمريخ فيه أيضا
على إحدى عشرة درجة ؛ والزهرة في برج الجوزاء على ثلاث عشرة درجة ؛ والجوزهر ؟
في برج السنبلة على خمس وعشرين درجة . وبويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان
سنة سبع وعشرين وأربعمائة^(١) ؛ والطلع عند ولادته من برج السنبلة إحدى وعشرون
درجة ، وزُحَل في برج السنبلة على اثنتين وعشرين درجة ؛ والمشتري في برج الدلو
على ثمانِ درج ، والمريخ فيه أيضا على اثنتي عشرة درجة ؛ والشمس في برج الجوزاء
على ثمانٍ وعشرين درجة ؛ [٨٢ ب] والزهرة في برج السرطان على ثلاث درج ، وعطارد
في برج الجوزاء على ست عشرة درجة ؛ والقمر في برج الجدى على ثمانِ عشرة درجة
والجوزهر في برج الثور على إحدى وعشرين درجة . وأقام في الخلافة ستين سنة وأربعة
أشهر وثلاثة أيام .

وقام بأمره الوزير أبو القاسم الجرجرائي ؛ وأخذ له البيعة على الناس ؛ وأُطلق للجند

(١) ويقول النويري : بويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان .

أرزاقهم وشيئا آخر على سبيل الصلة ؛ وسكنت الأمور واستقامت الأحوال ؛ وكتب له المستنصر سجلاً بإقراره على الوزارة .

وفيها سُير من القاهرة مبلغُ أَلَى دينار على يد بدويٍّ لعمارة قنطرة الجاروفة التي منها شَرِب الكوفة ، وقد خربت وفَسَدَت الجهاتُ التي تحتها بفسادها . وكانت تلك الجهات جاريةً في إقطاع العُربان بالعراق ، فأريد بذلك استمالةُ مَنْ هناك إلى الطاعة ؛ فقام بنو خفاجة مع البدوي في الإنفاق على عمارة القنطرة . فبلغ ذلك الخليفةَ القادر بالله أبا العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر ، فلم يجد مალًا يبعثه عوضاً من المال المذكور ، ولم يمكنه الردُّ ، فدعته الضرورة إلى التَّغاضي . فشرع البدوي في العمل ، ثم مُنع بعد ماتمَّ منه جانب كبير (١) .

(١) بهامش الأصل : يباشر ثلاثة أسطر .

سنة ثمان وعشرين وأربعمائة^(١) :

فيها فسّد ما بين نصر بن صالح بن مرّدّاس وبين المستنصر ، فكاتب ملك الروم^(٢) ، وبعث إليه بما عليه من القطيعة مع هديّة^(٣) ؛ فأشار عليه بالدخول في طاعة المستنصر^(٤) ، فقبل منه . وبعث بهديّة جليّة إلى القاهرة مع وفد كبير ؛ فحصل الرّضا عنه ، وأضيف إليه أعمال حمص ، ولُقّب بمختصّ الأمراء خاصّة الإمام ، شمس الدّولة ومجدها ، ذى العزمين . فشقّ ذلك على الدّزبري متولى دمشق ، وأخذ في مُناكدة أصحاب نصر بن صالح^(٥) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٣٦ .

(٢) وهو الإمبراطور ميخائيل الرابع .

(٣) سبق في أحداث سنة ٤٢٢ أن القطيعة التي قررها نصر بن صالح على نفسه عندئذ كانت خمسمائة ألف درهم بصرف ستين درهما للديار الواحد .

(٤) وذلك لأن الروم كانوا قد عقدوا هدنة في سنة ٤١٨ مع الظاهر ، تشمل مصر والشام . فعادت العلاقات بين الفاطميين والروم إلى المسالمة .

(٥) بهامش الأصل : بياض أربعة أسطر .

سنة تسع وعشرين (وأربعمائة)^(١) :

فيها بعث الذَّزْبَرى عساكره إلى حماة ، فأخذها . وخرج شبلُ الدولة نصر بن صالح لدفعه ، فالتقيا بِلَطْمِين^(٢) من عمل كَفَرطَاب^(٣) ، فانكسر وقُتل في يوم الاثنين نصف شعبان ، وحُمِل رأسه إلى دمشق . فبادر أخوه معزُ الدولة ثمال بن صالح إلى حلب وملكها من الغد ، وأخذ قلعتها ، واستخلف فيها ابن عمه مُقَلَّد بن كامل بن مُرداس ، وفي المدينة خليفة بن جابر الكعبي . وشرَّق بأهله ليستنجد بأخواله بني خفاجة ، فنزلت عساكر الذَّزْبَرى على حلب وأخذت المدينة ؛ ثم قدم إليها الذَّزْبَرى وتسلم القلعة في يوم الثلاثاء ثامن رمضان ، وأخرج منها إلى دِرْبَاس ، واستولى على بَالِس ومَنْبِج ؛ وولى قلعة لغلاميه فاتك وسُبُكْتِكِين . وعاد إلى دمشق يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة . وعمل في طريقه على أخذ جَبَلَة^(٤) فلم يُطق .

وفيهما ثار عليّ بن محمد بن علي الصُّلَيْحى في اليمن في ستين^(٥) رجلا على رأس جبل ، وأقام دعوة المستنصر ؛ وما زال أمره يزيد حتى استولى على ممالك اليمن .

وفيهما هادن المستنصرُ ملكَ الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير لِيُعَكَّن من عمارة قُمامة التي فرَّ بها الحاكم ، فأطلق الأسرى ، وعمر قُمامة ، وأطلق عليها مالا جَلَّ وصفه^(٦)

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٣٧ .

(٢) لطمين ، بفتح اللام وسكون الطاء وكسر الميم ، كورة من أعمال حصص ، وبها حصن ، معجم البلدان : ٧ : ٣٣٠ .

(٣) بلد بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لأهلها . ورد ماء إلا ما يجمعونه من الأمطار في الصحاريج . نفس

المصدر : ٧ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) (٤) من قلاع الساحل الشامى ، من أعمال حلب ، قرب اللاذقية . معجم البلدان : ٣ : ٥١ - ٥٤ (جبلية بثلاث فتحات متواليات) .

(٥) علي بن محمد بن علي ، أبو كامل ؛ كان يحج بالناس من اليمن على طريق السراة والطائف ، ثم تغلب على اليمن واتخذها إمارة له وجعل صنعاء حاضرتها ، وخطب على منابر اليمن لزوجته التي كانت تعرف بالملكة الحرة . الكامل :

٩ : ٢١٣ - ٢١٤ ؛ النجوم الراهرة : ٥ : ١١٢ ؛ تاريخ اليمن لعمارة اليمنى .

(٦) بهامش الأصل : بياض ستة أسطر .

سنة ثلاثين وأربعمائة^(١) :

سنة احدى وثلاثين وأربعمائة^(٢)

فيها اقيمت دعوة المستنصر بجران^(٣) :

سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة^(٤) :

فيها نقض ملك الروم الهدنة وأغار على بلاد حلب وعلى بلاد أفامية ، وكسر عسكر الدَّزْبَرى المقيم هناك ، فخرج إليه عسكر حلب فكسروهم على أَرْمَاز^(٥) . وكان ثمال بن صالح وعمّه المقلَّد بالرقَّة مالِكَيْن لها ، فبعثا إلى متملك الروم بمالٍ وثياب ، فطلب منهما ابتياع الرقة كما ابْتِيعَت الرَّهّا ، فضاق الدَّزْبَرى ذرعاً بذلك وكتب إليهما يرغبهما ويرغبهما ، فأجاباه بالاعتذار .

وكان قد مضى قوم من بنى جعفر بن كلاب إلى مضيق أفامية وعاثوا في أعمال الروم ، فمكَّن لهم الروم ثم أوقعوا بهم . فبعث الدَّزْبَرى عسكرا ، فلقِيَ الرُّوم فيها بين حماة وأفامية ، فظهر المسلمون عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة ، فأجمع الدَّزْبَرى على التَّهْوِض إليهم ، فهادَتْهُوَ ومازالوا به حتى سكنت الحرب بينهم وبينه . ثم إن الجند طمعوا في الدَّزْبَرى وهموا به فساروا له إلى حَمَاة ، ففضى عليه أهلها ، فكاتب مقلَّد بن منقذ ، فحضر إليه من كَفَرَطَاب في [١٨٣] ألقي راجل واجتمع به ، ومضى إلى حلب فأقام بها مريضا إلى أن مات يوم الأحد نصف جمادى الآخرة .

(١) يماش الأصل : " وكذلك " ، يعنى : " يياض سنة أسطر " . ويوافق أول المحرم منها الثالث من أكتوبر سنة ١٠٣٨ .

(٢) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٣٩ .

(٣) حاضرة ديار مصر ، بينها وبين الرها يوم ، ومنها إلى الرقة يومان ، وهى على طريق الموصل والشام وبلاد الروم . معجم البلدان : ٣ : ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٠٤٠ .

(٥) من نواحي حلب وبينهما خمسة فراسخ . معجم البلدان : ١ : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة^(١) :

وبعد ما أقام بحلب اثنين وأربعين يوما قدم إليها ثَمَال بن صالح وعمّه المقلد ، وحصروا القلعة سبعة أشهر ، وتسَلَّمَاها في صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وقتلَا مَنْ بها . فلما بلغ ذلك المستنصر بعث إلى ثَمَال الخَلْع والتحف وسجلاً بتوليته ؛ وكان بقلعة حلب مائتا ألف دينار فأخذها ثمال .

وفيها توفي شهم الدولة ميمون ، صاحب السَّيَّارة في أسفل الأرض ، في شهر ربيع الآخر ، وحُمِلَ إلى مصر ، فوصلُوا به يوم الثلاثاء تاسعه ، ودفن بتربيته بالقرافة . وكان من أهل الخير ؛ وحج بالناس من مصر في سنة ست وعشرين وأربعمائة^(٢) .

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة^(٣) :

ففيها خرج بالقاهرة في شهر رجب شخصٌ اسمه سليمان كان يشبه الحاكم بأمر الله ، وأدعى أنه الحاكم ، وبَثَّ دعايته سرّاً في البلاد ، وقصد القصر وقت خلوه من العساكر ، وقال للخُذَّام : قولوا لهذا الحاكم . فارتاع مَنْ كان في باب القصر وثارَت ضجّة ؛ فقُبِض عليه ، وصُلِبَ ، وأخذت أصحابُه فقتلوا ، ومن جملتهم محمد بن عاني الكتامي أحد دعايته^(٤) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من أغسطس سنة ١٠٤١ .

(٢) بهامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة .

(٣) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من أغسطس سنة ١٠٤٢ .

(٤) بهامش الأصل في هذا الموضع : ” بياض نحو ثلث صفحة “ . ويذكر النويرى أن اسم هذا المدعى سكين ، وأنه كان بمصر أقوام يعتقدون أن الحاكم حى وأنه غاب لرأى رآه . وكانوا يحلفون ويقولون « بحق غيبة الحاكم » . وأن أصحاب هذا المدعى صلبوا أحياء ثم رشقوا بالسهم حتى هلكوا . نهاية الأرب . واسمه في الكامل أيضا سكين : الكامل : ٩ : ١٧٧ .

سنة خمس وثلاثين وأربعمائة (١) :

فيها قطع المعزّ بن باديس الخطبة للمستنصر ، ودعا ببلاد إفريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، فبعث إليه الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية^(٢) .

سنة ست وثلاثين وأربعمائة (٢) :

فيها تُوفّي الوزير الأجل أبو القاسم عليّ بن أحمد الجرجرائي ، يوم الأربعاء سادس شهر رمضان . والحاصل يومئذ في بيت المال البرائي ، تحت يد أمين الدولة مسرة الرومي ، برسم النفقات ، ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وستائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف وثمان دينار . ووُجد له سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ومائة ألف مثقال من العنبر ، وغير ذلك . وكان عالماً فطناً نحرياً ؛ وقّع مرة بين يدي الظاهر لإعزاز دين الله على مائة كتاب ، فلم تتشابه فيها لفظةٌ بلفظة . وكانت مدّة ولايته للظاهر والمستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً^(٣) .

ووزر بعده أبو علي الحسن بن علي الأنباري ، فانفسد أمره بسبب أبي سعيد سهل بن

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من أغسطس سنة ١٠٤٣ .

(٢) بهامش الأصل : بياض نحو ثلثي صفحة .

(٣) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٠٤٤ .

(٤) وكانت مكانته عظيمة عند الظاهر لإعزاز دين الله بعد وفاة ست الملك أخت الحاكم . ويروي التويري أنه كان بين الجرجرائي و خليل الدولة ابن العداس جفاء ، فحدث أن دعا ابن العداس الظاهر لزيارته ببركة الحبش ، واغتم فرصة هذه الزيارة وأراد أن يحرك الظاهر ضد الوزير ، فسد الظاهر مسامحه وقال لابن العداس : إني وإن رعيت حق تشريفي إياك بزيارتي فإترك حق من أرتضيه لوزارتي ، ولا بد أن أذكر له طرفاً من ذلك ، فاذكر خيراً لأحكيه له . فكان ذلك سبب الصلح بينهما . وكانت مدة وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً . ومن حسن تصرفه أنه بعد أن قطع الحاكم يديه مضى الوزير إلى ديوانه وجلس فيه ؛ فقليل له في ذلك ، فقال . إن أمير المؤمنين أدبني وما صرفني . نهاية الأرب .

هرون التُّستَرى^(١) وأخيه أبي ثمر إبراهيم ، اليهوديين . وكان من أمرهما أنَّ أبا سعيد هذا كان قد استخدمه الظَّاهر لُبِّيُوعه ، فباع عليه في جملة ما باع جارية سوداء تَحْظَّاهَا الظاهر ، فولَدَتْ له المستنصر ؛ فراعَتْ ذلك لأبي سعيد وقدمته عند ولدها المستنصر لَمَّا صارت الخلافة إليه ورتبته فيما يخصها ؛ فعَظُم شأنه إلى أن صار ناظرًا في جميع أمور الدولة . فلَمَّا وَزَرَ الأنبارى قصده أبو ثمر إبراهيم ، فحبَّبه غلامٌ له ، فأحفظه ، وأعلم أخاه أبا سعيد ؛ فثنَّى رأى المستنصر عن ابن الأنبارى لهذا السبب ، وأشار عليه أن يستوزر أبا نصر صدقة بن يُوُسُف الفلاحى^(٢) ، وكان يهوديًا قد أسلم ، فاستوزره بعد الجرجرائى في يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان ، ولتَّب بالوزير الأجلَّ ، تاج الرِّئاسة ، فخر المُلك ، مصطفى أمير المؤمنين . وكان يهوديًا موصوفًا بالبراعة في ضروب الكتابة . وَلِ أَوَّلًا نظر الشام ؛ ثم خاف أميرَ الجيوش أنوثتَكين الذَّزبرى ففرَّ منه ؛ وقد اجتهد في طلبه فلم يظفر به . وقدم إلى القاهرة ، فرعى له الجرجرائى حُرْمَةً انفصاله عن الذَّزبرى ، ورَقَّاه ، وأشار في مرضه بأنَّ يُستوزر من بعده . فلما تقررَّت له الوزارة أَملى سَجَلَّ تقليده ليلة اليوم الذى خُلِع عليه فيه . وتولى أبو سعيد التُّستَرى الإشراف عليه . وقُبِض على ابن الأنبارى ، وصُوِّدِر ، حتَّى هلك تحت العقوبة ، ودفن بخزانة البنود^(٣) وكان مسجوناً بها . وصار الفلاحى لا يعملُ إلا بما يحده له أبو سعيد ويمثله .

وكان المستنصر قد بثَّ دُعائِه سرًّا إلى الآفاق يدعون إليه ، ويستميلون من تَصِلُ القدرة إلى استمالته . فلَمَّا كان في هذه السنة دفع جماعةٌ منهم إلى ما وراء النَّهر ، ودَعَوْا هناك بعد أن

(١) يرد اسمه هنا بهذا الرسم : أبو سعيد ، ويرسم آخر : أبو سعد . وقد احتفظنا بالرسم الأول لوروده به في أكثر من مصدر .

(٢) وكان الجرجرائى أيضًا قد أوصى به وزكاه للوزارة قبيل وفاته . نهاية الأرب .

(٣) خزانة البنود . وتعرف أيضًا بدار البنود ، وكانت لحفظ الأعلام وكذلك لحفظ أنواع السلاح . معجم البلدان :

٤ : ٧ ؛ الخطط : ١ : ٤٢٣ - ٤٢٥ .

دَعَوْا بِخِرَاسَانَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ . وَحَصَلُوا عِنْدَ بَغْرَاخَانَ ، أَخَى [٨٣ ب] رَسَلَانَ خَانَ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ^(١) . فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ تَلَطَّفَ فِي الْكُشْفِ عَنْهُمْ بِأَنْ اسْتَمَأْهُمْ وَقَرَّبَهُمْ ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الدَّخُولَ فِيهَا هُمْ فِيهِ ، فَأَنَسَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ ، فَخَدَعَهُمْ بِإِطْلَاقِ الْمَالِ ، وَاسْتَخْبَرَ بِهِ مَا عِنْدَهُمْ ، حَيْثُ إِنَّهُ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ فِي مَدَّةِ سَنَتَيْنِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، حَتَّى اطَّلَعَ عَلَى عَدَدِهِمْ ، وَعَرَفَ مَوَاضِعَهُمْ ؛ وَهُمْ يَطَالِبُونَهُ بِالْبَيْعِ وَالْهَدْيِ إِلَى أَنْ أَجَابَهُمْ عَلَى شَرْطٍ أَنْ يَكْتُبُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَيُطْلِعُوهُ عَلَى بَاطِنِهِمْ . فَكُتِبُوا ذَلِكَ وَدَفَعُوهُ إِلَيْهِ لِيَتَفَكَّرَ بِهِ ، وَقَدْ كَتَبَ كِتَابًا عَلَى قَدْرِ كِتَابِهِمْ وَشَكْلِهِ ، يَقْسِمُ فِيهِ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ أَنَّهُ مَتَى انْكَشَفَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَدُلُّ عَلَى الْإِلْحَادِ وَالْخُرُوجِ عَنْ تَشْرِيعِ الْإِسْلَامِ ذَبَحَهُمْ بِيَدِهِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . ثُمَّ اسْتَدْعَاهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ اسْتِجَابَتَهُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَرَدَّ إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ حَتَّى شَاهَدُوهُ وَعَرَفُوهُ ، وَاسْتَعَادَهُ لِيَحْلِفَ بِهِ . فَلَمَّا حَصَلَ فِي يَدِهِ أَخْرَجَ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ وَحَلَفَ أَنَّهُ يَفِي بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ وَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ ؛ فَوَثَقُوا بِذَلِكَ ، وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ فَرْقُ مَا بَيْنَ الْكِتَابَيْنِ .

ثُمَّ جَمَعَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ مَا أَتَمَكَّنَ مِنْ إِظْهَارِ نَفْسِي وَالْمِبَادَرَةِ بِنُصْرَتِكُمْ إِلَّا فِي عَدَدٍ قَوِيٍّ ، فَإِنَّ بِلَادَ التُّرْكَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَلْفِ سَيْفٍ مَشْهُورٍ تَخَالِفُ هَذَا الْمَذْهَبَ ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ فِي عَدَدٍ قَوِيٍّ بِهِ . فَذَكَرُوا لَهُ دَعَاتِهِمْ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَسَمُّوهُمْ لَهُ ، وَأَفْضَلُوا إِلَيْهِ بِجَمِيعِ سَرِّهِمْ ، وَدَفَعُوا إِلَيْهِ كُتُبَهُمْ إِلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِمْ بِمَا اسْتَقَرَّ الْعَزْمُ عَلَيْهِ . ثُمَّ جَمَعَهُمْ وَأَحْضَرَ فُقَهَاءَ بِلَدِهِ لِمُنَازَرَتِهِمْ ، وَفِيهِمْ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبُلْخِيُّ الْفَقِيهَ بْنَ مُحَمَّدٍ شَيْخَ الْبَلَدِ ، وَنَصْرُ بْنُ عَطَاءٍ ، وَجَعَلَهُمَا

(١) بَغْرَاخَانُ الثَّالِثُ ، عَمُودُ (أَوْ مُحَمَّدُ) بْنُ يُوسُفَ قَدَرْخَانَ حَكَمَ فِي مَاوَرَاءِ النَّهْرِ بَيْنَ سَنَتَيْ ٤٢٥ - ٤٤٩ (١٠٣٣ - ١٠٥٧) ، وَهُوَ أَخُو شَرْفِ الدَّوْلَةِ أَبِي شَجَاعٍ أَرْسَلَنَ خَانَ الثَّانِيَّ بْنَ يُوسُفَ قَدَرْخَانَ ، مِنْ أَسْرَةِ إِيْلِكْ خَانَاتِ فَارَسَ الَّتِي حَكَمَتْ مَاوَرَاءِ النَّهْرِ بَيْنَ سَنَتَيْ ٣١٥ - ٤٤٩ (٩٢٧ - ١٠٥٧) ، وَتَفَرَّغَتْ عَنْهَا الْجُمَاعَةُ الَّتِي حَكَمَتْ بِخَارِزْمٍ ، فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ أَيْضًا ، وَتِلْكَ الَّتِي كَانَتْ فِي كَاشْغَرٍ وَخَوْتَانَ وَبِلَاسَانُونَ . مَعْجَمُ الْأَنْسَابِ . انْظُرْ أَيْضًا :

من وراء ستر ، فذكر الدعاة أسرار مذهبيهم على غيرة منهم وغفلة بما دُبّر عليهم ، وبخراخان يستخبرهم حتى صرّحوا بعمقائدهم . فأخرج حينئذ عبد الملك ونصرأ ، وقبض على الدعاة وقيدهم ، وناذى فى الناس ليجمعوا ، وقد نصب جذعا ، وصلب عليه الدعاة واحدا بعد واحد ، ورماهم بالنشاب ، فقتل منهم ستة عشر رجلا ، وذبح منهم واحدا بين يديه ، ذبحه بعض عبيده فأعتقه ، وتصدق بمائة ألف درهم . وتتبع كل من فى أعماله من الدعاة ، فقبض على مائة وثلاثة وثلاثين رجلا ، وأوثقهم بالحديد ، وألقاهم فى جب مظلم ، وكتب إلى جميع بلاد ما وراء النهر بقتل من عندهم من هذه الطائفة . وكتب إلى بغداد بما فعله ، فقدم رسوله فى هذه السنة ، فأجيب بالشكر والثناء .

وفىها سیر المستنصر إلى قرواش [بن المقلد^(١)] أخلاماً وخِلَعاً ، فلبسها ، فأنفذ إليه الخليفة القائم من بغداد يعاتبه على ذلك ، فاعتذر ، ولبس السّواد ، ورجع عن دعوة المستنصر^(٢) .

(١) بياض بالأصل والتكلمة استعانة بمصادر أخرى ، منها الكامل لابن الأثير والنجوم الزاهرة وذيل تاريخ دمشق - فى مواضع - وهو معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد العقيلي ، من العقيليين أصحاب الموصل . زامبور ؛
Mohammadan Dynasties.
(٢) بهامش الأصل : بياض ثلاثة أرباع صفحة .

سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (١) :

اشتهر انتقاض الهدنة التي قررها الظاهر لإعزاز دين الله بينه وبين مُتملك الروم ، وسعى الرُّسل في تقريرها بين المستنصر وبينه ؛ وكان انتقاضها على الحقيقة من مدة أربع سنين مضين . فلما كان في ثامن ذى الحجة وردت هدية متملك الروم من القسطنطينية إلى القاهرة ، وقيمتها ثلاثون قنطارا من الذهب ، والقنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومائتا دينار . وكان من جملتها بغلٌ وحصان من أحسن الدواب وأعلاها قيمة ، كلٌ منهما عليه ثوبٌ ديباج روميّ منقوش ثقيل ؛ وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ؛ وفيها من الديباج والسندس والإبريسم والعائم المعلمة مالا يُقدر على مثله . فعوض عن هديته بمثلها من حق مصر ومن الجواهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعته^(٢) .

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (٣) :

في سادس عشر المحرم قتل أبو علي الحسن بن علي الأنباري في خزانة البنود بالقاهرة^(٤) .

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من يوليو سنة ١٠٤٥ .

(٢) بهامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة .

(٣) ويوافق أول المحرم منها الثامن من يوليو سنة ١٠٤٦ .

(٤) بهامش الأصل : بياض نحو ورقة .

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١) :

فيها عمِل الوزير أبو منصور الفلاحى على أبي سعيد سهّل بن هرون التستري اليهودى وقتله عند خان العبيد . وذلك أن أمّ المستنصر كانت جارية أبي سعيد هذا ، فأخذها منه الظاهر وتسرّاها ، [١٨٤] فولدت له ابنه المستنصر ، فرقت أبا سعيد درجةً عليه بعد وفاة الظاهر^(٢) . وكان يخاف الوزير الجرجرائى ، فلم يُظهرهما فى نفسه . فلما مات الجرجرائى وتولّى الفلاحى انبسطت كلمةُ أبي سعيد فى الدولة ، بحيث لم يبق للفلاحى معه فى الوزارة أمرٌ ولا نهى ، سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ لا غير ، وأبو سعيد يتولّى ديوان أمّ الخليفة المستنصر . فغضّ الفلاحى بابي سعيد وشغّب عليه الجند حتى قتلوه . وذلك أن بنى قرّة ، عرب البحيرة ، أفسدوا فى الأعمال ، فخرج إليهم الخادم عزب الدولة ربحان ، وأوقع بهم وقتل منهم ، وعاد وقد عظم فى نفسه لمعالجة النصر على بنى قرّة والظفر بهم . فنقل على أبي سعيد أمره واستمال المغاربة وزاد فى واجباتهم ، ونقص من أرزاق الأتراك ومن ينضاف إليهم ، فجرى بين الطائفتين حرب بباب زويلة . واتفق مرض ربحان وموته ، فأتهم أبو سعيد أنه سمّه ؛ وتجمّع الطوائف المنحرفة عنه على قتله . فركب من داره على العادة يريد القصر ، فى يوم الأحد لثلاث خدّون من جمادى الأولى ، فى مركب عظيم ، فلما قرب من القصر اعترضه ثلاثة من الأتراك وضربوه حتى مات . فأمر المستنصر بإحضار مَنْ قتلته ، فاجتمع الطوائف وقالوا نحن قتلناه . فلم يجد المستنصر بُدّاً من الإغضاء . وقطّع الأتراك أبا سعيد قطعاً ، وتناولت الأيدي أعضائه فتمزّقت ؛ واشترى أهلها ما قدرُوا على تحصيله من جثّته بمال . وجمع الأتراك ما قدرُوا عليه من أعضائه ورمّته ، وحرّقوا ذلك بالنار ، وألقوا عليه من الشراب

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٠٤٧ .

(٢) وتول ديوانها الخاص . وزاد ضرره واشتدّ أذاه للسلمين حتى كانوا يحلفون : وحقّ النعمة على بنى اسرائيل .

نهاية الأرب . وسيرد فى المن بعد قليل ما يفيد أن أبا سعيد هو الذى كان يحلف بهذه العبارة .

ما صار به تلاً مرتفعاً . وضمَّ أهله ما وصل إليهم منه في تابوت وأسدلوا عليه ستراً ، وتركوه في بيت مؤزَّر بالستور وأوقدوا الشموع ، وأقاموا عزاءه . فتعلقت من بعض الشموع شرارة في الستور التي هناك ومضت فيها ، فاجترق التابوت بما فيه .

وكان مقدار ما حصل في بيت المال البراني على يدَي أبي نصر صدقة الوزير وأبي سعيد إبراهيم التستري من يوم مات الوزير علي بن أحمد الجرجاني وإلى أن قُتل أبو سعيد سبعمائة ألف دينار . والذي مات عنه الجرجاني ، وهو حاصل بيت المال المذكور برسم النفقات ، ألف وسبعمائة ألف وستائة وواحد وعشرون ديناراً ونصف ونصف ثمن دينار . فصار حاصل بيت المال يرسم النفقات إلى أن قتل أبو سعيد ألقى ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وستائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف ونصف ثمن دينار .

وردَّ المستنصر لأبي نصر ، أخى أبي سعيد ، خزانة الخاص ، ولولئى أبي سعيد النظر في بعض الدواوين . وحقدت أم المستنصر على الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحى بسبب قتل أبي سعيد ، وما زالت به حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته بخزانة البُنود . وقيل كان صرقه في سادس المحرم سنة أربعين .

واتفق أنه لما قبض عليه وسجن بخزانة البُنود وأمر بقتله بها ، حُفرت له حُفيرة ليوارى فيها ، فظهر للفعلة عند الحفر رأس ، فلما رُفِع سُيِّل عنه الفلاحى ، فقال هذا رأس ابن الأنبارى ، وأنا قتلتُه ودُفن في هذا الموضع ، وأنشد :

رُبَّ لحدٍ قد صارَ لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
وكان أبوه أحد الكتاب البلغاء ، وتولى ديوان دمشق (١) .

(١) وهو أبو الفضل يوسف بن عل ، وقد هجاه الواساني بقصيدة أولها :

يا أهل جيرون ، هل بسامركم إذا استقلت كواكب الحمل

والواساني هذا هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد . انظر البيضة للثعالبي حيث تجد هذه القصيدة في نحو

١٤٠ بيتاً

ومن أحسن ما قيل في أبي سعيد ، وقد سُرِّه أذاه للمسلمين أنه كان يحلف : « وحقَّ
النعمة على بنى إسرائيل » ، قول الرضى فيه :

يَهُودُ هَذَا الزَّمَانُ قَدْ بَلَّغُوا غَايَةَ آمَالِهِمْ ، وَقَدْ مَلَكَوْا
الْعِزَّ فِيهِمْ وَالْمَالُ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشَارُ وَالْمَلِكُ
يَا أَهْلَ مِصْرَ إِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ تَهَوَّدُوا قَدْ تَهَوَّدَ الْفَلَكَ

وفيهما استقر في الوزارة بعد الفلاحى أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن
أحمد الجرجرائى ، ابن أخى الوزير صفى الدين ، ولُقِّبَ بالوزير الأجلَّ الكامل الأوحد ، علم
الكفاة ، سيد الوزراء ، ظهير الأئمة ، عماد الرؤساء ، [٨٤ ب] فخر الأمة ، ذى الرئاسة ،
صفى أمير المؤمنين .

وفيهما ابتداءً أمر أبي محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى . وكان من خبره أن
أباه على بن عبد الرحمن كانت له حال واسعة ببلد يعرف بيازور^(١) ، من ضياع فلسطين ،
وكان مقدماً فيها ، فلما كبرت حاله انتقل إلى الرملة واستوطنها ، وصارت له وكلاء
في الضياع . فاشتهر هناك وعرف بالعِفَّة والصَّدق وسماح النفس ، فرُدَّ إليه قضاء بعض
أعمال الرملة . ونشأ له ابنان نجيبان ، ولِ أَحَدُهُمَا الْحُكْمَ بعد أبيه إلى أن توفى ، ثم
خلفه أخوه عبد الرحمن هذا من بعده ، فعُرف بسعة النفس وسعة الأخلاق ، فالتصل بخدمة
الوزير الجرجرائى ، فصار بذلك ممنوعاً ممن يريدُه بسوء .

واتفق أنه حجَّ قبل قدومه إلى مصر ، فلما زار قبر رسول الله نام في الحجرة الشريفة ،
فَسَقَطَ عَلَيْهِ خَلْقٌ مِنَ الزَّبَعَرَانِ الْمَلَطُخِ فِي حَوَائِطِ الْحِجْرَةِ ، فَجَاءَ بَعْضُ الْخُدَّامِ وَأَيَقَظُهُ
مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّكَ تَلِي وَلَايَةً عَظِيمَةً وَقَدْ بَشَّرْتُكَ ، فَلَئِنْ مَنَّاكَ الْحَيَاءُ وَالْكَرَامَةُ :

(١) يازور قرية من قرى الرملة بفلسطين

ثم انتقل بتلطفه وكثرة مُدَاخَلته إلى خدمة السيدة أم المستنصر ، فتتربَّ بخدمتها ، ولازم بابها عندما صُرف عن الحكم بفلسطين يسأل عَوْدَه إلى وطنه وخدمته فيها ؛ وهو مع ذلك يُواصل الوزير الفلاحى ويؤانسهُ ، فيبدَأُه بما فى نفسه من أبى سعيد التستري ، فيفاوضه فى التَّدبير على المذكور ، ويفتح له من العمل عليه ما يظهر له صوابه . فتَقَلُّ مكانهُ على أبى منذر لقربه من أمَّ المستنصر ولُمَّا لَأَنَّهُ الوزير الفلاحى ؛ وهمَّ به ، ثم تراخى عنه ، حتى كان من أمره ما كان ، وأمرُ اليَازُورى فى كل يوم يتزايد وحاله يقوى . إلا أن قاضى القضاة وداعى الدعاة قاسم بن تاوَيْلا كان يمتنع من ردِّ الحكم إليه ببلده ، لِما يعلم من سُوءِ رأى أبى سعيد فيه ، وأنه يريدُ القبض عليه ؛ فكان ينحرف عنه ولا يلتفت إليه .

وانتفق أن حضر قاضى القضاة ذات يوم بباب البحر من القصر ، على عادته فى كل يوم اثنين ، لتقبيل الأرض والسلام أو خروج السَّلام عليه ، ويجلس معه من الشهود مَنْ جرى رسمُهُ بذلك . فلَمَّا جلس بباب البحر وخليفته القضاعى وابن أبى زكري والشهود دخل أبو محمَّد اليَازُورى وجلس معهم ؛ فقال له قاضى القضاة : بِأَمْرِ مَنْ جلست ههنا ؟ أنظن أن المجالس كُلَّها مبدولة لكلِّ أحدٍ أن يجلس فيها ؟ هذا مجلس لا يجلس فيه إلا من أذِنَتْ له حضرةُ الإمامة وشرفته به ؛ اخرج ، فوالله لا تَصْرُفْت على أياى أبدا . فخرج ورجلاه لا تكادان تحملازه ، فرقف بباب البحر إلى أن خرج قاضى القضاة ، فسار وخليفته والشهود معه ، فسار فى أعقابهم ، وسبقهم ووقف بباب دار القاضى ؛ فلما نزل صنع له استعطافا ، فلم يُعْرِذْ طرفه وانصرف . فلقيه القضاعى وقال : يا أبا محمد ، كان يجب ألا تُريه وجهك عتب ما جرى لك معه . وفارقه . فلقيه ابن أبى زكري وخاطبه بجناء . فردَّ إلى داره مغشواً ، فوجد ثلاثين حِمَلاً من تفاح قد وصلت إليه من ضياعه لتُباع بمصر ، فأغفل منها خمسة أحمال إلى الوزير ، ولقاضى القضاة خمسة أحمال ، وللقائد الأجلَّ عُدَّة الدولة رُفُق خمسة أحمال ، ولمعز الدولة مِئْضاد خمسة أحمال ، ولابن أبى زكريا ثلاثة أحمال ، وللقضاعى

خمسة أحمال ، وفرّق حِمْلَيْن على حَرَّاسِهِمْ . فلم يلتفت أحدٌ منهم إليه ، ولا عطف عليه ، ما خلا القائد الأجلّ عدة الدولة رفق فإنه شكره وأثنى عليه . وهو مع ذلك يقف بباب البحر ، فإذا أقبل عدة الدولة رفق يريد القصر تلقّاه وسلّم عليه ، فيكرّمه ويسأل عن حاله ، ثم يدخل إلى القصر ؛ فإذا خرج وجده واقفاً على حاله فيسلم عليه ويتبعه إلى داره ؛ فإذا دخل انصرف عنه . فأقام على ذلك أياماً ، فحُفّ على قلبه ورغب في اصطناعه ؛ فصار إذا وصل إلى داره أمره بالنزول معه ، فينزل ، ويتحدثان - وكان حلو الحديث - فيطيل عنده ، ثم ينصرف . فصار يشنّاقه إذا غاب ، ويمسكه إذا أراد الانصراف حتى تحضر المائدة .

وكانت أمّ المستنصر لما هلك أبو سعيد توقّفت أمور خدمتها ، فأحضرت [١٨٥] أخاه وأمرته بخدمتها ، فامتنع خوفاً من الوزير والأتراك ؛ واستمرت ثلاثة أشهر تسأله وهو يمتنع . فحضر أبو محمد البازورى يوماً ، فجلس عدة الدولة رفق ، وجرى بينهما امتناعٌ أبي نصر ، أخى أبي سعيد ، من خدمة أمّ المستنصر ، فقال له رفق : أرى أن تكتب رقعة تلتبسُ خدمتها وتعرض نفسك عليها . فقال أبو محمد : قد كنت أظن جميل رأيك في وإيثارك مصلحة حالي ، وأكذبني ظنّي . فقال : بماذا ؟ فقال : الهزء بي ، فإنني قد أجهّدت في العود إلى قرية كنت فيها فُبل على بها . فكيف أتعرض لهذا الأمر الكبير ومُناوأة الوزراء ؟ فقال له : أما ترضائي سفيراً لك في هذا الأمر ، وعلى استفراغ الوسع فيه ، لوجوب حقك عليّ ، فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض في ذلك فقد أدر كنا ما نؤثره ، وإن تكن الأخرى فقد أكثر من العطلة ماتحصّل . فأجاب إلى ذلك ، وكتب إلى السيدة رقعة يعرض نفسه وماله عليها ، ويخطب خدمتها ، ويبذل الاجتهاد فيها ؛ وأخذها منه رفق .

فلما كان من الغد ركب إلى القصر ، ودخل إلى السيدة وقد أحضر أبو نصر ، وعادته الخطاب في خدمتها وهو يمتنع ، حتى أضجرها ، فانتهاز عز الدولة رفق الفرصة بضجرها وقال : يامولاتنا ، قد طال غُلّق بابك ووقف خدمتك في امتناع الشيخ أبي نصر

مما نريده منه ؛ وههنا من أنت تعرفينه ، وهو رجل مسلم وقاضٍ ، وكبير المروءة ، وهو مستغنٍ بمالهٍ وأملاكه عن التعرُّض لما لك ، وهو ثقة ناهض كافٍ فقالت : من هو ؟ فقال القاضى أبو محمد البازورى ، وهذه رقعته . فأمرته بتسليمها إلى أبى نصر ، وقالت : ما تقول فيه ؟ فلم يصدق بذلك . فقال يا مولاتنا ، هو والله الثقة الأمين الناهض الذى يصلح لخدمتك ، وفيه لها جمال ، وما تظفرين بمثله . فوقع ذاك منها بالموافقة . فقال لرفق : قل له يجلس فى داره غداً حتى أنفذ إليه ؛ فدسَّ بذلك وخرج ، فإذا أبو محمد فى انتظاره على عادته ، فسار ، ولحق به أبو محمد ، فقال له : أقمح أم شعير ؟ فقال : بل بر يوسنى ، وقصَّ عليه الخبر . فلما كان الغدُ جاء الرسول مستدعياً له ، فركب إلى بابها ، فأحضرتة وأدخلته وراء المقطع وردَّت إليه أمر بابها والنظر فى ديوانها ، الذى هو باب الريح ، وجميع أحوالها ؛ ونزل . فبلغ ذلك الوزير ، فكبرُ عليه وأقلقه أن تمَّ على غير يده ، وأنه لا يُقبَل قوله عند السَّيدة لما فى نفسها منه لقتل أبى سعيد .

وأقبل الأمراء الأنراك إلى القاضى أبى محمد ، فهنتوه بما صار إليه ؛ فقام إليهم ونلقَّاهم ، وأعظم سعيهم إليه وشكرهم ، وقال : ما أنا إلاَّ خادِم ونائب لموالى الأمر ، أسأل فى تشرينى بما يُعزِّن لهم من خدمة لأنَّهض فيها . ثم لما قاموا نهض قائماً لوداعهم . وأخذ الوزير الفلاحى فى العمل عليه ، فلم يمض إلا أيام حتى قبض عليه وقتل .

سنة أربعين وأربعمائة (١) :

فيها سار ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان ، أمير دمشق ، وشجاع الدولة جعفر بن كليد ، والى حمص^(٢) ، بالعساكر وقبائل العربان إلى حلب لقتال أميرها ثمال بن صالح بن مرداس . وذلك أن ثمال بن صالح كان قد قرّر على نفسه في وزارة الفلاحى أن يحمل كل سنة عشرين ألفاً ، فأخّر الحمل سنتين ، وأخذ شجاع الدولة يُغري الوزير على ثمال ويسهّل أمر حلب . فخرج الأمر إلى ابن حمدان أن يسير هو ووالى حمص بجموع العرب ، فنزل بمن معه على حماة وفتحها ، وأخذ المعرة^(٣) ، وأقدم فنزل على حلب لخمسة بَقِينَ من ربيع الآخر . وحارب ابن مرداس حُرُوباً آلت إلى رحيل ابن حمدان بغير طائل ، في سادس عشر جمادى الأولى . ففي عَوْدِهِ أَصابه سيل هلك فيه أكثر ما معه من الخيل والرّجال والأمتعة ، وعاد إلى دمشق . فبعث ثمال إلى المستنصر يسأل عفوّه ، وكان المتوسّط بينهما أبو نصر إبراهيم ، أخو أبي سعيد [التُّسْتَرى] ، فأجيب إلى ذلك ، وانفصل رسوله من الحضرة . فورد الخبر بأن ثمال بعث والياً إلى معرة النعمان ، وأنه أساء التدبير ، فأنحرف عنه الناس ، وفر منهم إلى حلب ، وأن جعفرأ ، أمير حمص ، بادراً إلى المعرة ، فلقبه مُقَلَّد بن كامل بن مرداس وحاربه ، فقتل في الواقعة [٨٥ ب]

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من يونيو سنة ١٠٤٨ .

(٢) بهامش الأصل عبارة نصها : في الأصل المنقول عنه بخط مصنفه ورقة في هذا المحل يقول فيها : ” وملخص أسر حلب أن ثمال بن صالح بن مرداس آخر حل مقررّه على نفسه في كل عام ، فأنفذ المستنصر لقتاله متول دمشق ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان وشجاع الدولة جعفر بن كليد متول حمص ، فساروا بجميع عساكر الشام وفتحوا حماة والمعرة ونزلوا على حلب وقد استمدد الدولة ثمال وجمع خمسة آلاف من بني كلاب وكلب وغيرهم ، وخرج وقاتلهم ، فأنهزم أكثر أصحابه ، وثبت في طائفة بقية نهاره ، وعاد إلى المدينة . وخرج من الد وقاتل ، فصر الفريقان صيراً طويلاً وأبلاوا بلاد حسنا ، ثم انتقلوا في اليوم الثالث فثبت ثمال ثباتاً زائداً فرحل ابن حمدان “ .

(٣) معرة النعمان من أعمال حمص ، بين حماة وحلب ، تستقى من العيون ، وبها كثير من أشجار الزيتون . معجم

البلدان : ٨ : ٩٦ - ٩٧ .

لَيْسَتْ بِتَيْنٍ مِنْ شَعْبَانٍ ، وَحُمِلَتْ رَأْسُهُ وَشُهِرَتْ بِحَلَبٍ ، وَأُسِرَ كَثِيرٌ مِنْ عَسَاكِرِهِ ، فَبَعَثَ الْمُسْتَنْصِرُ إِلَى رَسُولٍ ثَمَالٍ وَرَدَّهُ ، وَأَفْهَمَهُ مَا وَرَدَ مِنَ الْمَكَاتِبَةِ .

وَوَجَدَ الْوَزِيرُ أَبُو الْبَرَكَاتِ السَّبِيلَ إِلَى الْإِغْرَاءِ بِأَبِي نَصْرٍ لِإِبْرَاهِيمَ ، فَمَا زَالَ يُبَلِّغُ الْمُسْتَنْصِرَ بِأَنَّهُ حَمَلَهُ الْحَقْدُ لِقَتْلِ أَخِيهِ عَلَى السَّعْيِ فِيمَا يَضُرُّ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ ثَمَالٍ وَالْحَضْرَةِ ، وَأَنَّ ابْنَ حَمْدَانَ أَسَاءَ التَّدْبِيرِ فِي رُجُوعِهِ عَنْ حَلَبٍ . فَقَبِضَ عَلَى أَبِي نَصْرٍ ، وَأَخَذَتْ عَامَّةُ أَمْوَالِهِ ، وَعَوَّقِبَ حَتَّى مَاتَ .

وَوَلَّى دِمَشْقَ بَهَاءَ الدَّوْلَةِ مَظْفَرَ الْخَادِمِ الصَّقَلْبِيِّ ، وَخَرَجَ إِلَيْهَا عَلَى جَرَائِدِ الْخَيْلِ^(١) ، فَدَخَلَهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ، وَقَبِضَ عَلَى نَاصِرِ الدَّوْلَةِ ابْنِ حَمْدَانَ وَحَمَلَهُ إِلَى صُورٍ ، وَنَقَلَهُ إِلَى الرَّمْلَةِ وَصُودِرَ ، وَأَقَامَ مَظْفَرَ الْخِدْمَةِ بِدِمَشْقٍ . وَقَبِضَ عَلَى رَاشِدِ بْنِ سَنَانِ بْنِ عَلِيَّانَ ، أَمِيرِ بَنِي كَلَابٍ ، وَاعْتَقَلَهُ بِصُورٍ .

وَخَرَجَ أَمِيرُ الْأَمْرَاءِ الْمَظْفَرُ ، فَخَرَّ الْمَلِكُ ، عُدَّةُ الدَّوْلَةِ وَعِمَادُهَا ، رَفَقَ الْخَادِمُ ، فِي ثَامَنِ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ بِتَجَمُّلٍ كَثِيرٍ وَأُبَّهَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ ، وَعُدَّةٍ وَافِرَةٍ ، وَآلَاتٍ طَبْلَةٍ ، وَعَسَاكِرُ تَبْلَغُ عِدَّتِهِمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَكَانَ الْمَنْفَقُ فِيهِ عَيْنًا مَعَ قِيَمَةِ الْغُرُوضِ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ . فَبَرَزَ ظَاهِرُ الْقَاهِرَةِ يَرِيدَ حَلَبٍ ، وَخَرَجَ الْمُسْتَنْصِرُ لِتَشْيِيعِهِ ، وَكَتَبَ لِجَمِيعِ أَمْرَاءِ الشَّامِ بِالْأَنْقِيَادِ لَهُ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ ، وَأَنَّ يَتَرَجَّلُوا لَهُ إِذَا لَقُّوهُ . وَسَارَ فَوَاقِيَ الرَّمْلَةِ وَقَدَ وَصَلَ رَسُولُ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُسْتَنْصِرِ وَبَيْنَ بَنِي مُرْدَّاسٍ ، فَفُشِلَ رَفَقُ وَانْخَرَقَتْ حُرْمَتُهُ ، وَجَرَتْ بِالرَّمْلَةِ وَبِدِمَشْقٍ أُمُورٌ آلَتْ إِلَى حَرْبٍ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ عِدَّةَ أَيَّامٍ ، فَبَاتَ يَوْمًا ظَاهِرَ دِمَشْقٍ .

(١) جمع جريدة ، وهى الفرقة من العسكر الفرسان لأرجالة بينهم ، والفرقة من الجند إذا خرجت مسرعة من غير أنقال مهمة تستدعى الإسراع فى الخروج . لأن العرب . انظر أيضا : Dozy; Supp. Dict. Ar.

وفيهما قُتل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى يوم الاثنين ، النصف من المحرم ، بخزانة البنود ودفن فيها . واتفق فى وفاته عجب ، وهو أنه لما ولى الوزارة سعى فى اعتقال أبى على الحسن بن على الأنبارى ، واعتقله بخزانة البنود ، ثم قتله ، فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، ودفنه بخزانة البنود . فلما قبض عليه بعد صرفه عن الوزارة سُجن فى المكان الذى كان فيه ابن الأنبارى من خزانة البنود ، وقتل فيها ، ودفن معه . وكان ابن الأنبارى من جماعة الوزير الجرجرائى ورفيقاً للفلاحى وصاحبه ، ولما ولى الوزارة تخوّف منه ، وما زال يعمل عليه حتى قتله ، كما تقدم .

وفيهما أقبلت حال أبى محمد اليازورى تزايد ، ومَنزلُة ترتفع ، وخلع عليه ثانيا ، وأمر ألا يقوم لأحد إذا دخل عليه ولو عظم قدره ، فكان يعتذر إلى من يَغشاه من الجِلَّة والرؤساء الأكابر ، وأنه لو مَلَكَ اختيَارُه لبالغ فى تكريمهم بما يستحقونه ؛ خلا القائد عمدة الدولة الذى كان سفيره ، فإنه كان إذا أقبل وثب إليه قائماً . فبلغ السيدة ذلك ، فقالت له : لا تتحرك لأحد بالجملة ، فكان إذا جاءه اعتذر إليه . ولقب بالمكين عمدة أمير المؤمنين ؛ وترقّت أحواله حتى صار يحضر بحضرة الخليفة إذا أراد أن يستدعى الوزير كما كان أبو سعيد مع الفلاحى . فعظم ذلك على الوزير ، لأنه كان إذا حضر القاضى أبو محمد اليازورى تحدّث طويلاً والسيدة من وراء المقطع ، ثم يستدعى الوزير فيعرض ما يريد من أمر الدولة ، ولا يكون المجيبُ له إلا القاضى أبو محمد ، فإذا أجابه التفت إلى المستنصر وقال أليس هذا الصواب ؟ فيقول المستنصر نعم ؛ ثم يخرج الرّسول من وراء المقطع ويقول هذا الصواب . فكان الوزير كأنه يعرض على اليازورى الأمور دون الخليفة ، فيشتق عليه ذلك ، ولا يتمكن من مخالفته ، ولا يستطيع الصبر على ما به .

وكان من جملة أصحاب الدّواوين رجل يُعرف بالشيخ الأجل عبد الملك زين الكُفّة أبى الفضل صاعد بن مسعود ، وإليه ديوان الشام يومئذ ، وهو شيخُ خود ؛ وكان الوزراء

يعتمدون عليه ويرجعون إلى رأيه . فأحضره الوزير ، وفاوضه في أمر اليازوري ، وأخذ رأيه فيما يعمل معه ؛ فأشار عليه بأن يحسن للخليفة أن يقلده القضاء ، ظناً منه أنه إذا تقلد القضاء فإنه يقع في أمر كبير ، ويشغله ذلك عن مُلازمة السيدة ، فيجد الوزير سبيلاً إلى استخدام ولده مكانه ، ويتقوى له الأمر فيه ، ويملك جهة الخليفة والسيدة . وكان قد تكلم في قاضي القضاة من أيام أبي سعيد ، وذكر أن [١٨٦] أمور الناس ناقصة في حكوماته ، وأن له غلماناً قد استحوذوا على الحكم ، وهم الذين يوقفون أمور الناس ، فاستخدم أبو سعيد شاهداً يعرف بابن عبدون ، خليفة القاهرة ، وتقدم إلى قاضي القضاة ألا يفصل حكماً بين اثنين إلا بحضوره . وضبط ابن عبدون أمر الحكم ضبطاً شديداً ، وكان الخصوم يجتمعون بباب القاضي والشهود بين يديه ، فلا يمضي حكماً إلا في دعوى بين اثنين ، وما يحتاج إليه من إقامة بينة ، أو منازعة امرأة مع بعل لها في فرض ، وما يجري هذا المجرى . وأما في تثبيت أو قصص مستعجمة الحكم ، وما يحتاج فيه إلى مناظرات ومنازعات فلا يتكلم في شيء من ذلك إلا عند حضور ابن عبدون ؛ وحجج الناس يُحتاط عليها في قمطر ، وتُحمل بين يدي القاضي ؛ فإذا حضر ابن عبدون أخضرت وفصل الحكم فيما بين أصحابها . وما زال كذلك حتى حضر إليه خصم في مرات ، فخاف عليه وتشفع إليه بأصدقائه ، فلم يُعَرِّه فرصة يوماً حتى خرج من مجلس قاضي القضاة وركب ، فتقدم إليه وقبل ركابه ، وخضع له وتلطّف في أمره ، فلم يلتفت إليه ؛ فعاد إلى مَنْ خرج إليه من الشهود وسألهم سؤاله ، فانتهره . فلما آيس منه وثب عليه بخنجر وخرق به بطنه ، فخرّ إلى الأرض ميتاً . وأخذ الرجل إلى أبي سعيد ، فنكّل به وقطع يديه ورجليه ، وضرب عنقه . ثم استخدم أبو سعيد بعد ابن عبدون القضاة وابن أبن زكري وأقامهما خليفتي قاضي القضاة ، وأمرهما بسلوك طريق ابن عبدون في الأحكام . فلم يَقُوما . مقامه ، وكانا يجاملان القاضي ، فعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل ابن عبدون ، إلا في فصل الأحكام فإنها كانت لا تنفصل إلا بحضورهما . فثقل ذلك على القاضي لاستيلائه غلماناً عليه ، واتهامه أن أمور الناس واقفة ، وأنه لا ينفذ له حكم ولا أمر ولا نهي .

وكان يحضر مجلس الوزير يوم الخميس في القصر بعد قضاء خدمة المجالس ، ثم في الدار يوم الاثنين مسلماً عليه . فحضر دار الوزارة يوم الاثنين على رغبته ، فقربه الوزير وسأل عن حاله ؛ فأجاب بأنه لا حكم له ولا أمر ، والأحكام مردودة إلى خليفته ولهما الحكم دونه ، فإذا حضرا ففتح باب الحكم ، وإذا غابا أغلق بابه . فقال له : كيف يا قاضي القضاة . وخرج من عنده وحضر بعده القضاعي وابن أبي زكري ، فقال لهما الوزير : ما لقاضي القضاة يتضرر منكما ويشكو استيلاءكما على الحكم دونه ، وأنه لا تنفذ أوامره معكما ؟ فقالا : وأى أمر لنا دونه ، هل أوقفنا أمر أحكامه ، أولنا غلمان يمسكون حجج الناس حتى يصابنهم عليها ؟ يعرضان بغلمان القاضي ! إنما نحن في حضورنا كبعض الشهود والأمر إليه في إمضاء الأحكام ، وإنما لنشاهد ما لا يتسع لنا الكلام فيه . فقال : كُفَيْتُمَا أيها القضاة . وانصرفا وقد انفتح له باب الحيلة في صرف القاضي وتولية أي محمد اليازوري .

واتفق مع ذلك توعدك أبي محمد وانقطاعه أياما في داره عن مجلس الخليفة ، فخلا له وجه السلطان وأعاد عليه التوبة ، ثم قال له : أنت يا أمير المؤمنين لسان الشرع ، ومقيم مناره ، ومنفذ أحكامه ؛ وقاضي القضاة إنما ينطق بلسانك ، وينفذ الأحكام عنك ؛ فإذا اشتهر في الأقطار ما يتم على الناس في أحكامهم كان سوء السمعة في ذلك على الدولة ، وإثارة الشناعة القبيحة عليها ؛ وفي الخصوم من هو من المشرق والمغرب واليمن وماوراءه ، والروم ؛ وفي استفاضة ذلك غضاضة على الدولة . ونحن إنما نطول على الممالك والدول بإقامة سنن الشريعة وإظهار العدل الذي عفت آثاره في غيرها من الدول ؛ وقد كبر قاضي القضاة وانتولى عليه غلمانه وغلبوا على أمره . فقال المستنصر : نحن نحفظ فيه خدمة سلفه لنا ومهاجرتهم معنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، حفظك الله وشكرك ؛ أما كان من كرامة سلفه أن يستتر حتى لا يشيع هذا عنه ؟ وما زال حتى قال الخليفة : من في الدولة يجرى مجراه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : [٨٦ ب] عبيدك كثير ، ومع ذلك فبين يديك من يتجمل

الحكم به مع ثقته وأمانته وقربه من خدمته ، القاضي أبو محمد . فقال : ذلك في خدمة مولانا الوالدة ، ولا يفسح له في ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ، هي - خلّد الله ملكها - أغير على دولتك وأحسن نظراً لها من أن تحوّل بينها وبين ما يجمّلها ؛ ومع ذلك ، فلم يُنقل مما هو فيه إلى ما هو دونه ، بل إلى ما هو أوفى منه . فأجاب إلى ذلك ، وقام ، فشرع في كتّيب سجلّه وإعداد الخلع له . وسمع هذه النبوة القائد عدّة الدولة ، فأوفد إلى أبي محمد يخبره ، وقال له تلطف في أمرك كما تريد . فعظم ذلك عليه ، وخاف من بعده عن خدمة السيدة إذ كانت أجلّ الخدم ، فإنّ كلّ من في الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج .

فلما كان عشاء الآخرة حمل على نفسه وهو محجوم وركب إلى باب الرّيح^(١) ، ودخل ، وأنمذ يُعلم السيّد مكانه ؛ فخرّجت وراء المقطع وسألته عن حال مرضه ، وما الذي دعاه للعناء في هذا الوقت . فقصّ عليها القصة وقال : إنما الغرض إبعادى عن خدمتك ليقع التمكن منى . فقالت : وما الذي تكره من ذلك ؟ فقال : يا مولانا هوى الحكم واسع ، وأحوال قاضى القضاة ابن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعية إلى إضلاله وإحكام نظامه ؛ وفي هذا شغل كبير . فقالت : لا يضيق صدرك بهذا الأمر ، فبابى لك ، وخدمتى موفورة عليك ، ولا أستبدل بك أبداً . فقال : يا مولانا قد قدّمتُ القول أنّ هوى الحكم كبير واسع ، وانشغالى به يحول بينى وبين ملازمة بابك . فقالت : خليفتك^(٢) في الحكم ، القضاءى وابن أبي ذكرى ، هما ينفذان من الأحكام ما يجوز تنفيذه ، فإذا تحرّرت إلى فصل الأحكام نزلت ففصلت

(١) وهو الباب البحرى الوحيد للقصر الكبير ، وكان يواجه سور شائقه سيد السعداء على يمين السالك من الباب الخلق إلى راحة باب العيد . وكان الخليفة يستعمل هذا الباب عندما يخرج بموكبه في ثلث أيام عيد الأضحى . الخطط : ٤٣٥ : ١ .

(٢) في الأصل : خلفائك .

ذلك ، وقررت لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام ؛ وإذا نزلت كان وَلَدَاكَ ينويان
عنك في تنفيذ أمور خدمتي ؛ وهذا التقرير لا يغلبك فعله . فقبل الأرض ، ودعا ، وشكر ،
وانصرف .

وكانت إذا قالت قولاً وقت به وثبتت عليه ، فإنها كانت وثيقة العقد ، حافظة العهد،
غير ناقضة له ، ولا متغيرة عنه مع مَنْ تطلع من أمره على ما يقتضي التغيير عليه ، فكيف
بمن ترتضى طريقته ، وتحمد خلائقه .

وفيهما وَلِيَّ القائد بهاء الدولة وصارمها ، طارق الصقلي المستنصرى ، دمشق ، فقديهما
صبيحة يوم الجمعة مستهل شهر رجب^(١) ، وساعة وصوله دخل القصر وقبض على ناصر
الدولة أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان .

(١) وقرى جبل ولاية بالمسجد والدعاء له فيه : " سلمه الله وحفظه " . ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ .

سنة احدى وأربعين وأربعمائة (١) :

فى ثانى المحرم صرف قاضى القضاة أحمد بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء . وكانت هذه ولايته الثانية ، وله فيه ثلاث عشرة سنة وشهر وأربعة أيام . واستُدعى إلى حضرة المستنصر القاضى أبو محمد اليازورى وخلع عليه مكانه فى رابع عشره ، وقُرئ سجلُّه فى الديوان ؛ وخرج والدولة بأسرها بين يديه . واستناب ابنُه الأكبر أبا الحسن محمداً ولُقِّب بالقاضى الأجل خطير الملك ؛ وأقام ابنُه الآخر فى جهات السيدة .

وشرع الوزير فى الإرسال إلى السيدة بأن يستقر ابنُه فى بابها ؛ فامتنعت من ذلك وقالت ما كنت بالذى يستبدل به بوجه ولا سبب . فسُقِط فى يده وقال : أردنا وضَعَه والله تعالى يريد رفعه . فقال له أبو الفضل : أما إذ جرى الأمر بخلاف ما ظننناه فليس إلّا مجاملة الرجل .

وكان أبو محمد اليازورى لا يسلم على الوزير ، ولا يجتمعان إلّا يوماً فى الشهر ، يحضر إلى دار الوزير ، فإذا حضر إليه احتجب عن كلِّ أحد ، وتلقاه قائما ، وأجلسه على مخدّة ، وأعطاه من المجاملة فوق ما يُؤثّرُ منه ؛ وهو مع ذلك يُبطن له السوء ، ويعمل فى التدبير عليه .

وكانت أيام الوزير كلها رديئة لكثرة القبض على الناس ، والمصادرات ، واصطفاء الأموال ، والنفى ، ونحو ذلك ؛ فكثُر الدَّاءُ له . وكان أيضا يَبْطِشُ بِمَنْ يَبْطِشُ به من غير علم الخليفة ولا استئذانه ، فتغيّر خاطرُ الخليفة عليه ، وتكثّر منه تغيُّظه . إلّا أن العادة جرت بالألّا يُعترَض الوزير فيما يفعله ، ويحدّ له فى النَّفس ، ويُضَيَّر [١٨٧] على ما يكون منه .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من يونيو سنة ١٠٤٩ .

وفيهما قبض على أبي نصر إبراهيم بن سهل ، واتَّهم أنه مَالاً ثَمَال بن صالح حتى قتل جعفر بن كليد [صاحب حمص] ؛ وسُلِّم إلى الوزير أبي البركات الجرجرائي فضيَّق عليه وصادره حتى مات تحت العقوبة . وكان هو الذي سعى به إلى المستنصر فقال إنه عَيْنُ لُئال .

واتفق وصول الخادم رفق إلى دمشق وخروجه منها في سادس صفر يريد حلب ، فوصل إلى جبل جوشن^(١) في ثاني عشر ربيع الأول ، وأقام هناك ؛ ثم بدا له فبعث بما مَعَهُ من الأثقال إلى المعرة ، فظنَّ مَنْ مَعَهُ من العساكر أنه يريد أن ينهزم ، فأجدُّوا في الرُّحيل وقد حاصر قلوبهم الوجَل وداخلهم الخوف ؛ فأمر بردهم إليه ، فأبَوْا ذلك عليه . وفطن أهل حلب لهم^(٢) . فتبعوهم ونهبوا ما قدروا عليه منهم ؛ وكانت بينهما حرب جُرح فيهارفق في عدة مواضع من رأسه وبدنه ، وأسر ، وانهمز العسكر بأسره . وحُمِل رفق على بغل وهو مكشوف الرأس ، ومعه جماعة من وجوه عسكره ، فلم يحتمل ما أصابه ، واختلط عقله ، ومات بقلعة حلب بعد ثلاثة أيام ، في مستهل ربيع الآخر ؛ واعتُقِل عامَّة من كان معه من القوَّاد والكتَّاب بحلب .

فلما وَرَدَ الخبر بذلك على المستنصر أمر بالإفراج عن ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان من الاعتقال ، وقُلِّد إمارة دمشق الأمير المؤيد مصطفى الملك معز الدولة ، ذا الرئاستين ، حيدرة بن الأمير عصب الدولة حسين بن مفلح ، في رجب ، وخرج معه ناظرا في أعمال الشام أبو محمد الحسين بن حسن الماسكي^(٣).

(١) جبل مطل على حلب في غربها ، في سفحه مقابر الشيعة ومشاهدهم ، ومنه كان يحمل النحاس الأحمر . يقول ياقوت : وقد بطل هذا إذ أصبح من عمل فيه لا يربح وفي قبل الجبل مشهد يقال له مشهد السقط ، أو مشهد الذكة ، والسقط يسمى محسن بن الحسين ، رضى الله عنه . معجم البلدان : ٣ : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم . القاموس المحيط .

(٣) لعل هذه التسمية نسبة إلى تاتكان من نواحي مكران وراء سجستان ، أو من نواحي سجستان المجاورة لإقليم مكران ، أو التي هي اسم لسجستان . هكذا عرف بها ياقوت في اضطراب ، معجم البلدان : ٧ : ٣٦٥ . أو لعل أحد أجداده كان يسمى ماسك فتنسب إليه ، كما هي الحال بالنسبة لأبي بكر محمد بن يعقوب ابن إسحاق بن ماسك الواسطي الماسكي . الباب لابن الأثير : ٣ : ٨٣ .

ووجد أعداء الوزير أبي البركات الحسين بن محمد الجرّجرائي سبيلاً إلى إغراء المستنصر به ، وأنه تسرّع فيما عادت مضرتّه على الدولة من تجهيز العساكر إلى حلب . فحركت هذه الأقوال وما يشبهها عليه ما يحقّده الخليفة من استبداده بأمور من غير أمر ولا استئذان ، فأمر به فقُبض عليه ونقّي إلى صور في منتصف شوال ، فاعتقل بصور . فكانت وزارته سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام . ثم أفرج عنه ومضى إلى دمشق^(١).

وبقى الأمر في الوزارة عدة أيام والخليفة يعرض لقاضي القضاة أبي محمد اليّازوري بالوزارة وهو يمتنع عليه ؛ فأسند إلى أبي الفضل صاعد بن مسعود ، من الأمراء ، وأقيم واسطة لاوزيرا ، وخلع عليه ولُقّب بعميد الملك زين الكفاة ، وجعل يُرسم عليه عَرَض ما يختص بالرجال دون الأموال . وكان إذا أراد الاستئذان على ما يفعل جلس اليّازوري بحضرة الخليفة واستدعى أبو الفضل ، فعرض ما يحتاج إليه ، فيتقدّم إليه اليّازوري بما يفعله . ويخرج وفي نفسه من اليّازوري ما كان يدور بينه وبين الوزراء في معناه . فأخذ يُحمّل عليه الرجال ويوهمهم أنه إذا سأل لهم في زيادة أو ولاية يعترضه اليّازوري ويفسد عليه . فلما كان في بعض الأيام قال ناصر الدولة حسن بن حسين بن حمدان لبعض ثقاته : اعلم أنّ القاضي له الثناء الجميل الكثير ، ونحن شاكرون له ، مُقيّدون بجميله ، مُقتنرون

(١) يوجد بالأصل هنا طيارة لم أستطع قراءة السطر الأول منها . وقد جاء بعده : ” . . . فوصل رسوله إلى الرملة يوم وصول رفق إليها ، فبعث إلى القاهرة حتى يبلغ الرسالة ، فتوقف الوزير أبو البركات الجرّجرائي عن الجواب طمعا أن يملكوا حلب . فلما علم قسطنطين توجه العساكر من مصر بعث عسكرا إلى أنطاكية وعسكرا نحو أطراف حلب ولزم صالح بن ثمال مال وخلع . وخرج مقلد بن كامل بن مرداس إلى حمص وبها حسن الدولة حيدرة بن معروف القاضي وقد وليها بعد قتل جعفر بن كليد ، فحصرها حتى أخذها بالأمان ، وغرب السور والقلمة . ونزل على حماة وأخذها وغرب حصنها ، وانتقل إلى المعرة وأخرب سورها . هذا وقد ظهر من فشل رفق ما أطمع الجند فيه ، فاثنت السنايسة وهو بالرملة في طرف المسكر وفروا ، فاتبعهم بسر نفسه ، فعادوا وخربوها وأسروا الأمير مرادا ، فسير إليهم جعفر بن حسان بن جراح فاسترجع بعض مانهبوه فردم فاعرَضهم رفق وعليهم أكثر . . . وعاد العساكر فرحل يريد دمشق فأندب جمعا من قبائل الكلبيين والعلانيين ، فافترق عسكره فرقا واقتتلوا ، لأربع بقين من المحرم سنة اثنتين وأربعين في يوم الجمعة ، فقتل من الكتامين مائة رجل ونهبت الخيم . ثم عبروا من ذلك المكان ونزلوا على باب توما ثلاثة أيام وهم بغير قتال ، فخاف رفق ودخل بالخدام =

إلى جاهه في جميع أمورنا ؛ واعتفاه من هذا الأمر لا يبرئه من ذمنا إن وقفت حوائجنا ،
ويكون الشكر فيه لغيره إن قُضيت ؛ وهذا الرجل عميد الملك هوذا يحمل الرجال عليه
ويُشعرهم أنه يجتهد في قضاء حوائجهم ، وأنه يَعْتَرِضُهُ بما يُبْطِلُهَا عليهم ؛ وفي هذا الأمر
ما تعلمه . فقل أنت له عني : ياسيدنا ، إما أن تزيد شكر الرجال وسلامة صُدُورهم لك
وخلّص نياتهم في طاعتك ، فادخل في هذا الأمر ، فإن أحسنت عرفوا ذلك لك ، وشكروه
منك وإن أسأت كان عليك ضرره وشره ؛ وإلا فاعتزل جانباً ولا تلعب برؤوسك مع الرجال ؛
وإلا أبلغك أبو الفضل . فبلغه الرجل ذلك ؛ فقال : أمهلني الليلة ثم بكر إلى . فلما كان
في السحر بكر إليه ؛ فقال : أعد على قول ناصر الدولة ؛ فأعاده . فقال : أقره عني السلام ،
وقل له : والله ألا أدخل فيه ويكون لي خيرُه وشرُه . وأبلغ ناصر الدولة رسالته ؛ فقال :
هذا هو الصواب .

= إلى القصر وترك مضاربه الخاصة بجملها ، وأصلح بين الطرفين . فتوقف الكتاميون حتى وصلهم بالرف دنائير دفعها فعلا
لم وعرض ماذهب من خيامهم . فنهبت العرب أكثر غوطة دمشق وقرى عملها . ثم سار عن دمشق إلى حمص وأعرض العساكر
بها ، وأثبت من الكلبيين ألف فارس أخرى . وكان راشد بن سنان بن عليان قد قر من سجنه بصور ونزل على دمشق واستول
على أكثر أعمالها ، فلما وصل رفق إلى حماة نهبت عساكره أعمال شيزر . ووصل إلى جبل جوشن ظاهر حلب يوم الأربعاء
ثاني عشر ربيع الأول ، ووقع الطراد ، فاستأن سلطان القرمطى في خبائة من الكلبيين إلى شمال وكان أخوه . . . معتقلا
بقلعة حلب فاقتتلوا يوم الجمعة واستراحوا يوم السبت والأحد . فرد رفق الخزانة السلطانية إلى خلفه وأمر العساكر برد
أنقاهم ، فظنوا أنه يريد الهزيمة وأخذوا من منتصف الليل يرسلون ، فاتبهم رفق برسله فلم يرجعوا . وأسفر الصبح فخرجت
الحيل من حلب فنبهوا وأسروا ، وجرح رفق ثلاث جراحات وأسروا وحل إلى حلب مكشوف الرأس وقد اختلط عقله
لأجل الجراحات التي في رأسه ، فسجن ثلاثة أيام بالقلعة ومات وقد أناف هل إثمائين فدفن بمسجد خارج حلب . وأسرت
الروم جماعة من العسكر فأنكر عليهم قسطنطين ذلك وود الأمر وكساهم " ١٥٠ .

في سابع المحرم قُرىء سجلُ القاضى أبي محمد اليَازورى [٨٧ ب] بالوزارة ، ولُقِّب بالوزير الأجلّ المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين ؛ وخلع عليه (٢) . فنظر في الوزارة وليس من أهلها ، ولامن أرباب الكتابة ، فمضى فيها مُضى الجواد ، ونهض مسرعاً نهوضاً عزَّ به في وجوه مَنْ تقدّمه ، مع ما بيده من قضاء القضاء ، والدعوة ، والنظر في ديوان السيدة . وكاتبَ ملوك الأطراف ، فأجابوه ، بوفور حقّه ، لإمعز الدولة بن باديس الصنهاجى صاحب إفريقية (٣) ، فإنه قصر في المكاتبه عما كان يكاتب به مَنْ تقدّم من الوزراء ، فإنه كان يكاتب كلا منهم « بعبده » فجعل مكاتبته « صنيعته » . فاستدعى الوزير أبا القاسم ابن الإخوة ، وكيل ابن باديس بمصر ، وعَتَب صاحبه عنده ، وقال : أَظنّ معزاً ينقصنى عَمّن تقدّمنى ؛ إذا لم أكن من أهل صناعة الكتابة ، وإن لم أكن أوفى منهم فما أنا ذوَنهم ؛ ومَنْ رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملاً ، ومَنْ وضعه اتّضع وإن كان جليلاً نبيلاً ؛ فاكتب إليه بما يُرجّعه إلى الصواب . فكتب إليه بذلك ؛ وقد أذكى الوزير عليه عيوناً يُطالعونه بأنفاسه . فلمّا وقف على كتاب ابن الإخوة قال : ما الذى يريد منى هذا الفلاح ؛ لا كُنْتُ عبده ولا كان ؛ هذا-

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من مايو سنة ١٠٥٠ .

(٢) وخلع عليه المستنصر خلماً فاخرة : غلالة قصبا وطاقا وقيصا دبيقيا وطيلسانا وعمامة قصبا . وحمله على فرس رائع بموكب من ذهب وزنه ألف مثقال ، وقاد بين يديه خمسة وعشرين فرسا وبغلا بمراكب ذهب وفضة ، وحمل معه خمسين سقفا ثيابا أصنافا ، وزاد في نموته وألقابه ، وخلع على أولاده ، وكتب له سجل التقليد بإنشاء ولى الدولة أبى على ابن خيران ، وقرىء بحضرة المستنصر بالله بين قواده وخدمه ووجوه أجناده . ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ - ٨٥ .

(٣) بهامش الأصل تعريف به نصه : " المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، صاحب إفريقية ، لقبه الحاكم بأمر الله شرف الدولة . ولد في جنادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وملك بعد أبيه باديس ثلاث مضي من ذى الحجة سنة ست وأربعمائة وعمره ثمانى سنين وسبعة أشهر . وتوفى في رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة . ولا يعرف له اسم سوى المعز ولا يعرف له كنية . وقطع خطبة المستنصر للقائم بأمر الله العباس .

لا يكون أبدا ، وما كتبتُ إليه فكثير . فطالعه عيونه بِقَوْلِهِ ؛ فَأَحْضَرَ ابْنَ الْإِخْوَةِ وَقَالَ لَهُ :
قَدْ جَرَى صَاحِبُكَ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْجَهْلِ ، فَارْتَبْتُ إِلَيْهِ بِمَا يَرُدُّهُ فِيهِ ، وَإِلَّا عَرَفْتُهُ بِنَفْسِي
إِذْ لَمْ يَعْرِفْنِي . فَارْتَبْتُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، فَأَجَابَ بِمَا هُوَ أَقْبَحُ مِنَ الْأَوَّلِ . فَدَسَّ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ مِنْ
تَلَطَّفٍ فِي أَخْذِ سَكِينٍ دَوَاتِهِ ؛ فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَحْضَرَ ابْنَ الْإِخْوَةِ وَقَالَ لَهُ : كُنْتُ أَظُنُّ
بِصَاحِبِكَ أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ثَرَوَةُ الشَّيْبَةِ ، وَقِلَّةُ خُبْرِهِ بِمَا تَقْضِي بِهِ الْأَقْدَارُ ،
وَأَنَّهُ إِذَا نُبِّهَ تَنَبَّهَ ، فَإِذَا الْجَهْلُ مُسْتَوِلٌ عَلَيْهِ ، وَضَنُّهُ أَنَّ بَعْدَ الْمَسَافَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ يَمْنَعُ مِنَ الْإِنْتِصَافِ
مِنْهُ وَالْوُضُولِ إِلَيْهِ بِمَا يَكْرَهُ ؛ وَقَدْ تَلَطَّفْنَا فِي أَخْذِ سَكِينٍ دَوَاتِهِ ، وَهَاهُنَا [ذِي] ، فَأَنْفِذْهَا
إِلَيْهِ وَأَعْلَمْهُ أَنَّ كَمَا تَلَطَّفْنَا فِي أَخْذِهَا أَنَّا نَتَلَطَّفُ فِي ذَبْحِهَا . وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ . فَارْتَبْتُ ابْنَ الْإِخْوَةِ
بِذَلِكَ ، فَازْدَادَ شَرًّا وَبَطْرًا . فَدَسَّ عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِ نَعْلِهِ ، وَكَانَ يَمْشِي فِي الْأَحْدِيَةِ السَّنْدِيَّةِ ،
فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَحْضَرَ ابْنَ الْإِخْوَةِ وَقَالَ لَهُ : ارْتَبْتُ إِلَى هَذَا الْبَرْبَرِيِّ الْأَحْمَقِ ، وَقُلْ لَهُ
إِنَّ عَقْلِي وَأَحْسَنْتُ أَذَبَكَ ، وَإِلَّا جَعَلْنَا تَأْدِيبَكَ هَذِهِ . فَجَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي الْقَوْلِ الْقَبِيحِ .

وَفِيهَا تَوَسَّلَ ثَمَالُ بْنُ صَالِحٍ فِي الصَّفْحِ عَنْهُ وَأَطْلَقَ الْمَأْسُورِينَ ، وَسَعَى فِي ذَلِكَ عَلَى بَنِي
عِيَاضٍ قَاضِي صُورَ ؛ وَسَيَّرَ ثَمَالَ زَوْجَتَهُ عَلِيَّةَ بِنْتَ وَثَّابِ بْنِ جَهْمِ الْثُمَيْرِيِّ وَوَلَدَهُ وَثَّابًا
إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وَمَعَهُمَا مَالٌ سَنَتَيْنِ ، أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَقَامَ الْبَازُورِيُّ بِأَمْرِهِمْ ، فَقَبَّلَهُمْ
الْمُسْتَنْصِرُ ، وَبَالِغٌ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَزَادَ فِي أَلْقَابِ ثَمَالَ وَأَلْقَابَ مُقَلَّدِ ابْنِ عَمِّهِ ، وَلَقَّبَ
قَاضِي صُورَ عَيْنَ الدَّوْلَةِ .

وَفِيهَا مَلِكُ الْمُسْتَنْصِرِ حَصَنَ الْمَنِيْعَةَ بِالشَّامِ .

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية ، الخلاف على المستنصر ، وسير رسولا إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فأجيب إلى ذلك . وجُهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو خالب الشيزري ، ومعه العهد واللواء الأسود ؛ فمر ببلاد الروم ليعدئ منها إلى إفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم^(٢) . وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم في أمره ، فلم يجبه رعاية لحق المستنصر . واتفق قدوم رسول طغرلبيك^(٣) يستأذنه في مسيره إلى مصر ؛ فأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر ، وأنه لا يرخّص في أذنته . واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة ، فبعث معه برسول القائم بما على يده ، فدخل إلى القاهرة على جمل ، وأحرق العهد واللواء والهدية في حفرة بين القصرين ؛ وكان القادر قد فعل مع الظاهر والد المستنصر مثل ذلك بالخلة التي سيرها إلى محمود بن سبكتكين^(٤) . ثم أقر المستنصر رد الرسول إلى صاحب القسطنطينية .

وكان سبب عصيان [١٨٨] ابن باديس ما تقدّم من مصيره في مكتبة الوزير اليازوري وما دار في ذلك^(٥) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من مايو سنة ١٠٥١ .

(٢) وبعث إلى المستنصر بالله ، فقدم الرسول إلى مصر وهو مجرس على جمل ، وحفر بين القصرين حفرة وحرق فيها العهد والخلع واللواء . نهاية الأرب . (والتجريس : التثهير ، وهو نوع من العقوبة شاع منذ ذلك العصر وكثر الجوء إليه أيام المماليك . وطريقته في بعض العقوبات أن يركب المشهر به جلا ويحمل في يده جرسا يده ويعلن عقوبته وذهبه أو أن يركب معه شخص يمثل المحتب أو صاحب الشرطة ليدق الجرس كذلك) انظر : سفرنامه : ٦١ .

(٣) أول سلاطين السلاجقة الذين ينهى بدخولهم بغداد عصر نفوذ بني بويه في دولة العباسيين . واسمه ركن الدين طغرلبيك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق . توفي سنة ٤٥٥ .

(٤) وكان ذلك سنة خمس عشرة وأربعمائة . وقد أرسل الظاهر الخلع إلى حسنك لا إلى ابن سبكتكين ، فقبلها حسنك أولا ثم خاف الخليفة القادر فلم يدخل بغداد ، وأرسل الخلع - بأمر ابن سبكتكين - إلى القادر ، فأحرقها سنة ست عشرة وأربعمائة ، بمشهد من الناس ، وسبك الذهب وفرق على الفقراء .

(٥) يتحدث ابن الأثير عن اليازوري في هذه المسألة فيقول ضمن ما يقول : ولم يكن من أهل الوزارة إنما كان من أهل التباة والفلاحة . . فكان المعز يخاطبه : بصنيعة ؛ لا : بعبد . الكامل : ٩ : ١٩٥ - ١٩٧ .

وكان بطرابلس الغرب وما والاها زغبة ورياح ، وهما قبيلتان من العرب ، وبينهما حروب وعداوة ، فأحضر الوزيرُ مكيين الدولة أبا علي الحسن بن علي بن مُلهم بن دينار العقيلي ، أحد أمراء الدولة ، وكان رجلاً عاقلاً ، وسيره إلى زغبة ورياح بخلع سنينة وأنعام كثيرة ، وأمره أن يصلح ذات بينهما ، ويتحمل ما بينهما من ذنوب ، ويفديه بالزيادة في إقطاعاتها . فلما تم له ذلك أمرهم بالمسير إلى المعز بن باديس ، وأباحهم دياره ، وتشدد في هذا الأمر حتى توجه المذكورون إلى ديار ابن باديس وملكوها ، وجمعوا ذبوله عليه ، وقتلوا أظفاره ، وضيقوا خناقَه حتى لم يتمكن من قتالهم إلا مستنداً إلى حيطان إفريقية . وذلك أنهم ملكوا برقة ، فسار إليهم المعزُ فهزموه ، وتبعوه إلى إفريقية ، وحاصروا المدن ، فنزل بأهل إفريقية بلائ لا يوصف ، فخرج إليهم المعزُ في أربعين ألفاً وقتلهم ، فهزموه إلى القيروان . ثم جمع ثمانين ألفاً وقتلهم ، فهزموه ، وأكثروا من القتل في أصحابه ، وحاصروه بالقيروان . وأقاموا يحاصرون البلاد وينهبون إلى سنة تسع وأربعين ، فانتقل المعز إلى المهديّة^(١) في شهر رمضان منها ، حتى نفدت أمواله ، وقلّت عُدّته ، وتقلّت منه رجاله ، وأشرف على التلف ، فلم يجد سبيلاً غير أعمال الحيلة في خلاصه . فخرج متخفياً في زِيٍّ امرأة حتى انتهى إلى المهديّة ، فاستولت العُربان على حرمه وداره وغلمانه ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء ، وانتهبوا ما كان في دُوره وقُصوره ، وعاثوا في البلد ينهبون ويأسرون ويقتلون ، فخربت القيروان حينئذ إلى اليوم . ووصل كثير مما نهب من قصور بني باديس من الأسلحة والتُدَد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة ، فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمرٌ عظيم من اجتماع الناس واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال .

وكان من خبر دُخول العرب إلى المغرب أن بطون هلال وسليم من مُضر لم يزلوا في البادية ، ونجموا من نجد إلى الحجاز ، فنزل بنو سليم مما يلي المدينة النبويّة ، ونزل بنو

(١) المهديّة على مسافة ستين ميلاً من القيروان ، أنشأها عبيد الله المهديّ أول الخلفاء الفاطميين : البكري : ٢٩٩ : معجم البلدان : ٨ : ٢٠٩ .

هلال في جبل غزوان عند الطائف ؛ وكانوا يطرقون العراق في رحلة الشتاء والصيف فيغيرون على أطراف الشام والعراق ؛ وكانت بنو سليم تغير على الحاج أيام الموسم وزيارتهم المدينة . ثم تجهز بنو سليم وكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم ، وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام . فلما غلبت القرامطة في أيام المعز لدين الله أبي تميم معد ، ثم في أيام ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار ، وانهزموا من الشام إلى البحرين نقل العزيز بالله من كان معهم من بنى هلال وسليم إلى مصر ، وأنزلهم بالجانب الشرق من بلاد الصعيد . وأقاموا هنالك وأضرّوا بالبلاد إلى أن ملك المعز بن باديس القيروان في سنة ثمان وأربعمائة ، وهو ابن ثمان سنين ، من قبل الظاهر لإعزاز دين الله على بن الحاكم بأمر الله ، فامتدت آيأه حتى قام في الخلافة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر ، واستوزر أبا محمد اليازوري ، فأنف من مكاتبته بالمولى ؛ وكان ما تقدّم ذكره .

فحلف المعز بن باديس ليحولنّ الدعوة إلى بنى العباس ، ولجّ في ذلك ، وقطع الدعاء للمستنصر ، وأزال اسمه من الطرز والرايات ، ودعا للقائم أبي جعفر بن القادر في سنة أربعين وأربعمائة ، وكتب إليه بذلك . فكتب إليه بالعهدة صُحبة أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي ، فقرأ كتابه بجامع القيروان ، ونشر الرايات السود ، وهدم دار الإسماعيلية . ووصل الخبر بذلك إلى القاهرة ؛ فأشار اليازوري بتجهيز أحياء هلال بن جُشم . والأندلسيين ورياح وعدى وربيعة إلى المغرب ، وتولية مشايخهم أعمال إفريقيا . فقبلت مشورته . وأرسل إليهم في سنة إحدى وأربعين ، وحمل إلى مشايخهم الأموال ، وأنعم على سائرهم بفرو ودينار لكل أحد ، وأبيع لهم حمى المغرب .

وكتب اليازوري إلى المعز بن باديس : « أما بعد ؛ فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً » لِيَقْضِي [٨٨ ب] الله أمراً كان مَقْضُوعاً (١) .

(١) سورة الأنفال : آية ٢٤ . . . ولو تواعدتم لاختلفتم في المعاد ، ولكن ليقضى الله أمراكا مفعولاً . . .
أو الآية : ٤٤ ، « وإذ يريكمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراكا مفعولاً » .

فسارت العرب إلى برقة ، وفتحوا أمصارها^(١) ، وكتبوا لإخوانهم الذين بشرق الصعيد يُرَغَّبُونهم في البلاد ؛ فأعطوا من الدولة دينارين لكل واحد ، ومضوا إلى أصحابهم ؛ فتصارعوا على البلاد ، فحصل لسليم الشرق ، ولطلال المغرب . وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية^(٢) وسُرت^(٣) . وأقامت بطون من سليم وأحلافها بِأرض برقة ، وسارت قبائل دياب وعرق وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر ، لا يمرّون بشيء إلا أتوا عليه ، حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين . وكان أول من وصل منهم أمير رياح مؤنس بن يحيى العنزى ؛ فاستأله المعز بن باديس ، وكثر عيُثُهم في البلاد ، وناذوا بشعار المستنصر . فبعث إليهم المعز العساكر فأوقعوا بها ؛ فخرج إليهم في ثلاثين ألفا فهزموه ؛ وفرّ بنفسه وخاصته إلى القيروان ، فنهبوا جميع ما كان معه ، وقتلوا خلقا كثيرا ، وحصرُود بالقيروان حتى هلكت الضواحي والقرى .

واقسم العرب بلاد إفريقية في سنة ست وأربعين ؛ وكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولرداس بن رياح باجة وما يليها . ثم اقتسموا البلاد ثانيا ، وكان للال من قابس^(٤) إلى المغرب ، وهم رياح وزغبة والمعتل وجشم وترنجة والأشبح وشداد والخلط وسفيان .

وتصوّح الملك من المعز بن باديس فركب البحر في سنة تسع وأربعين ؛ فدخل العرب القيروان واستباحوه وخربوا مبانيه ، فتفرّق أهله في البلاد . ثم أخذوا المهديّة وحاربوا

(١) يقول ابن الأثير : فلما حلوا أرض برقة وما والاها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل لأن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز . الكامل : ٩ : ١٩٦ .

(٢) يعرف بها ياقوت تعريفا مقربا فيقول إنها بين برقة وطرابلس المغرب ، بينها وبين زويلة مسيرة شهر ، تقع وسط صحراء ، آبارها منقورة في الصفا ، وتخلها كثير ، وأهلها ذوو يسار وأكثرهم أنباط ، وبها نبد من صرحاء لواتة ، ولها مرسى على البحر يعرف بالمادور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا . معجم البلدان : ١ : ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سرت بضم السين وسكون الراء : على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس تقع على الشمال من أجدابية . منها إلى طرابلس عشر مراحل وإلى أجدابية ست مراحل . معجم البلدان : ٥ : ٦٢ - ٦٣ .

(٤) غربي طرابلس على مسافة ثمان مراحل منها ، وهي بينها وبين سفاقس . وتبتعد قابس عن الساحل نحو ثلاثة أميال ، ولها سور ضخيم من الصخر . معجم البلدان : ٧ : ٢ - ٤ ؛ البكري : ٣ : ١٧ - ١٩ .

زناتة من بعد صنهاجة ، وغلبوهم على الضواحي واتصلت الفتنة بينهم فخربت إفريقية بأسرها ، وصيروا البربر لهم خولاً . ومات المعز بن باديس سنة أربع وخمسين وأربعمائة . وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية جعل المونس^(١) بن يحيى المرداسي ولاية القيروان وباجة^(٢) ، وأعطى زغبة طرابلس وقابس ، وجعل الحسن بن مسرة في ولاية قسنطينة ، فلما غلبوا صنهاجة ملك كل منهم ما عقد عليه ، فاشتد عيئهم وإفسادهم .

وفيها كانت وقعة البحيرة . وذلك أنها في إقطاع بني قرة^(٣) وقد ملكوها وعمرها ضياعها ، وكثرت فيها أموالهم واشتدت شوكتهم ، وخشّن جانبهم ، وكثر المقدمون فيهم حتى انتشر ذكركم ، وذلك لهم عددهم ؛ وثقل أمرهم على الولاية بالإسكندرية ، فجاورهم الطلحيون واستدّموا منهم ، وكانت لهم واجبات على الدولة من غير إقطاع ، وهم يأخذون واجباتهم محمولة مع واجبات العسكر بالإسكندرية عندما تُحمّل إليها . فاتفق أن ناصر الدولة ابن حمدان أبا نصر الدولة حسين كان واليا بالإسكندرية . فاستحق الطلحيون على الدولة ، عن واجباتهم المذكورة ، ثلاثة آلاف دينار ، فواصلوا اقتضاء ناصر الدولة إنفاقهم فيهم ، فوعدهم ؛ وكتب إلى الحضرة يَلْتَمَسُ ذلك ؛ فوعده الوزير أنه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقهم حمل ذلك في جُمْلته . وكان قد بقي على حَمْل المال شهران ، فاستبعدوا الصّبر إلى ذلك الوقت وواصلوا مُطالبتَه ؛ وحملوا القُرْبَيْن^(٤) على معونتهم

(١) في الأصل : يونس ، والتصحيح استعانة بما سبق في المتن ، وبما جاء في الكامل : ٩ : ١٩٦ .

(٢) بجاية مرسى ومدينة ؛ وترجع أهيّا إلى مينائها الرئيسي ، وبالقرب منها منازل كتامة الأنصار الأوائل للفاطميين .

البكري : ٨٢ ؛ معجم البلدان : ٢ : ٦٢ .

(٣) بهامش الأصل تعليق نصه : " بخطه : بنو قرة بطن من سويد ، أي في خزام ، وهم بنو سويد بن رشد بن مية ابن الصيب بن مرة بن سنيّر بن عبيد بن كعب بن علي بن سعد بن إيامه بن عطفان ، وقيل إيامه بن عيسى بن عطفان بن سعد ابن إياس بن نمر بن خزام " . ومثهم بنو قرة بن عمرو بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معد ابن بكر بن هوازن " .

(٤) في الأصل القرين بتشديد الراء . ولعل المثلث أكثر صحة إذ هو جمع لقرى نسبة إلى بني قرة .

عليه ، فاضطَّروه إلى المسير معهم إلى الحضرة لِإِثْمَاسِ ذلك ، فسار إلى الجيزة ، وطلع إلى الوزير وعرفه الحال ، فقال ما أخرنا ذلك عنهم إلاَّ أنَّ السَّنةَ كثيرةُ النفقات والطوارئ ، وهذه ألف دينار أنفَقَها فيهم إلى أن تحلِّل باقي مالهم مع مال العسكر . فأخذ الألف وعرفهم ما قال الوزير . فامتنعوا عن الأخذ ، وأبَوْا إلاَّ قبض الثلاثة آلاف ، وألزموه بالعود . فعاد ، وعرف الوزير ، فاغتَاطَ ، وأمرهم بألف أخرى . فنزل إليهم ، فأبَوْا إلاَّ أخذ الجميع ، وجَفَقُوا في الخطاب ، فعاد إلى الوزير ، وعرفه ، فغضب وقال : إجابَتُهُم إلى ما التمسوه دَفْعَةً بعد أخرى طَمَعَهُمْ طَمَعَهُمْ ، والله لا أطلق لهم درهماً واحداً . واستعاد الألف دينار ، وتقدَّم بتجريد العسكر لهم ، فتسرَّع يزحف مع ليث الدولة كافور الشراي ، ونزل إليهم ، فإذا هُم قد تَأَهَّبُوا للقائهم . فجرت بينهم وقفةٌ قتل فيها اثنان من العسكر وحجز بينهما الليل .

وبلغ الوزير ذلك ، فشقَّ عليه إقدامُهُم على المحاربة ، سيَّما بنو قرة فإنَّهم صلُّوا الحرب وكانوا فيها أشدَّ من الطَّلحيين . فأخذ الوزير يجرِّد إليهم العساكر ، فانطَرَدُوا وجمعوا حشودهم ، والتَقُوا بكموم شريك^(١) ، وكانت الدائرة [١٨٩] عليهم وقتل منهم خلق كثير . وانهمزوا والعساكر تتبعهم ، فأحاطت بأموالهم من كلِّ ما يملكونه ، وفرَّ بنو قرة على وجوههم إلى برقة ومعهم الطَّلحيون ، فانقطع أثرهم من البحيرة إلى اليوم ، وصاروا مُطَرِّدين في قبائل العرب نحواً من أربعين سنة .

وكان كلُّ من بالحضرة يُفَنِّد رأي الوزير في تجهيز العساكر إليهم ويحكمون بأنهم لا يفارقون إلى البحيرة . فجاء الأمر بخلاف ظنهم .

(١) من قرى إقليم البحيرة في الطريق إلى الإسكندرية ، وتنسب إلى شريك بن يحيى بن عبد يثوث الغطفاني المراكبي ، وكان قد لجأ إلى موقعة عندما هاجمه الروم وهو يتقدم جيش عمرو بن العاص إلى الإسكندرية ، واعتصم بهذا الموقع حتى أدركه ضرر وأنقذه . معجم البلدان : ٧ : ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ الخطط ؛ قوانين الدواوين .

ثم إنَّ الوزير رأى أنَّ في إقامة العساكر في أعمال البحيرة كلفةً كبيرةً ، فأرسل إلى بني سنابس^(١) ، وكانوا بالدارُوم^(٢) وفلسطين ، وقد ثقلت وطأتهم هنالك وصُعِبَ أمرهم ؛ فعُدِّي بهم إلى البحيرة ، وهم أعداء قيس ، وأوطأهم ديارهم ، وأقطعهم أرضهم ، فمُحى اسم بني قرة من هناك .

وكان تجهيزه للعسكر في شهر رمضان ، وتسييره لهم إلى بني قرة في مُستَهَلَّ شوال ، فخطأه الناس في فعله ، وقالوا لم يجرِّد عسكرًا قطُّ في شوال ، فظنوا أنه لا يؤمن على العسكر أن ينهزم وينكسر . وكان شمس الدولة زمام الأتراك والقيصرية ، وإليه زَمَّ القصور والخدمة في الرسالة ، وليس أحد في الدولة يجري مُجرأه جلالةً وتقدُّمًا ، بينه وبين الوزير مباينة شديدة ويتربص به الدوائر ، ويغتال له الفوائل ؛ فكان ينتظر لإنهزام العسكر ليقبض عليه . فلما أراد العسكر أن يسير من الجيزة ، ومقدمه ناصر الدولة ، قرَّر معه لقاءهم في اليوم الخامس من شوال بطالع يخبره به ؛ وسيَّر معه عدَّة طيور من الحمام ليطلعه بما يكون يومًا بيوم .

فلما كان في ذلك اليوم ، وهو يوم خميس جلس في داره وقد اشتد قلقه وكثُر اهتمامه بما يكون من العسكر ؛ واحتجَّب عن النَّاس لَشُغْل سره ، وجلس ينتظر الطائر . فلم يزل كذلك إلى السَّاعة الخامسة من نهاره ، فقام ليجدّد طهارة ، فعَبَّر البُستان وقد أُطلق الماء في مجاريه ، فرأى ورقة تمرَّ على وجه الماء ، فأخذها مُتفانلاً بها ، فوجدها أوَّل كتاب كان قد وصل من القائد فضل إلى الحاكم بأمر الله ، قد ذهبَت طُرَّتُهُ وعذوانه وبقي صدره ، وهو : « كتب عبد مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة

(١) بهامش الأصل تعريف بهم تصه : " بخطه : سنابس بطن من بطون طي " ، وهم ولد سنابس بن ميمون بن جزول بن ثعل بن عمرو بن الفوث بن طي " بن أود " . ٥١ .

(٢) قلعة بعد غزة بالنسبة لقاصد مصر ، يرى الواقف فيها البحر إلا أن بينهما نحو فرسخ . وتسمى أيضا الدارون . معجم البلدان : ٤ : ١٣ - ١٤ .

الخامسة من نهار الخميس الخامس من شوال ، وقد أظفره الله عز وجل بعدد الله تعالى وعدو
الحضرة المطهرة ، أبي ركة المخذول ، وهو في قبضة الأسارى والحمد لله رب العالمين .
فلما وقف على ذلك سجد شكراً لله تعالى ، وعجب من موافقة اليوم وعدة الأيام من شوال
والإعلام بالظفر . ثم تجهز للصلاة ، فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بني قرّة وانزاهم ،
ومأمن الله تعالى به من الظفر بهم . فأخذ الكتاب والطائر وركب إلى القصر ، ودخل إلى
المستنصر وأوقفه على الكتاب ، فسرّ بذلك ، وأراه الطير وقال : هذا أعجب يا أمير المؤمنين ؛
وحدثه بخديشه ، فعجب من هذا الاتفاق .

ثم تواصلت رسل ناصر الدولة بالبشرى وشرح الحال في الظفر وانزاهم القوم ، فخلع
على الوزير ، وزيد في ألقابه الناصر للدين ، غياث الدين ، فتم له النظر وقوى أمره ، وذلك
من كان يعاديه ، فجري على عادته في العفو والمجاملة .

وكان أهل جزيرة صقلية قد خالفوا الدولة غير مرة^(١) ، لما فيهم من الشر والغلبة ،
وطردوا الولاة . وصار إليهم المعز ابن باديس ، فملكوه عليهم وقد خرج عن طاعة الدولة ،
فأساء السيرة فيهم ، وثقل عليهم ، فوثبوا عليه وأخرجوه منها . وكتبوا ملك الروم^(٢) ، فسار
إليهم بطريق كبير ، فولّوه أمرهم مدة ثم وثبوا به وأخرجوه عنهم . وبعثوا إلى الحضرة
يسألون إقالة عشرتهم والعفو عنهم ويسألون إيفاد وال . وكان بصقلية بنو أبي الحسين ،
لهم رئاسة وفيهم من يؤهل نفسه لولايتها ؛ فسارت الخلع إلى رجل منهم يعرف بمستخلص
الدولة ؛ فمكث فيهم زماناً ، ثم نفروا منه ، وبعثوا يسألون تغييره عنهم . فسير الوزير

(١) وحكامها عندئذ من أسرة الكلبيين التي أسسها ٣٣٦ الحسن بن أبي عل بن أبي الحسين الكلبي . وقد تغلب عليها
في هذه الفترة التي نتحدث عنها محمد ، ابن التثنة ، القادر بالله ، المختصب وقد استعان بالزيريين أيام المعز بن باديس ، ثم
استعان بعده بالنورمانيين . معجم الأنساب .

(٢) وهو الإمبراطور قسطنطين التاسع .

رَجُلًا من أمراء الدولة يعرف بصَمَصَام الدولة ابن لؤلؤ ، وأَسْرٌ إليه أن يتلطَّف في إخراج بنى أبي الحسين من صِقْلِيَّة ويسيرهم إلى الحضرة . فدخل إليها ، وسأَسَ أمره ، حتى بعث بجميع مَنْ كان فيها من بنى أبي الحسين . واستقام الأمر في صِقْلِيَّة بخروجهم عنها .

وقام ببلاد اليمن رجل يعرف بعليّ بن محمد [٨٩ ب] الصُّلَيْحِي^(١) يَتَشَبَّع ، فحَسَن له الدعاة الدخول في نصرة خلفاء مصر ، فأعلن [ذلك] بها ، ودعا أهل اليمن إليها ، وحمل تجارتهم مع هدية جليلة القدر تبلغُ زهاء عشرة آلاف دينار إلى المستنصر . وكان أبوه قاضيًا باليمن سُنيّ المذهب ، وزوجته أسماء ابنة عمّه شهاب ، وكانت أجمل خلق الله ، وهى أم الدعاة باليمن ، وعُرِفَت بالحرّة . وكانت ذات عزٍّ وكرم ، وتفاخر بنوها بها ، ومُلهت .

وكان باليمن الداعي عامر بن عبد الله الرُّواحِي ، فاستمال أبا الحسن عليّ بن محمد بن عليّ الصُّلَيْحِي ، وهو صغير ، حتى مال إليه ، فلما مات عامر أوصى له بكتبه وعلومه ، فدرسها حتى تَضَلَّع من معارفه وصار من فقههاء الشيعة ، وحج بالناس دليلاً خمس عشرة سنة . ثم ثار في سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وتزايد أمره ، ودعا للمستنصر . وكتب إليه بما هو عليه ، واستأذنه في المسير إلى تهامة ، فأذن له . ولم تخرج سنة خمسين وأربعمائة حتى ملك السهل والجبل الوعر من بلاد اليمن .

وجَهَّز الوزيرُ إلى النوبة ، فأَضَعَفَ عليهم البقَط^(٢) ، وحملوه ، واستقر الأمر على ذلك .

(١) هو أبو كامل علي بن محمد بن عليّ ، كان أبوه قاضيًا سُنيّ المذهب . وكان عليّ يحج بالناس خمس عشرة سنة على طريق السراة والطائف . وتغلب على اليمن حتى ملكه وجعل كرسي دولته بصنعاء ، وبني عدة قصور بها ؛ وزوجته أسماء بنت شهاب المعروفة بالملكة الحرة خطب لها أيضًا على منابر اليمن ؛ وكانت إذا ركب ركبت في موكبها مائتا جارية بالخلل والجواهر ، وبين يديها الجناقب بالسروج الذهب . وفيات الأعيان ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ ؛ تاريخ اليمن لعلماء اليمن . وتحدث عنه ابن الأثير في الكامل في أثناء تقريره عن حوادث سنة : ٤٤٧ . الكامل : ٩ : ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) الجزية التي كانوا يدفعونها للدولة في مصر . وأصله معاهدة عقدت بين عبد الله بن سعد بن أبي السرح وملك النوبة ، ذات طابعٍ سياسي اقتصادي ، كان من بين بنودها ألا يتعدى أحد الجانبين على الآخر ، وأن تقدم النوبة إلى مصر عددا معيناً من الرقيق كل سنة ، وتقدم مصر قدرًا من القمح والندس وغيرها ؛ وعُرِفَت هذه المعاهدة باسم البقَط ، كلمة لاتينية بمعنى عقد أو معاهدة .

سنة أربع وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها كتبت بغداد محاضر تتضمن القدر في نسب الخلفاء المصريين ونفيتهم من الالتحاق بعلي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، وجمع سائر أعيان الفقهاء ببغداد وأشرفها وقضاؤها ، وعزوا نسبهم في الديبصانية^(٢) من المجوس . وسيرت المحاضر إلى البلاد ، وشنع عليهم تشنيع كبير . وسبب ذلك الغضب ما عمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس ، فإنه لما شھر بالقاهرة على جمل مقلوب ، وكتاب العقد في عنقه والهدية بين يديه ، ثم أحرقت الخلع والتقليد ، أعيد الرسول إلى ملك الروم ، فعز عليه ما فعل واعتذر إليه منه ، فإنه كان قد ضمن له من مصر إعادته إليه سالماً بعد ما جرت مخاطبة في طلبه . ثم أعاده ملك الروم إلى بغداد ، فوصل في سنة أربع وأربعين هذه .

وسبب عزده أن المعز بن باديس بعث رسوله أبا القاسم بن عبد الرحمن إلى بغداد في ذلك ، فبعث معه الملك طغرل بك ، أبا علي بن كبير ليخاطب ملك الروم في رد أبي غالب ، وكتب معه كتاباً عنوانه : « من ركن الدين وغيث المسلمين ، بهاء دين الله وسلطان بلاد الله ، ومغيث عباد الله ، أبي طالب يمين الخليفة أمير المؤمنين ، إلى عظيم الروم » . ومضمونه بعد البسملة : « الحمد لله القاهر سلطانه ، الباهر برهائه ، العلى شأنه ، السابغ إحسانه » ، ثم مر فيه إلى أن قال : « وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم ضلالة يدعو إلى نفسه ، ويغتر بمن أغواه من حزبه ، ويعتقد من الدين ما لا يستجيزه أحد من أهل العلم في الائمة الأول وهذا العصر ، ولا يستحسنه عاقل من أهل الإسلام والكفر » . ثم ذكر الرسول أبا غالب وعاتب في أمره ، وطلب تسييره مخفوراً إلى المعز بن باديس . فقدم إلى قسطنطين ، متملك

(١) ويرافق أول المحرم منها الثالث من مايو سنة ١٠٥٢ .

(٢) نسبة إلى ديسان صاحب نبدأ عبادة إلهي النور والظلمة . وقد سبق هذا المجلس مجلس مشابه عقد سنة ١٠٢٢ زمن القادر بالله العباسي .

الروم ، بالقسطنطينية في صفر من هذه السنة ، فتلقاه الملك وأدخله عليه ، وسأله عن السلطان طغرلبيك ؛ فذكر له الرسالة ، وطلب منه مقاطعة صاحب مصر ، وإطلاق أبي غالب ، وإرسال رسول المعز إليه . فقال له : صاحب مصر مجاور لنا ^(١) ، وبيننا وبينه عهود وهدنة ، وقد بقي منها سنتان ، ولا يمكن فسخها ؛ وأما رُسل المعز والرسول إليه فهم قومٌ يسهون في الفساد . وتردد القول إلى أن أطلق أبا غالب وأجازه إلى المعز ، وعاد أبو علي ورقيقه إلى بغداد في بقية السنة .

وفيها قصر مد النيل ^(٢) ، ولم يكن في المخازن السلطانية شيء من الغلال ، فاشتدت المسغبة بمصر . وكان لخلو المخازن السلطانية من الغلال سبب ، وهو أن الوزير اليازوري لما تقلد وظيفة قضاء القضاة في وزارة أبي البركات الجرجرائي كان ينزل إلى الجامع بمصر في يومى السبت والثلاثاء من كل جمعة ، فيجلس في الزيادة منه للحكم ، على رسم من تقدمه من القضاة ، وإذا أقبل العصر طلع إلى القاهرة . وكان في كل سوقٍ من أسواق مصر على أبواب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمورهم ؛ وكانت عادة أخبار مصر في أزمئة المسغبة متى بردت لا يرجع منها إلى شيء لكثرة ما تُغش به . وكان لعريف الخبازين دكان وكان يبيع الخبز ، وبحذاها دكان لصُغلوك يبيع الخبز أيضاً ، وكان سِغره يومئذ أربعة

(١) لصاحب النجوم الزاهرة رأى طريف في مثل هذا اللقب جاء فيه " أول ماسمنا من هذه الألقاب لقب بهاء الدولة ابن بويه (ركن الدين) . قلنا (القائل صاحب النجوم) لعل ذلك كان تعظيماً في حقه لكونه سلطاناً ، فيكون هذا على هذا الحكم هو أول لقب لقب به في الإسلام . والله أعلم . ومن يومئذ ظهرت الألقاب وتغالت فيها الأعاجم حتى إنهم لم يدعوا شيئاً إلا وأضافوا الدين له . وأنا بالله أحلف لو ملكت أمرى ما لقيت بجمال الدين ولا غيره وأكره من يسمي بذلك ولا أقدر على تغيير الاصطلاح . وهذا لا يكون إلا من ولي أمر أو حاكم بلدة " . ٥١ ، النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) كانت زيادة النيل في هذه السنة سبع عشرة ذراعاً وخمس أصابع . النجوم الزاهرة : ٥ : ٥٤ . وهذا ليس قصوراً . يقول ابن بيات : إذا أوفى النيل ست عشرة ذراعاً فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك ذراعاً زاد في الخراج مائة ألف دينار ، فإن نقص ذراعاً نقص الخراج مائة ألف دينار . قوانين الدواوين : ٧٦ . (ويذكر أيضاً أن الذراع التي يقاس بها إلى اثني عشر ذراعاً ثمانية وعشرون أصبعاً ، ومن بعد ذلك يكون الذراع أربعة وعشرين أصبعاً . نفس المصدر) .

أرطال بدرهم وثمان . فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد [١٩٠] يبرد ، فخاف من كساده ، فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه ، فمال إليه الزبُّون فاشتروا خبزه لأجل تسمُّحه بثمن درهم ، وبار خبز العريف ، فغضب ووكّل به عونين من الحسبة^(١) أغرمَاه دراهم . ووافق ذلك نزول قاضى القضاة إلى الجامع ، فاستغاث به ، فأمر بإحضار المحتسب وأنكر ما فعله ، واعتذر بأن هذا من العريف وأنه لم يتحقق باطن الحال . فأمر القاضى بصرف ذلك العريف وأن يُغرّم ما أخذ من الخباز ، والنفت إلى صاحب ديوانه ، وقال : مامعك فادفعه إلى هذا الخباز . فناوله قرطاسا فيه ثلاثون ربا عيا ، فكاد عقله يطير فرحا . وعاد فنادى على الخبز خمسة أرطال بدرهم ، فمال إليه الناس ، وهو ينادى بزيادة رطل برطل ، إلى أن بلغ عشرة أرطال بدرهم . وانتشر ذلك في البلد جميعه ، وتسامع الناس به فتسارعوا إليه ، فلم يبق في البلد خباز حتى باع عشرة أرطال بدرهم .

وكانت العادة أن يُبتاع في كلّ سنة غلّة للسلطان بمائة ألف دينار ويمحّل متجرا^(٢) . فلما عاد القاضى إلى القاهرة مثل بحضرة الخليفة وعرفه ما مرّ به في يومه من إرخاص السعر بغير موجب ، وقال : يا مولانا ، إن المتجر الذى يُتمّ بالغلّة فيه مضرة كبيرة على المسلمين ، وربما انحطّ السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، فتتغير في المخازن وتتلّف ، وأنه يقام متجر لأكلفة على الناس فيه ، ويفيد أضعاف فائدة الغلّة ، ولا يُخشى عليه من تغير في المخازن ولا انحطاطٍ سعرٍ ، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك . فأمضى الخليفة مارآه ، وبطل المتجر في الغلة وتوسع الناس بذلك .

(١) الحسبة وظيفة دينية في أساسها مدنية اجتماعية في طبيعة اختصاصها إذ كان المحتسب يشرف على أبواب الحرف والمعايش ليضمن على سلامة قيامهم بوظائفهم ، وعلى الحالين رفقا بالحيوانات ، وعلى الطرق يمنع من المضايقة فيها ، وعلى مكاتب الصبيان ليحذر المعلمين من ضرب الصبيان ضربا مبرحا ، وعلى المكاييل والموازين ، وعلى الآداب العامة ... الخ والمحتسب معاونون يختارهم ويقومون منه مقام رجال الشرطة أحيانا لمراقبة تنفيذ أوامره وللمواظبة على الخالفين .

(٢) المتجر - كما يعرفه ابن ماقى - ما يبتاع للديوان من بضائع التجار الواردين لما تدعو إليه الحاجة وتقضي في طلب الفائدة المصلحة : قوانين الدواوين : ٣٢٧ .

سنة ست وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها أيضا قصر مدّ النيل^(٢) ؛ ونزع السعر ؛ ووقع الوباء . ولم يكن في المخازن السلطانية إلا ما ينصرف في جريات مَنْ في القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لاغير ، فورد على الوزير مِنْ ذلك ما أهّمّه . وصار سعر التّليس ثمانية دنانير ، واشتد الأمر على الناس . وكان التجار بين نار المعاملين وضيق الحال عليهم في القيام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ، ومطالبة الفلاحين بالقيام به ، يبتاعون منهم غلاتهم على أن يصبروا عليهم إلى حين إدراكه بسعر يربحون فيه . فإذا استقرت مبيعاتهم لهم حَضَرُوا معهم للديوان ، وقاموا عندهم للجند بما يجب عليهم ، وكتب ذلك في روزنامج الجند مع مبلغ الغلة ؛ فإذا أدركت الغلة وصارت في الأجران يكتالونها ويحملونها إلى مخازنهم . فمنعهم الوزير من ذلك ، وكتب إلى العمّال بجميع النّواحي أن يستعرضوا روزنامجات الجهابذة^(٣) ، ويحضروا منها ما قام به التجار من المعاملين ، ومبلغ الغلة الذي رفع الإيقاع إليه ، وأن يقدّموا للتجار ما وزنوه للديوان ويُرْبِحُوهم في كل دينار ثمن دينار ؛ ويضعوا ختومهم على المخازن ويطلبوا ما يَحْصُل تحت أيديهم بها . فلما تحصّلت بالنواحي جهّز المراكب بحمل العلات ، وأودعها المخازن السلطانية بمصر ، وقرر ثمن كلّ تليس ثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير . وسلم إلى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الأسواق ووظّف ماتحتاج إليه القاهرة ومصر ، فكان ألف تليس في كل يوم ، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلثمائة^(٤) . فقام بالتدبير أحسن قيام مدّة عشرين شهرا ، حتى أدركت الغلة فتوسع الناس بها ، وزال عنهم الغلاء .

(١) ووافق أول المحرم منها الثاني عشر من إبريل سنة ١٠٥٤ وقد أسقط سنة : ٤٤٥ .

(٢) كان الفرق بين الزيادة في هذا العام وفي عام ٤٤٤ إصبا واحدة ، إذ كانت الزيادة سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع . ومرة أخرى هذا لا يعد قصورا .

(٣) جمع جهيز وهو كاتب يختص برسم استخراج المال وقبضه وكتب الوصولات به ، وعليه عمل الخازيم والروز ناجيات والحمات وتوالها ، ويطلب بما يقبضه ويخرج ما يرفعه من الحساب اللازم له . قوانين الدواوين : ٣٠٤ .

(٤) ولهذا التوزيع دلالة على مدى كثافة السكان في كل من مصر (الفسطاط وملحقاتها) والقاهرة . وقد اشتملت القاهرة في تخطيطها الأول - وهو التخطيط الذي صيغها بصنفته العامة طوال العصر الفاطمي - على قصور الفاطميين ودواوين الحكومة وتجمعات الجند في حاراتهم (مثل حارات زويلة وكثامة والأتراك . . . إلخ) ، بينما احتشد السكان في مصر الفسطاط وملحقاتها .

وكان عند استمرار الهدنة مع قسطنطين ملك الروم ، في أيام وزارة أبي نصر الفلاحى ، قد وصل رسولان أحدهما هو المتكلم المترجم ، وكان داهيةً أديبا شاعرا نحويا فيلسوفا وُلد بالروم ونشأ بأنطاكية ، ودخل العراق ، ولَقِنَ من العلوم والآداب ما بَعُدَ به صيته ، وكان يعرف بابن أصفهانوس ؛ والآخر متحمّل الهدية ، وهو صاحب حرب يعرف بميخائيل . فرأيا^(١) من حسن زى الدولة وجميل سيرتها ما أعجبا^(١) به ، لاسيما [٩٠ ب] ميخائيل ، فإنه أطربه مارأى وحسن موقعه في نفسه . وسارا وقد امتلأت قلوبهما بمحبة ما شاهداه . فاتممت هلك الروم وتمليك ميخائيل هذا ، فبلغه ما بمصر من الغلاء ، فحمل إليها مائة ألف قنبر قمحا ، وقدم كتابه أمامها يعيّن الغلة والكيل الذى تستوفى به إذا وصلت ؛ فانتهمت إلى أنطاكية . وأعدّ هدية الهدنة على ماجرت به العادة ، وهديّة من ماله . فلما رأى الروم ذلك ظنّوا به الميل إلى الإسلام ، فتمتّلوه في ثامن شوال ؛ فكانت مدة ملكه اثنى عشرة سنة وسبعة أشهر ، وعمره أربع وخمسون سنة وشهر واحد . وأقاموا رجلا يعرف بابن سقلاروس من أهل أنطاكية ، وكان لجرجا خبيثا حديدا ، فاعترض الهديتين وأخذهما ، وقال : أنا أنتفع بهما وأنفقتُ ثمنهما على قتال المسلمين .

وكانت للوزير بالقسطنطينية عيون ، فكتبوا إليه بذلك ، فسير مكين الدولة الحسن ابن على بن ملهم الكُتّابى إلى اللاذقية في عسكرٍ لحصارها والتضييق على مَنْ فيها ؛ فحاصرها حتى اشتد على مَنْ فيها الأمر . فكتب ابن سقلاروس ، متملك الروم ، إلى الحضرة يستوضح ما الذى أوجب ذلك ؛ فأجيب أن الذى أوجبه ما كان فعّله في نَقْض ما استمرّ مع مَنْ تقدّمه من الهدنة ، وقبض الهدية ، والهدية التى ليست من ماله . فأجاب بأنّه يحمل الهدية ؛ فاشتُرِط عليه لإطلاق مَنْ في بلاد الروم الأسرى . فأجاب بأنّه إذا أُطلق مَنْ لهم في بلاد الإسلام من أسرى الروم أُطلق مَنْ [في] بلاد الروم من أسرى المسلمين . فأجيب بأنّه

(١) في الأصل : فرأوا . . . وما أعجبوا . . . وهكذا في بقية أفعال هذه الجملة ومباها .

لايصح التماسه لذلك ، لأنَّ من أسر من بلاد الرُّوم تفرقوا في الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ، ولاحكم للحضرة على جميع الممالك ، ويُرْتَجَع منها ما صار في أيدي أهلها ؛ وبلادُ الروم بخلاف ذلك ، ومن حصل فيها من المسلمين كَمَنْ هو مُعْتَقَلٌ في دارٍ واحدة لايمكنه الخروج منها إلَّا بإذن أهلها ؛ وبين الحالَيْن فرقٌ كبير . فأجاب بأنَّه لا يطلق مَنْ في بلاده من أسرى المسلمين . فاشتَرَط عليه النُّزول عما صار في أيدي الروم من الحصون الإسلامية ؛ فامتنع من ذلك وقال إذا سُلِّم إلينا ما صار في أيدي المسلمين من حصون المسلمين من حصون الروم سَلِّم ما في أيديهم من حصون المسلمين . فبدل الجيش بجيش آخر ، وخرج مع مَتمِّمِه الأمير السعيد ليث الدولة ، فنازل اللأذقية حتى فتحها ، ووقع العنفُ فيها . وأجيب بأنَّه لا يصح أن يسَلِّم إليهم ما صار في أيدي المسلمين من الحصون لأنهم قد أنبتوا فيها العقارات وأنشئوا فيها البساتين . فقال : يُدْفَع لهم عن أملاكهم وما أنشئوه من البساتين وغيرها ، وما أنفقوه فيها ، وينتقلون عنها إلى غيرها من بلاد المسلمين . فأجابوا إلى أن يسلموا ما في أيديهم من الحصون الإسلامية .

وكانت العادة جارية بأنَّه إذا وصلت هديَّة من الرُّوم إلى الحضرة تُقَوِّم ويحمل إليهم هدية موضعها بثُلُثَي قيمتها ، ليكون للإسلام مزية عليهم بالثلث ؛ فاشتَرَط أن يكون قيمة ما يُحْمَل إليهم من الهدية عوضًا عن قيمة هديتهم النِّصْف ؛ فأجابوا إلى ذلك أيضًا . فاشتَرَط عليهم أن يردّوا كلَّ من تَصُفَّه دار البلاد ، التي هي دار الملك ومحله ؛ فامتنع من ذلك . فأمدَّ الجيش بجيش ثالث وعليه أميران ، هما موفى الدولة حفاظ بن فاتك وأبو الجيش عسكر بن الحلى ، ومَقَادُ جميع الجيش إلى الأمير مكين الدولة وأمينها ابن ملهم . فأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويأسرون حتى أعظَّموا النكاية فيها ، والرسل والمكاتبات تتردد ، إلى أن استقر القيام بالجزية التي التمسها أمراء البلاط ، وجهزت الهدية . وبلغت الجزية المذكورة نيفًا وثلاثين ألف دينار .

وحمل ذلك إلى أنطاكية ، فبلغهم قتل الوزير ، فأعيدت إلى القسطنطينية . وزُينت بلاد الروم لموته ، وكثر ابتهاجُهم بما صُرِفَ عنهم من خشونة جانبه عليهم ، وشدة شكيمته .

وأما ابن ملهم فإنه لما أوغل في بلاد الروم وقارب أفامية وجال [٩١] في أعمال أنطاكية نهب وسبي ، فقدمت من القسطنطينية قطائع يقال إن عدتها ثمانون قطعة ، فكانت بينها وبين ابن ملهم حروب آلت إلى أن أُسر هو وجماعة من أعيان العرب في آخر ربيع الآخر .

وفيها استدعى راشد بن عليان بن سنان ، أمير الكلبيين ، فاعتقل بالقاهرة ، وردّت إمارة بنى كليب لنبهان القريبى . وقبض على إقطاع راشد وأخيه مسمار ، وهو مقيم بظاهر دمشق ، ففرّ إلى غالب بن صالح . فكتب المستنصر إلى ثَمَال ينكر عليه تسيير هدية إلى ملك الروم ، فتحيّر في أمره واعتذر .

سنة سبع وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها سَيرَ المستنصر إلى كنيسة قُمامة ، فأحاط بجميع ما فيها . وذلك أن القاضي أبا عبد الله القضاعي كان قد توجه من عند الخليفة برسالة إلى متملك الروم ، فقدم وهو بالقسطنطينية رسول السلطان طُغرُلبك بن سَلجُوق يلتمس من الملكة ثيودُورا^(٢) أن تمكن رسوله من الصَّلَاة في جامع قسطنطينية ، فأذنت له في ذلك ؛ فدخل إليه وصلى به ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي . فبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر ، فأحاط بما في قُمامة وأخذه ، وأخرج البطرك منها إلى دارٍ مُفَرَّدة ؛ وأغلق أبواب كنائس مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، وزاد على التصاري في الجزية . وكان هذا ابتداء فساد ما بين الروم والمصريين .

وفيها تجمَّع كثير من التركمان بحلب وغيرها ، وأفسدوا في أعمال الشام^(٣) .
وفيها تزايد الغلاء ، وكثر الوباء ، وعم الموتان بديار مصر .

وفيها سار مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم من القاهرة بالعساكر ، ونودي في بلاد الشام بالغزو والجهاد . واستدعى راشد بن عليان بن سنان إلى القاهرة ، وقرَّر معه أن يسير في قومه الكلبيين مع ابن ملهم ، ثم قبض عليه . وعقدت إمارة الكلبيين لنبهان ، وقيل لسنان ، فنزل ابن ملهم أفامية ، ثم سار إلى حصن قسطل فحصره عشرين يوما حتى أخذه

(١) وهو الفد أول الحرم منها الثاني من إبريل سنة ١٠٥٥ .

(٢) ملكة الروم ، إمبراطورة بيزنطة .

(٣) وكان تحمُّ التركمان هذا بدءاً لعصر نفوذ السلاجقة في تاريخ خلافة العباسيين . وسيؤدي تقدم التركمان - السلاجقة - في اتجاه الشام إلى نتائج ومضاعفات عديدة أهمها : الاحتكاك المستمر بالفاطميين ؛ وتدهور نفوذ هؤلاء بالشام ؛ والتوسع الإسلامي في آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين ؛ العداوة العنيفة بين الشرق والغرب الذي اتخذ شكل الحروب الصليبية .

بالأمان ، في ثامن ربيع الأول سنة سبع وأربعين . وعاد إلى أفامية فحصرها ورماها بالمجانيق ، فطلبوا الأمان على أن يرحل عنهم ؛ فلما رحل أحرقوا القلعة وانهزموا ، فلحقهم وقتلهم ، وأطفأ النار من القلعة ، وأغار على البلاد ؛ فلم يكن بأنطاكية من يذب عنها ، وجمع كل طامع في النهب بحجة ابن ملهم . وترسط ثَمَال بن صالح للصالح ، فلم يتم . وسيرت الملكة تُيودُورا أسطولاً إلى أنطاكية ، فرصد اللاذقية ثمانون قطعة ، وخرج دوقس أنطاكية وبطركها في جماعة ، فظفروا بشينيين^(١) للمسلمين معهما الغنائم ؛ فسار ابن ملهم نحوهم ، وكشف الروم إلى طرف أنطاكية ، واستنقذ الأسرى منهم وقتل منهم خلقاً كثيراً . فدار الأسطول إلى طرابلس وقتلوا أهلها ، فقتل من الفريقين خلائق . وعاد الأسطول الرومي إلى اللاذقية ، فماتت الملكة تُيودُورا بعد سبع سنين من ملكها وتسعة أشهر واثنتي عشرة ليلة ، وملك بعدها ميخائيل .

(١) والجمع شوان ، مركب حربية لها مائة وأربعون مجدافاً ، وكانت تعد أكبر سفن الأسطول ، تقام لها الأبراج للدفاع وتشن بالمقاتلة ، ويقابلها بالفرنسية Galère . قوانين الدواوين : ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛ Dozy; Supp. Dict. Ar.

سنة ثمان وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها جُهِّزَت الأموال لأبي الحارث البساسيري ، فخرج بها المؤيد في الله عبد الله بن موسى ، وجمعتها ألفاً ألفاً وثلاثمائة ألف دينار ، العين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، والعروض أربعمائة ألف دينار .

وكان من خبره أنه كان من جملة الماليك الأتراك فصار إلى بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه (٢) ، رجل من أهل قسا (٣) ، إحدى مدائن فارس ، فلذلك قيل له البساسيري ، وتنقل في الخدم حتى صار مُتَمَدِّم الأتراك ببغداد في أيام الخليفة القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن أحمد القادر (٤) ، وتلقب بالمظفر . وكان القائم لا يقطعُ أمراً دونه . فطار اسمه وتبَّعته أمراء العرب والعجم ، ودُعي له على منابر العراق والأهواز ، وتجبر . وأراد في سنة ست وأربعين من الخليفة أن يسلم إليه أبا الغنائم وأبا سعد ابني المحلبان ، صاحبي قریش ابن بدران صاحب الموصل (٥) ، فلم يُمكنه من ذلك . فسار إلى الأنبار ونصب عليها المجانيق ، وهدم سورها وأخذها قهراً ، وأسر أبا الغنائم [٩١ ب] ابن المحلبان (٦) ومائة رجل من بني خفاجة ، وكثيراً من أهل الأنبار . ورجع إلى بغداد وأبو الغنائم بين يديه على جمل في رجله قيد ، فصلب كثيراً من الأسرى .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادي والعشرين من مارس ١٠٥٦ .

(٢) بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة أبي شجاع خسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن ؛ حكم في العراق بين سنتي ٣٧٩ - ٤٠٣ (٩٨٩ - ١٠١٢) وضم فارس سنة ٣٨٨ (٩٩٨) . . Mohammadan Dynasties .

(٣) بسا بالياء المفتوحة ، وبالفاء أيضاً . والنسبة إليها نسوة ، وأهل فارس يقولون في النسبة إليها - شاذاً - البساسيري . معجم البلدان ٢ : ١٦٧ ؛ النجوم الزاهرة ٥ : ٢ .

(٤) خليفة العباسيين بين سنتي ٤٢٢ - ٤٤٧ .

(٥) علم الدين أبو المال قریش بن بدران بن المقلد ، أمير الموصل وحلب بين سنتي ٤٤٣ - ٤٥٣ ، انتزع البساسيري منه الموصل سنة ٤٤٨ . الكامل ٩ : ٢٠٨ وما بعدها ؛ معجم الانساب .

(٦) وكان قد ألقي نفسه في الفرات تجنباً للوقوع في الأسر . الكامل ٩ : ٢٠٩ . ورجع به إلى بغداد وعليه قيد أحمر وعلى رأسه برنس . نفس المصدر .

وَاتَّمَنَى فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَصُولُ زُورِقٍ فِيهِ ثَمَرٌ لِلْبَسَاسِيرَى ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ سَكْرَةَ الْهَاشِمِي فِي جَمَاعَةٍ ، فَأَرَاكَ وَنَهَبُوا دُورَهُ وَأَخَذُوا دَوَابَّهُ ، وَكَانَ هُوَ إِذْ ذَلِكَ فِي نَوَاحِي وَاسِطٍ . فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ نَسَبَهُ إِلَى الْوَزِيرِ رَئِيسِ الرُّؤَسَاءِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْمُسْلِمَةِ (١) ، فَعَظُمَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَزِيرِ . وَسَارَ إِلَى دُبَيْسِ بْنِ بَدْرَانَ وَهُوَ مُسْتَوْحِشٌ ، فَوَافَتْ رُسُلَ طُغْرَلْبَكِ بْنِ مِيكَالَ بْنِ سَلْجُوقٍ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْقَائِمِ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ ، فَتَقَرَّرَ الْأَمْرُ مَعَ الْمَلِكِ الرَّحِيمِ خُذْرُو قَيْرُوزَ بْنِ أَبِي كَالِيَجَارِ الْمَرْزُبَانَ ابْنَ سُلْطَانَ الدَّوْلَةِ أَبِي شَجَاعٍ ، عَلَى أَنْ يَخْطُبَ لَطُغْرَلْبَكِ بِبَغْدَادٍ ، فَخَطَبَ لَهُ ثَمَانٍ بِقِيْنٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْهَا .

ثُمَّ إِنَّهُ تَدَمَّ إِلَى بَغْدَادٍ وَقَبِضَ عَلَى الْمَلِكِ الرَّحِيمِ وَعَلَى جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى قَلْعَةِ السَّيْرَوَانِ ، وَفَرَّمَنَهُ قَرِيْشَ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَلَعَ عَلَيْهِ وَرَدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ (٢) ، وَأَخَذَ أَمْوَالَ الْإِجْتَادِ الْبَغْدَادِيِّينَ وَأَمَرَهُمْ بِالسَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، فَسَارَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْبَسَاسِيرَى . وَبَعَثَ طُغْرَلْبَكِ إِلَى الْأَمِيرِ نُورِ الدِّينِ دُبَيْسِ بْنِ بَدْرَانَ أَنْ يُحْضِرَ إِلَيْهِ الْبَسَاسِيرَى ، فَالْتَزَمَ لَهُ بِذَلِكَ . وَبَلَغَ الْبَسَاسِيرَى الْخَبَرَ ، فَسَارَ إِلَى رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طُوقٍ ، وَكَاتَبَ الْمُسْتَنْصِرَ يَطْلُبُ مِنْهُ الْإِذْنَ لَهُ فِي الدَّخُولِ إِلَى حَضْرَتِهِ ، فَأُشِيرَ عَلَى الْمُسْتَنْصِرِ بِأَلَّا يُمَكِّنَهُ مِنَ الْحُضُورِ ، وَأَنْ يَعْدِيَهُ بِمَا يَرْضَاهُ ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِ الْخَلْعَ . فَبَعَثَ يَسْأَلُ فِي النَّجْدَةِ ، وَيَلْتَزِمُ بِأَخْذِ بَغْدَادٍ وَإِقَامَةِ الْخُطْبَةِ بِهَا لِلْمُسْتَنْصِرِ وَإِزَالَةِ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَأَنَّهُ يَكْفِي فِي رَدِّ طُغْرَلْبَكِ عَنْ قَصْدِهِ الْبِلَادَ الشَّامِيَةَ . فَجُهِّزَتْ إِلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ عَلَى يَدِ الْمُؤَيَّدِ فِي الدِّينِ أَبِي نَصْرِ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ مُوسَى فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ ، حَيْثُ لَمْ يُتْرَكْ فِي خَزَائِنِ أَمْوَالِ الْقَصْرِ شَيْءٌ أَلْبَتَهُ .

وَخَرَجَ خَطِيرُ الْمَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ الْوَزِيرِ مِنَ الْقَاهِرَةِ فِي تَجَمُّلٍ عَظِيمٍ ، وَمَعَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَرِيدُ ،

(١) رَئِيسُ الرُّؤَسَاءِ عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْمُسْلِمَةِ . النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ : ٥ : ٦ .

(٢) وَكَانَ قَرِيْشٌ قَدْ قَرَّبَ أَنْ نَهَبَ التُّرْكَانُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَطْلُقْهُ التُّرْكَانُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ إِلَى السُّلْطَانِ يَحْتَجُّ عَلَى أَعْمَالِ النَّهْبِ وَالْأَسْرِ وَيَهْدِدُ بِتَرْكِ بَغْدَادٍ . الْكَامِلُ : ٩ : ٢١٢ - ٢١٣ .

حتى أخذ أحواض الخشب وفيها الطين المزروع فيه سائر البقول برسم مائدته . ومعه من خزائن الأموال والأسلحة والآلات والأمتعة ما يجلب وصفه . فسار إلى القدس ، ورحل منها إلى اللاذقية يريد فتحها . فلما كان في شوال منها واقع البساسيري ودبيس^(١) قريش ابن بدران العقيلي صاحب الموصل وقتلهم ابن عم طغرليك ، وكان طغرليك قد سيره إلى سنجار^(٢) في ألفين وخمسمائة فارس . فكانت الواقعة المشهورة التي لم يفلت منها إلا مائتا فارس أو دونها . وانهزم قريش وقتلهم ، واستولى البساسيري ودبيس على الموصل وأقاما بها الدعوة للمستنصر ، وكتبوا إليه بذلك ، فسيرت إليهما الخلع ولجاعة أمراء العرب .

وعمل الشعر في هذه الواقعة . فمن مليح ما قيل لابن حيوس^(٣) :

عجبت لمدعى الآفاق ملكا وغايته ببغداد الرّكود
ومن مُستخلفٍ ، بالهون يرضى يُذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجبُ منهما شعبٌ بمصر تقام له بسنجار الحدود

وبلغ ذلك طغرليك ، فسار يريد الموصل حتى بلغ نصيبين ، فأوقع بالعرب وألقاهم بين يدي الفيلة ، فقتلهم شر قتلة . وبعث إليه دبيس وقريش بالطاعة فقبل منهما . وسار إلى ديار بكر ، وجهز أخاه داود إلى الموصل ، فتسلمها وعاد إلى بغداد .

(١) نور الدولة أبو الأغر دبيس الأول بن سند الدولة أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي ، صاحب حلة بني مزيد ، وكانت تسمى الجامعين ، قرب الفرات . معجم البلدان : ٣ ، ٣٢٧ ، معجم الأنساب .

(٢) بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وتقع في لطف جبل عال . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤ - ١٤٦ .

(٣) محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس ، أبو الفتيان ، الأمير الشاعر ، أحد شعراء الشام المجيدين ، مات بدمشق سنة ٤٧٣ مجاوزاً الثمانين . النجوم الزاهرة : ٥ : في مواضع متعددة .

سنة تسع وأربعين وأربعمائة (١) :

فيها تسلّم مكينُ الدولة ابن مُلهم من دُمالَ بن صالح مدينة حلب في آخر ذى القعدة ، وانكفّت أيدي التركمان عنها ، وأقيمت خطبة المستنصر فيها وقطعت خطبة القائم ، وذلك بعد حروب عظيمة . وكان دخول ابن مُلهم حلب يوم الخميس لثلاث بقين من ذى القعدة ، فبقى على ملكها أربع سنين .

وفيها قدم كتاب من بُخارى أنّه وقع بها وباء عظيم حتى هلك من ذلك الإقليم ألف ألف وستائة ألف وخمسون ألف إنسان ، وخلت الأسواق ، وأغلقت الأبواب . وتعدّى الوباء إلى آذربيجان فالأهواز والبصرة وواسط ، وعامة تلك [١٩٢] الأعمال ، فكانت الحفيرة تحفر ويُلقي فيها العشرون والثلاثون من الأموات . وكان سببه قلة القوت والجوع ، فنبشت الأموات وأكلهم الناس . وكان الموت إذا وقع في دار مات جميعُ مَنْ فيها ، وكان المريض ينشق قلبه عن دم المهجة ، فيخرج من فمه قطرة فيموت ، أو يخرج من فيه دود فيموت . وكلُّ دار كان فيها خمرٌ مات أهلها كلّهم في ليلة واحدة ، ومن كانت امرأته حراماً ماتا معاً ، ومات قتيّمٌ مسجد وله خمسون ألف درهم فلم يقبلها أحد ، ووضعت في المسجد تسعة أيام ، فدخل أربعة من الشلوح إليها ليأخذوها فمات الأربعة عليها . وكان يموت الوصيّ قبل الموصى ، وكلُّ مسلمين كان بينهما تفاخر ولم يصطلحا ماتا . وابتدأ هذا الوباء من تركستان ، ودب منها إلى كاشغر والشاش وفرغانة (٢) ، وعمّ النساء والصبيان ، فمات الصبيان والكهول والفتيان من سائر الناس إلا الملوك والعساكر ، فإنه لم يمّت منهم ولا من الشيوخ والعجائز إلا القليل ! !

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من مارس سنة ١٠٥٧ .

(٢) من بلاد ما وراء النهر وهي أيضا من بلاد الأتراك التي استوطنها الكثير من الفرس .

سنة خمسين وأربعمائة (١) :

في أول المحرم قبض المستنصر على وزيره الناصر للدين ، غياث المسلمين ، أبي محمد اليأزوري ، وكان قد جمع له مالم يجتمع لغيره من تقليد الوزارة وقضاء القضاء وداعي الدعاة . وكان ليقبض عليه أسباب ، منها أن طغرائك لما ملك بغداد كان بها لليأزوري عيون كثيرة يطالعونه بدفين الأمور وجليلها ، فوصات كتبهم بوصوله ، وأنهم سمعوه يذكر إزماعه على التوجه نحو الشام ليملكه . فقلق لذلك ورأى أن الحيلة أبلغ من الاستعداد له ، فكتب إليه يذمه بوصوله إلى العراق ، ويذم له من الخدمة ما يؤوفى على أمله ، وأن مصر وأعمالها بحكمه ، وأنه وإن كان مستخدماً للدولة ويدعو إليها فإنه يعلم كثرة الاختلاف ، فمن تجاوزها في نسبها ، واتفاق الكلمة ووقوع الإجماع على الرضا بالخليفة الصحيح النسب ، الصريح الحسب ، الهاشمي العباسي ، وأنه لا يمتنع عن الإقرار له بذلك . وأعطاه صفقة يده على مبايعته ، وتسليم الدولة له . وأنه قد اتصل به لإزماع حضرته على التوجه إلى الشام ، وأنه أشفق من تسليمها إليه فتطأها عساكره مع كثرتها وتجمعها فيخربها ويغني آثارها ، ولا يقع بملكها انتفاع ، ولا يرجى لها ارتفاع^(٢) ، فإن رأى أغفأها من وطء العساكر لها ، ووصول ركابها إليها ، على وجه الفرجة والنظر إلى دمشق وحصنها ، فلها على رأيها .

فلما وقف طغرائك على كتابه قال هذا كتاب رجل عاقل ، ويجب أن يعتمد ما أشار به بالإذن للعسكر في عودتهم إلى بلادهم ، فمضى كل منهم لوجهه . ثم أمر فضرب فساطيطه في الجانب الغربي من بغداد ، فكتب بذلك عيون اليأزوري إليه ، فقلق ، ثم كتب إليه : « لاتغرنك الأماني والخدع بأن أسلم إليك أعمال الدولة ، وأخون أمانتي لمن غذاني فضله وغمرني إحسانه ، وتتعين علي طاعته وموالاته . فإن كنت تسلم إلى مافي يدك لصاحبك من الدراق وأعماله سلمت إليك مافي يدي لصاحبي ، بل الواجب أن تكون كلمة الإسلام مجموعة

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٠٥٨ .

(٢) الارتفاع ما يتحصل من الدواوين بعد جمع الموارد الحكومية ، أي إيرادات الدولة .

لابن بنت النبي الذي هو أولى بمكانه من غيره . وإن رغبت في المهادنة والمواعدة انتظمت الحال بين الدولتين ، وأمن الناس بينهما . فإن أبيت للأخلاف ، ونزع الهوى بك إلى الظنون الفاسدة ، والأطماع الكاذبة فليس لك عندى إلا السيف . فإن شئت فأقم ، وإن شئت فسير .

فغاض ذلك طغرلبيك وقال : خدعنى هذا الفلاح وسخر منى . وكتب إلى إبراهيم بن ينال ، أخى طغرلبيك لأمه ، برّد العسكر مسرعاً ، فلم يثأر له اجتماعهم . وكان اليازورى قد بثّ عيونه وجراشيه في عسكر طغرلبيك واستنمّسّد أعيانهم بكثرة الأمانى والمواعيد ، مثل خاتون زوج طغرلبيك ، والكندري^(١) وزيره ، وإبراهيم ينال أخيه^(٢) وصاحب جيشه ، فمالوا إليه وقعدوا عن صاحبهم . وحمل خاتون على قزليه ، فامتنعت من ذلك وواعدته أنها تحيّر بغلمانها ، وهم نحو اثني عشر ألفاً ، عنه ؛ فاعتزلت بهم . وكان ذلك سبب ظفر البساسيرى بعسكر طغرلبيك ، وظفر كبير منهم ، ورجوع طغرلبيك من بغداد [٩٢ ب] طالبا لجمع عسكره الذى تفرّق عنه . وهر أنه سار في هذه السنة ملك البساسيرى وقريش الموصل بعد حصار شديد نحو أربعة أشهر حتى هدم قلعتها . فخرج طغرلبيك يريد هما ، فسارا عن الموصل ، وهو يتبعهما ، إلى نصيبين ؛ ففارقه إبراهيم ينال وقصد همدان ، ولحقه الأتراك الذين كانوا ببغداد . فغمت ذلك في عضد طغرلبيك وترك ما هو فيه ، ورجع ليضم إليه من تفرّق عنه ، وترك بغداد . فتموى أبو الحارث البساسيرى ، وكثف جمعه ، وقصد أعمال العراق ، ففتح بلداً بلداً ، وتملك الأعمال والرستاق^(٣) طوعاً وكرهاً ، والدولة المصرية ثمّده بما يستعين به على ذلك ؛ وهو لا ينفذ في أمر من الأمور إلا بما يقرّره اليازورى . فكثرت حسّاده على ما يتوالى من سعادته في كلّ يوم ، وما يتجدد له من رئاسة يقتضيها حسن آثاره في الدولة ، وتأثيراته في جميع الأطراف والممالك بلطف السياسة ومُحكّم

(١) عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندى ، أول وزراء السلاجقة . وفیات الأعيان ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للمعاد الأصفهاني ؛ معجم الأنساب لزمامبور .

(٢) في الأصل : ابن أخته . وهو خطأ والتصحيح استناداً إلى ما تقدم ؛ وإل ابن الأثير في الكامل ؛ وإلى التجرم الزاهرة .

(٣) الرستاق ، والرستاق ، والجمع رستاق : أرض السواد ، والقرى ، رحلة العسكر ، والبلد التجارى ؛ ومن الكلمة المعربة الرزداق وجمعها الرزداقات والرزاديق . (والمقصود هنا القرى ومحلات العسكر) . محيط المحيط .

التدبير الذى يبلغ به غاية آماله ، بحيث لا يبلغ غيره بعضها إلا بإتفاق الجمل العظيمة ،
وتفريغ بيوت الأموال ؛ ثم لا يكاد يظفر ببلوغ أمل في جهة من الجهات إلا دوحها وثبتت
آثاره فيها الدهر الطويل . وصار أعداؤه يتعجبون مما يتأتى له من السعادة وتوحيته عليه
الأقدار . واستطالوا مدته ، فابتغوا له الغوائل ، ونصبوا له الحبايل ، وركبوا عليه المناصب
حتى كان هلاكه بأقل الناس وأحترهم ، وأدناهم منزلة ، وأضعفهم قدرة ، وهم من أطراف
الخُدَام . فأقاموا رجلين ، أحدهما خادم يعرف بمفرج المغرب كان في حاشيته ، والآخر
خازن يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا (٢) . وحكرا أنه نتمل الأموال إلى الشام في الترابيت
وفي شمع سبكه وأعدّه إلى القدس وإلى الخليل ، وأنه قد عول على الهرب إلى بغداد ؛
واستظهروا بكتابه الذى ذكر إلى طغرانيك ؛ مع ما في طبيعة الملك من الحسد والممل ،
والأنفة من الاستبداد عليهم ومحبة الانفراد بالمجد .

وكان من أسباب الخذلان أن المستنصر التمس من صفيّ الملك ، ولديّ اليازورى ،
عمل دعة يدعوه إليها ، فدافعه عن ذلك استعظاماً لجنده ، فأقام مدة حتى
بعثه والده الوزير على تكليف عملها له ، فتهتم لذلك ، واصطنع ما يجب لإعداده ، وتتمرر
الحال على يوم يحضر فيه . فلما كان قبل ذلك بيوم حضر صفىّ الملك عند الوزير وأعلمه
بإنجاز ما يحتاج إليه ، فصار معه إلى الدار واستصحب خراصه ، فرأى ما يتمم عنده
الوصف . وفرش مجلسين بديباج بياض كله ، وفيه جامات كبار وحمم منقوش ، كل
مجلس بثلاث مراتب وبساط ملء المجلس ؛ وسرايين وحجلين للصدر والباب كله جديد
كما حمل من الأعدال ؛ فتمت ذلك بخمسة آلاف دينار . فأقبل كل من حضر ببالغ في
صفته ويدعو ، وشخص منهم ساكت . فلحظ الوزير وأمسك حتى فرغ من تطواف المجلس
وعرض كل ما أعدّه ، وعدل إلى بيت الطهارة وقد أعيد في دهليزه من الفرش والآلات
والقريب ، وداخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن . ودعا الوزير الرجل الذى سكت
عند مبالغة من حضر في الوصف ، وقال : يا عمدة الملك ، مالي لم أسمعتك تؤمن على ما قال
الجماعة ؟ فقال له بعد ما سأله الإغتماء عنه وتركه من القول ، فأبى إلا أن يقول :
سيدنا فيما أعدّه من هذا الجمال بين أحد رأيين ، إما أن يأمّر بإزالته ونصب غيره مما قد

استُجِـلَ ، وإِـمّا يحمله إلى الخليفة إذا انقضى جلوسه عليه . فقال : وما هو هذا ؟ أليس هو
تَمّا أنتم به وصار إلى من فضله ؛ وما قدره حتى تمتد عينه إليه أو تتطَلَّعَ له نفسه ! وأما
إِـزالته ونَصَبُ غيره فما كنت أكسر في نفس هذا الصبي شهوةً ، فإنني متى أمرت بإزالته
حزن لذلك . وافترقا . فلما كان الغد جاء المستنصر وأقام يومه ذلك في الدار ، وأخضر
إليه الطعام تَمّا حوله من الطُرف ؛ ثم عاد آخر النهار . وحضر عند الوزير أصدقائه ، فانفرد
بذلك الرجل ، وقال : يا عمدة الدولة ، والله ما أخطأ حِـزرك فيما قلتَه بالأمس ، منذ دخل
الخليفة إلى الدار إلى أن خرج لم يَطْرِف طرفةً عن تَأْمُلِ الفرش ، فإذا وجَّهْتُ طرفي نحوه
أطرق وتشاغل . فقال له : ياسيدنا أَمّا إذ فات الأمر الأول فلا يفوت [١٩٣] الثاني .
فقال : والله لافعلتُ ولاغممتُ صفى الملك .

واتفق أنه خرج يوما وعليه ثوب بديع ، فلَمّا عاد قال لصديقه : يا عمدة الدولة ،
لحظتك اليوم تنظر الثوب الذي كان على فعجبت من ذلك ، فلما مثلتُ بحضرة مولانا
أقبل يتأَمَّل الثوب ولم يزل يزحف من الدُّسْتِ^(٢) حتى مدَّ يده إلى الثوب وتلمَّسه ، فزال
عجبي منك إذ كان الخليفة يتأَمِّله ؛ والملوك إذا أنعموا على أحد استحال النظار بإحسانهم
حسدا ومللاً .

وكان راتب مائدته في كل يوم كموائد الملوك في الأعياد والولائم . وكان لا يبتاع
لمطبخه من الطير ما هو مُعْرِق ولا مُصْدِر ؛ وكان سعر المعرق ستة بدينار والمصدر أربعة
بدينار ، والمسمَّن ثلاثة بدينار ، والفائق اثنان بدينار ؛ وكان يعمل للدارد ومن فيها
المسمَّن ، وأما مائدته فلا يقَدِّم عليها إلّا الفائق .

(٢) دست السلطان : مرتبة جلوسه . صبح الأمى ؛ Dozy; Supp Dict. Ar.

فلما كان في سنة سبع وأربعين وقصر النيل نزع السعر وغلا حتى بلغ التلّيس ثمانية دنانير وصار الخبز طرفة . وكان المستنصر يحضر دار اليازوري كلّ يوم ثلاثاء على عادته ، فتقدّم إليه المائدة ، فإذا هي على ما يهوى لم يُخلّ منها بشئ حتى الدجاج الفائق ؛ فقال لصاحب مطبخه : ويلك ، يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك ؛ فقال : يامولانا ما ذنبني إذا قصر بك أصحاب دواوينك ولم يطلقوا لمائدتك ما ألتسمه منهم ، والوزير فلا تنجاسر وكلاؤه أن يقصروا في شئ مما جرت العادة به في راتب ما ثلثته وغيرها ، مع تقدّمه إليهم في كل يوم بالزيادة فيها وفي راتب داره .

فلما تظافر عياداه عليه لم يشعر إلّا في ساعة القبض ، فكتب إلى أبي الفرج البابلي - وكان قد قدّمه وأحسن إليه ورفعته على جميع أصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، كما يأتي إن شاء الله عند ذكر وفاته - بعد البسملة : « عَرَفْنَا يَا أَبَا الْفَرَج - أَطَالَ اللَّهُ بِقَائِكَ وَأَدَامَ عَزَّكَ - تَغْيِيرَ الرَّأْيِ فِينَا ، وَسُوءَ النِّيَّةِ وَالطَّرِيقَةِ ، فَإِنْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ صَائِرًا إِلَيْكَ فَاحْفَظِ الصُّحْبَةَ ، وَارْزَعْ وَاجِبَ الْحَرَمَةِ ؛ وَإِنْ يَكُنْ صَائِرًا إِلَى غَيْرِكَ فَابْتَغِ لِنَفْسِكَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ . عَلَى أَنَّا نَشِيرُ عَلَيْكَ : إِنْ دُعِيتَ إِلَيْهِ فَلَا تَأْتِي عَنْهُ فَإِنَّهُ أَصْلَحَ لَكَ وَأَعْوَدُ عَلَيْنَا . وَالسَّلَامُ » .

ودُعِيَ البابلي للأمر ، ووَزَرَ ، لأنّه لم يكن في الدولة من يتقدمه لِمَا وَطَّاهُ اليازوري وأمّله من تقديمه وتمييزه . وكان اعتزاله يغطى على عيوبه ، فلما ولي الوزارة بَانَ للناس من رقاعته وحدّته وكثرة شرّه ما افتضح به ؛ وتجرّد لمقابلة إحسان اليازوري بكل قبيح وذكره بما لا يستحق من الغصّ . وكانت الرقعة التي كتبها إليه من أعظم ذنوبه عنده فكان يقول ؛ يخاطبني وهو على شفير القبر بنون العظمة ¹ ولا يذكره إلّا بالسفاهة واللغو ، فسقط قدره من أعين الكافة وحذيره كل أحد . ثم لم يقنعه كونُ اليازوري في

الاعتقال بمصر حتى نفاه إلى تنيس^(١) ، في صفر ، ومعه نساؤه وأولاده وحاشيته ،
فاعتقلوا بها .

ثم شرع البابلي في التدبير على قتله . قال الشريف فخر الدولة ومجدها ، نقيب نقباء
الطالبين : قال لي مولانا - يعنى المستنصر - يا فخر الدولة ؛ ما رأيت أوقع من البابلي ؛
وذلك أن اليازورى لم ينته إلى ما صار إليه من عظيم المنزلة إلا بعد أن تقدم له من المآثر
والآثار في الدولة وما فُتح على يديه ما هو معلوم مشهور ؛ وكان يرتقى بذلك درجة بعد درجة
إلى أن انتهى إلى ما انتهى إليه ؛ والبابلي حين أول يوم استخدمناه استدعى المنزلة التي
لم يصر ذلك إليها إلا بعد عدة سنين ، فأجبتة إليها ، وقلت ترى تساعد الأقدار بأن
يكون مثل ما كان ذلك الرجل . ومنها أنه كان إذا حضر بين يدي يكثّر التشريب على
اليازورى ويذكره بالقبيح ظناً منه تطلّعنا إلى عودِهِ إلى الأمر ، وليثبت في نفوسنا سوء
الرأى فيه . ولم نعلم أن غرضه قتله إلى أن كان اليوم الذى ستمت عليه الأتراك ووطئوا
دُراعتَه ، فإنه لما دخل إلى قال : يا أمير المؤمنين ، إنه لا يُنفذ لك أمر ولا يتم لي نظر
[٩٣ ب] وهذا الكليب في قيد الحياة . فقلت : ومن هو ذلك الكليب ؟ فقال : على
ابن عبد الرحمن اليازورى . فتمت : أيها الوزير ، اعلم أتى لم أصرف الوزير عن خدمتنا ولنا
في إعادته رغبة ، فطِبْ نفساً ودَع ذكره ، فأنت آوِنُ مما تخافه من جهته . فتمت :
والله إن هذا لعجب من حسن مقامك يا أمير المؤمنين عنه مع قبيح قولِهِ ، وما همّ به من
قتلك ، حتى إن السقية أقامت تدور في قصرِكَ أسبوعاً كاملاً . فقلت : أيها الوزير ،
أقامت السقية تدور على في قصرى أسبوعاً كاملاً ؟ فتمت : نعم . فأطرقت متعجباً ، وبقيت ،

(١) بكسر التاء ، ويعرفها ياقوت بأنها جزيرة قريبة من البر بين الفرماء ودمياط ، اشتهرت بالثياب الملونة والفرش .
وكانت مجسوة من الخصاص عند فتح العرب لها ثم زاريدت أهيئها بالتدريج ، فبنيت بها القصور زمن الأيوبيين ، وأُنشأ
العباسيون سورها ، وبنى بها ابن طولون عدة صهاريج عرفت باسم صهاريج الأمير . معجم البلدان : ٢ : ٤١٩ - ٤٢٣ .

متفكراً في ذلك ، أَصْرَفَ الظَّنَّ بين تصديقه وتكذيبه ، ثم أَقُولُ ، لو لم يَطَّلِعْ على ذلك لم يذكروه . فَأَمْسَكَتْ ، فَظَنُّ بِإِمْسَاكِ أَنْنِي رَاضٍ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُ ؛ وَخَرَجَ فَاسْتَدْعَى طَاهِرًا كَاتِبَ السَّرِّ وَسَيَّرَهُ لِقَتْلِهِ . وَنَمَى الْخَبِيرَ إِلَى مَوْلَاتِنَا الْوَالِدَةِ ، فَأَنْكَرْتَ ذَلِكَ وَدَخَلْتَ إِلَيَّ ، فَقَالَتْ : أَنْتِ يَا مَوْلَانَا أَمَرْتَ الْبَابِلِيَّ بِقَتْلِ الْيَازُورِيِّ ! فَقُلْتُ : لَا . فَقَالَتْ : قَدْ سَيَّرَ طَاهِرُ ابْنُ غَلَامٍ لِقَتْلِهِ . فَاسْتَدْعَيْتُ سَعِيدَ السُّعْدَاءِ وَأَنْفَذْتُهُ إِلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : قُلْ لَهُ لَمْ يَأْمُرْكَ بِقَتْلِهِ ، فَأَنْفَذْتُ مِنْ يُعِيدُ طَاهِرًا وَيَمْنَعُهُ مِنَ النُّفُوزِ . فَأَلْفَاهُ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ فِي الْحَمَامِ ، فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا بَدَّ مِنَ الدَّخُولِ ؛ وَدَخَلَ وَأَدَّى الرِّسَالَةَ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ : أَخْرُجْ وَأَسِيرْ مِنْ يُمِيدِهِ . وَطَوَّلَ فِي الْحَمَامِ ثُمَّ خَرَجَ ، فَلَمَّا أَنْ كَتَبَ الْكِتَابَ وَسَيَّرَ بِهِ النَّجَّابَ سَبْقَهُ ذَلِكَ إِلَى تَنْيَسَ ، فَلَمْ يَصِلْ حَتَّى نَفِذَ الْحُكْمَ فِيهِ .

وَلَمَّا وَصَلَ طَاهِرٌ إِلَى تَنْيَسَ أَوْصَلَ كِتَابَ الْبَابِلِيِّ إِلَى جَمَالِ الدَّوْلَةِ صُبْحَ يَذْكُرُ فِيهِ : إِنَّا قَدْ سَيَّرْنَا طَاهِرًا فِيهَا أَنْتِ تَقِفُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَتِهِ ، فَتَثَبَّتْ مِنْهُ ، وَتَحْضُرُ مَعَهُ لِإِنْجَازِهِ وَتَحْذَرُ مِنْ تَأْخِيرِهِ مِنَ الْيَوْمِ إِلَى الْغَدِ . فَقَالَ : وَمَا الَّذِي وَصَلْتَ فِيهِ ؟ فَأَخْرَجَ تَذْكَرَةَ بِخَطِّ الْبَابِلِيِّ فِيهَا : إِذَا وَصَلْتَ يَا طَاهِرُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - إِلَى تَنْيَسَ وَقَدْ سَغَبْتَ وَلَهْتِ مِنَ الْعَطَشِ ، فَلَا تَبَلَّ رِيْقَكَ بِقَطْرَةٍ دُونَ أَنْ يَحْضُرَ عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْيَازُورِيِّ إِلَى دَارِ الْخِدْمَةِ ، وَتَمْضِيَ حَكْمَ السَّيْفِ فِيهِ ؛ فَقَدْ كَتَبْنَا إِلَى الْأَمِيرِ جَمَالِ الدَّوْلَةِ بِمَعُونَتِكَ عَلَى مَا يَسْتَدْعِيهِ ذَلِكَ ؛ فَقَدَّمَهُ وَلَا تَتَوَخَّرْهُ إِنْ شَاءَ أَحَدٌ . فَقَالَ لَهُ : أَنْتِ خَلِيفَةُ صَاحِبِ السُّرَرِ وَمُرْسَلٌ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي وَصَلْتَ فِيهِ مُمْتَنِلٌ ، فَأَمُضِ الْحُكْمَ فِيهِ . وَأَنْفَذَ مِنْ يَحْضُرِ الْيَازُورِيِّ مِنْ مَعْتَقِلِهِ ، وَالصِّقَالَةِ وَالسَّعْدِيَةِ خِدَامَ السُّرَرِ وَقُوفَ ، وَالسِّيَافِ قَائِمَ . فَقَالَ لَهُ طَاهِرُ : يَا حَسَنُ ، يَقُولُ لَكَ مَوْلَانَا أَيْنَ أَمْوَالِي ؟ فَلَمْ يَجِبْهُ وَلَمْ يَرْفَعْ طَرْفَهُ إِلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ : لِمَاكَ أَخَاطَبُ^(١) يَا حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَ

(١) فِي الْأَصْلِ : لَكَ أَخَاطَبَ .

أموالي ؟ فلم تجبه . فرفع طرفه ونظر إليه وإلى الجماعة وفيهم حيدرة السياف ، وقال لظاهر : يا كلب تجئ وهذا معك ، وأشار بيده إلى السياف ، وتساءلني بعد ذلك ؛ ولكن قل له يامولانا قبض على وأنا آمن على نفسي ، فإن يكن عندي مال ، فتمد وجدته في دارى ، وكنت داعيك وثقتك المؤيد في الدين . في القحطرة الفلازية ما يشهد بذكر مالك أين هو . فأشار طاهر إلى أولئك ، فأخذه ، وضربت عنقه في ليلة الثاني والعشرين من صفر ، وحملت رأسه مع طاهر إلى القاهرة ، وطرحت جثته على مزبلة ثلاثة أيام . ثم ورد الأمر بتكفينه ، فكُفِّنَ بعد أن غُسل ، وحنطَ بحنوط كثير ، وحمل ليلا ودفن وقد وضع رأسه مع جثته .

وكان له من المآثر المرضية ، والخلال الحميدة ، والأفعال الجميلة ، والخلائق الرضية ما يتجمل الملوك بذكره . منها أنه كانت له مائدة يجتمع بها كل قاض فقيه وأديب جليل القدر ، فإذا قدمت فكأنها الرياض من حسناتها وسعة نفسه . وكان الملازمون لمائدته نحو العشرين نسمة ، فيكون عليها كأحدهم . وقال عميد الدولة : أقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازماً له في المبيت والصباح ، فكنت أراعيه في حالته . كلَّها ليلاً ونهاراً ، فلا أرى يتغير على منها شيء ولا يتبين لى منه غضبٌ من رضا ؛ فأقبلت أدقُّ التأمّل له في حالتي غضبه ورضاء شهوراً حتى تبين لى ، فكان إذا رضى تررّدت وجنتاه بحمرة ، وإذا غضب اصفرّت محاجر عينيه ، فعرّفت أبى بذلك ، فقال : يا بنى هذا غاية في سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج .

وكانت طبائعه الأربعة على السواء ، فإذا [١٩٤] أدخل عمل طبيعة منها عهده أخذ بإصلاحها حتى يعود إلى ما يعهده من استقامتها . وكان لا يعطل شرب الدواء يوماً واحداً فيشرب السكتنجيين والورد أسبوعاً ثم يريح نفسه ثلاثة أيام ، ثم يشرب النقوع المغلى في

الشتاء والمنجم منه في الصيف أسبوعا لكل منهما ؛ ويشرب ماء البذور أسبوعا ؛ ويشرب ماء الجين ثمانية أيام ؛ ويشرب ماء البقل أسبوعا ثم يشرب الراوند المنقوع كذلك ؛ ويريح نفسه بين كل دوائين ثلاثة أيام ، لا يُخِلّ بذلك في صيف ولا في شتاء .

وكان ندى الوجه كثير الحياء لا يكاد يرفع طرفا إلا لضرورة ؛ ولم يُسمع منه قط في سؤال لفظة « لا » . بل كان إذا سُئل فما يرى إجابة سؤاله إليه يَقُولُ نعم ، بانخفاض من طرفه وخفوت من صوته ، فإذا سُئل فما يرى الإجابة إليه يَطْرِفُ ولا يرفع طرفه ؛ وعرف هذا منه فلا يراجع فيه إلا بعد مدة . وكان كل من يحضر مائدته يستدعى منه الحضور بين يديه لئلا يستمروا عنده ؛ وكان فيهم مَنْ يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرفوا مجالسهم وما قرّره لهم ، فكان مَنْ لا يشرب النبيذ يجلس عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره ؛ وبين يدي كل منهم الفواكه الرطبة واليابسة والحلاوة ، وستارة الغناء مضروبة ؛ فيجلسون وهو مشغول يرقّع ، وهم يتحدثون هَمْسًا وإشارة وإيماء ، إلى أن ينتفضي أَرَبُهُ من التراقيع فيستند ويندبهم بالحديث ويتمول : قد تجدد اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه . فيتمول كلُّ أحدٍ ما يراه وهو يسمع لهم ، حتى يستكمل الجماعة الذين عن يمينه ثم يعطف على شماله فيقول : مَنْ هناك قولوا ، فيقولون وهو يسمع ولا يردُّ على أحدٍ شيئا فلا يصوّب المصوّب ولا يخطئ المخطئ ، ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يمحض له الصواب ، ويصبح يرمى فلا يخطئ . فكانت أفعاله هكذا طول مدته ، لا يستبدُّ قط برأيه ولا يأنف من المشورة ، بل يقول : المستبدُّ برأيه واقفٌ على مداحض الزلل ، وفي الاستشارة كلُّ عمول الرجال . وبهذا تمَّ له ما كان يدبره حتى ترك فيما رame من الطرز الآثار الباقى ذكرها .

وجاء ارتفاع الدولة في أيامه إلى ألف دينار ، يتقف منها ويسكن ، وينصرف للرجال وللقصور وللعذارى وغيرها ، ويبقى بعد ذلك مائتا ألف دينار حاصلة ، يحملها كل سنة

إلى بيت المال . فحظى بذلك عند سلطانه ، وتمكّن منه ، وارتفع قدره حتى سأل أن يكتب على سكة نقش عليها : ضربت في دولة آل الهدى من آل طه وباسين ، مستنصر بالله جلّ اسمه ، وعبد الناصر للدين سنة كذا ، وطبعت عليها الدنانير مدة شهر ثم أمر المستنصر بمنعها ، ونهى أن تُسَطَّر في السَّيَر .

وكانت أيام نظره حوامل لتوالي الفتوحات وعمارة الأعمال . وكان شريف الأخلاق ، عالى الهمة كريم الطباع ، وطيء الأكناف ، مستحكم الحلم ، واسع الصدر ، ندى الوجه ، يستقلّ الكثير ، ويستصغر كل كبير . وكان إذا أعطى أهناً ، وإذا أنعم على إنسان أسبغ ، وإذا اضطنّع أحداً رفعه إلى ما تقصّر الآمال والأمانى عنه ، مع عظيم الصدقة ، وجزيل البرّ الذى عمّ به أهل البيوتات مما جعله لهم من المشاهرات على مقاديرهم . وكذلك الأشراف والفقراء وأهل الستر بالقرافة ، فكان يُجرى عليهم البرّ والكساء على يد بعض اليهود ، ويعرف بابن عُصفورة ، وكيل السيدة أم المستنصر ، فكانوا يظنون أنه من إنعامها ، فلما زالت أيامه انقطع عنهم ما كان يصل إليهم من البرّ ، فخطبوا ابن عُصفورة وقالوا : قد جُفينا من مولانا ومولاتنا ، فلو أدركتهما بنا فقال لهم : ماترون ما كان يعيشتكم حتى يتولى الله ناصر الدين أخى^(١) . فقالوا : نحن التمسنا من مولانا المستنصر ومولاتنا السيدة الوالدة ولم نلتمس من ناصر الدين . فقال : ما كان يعيشتكم ذاك إلا من الوزير . فعجبوا من ذلك وأكثروا من الترحم عليه .

ومما يذكر عنه أنه كُتِب : العالى بالله إدريس بن المعتلى بالله يحيى بن الناصر للدين الله على ابن حمود^(٢) من خالقه إلى مصر مكاتبة [٩٤ ب] يقول فيها : « من أمير

(١) فى الأصل : حتى يتولى الله ناصر دين أخى ، وعدلنا إلى المثبت لينضح النص ، وساعد على هذا أن « ناصر الدين » لقب للوزير .

(٢) وهو إدريس الثانى بن يحيى بن على بن حمود ، ثالث أمراء بني حمود ، وقد اتخذت هذه الأسرة لقب أمير المؤمنين ، وهم من ملوك الطوائف بالأندلس ومقر حكمهم ملقة . Mohammadan Dynasties.

المؤمنين العالى بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله . فعيب عليه بمصر قلة تصوّره ومعرفة
بأنه لا يجوز أن يكون أمير المؤمنين في زمان واحد اثنان . ثم ألجأت الضرورة إلى
مكاتبته بنحو مما كتب ، وكان البازورى إذ ذاك وزيرا ، فقال أنا أخلص هذه القضية
وأعنيها بمعنى دقيق لا يبين للمكاتب ، وكان صاحب حبل ؛ يكتب إليه : « من أمير
المؤمنين المستنصر بالله معذ إلى العالى بالله أمير المؤمنين خالقه » ؛ وهذا من طريف التخلصات
التي تميز بها .

وحكى عظيم الدولة متولى السر ، قال : كنت في جملة الموكلين على الناصر^(١)
ثم على البابلي بعده ، فكنت أرى من رئاسة الوزير الأول - يعنى البازورى - على شببته
ورجاحته وسكون حاشيته ، ومن طيش البابلي وخفته ونقصه ما أعجب منه ؛ وهو أنى
لما كنت موكلا بالبازورى كنت أراه ملازماً لعتبة باب المجلس في القاعة لا يتغير مكانه
منها . وكان البابلي يرأسه بما يمضى ويوصينا إذا مضينا إليه بالإزعاج عند فتح الباب
ولكننا قلقلته لنزعجه ونروعه بذلك ؛ فوالله ما كان يكثر ولا ينزعج . وإذا دخل
متولى السر يكون جلوسه منه في الاعتقال كجلوسه منه في حال نظره ، ويخاطب بما يرضى
فيجيب بسكون وهدوء وكأنه في الدست جالس . فدخل إليه في أكثر من ثلاثين صقلبيا
وبلغه ما أوصاه البابلي ، فأجابه ، ثم نهض وقال : ياسيدى صرفتنى من السر بغير ذنب
ثم أعدتنى إليه بغير مسألة ، فما كان سبب ذلك ؟ فرفع طرفه إليه كأنه يخاطبه من
دست الوزارة وقال له : كان صرفك في الأول برأى واختيارى ثم أعدتك لما عرفت من
مئل مولانا إلى استخدامك . فخرج متولى السر وهو يعجب من سكون حاله وقلة احتفاله
في الجواب ، مع حاجته إليه في مثل ذلك الرقت الذى يقدر فيه على الإحسان إليه وعلى
الإساءة ؛ وكان يظن أنه يعتذر إليه ، فلم يكن منه غير ما تقدم ذكره .

(١) المقصود به الوزير ناصر الدين البازورى .

وكان أكثر وقته صائماً وهو يتلو القرآن ولا يسأل عن طعام ولا شراب . وكان في حال وزارته كثير الصمت مُواصِل الإطراق ، ساكن النفس هادئ الطّباع ، فكان يُظَنّ أن ذلك من تيّبه وصلاح وإعجاب وقلة احتفال بالناس ؛ فلما صار في الاعتقال بعد القبض عليه كان حاله على ما كان تماماً ذكر . ومن عجب ما وقع أن خطير الملك محمد بن الوزير اليازوري كان ينوب عن أبيه في قضاء القضاة ، فلما سار إلى الشام بالعساكر الكثيرة معه كان في حالٍ من البَدَخ والتجمل في حال لا يمكن شرحها ؛ فلما نكب أبوه آل حاله إلى أن يرى في مسجد بمدينة فوة^(١) يخيط للناس بالأجرة ، وقد نزل به من الفقر والبلاء شداً وهو يبالغ في مطالبة^(٢) شخص بأجرة ما خاطه له ، والرجل يماطله . فلما ألح في المطالبة قال له : ياسيدنا اجعل هذا القدر اليسير من جملة ما ذهب منك في السّفرة الشامية . فقال : دع ذكر ما مضى . فسأله رجل عن ذلك فلم يجبه ، فسأل عبده ، فقال الذي ذهب منه في تلك السّفرة على نفقات سباطه مقدار ستة عشر ألف دينار . فسبحان من لا يزول ملكه .

وفيهما ولي الوزارة بعد اليازوري أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلي ، وكان أولاً من جملة أصحاب الدّواوين فقبض عليه الوزير أبو البركات ابن الجرجرائي ، وصادره على عشرة آلاف دينار أخذ خطه بها ؛ فباع مؤجّده بستة آلاف دينار وبقي عليه أربعة آلاف دينار ، فانطرح على اليازوري وسأله الشّفاة له ، وكان يومئذ ينظر لأُمّ الخليفة ؛ فسأل الخليفة له في ذلك ، فوقّع بمسامحته منها بألفي دينار ، فلما صُرف الوزير أبو البركات وتولّى اليازوري الوزارة وقّع بمسامحة البابلي بالألفين الباقية ، واستخدمه في التوقيع ، وردّ إليه ديوان تنيس ودمياط ، وديوان الخاص وغيره من الدّواوين ، حتى كان في يده ستة

(١) مدينة تقع قرب رشيد بينها وبين البحر ستة فراسخ . معجم البلدان : ٦ : ٤٠٦ .

(٢) في الأصل : يطالب في مطالبة . . .

دواوين . وكان رُسيم لأصحاب الدواوين أن يحضروا كل يوم بين يدي الوزير ، فرفع منزلة البابلي عن ذلك وميزه عن أصحاب الدواوين ، فكان لا يحضر عنده إلا في كل ثلاثاء من الجمعة ؛ فإذا حضر حُجب كل أحد من الرؤساء ، فلا يدخل إلى الوزير أحد مادام عنده . فمهما [١٩٥] قرره مع الوزير لا يَنْتَمِض . وإذا عرض له في باقي الجمعة أمرٌ كتب رُقعةً إلى الوزير فيجيبه في تضاعيف سُطوره ، ففعل الأكفاء بالأكفاء . وبلغ جاريه على ما بيده من الدواوين والتوقيع في كل سنة عشرة آلاف دينار . وكتب مرة إلى الوزير اليازوري رُقعة يذكر فيها أنه ليس له دار يسكنها ، وأن بجوار داره حماماً سُلطانيا من جُملة المقبوض عن تركة أمير الأمراء رفق ، بذل فيها خمسمائة دينار ؛ وسأل التوقيع بمبايعته منه على أن يُقْتطِع ثمنه من جاريه ، مائة دينار في الشهر ؛ فوقَّع له بذلك ، ثم تقدَّم إلى متولَّى بيت المال بأن يكتب له منه رسداً بخمسمائة دينار ، ووهبها له . فكتب رُقعة ثانية أنه لما شرع في بناء الدار احتاج إلى ما يكمل به عمارتها ، وأن في المقبوض من أمير الأمراء أيضاً من الأخشاب والرُخام ما يسأل الإنعام عليه منه بما يَعمُرُها به ؛ فوقَّع بتسلم جميع ذلك إليه . فعمر الدار ، وخدمه فيها جميع مَنْ في الدولة ؛ فجاءت تضاهي القصور .

واتفق أنه مرض في بعض السنين مَرَضَةً أَشَقَى فيها على التَّلف ، فكتب إلى الوزير اليازوري رُقعةً يذكر فيها ما انتهت حاله إليه ، وأنه على آخر رمق ؛ وأن عايله من الدَّين ثلاثة آلاف دينار ، ويخاف إن حدث به حادثُ الموت أن يُعْنِتَ الغُرماءُ ولديه ؛ ويسأل تمام الاصطناع بالمنع منهما ، وأن يقرَّر حالهما في القيام للعُرفاء بما تصل قدرتهما إليه ويُنَجِّمَ الباقي عليهما . فلما وقف الوزيرُ عليها استرجع وتخمَّم له ، وقال : ما ظننَّا إلا أنا قد أغنيانا أبا الفرج ، وأنَّ حاله لم تصل إلى هذا الحدِّ ! ثم رفع رأسه إلى أبي العلاء عبد الغنى بن الضَّيف ، وكان يحمل دواة الوزير ، ولقبه بالصادق المأمون ، وقال :

أسرع إلى أبي العباس الشاشي ، وكان يتولى ديوانه ؛ فلما حضر قال : ما في حاصلك من إقطاعنا ؟ فقال : ثلاثة آلاف دينار وكسر ، فأحضرها ، وقال لأبي العلاء : خذ هذه الثلاثة آلاف دينار وأمن بها إلى البابلي وخصه بسلامنا ، وقل له : قد سؤأتنا بما ذكرته من مرضك وما انتهت إليه حالك ، والله تعالى يهب عافيتك ولا يغمنا بك . فأما ما سألت من مراعاتك في ولدتيك والمنع منهن ، فلو لم تسأل في ذلك حفظناك فيهما وراعينا هما لك . وأما ما ذكرته من دينك فقد أنفذنا إليك ما تمضيه به . فلما أخذ المال وخرج من القبة قال ارجع يا عبد الغني ، فعاد إليه فأنخذ درجاً^(١) ووقع إلى ديوان الخاص بثلاثة آلاف دينار ، وكان له فيه إقطاع ، وقال امض إلى الجهبذ^(٢) بهذا التوقيع فإن كان في حاصله هذا القدر ، وإلا قل له يقترض من بيت المال إلى أن يستخرج شيئاً فيحمله إليه به عوضاً عنها ؛ واحمل الجميع إلى البابلي . فلم يحتمل أبو العلاء الصبر عن الكلام وقال : ياسيدنا ، ما يُقْنِعُكَ تحمل إليه ثلاثة آلاف دينار حتى تضيف إليها مثلها فتصير ستة ! فقال : يا وحش إذا قضى دينه بهذه الثلاثة الآلاف ما يحتاج أن يستدين بعدها ، فينفق من هذه الأخرى ولا يستدين . فقال له : والله ياسيدنا إنك لأكرم نفساً من البرامكة ، لأن أولئك كانوا يجودون من سعة وأنت تجود من ضيق ، ولانسبة بين ما تنظر فيه وما كانوا ينظرون فيه . وخرج فأتى وصلها إليه . فلما قبض على اليازوري كان أعدى العالم له ، وكفر نعمته وإحسانه ، وتجرد له حتى قتله .

وحكى فخر الدولة قال : استدعاني مولانا المستنصر وقال لي يا فخر الدولة ، هل

(١) والجمع درج ، الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، يكتب فيه ويلف . وكانت الأوصال في بعض المراحل عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير . السلوك : ١ : ٧٠ نقلنا عن محيط المحيط ؛ صبح الأعشى : ١ : ١٣٨ .

(٢) الجهبذ كاتب يختص بقبض المال وكتب الوصولات به وعمل الرزنامجات والختمات ، ويطلب بما يقبضه ويخرج ما يرفع من الحساب اللازم له : قوانين الدواوين : ٢٠٤ .

يكون في اختيار الإنسان إلى مَنْ تطمح إليه الأبصار أو تتطلع إليه النفوس أَوْفَى من شخص البابلي ، مع شَيْبَتِهِ وظاهر سمته وهيبته ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين . فقال : والله لقد ظننت أَنَّ الدولة تتضاعف قدرتها بنظره ، وينضاف إليها مثلها بحسن تدبيره وَأَنَّ من وراء هذا الشخص ما وفي عليه ؛ فاذا ثيابه لا تَسَع رقايعه وُعْمَتُهُ ، والحياة قد نشفت قرعته . وذلك أَنَّ اليازورِيَّ أَقام في خدمتنا عشر سنين عددنا عليه ثمانية عشر ذنبا ، وَأقام البابليُّ الذين وسبعين يوما نَقَمْنَا عليه تسعة عشر ذنبا ، مع ظاهر كذبه وقلة [٩٥ ب] احتشامه عندي ؛ وذلك أَنَّهُ ذكر لي مِنْ حال السقية ما كثر تعجُّبي منه وأنا بين تصديق الحكاية وتكذيبها ، واحتشمتُ أَن أَرَدَ عليه فيتحقق تكذبي له . وكان من إقدامه على قتل اليازورِيَّ ما كان ، وساءَ لَنَا ذلك إِذْ لم نكن نريد قتله . فلما كان بعد ذلك بأيام يسيرة أمرته بشئٍ فعارضني وضرب الأمثال بما يصدني عن ذلك الأمر ؛ فقلت له أَيُّها الوزير ، اعلم أَنَّ اليازورِيَّ لم تَطُلْ مدته معنا وتَذُبَّتْ قدمه إِلا أَنَّا كنا إِذا أمرناه بشئٍ انتهى إليه ولم يتجاوزهُ . فقال لي مجيبا : يامولانا و كَأَنَّ اليازورِيَّ كان ينقُط نقطةً إِلا ما أمثله له وأوقفه عليه ! يريد أَنَّهُ كان يدبِّر اليازورِيَّ ويعلمه ويفهمه ؛ فلم يتأمل ما عليه فيه ، ولا ذَكَر ما كان قاله . من حال السقية ؛ وأذكرني قوله هذا حال السقية ، فقلت له وقد اغتضت منه : يُخْرِس الله الوزير ، فَإِذَا كانت السقية برأيه ! فلما سمع ذلك مني دُهِش وقال : أعوذ بالله يامولانا ولكنني كنت أَبْصُرُهُ صواب الرأي ، وأشير عليه بما فيه حميدُ العاقبة . فحينئذ ذلك تحققت من كذبه على الرجل ما كنت شاكا فيه . ووجهُ كذبه فيما حكاه من ذلك أَنَّ الرئيسَ الجليل القدر إِذا أراد أَن يَهْمَ بِمثل هذا الأمر في سائسه أو مَنْ يجرى مجراه لم يكذب يُعْلِم ولَدَهُ بما يريده منه ، فكيف إِذا عزم على فعل ذلك مع مثلي ، هل يسوغ أَن يُطْلَعَ أَحداً عليه ؟ ومع هذا فما الَّذِي يدعوه أَن يخرج بذلك إلى غيره ، وربما نمَّ عليه وتقرَّب إلى بإطلاعي عليه ؛ وإِلاَّ تولى بنفسه مع إكثاري كان من زيارته وسُكُونِي إليه ، وأنى لم أَنَّهُم بذلك قطُّ فآخذ حذري منه ، وكان بهذا الحكم يتمكن من بُلُوغ غرضه مني بحيث

لا يعلم به أحد . فتحتقن لى كذبه فيما حكاها ؛ وهذا أقوى الأسباب فى صرفه ، لأن من ليس له عقل يميز به ما يخرج من فمه ، لاسيما فى مثل هذا الأمر الخطر الكبير ، لم يَجْزُ أن يُوثق به فى تدبير مزيلة ، والخوف من جنائته على الدولة برقاعته ونقص عقله أكثر من الطمع فى الانتفاع بنظره .

وكان صرفُ البابلى من الوزارة فى شهر ربيع الأول وله فى الوزارة اثنان وسبعون يوما ؛ فلما صُرف قبض عليه واعتقل . وكان النهار لا يكاد يرتفع ويتأخر ما يُحمَل إليه من الطعام إلا ويستغيث ويقول : ما يتم حبسٌ وجوع . وكان يَبْدُو منه فى محبسه من القول ما يعرب به عن مستحكم الرقاعة والجهل ، فكان الموكلون به يتمجبون من فَرَق ما بينه وبين اليازورى ، فإنَّ ذلك كان ساكن الطباع كثير الصمت شريف النفس مع حداثة سنّه ، وهذا شيخ يظهر منه من الخفة والطيش والجهل مع الشيخوخة ما يُضحك منه .

ففيها تولّى الوزارة بعد البابلى أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين بن المغربى^(١). وفيها تولّى قضاء القضاة عَوْضاً عن اليازورى أبو على أحمد بن عبد الحكم بن سعيد ، إلى ذى القعدة ، وصُرف بآبى القاسم عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن المليجى . وتولى المؤيد فى الدين أبو نصر هبة الله بن موسى داعى الدعاة .^١

(١) وكان قد هرب من العراق أثناء فتنة الباسيرى ، فذم للمتنصر بالله الفاطمى فمل الباسيرى وخوفه من سوء عاقبته . وأبر الفرج هذا أبو القاسم الحسين بن على المغربى الذى كان قد ولّى الوزارة فى مصر ثم هرب إلى العراق . وقد تولى أبو القاسم هذا وزارة مياfarقين للأثير أحمد بن مروان الكردى ، نصر الدولة ، صاحب ديار بكر ومياfarقين . النجوم الزاهرة : ٥ : ١١ ، ٦٩ .

فيها قصد الأمير أبو الحارث أرسلان البساسيري الموصل ومعه قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العُقَيْلي أمير الغرب فملكها^(١). وخرج إليه السلطان ركن الدين أبو طالب طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق ، فنارقاها ، واتجه طغرل بك إلى نصيبين فخالف عليه أخوه لأمه إبراهيم بن ينال وسار إلى همدان ، فرجع في إثره ؛ وتلاحقت الأتراك ، فاستدعى الخليفة القائم ديبس بن مزيد ، فوصل إليه وقد أُرْجف بمسير البساسيري إلى بغداد فعظم الخوف منه ، فرجع ديبس إلى بلاده^(٢). فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة من هذه السنة وصل البساسيري إلى بغداد ومعه قريش بن بدران ، وخطب في جامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمي وقطع الخطبة لبنى العباس ، وعقد الجسر وعبر عسكره . فلما كانت الجمعة الثانية خطب بجامع الرصافة للمستنصر . وكانت بينه وبين أهل بغداد حروبٌ آلت إلى هزيمة رئيس الرؤساء وزير القائم والعسكر ، وقتل جماعة من الأعيان . ووقع النهب في البلد ، ودخل أصحاب البساسيري إلى البلد ، ووصلوا إلى باب النوبّ الشريف^(٣) ؛ فركب القائم يسواده وعلى كتفه البردة، وبيده السيف [٩٦ ١] وعلى رأسه اللواء ، وحوله جماعة بني العباس والخدم بالسيوف المسئلة ، فرأى الأمر شديداً ، فعاد وأبعد المنظرة ،

(١) وكان بها إبراهيم ينال ، أخو طغرل بك السلجوقي ، ثم خرج عنها قاصداً بلاد الجبل ، فأدرك طغرل بك هذا أن إبراهيم قد عصاه . الكامل : ٩ : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) كان ديبس قد قدم بغداد إستجابة لأمر الخليفة ومعه من العرب - رجاله - مائة ، فأُرْجف بوصول البساسيري فعرض ديبس على الخليفة أن يخرج معه عن بغداد إلى واسط ليستعين بصاحبها ، حليفه ، على قتال البساسيري ، فلم يقرر أمر ؛ فخرج ديبس ، بحجة أن العرب لا يريدون المخاطرة بالبقاء في بغداد ، على أن ينتظر الخليفة على نهر ديال ، وانتظر هناك ثلاثة أيام فلم ير أثراً للخليفة أو رجاله ، فعاد إلى بلاده . الكامل : ٩ : ٢٢٣ . - وهامش الأصل هنا حاشية تقول : « بخطه : هو ديبس بن علي بن مزيد بن مرتد بن الرنان بن عدى بن خالد بن مالك بن عدى بن مناد بن مالك بن عوف بن معاوية ، الأمير نور الدولة أبو الأغر الأسدي ، مات ليلة ثمانى شوال سنة أربع وسبعين وأربعمائة عن ثمانين سنة ، وكان أميراً نيفاً وستين سنة ، وقام بعده أبنته بهاء الدولة أبو كامل مستنصر » .

(٣) سر وصفه بهذا الوصف أن الملوك وقصاد بغداد كانوا يقبلون الأرض قرب ذلك الموضع ، قبل دخول بغداد ، إجلالاً للخلافة . السلوك : ١ : ١٠٢ .

ونابى رئيس الرؤساء : يا علم الدين قريش ، أمير المؤمنين يستدنيك . فدنا منه ، فقال رئيس الرؤساء له : قد آتاك الله منزلة لم ينلها أمثالك ؛ وطلب منه الأمان للخليفة القائم ، فأمنه . ونزل إليه الخليفة والوزير رئيس الرؤساء ، وصارا معه . فبعث إليه البساسيري : تُخَالِفُ ما استقرَّ بيننا ! فقال قريش : لا . وكنا قد نعاملدا على المشاركة في جميع ما يحصل لهما ؛ فاستقرَّ الأمر على أن البساسيري يتسلَّم الوزير رئيس الرؤساء وأن قريش ابن بدران يتسلَّم الخليفة القائم فيكون عنده . فبعث حينئذ قريش بالوزير إلى البساسيري ؛ فلما مثل بين يديه قال له : العفو عند القدرة . فقال البساسيري : أنت صاحب الطيلسان ماعفوت عن دارى وحرى وأطفالى ، فكيف أعفو وأنا صاحب سيف^(١) .

ثم إن قريش بن بدران سار في خدمة الخليفة ، وهو راكب بالصفة التي تقدَّم ذكرها إلى معسكره ، فأنزله في خيمة وهيأ له ما يقوم به ، ووقع النهب في دار الخلافة مدة أيام ، وأخذ منها مالا يُحصى كثرة ، وبُعث منها إلى مصر مندبل القائم الذى عممه بيده ، قد جُول في قالب رخام لكيلا ينحل ، مع ردايه ، والشباك الذى كان يتوكأ عليه ؛ فعُمل في دار الوزارة بالقاهرة . وأما العمامة والرداء فبعثهما السلطان صلاح الدين يوسف ، لما استولى على القصر ، إلى الخليفة المستضى ببغداد مع الكتاب الذى كتبه على نمنسه القائم وأشهد على نفسه العُدُول فيه أنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود فاطمة الزهراء . وحمل أيضا إلى القاهرة الذخائر والكتب والقضيب والبُرْدَة . وسلَّم قريش الخليفة إلى ابن عمه مُهَارِس بن المجلى^(٢) ، وكان رجلا متدينا ، فحمله في هودج إلى مدينة عانة وأنزله بها ؛ وفر أصحاب الخليفة القائم إلى طُغْرَيْك فصاروا في جملته

(١) يذكر ابن الأثير هذه الواقعة بنفس هذه الألفاظ تقريبا ، وي زيد أن البساسيري امتقبل الوزير بقوله : مرحبا بملك الدول ومغرب البلاد . الكامل : ٩ : ٢٢٤ . وزاد ابن تغرى بردى : مرحبا بملك الدولة وملك الأم ومغرب البلاد وبيد العباد . النجوم الزاهرة : ٥ : ٩ .

(٢) بهامش الأصل تعريف به يقول : « بخطه : مهارش بن المجلى بن علي بن مختار بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المرضى ، أبو الحارث ، أمير العرب بالحديثة وعانة وماء الانبار ؛ أقام عنده الخليفة القائم بأمر الله إلى أن عاد إلى مستقره . وتوفى في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن ثمانين سنة . وكان كثير الصدقة » . اهـ . ويقول صاحب النجوم =

فلما كان يوم عيد التحرر ركب البساسيري إلى المصلّى وعلى رأسه ألوية المستنصر ، وقد استمال الناس بكثرة الإحسان وإجراء الأرزاق ، وكسر منبر المسجد الجامع ببغداد وقال : هذا منبر نحس أعلن عليه بغض آل محمد عليهم السلام ؛ وأنشأ منبرا آخر وخطب عليه باسم المستنصر . ثم أخرج الوزير رئيس الرؤساء أبا القاسم على بن المسلمة وهو مقيّد وعليه جبة صوف وطرطور أحمر من لبد وفي عنقه مخنقة ، فشهره ثم أعاده إلى المعسكر وقد نصبت له خشبة ، فألّيس جلد ثور طرى ، وجعل في فكيه كلابين من حديد وعلّقه بهما ؛ فبقى يضطرب إلى آخر النهار حتى مات ، وعمره نحو من ثلاث وخمسين سنة^(١) ، وكان حسن التلاوة للقرآن جيّد المعرفة بالأدب .

ولما ورد الخبر بذلك إلى المستنصر سرّ سُرورا كثيرا ، وزيّنت القاهرة ومصر وجاءت نسبُ الطبالة ، فغنت بالطبل في القصر بين يدي المستنصر :

يا بني العباس ردّوا ملك الأمر معد^(٢)
مُلُكُكُمْ مُلُكٌ مُعَار^(٣) والعواري تُتَرَدّ

فقال لها المستنصر : تمنّى ، فلكِ حكمك ؛ فسألت الأرض المجاورة للمقس ، فاقطعها إيّاها ، فعُرقت بها وقيل لها إلى اليوم أرض الطبالة^(٤) . وأمر المستنصر في أن يحمل إلى مُهَارِش

= الزاهرة : « مهارش البدوي من مجلى الأمير أبوالخارث ، كان كثير الصلاة والصوم والصدقة صالحا محبا لأهل العلم . وعاش نيفا وثمانين سنة » . اهـ . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩٣ . وعانة بلدة بين الرقة والفرات ، على فراسخ من الأنبار ، وتمد في أعمال الجزيرة وتشرف على الفرات قريبا من حديقة النورة التي تعرف أيضا بحديقة عانة وحديقة الفرات ، وهي بدورها على فراسخ من الأنبار . معجم البلدان : ٣ : ٢٣٥ - ٢٣٧ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٩ .

(١) وفي النجوم الزاهرة : وجعل في رقبته قلائد كالمسحرة وطيف به بالشوارع وخلفه من يصفه ، ثم سلخ له ثور وألّيس جلده وخيط عليه وجعلت قرون الثور في رأسه . النجوم الزاهرة : ٥ : ٦ - ٧ .

(٢) في الأصل : قد ملك . . . وهو خطأ عروضي .

(٣) في النجوم الزاهرة : ملُكُم كان معاراً . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢ .

(٤) ويذكر المقرئ أنها كانت من أحسن منزهات القاهرة . وتحد الآن من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكتها ، ومن الشرق بشارع بورسعيد - شارع الخليج . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢ : حاشية : . نقلنا من المخطوط : ٢ : ١٢٥ ؛ ويزيادة توضيحية .

عشرة آلاف دينار يُسَيَّرُ إليه الخليفة القائم على حالٍ جميلة ؛ وعزم على أنه إذا وصل تلقاه أحسن لقاء وبالغ في إكرامه . ويقال إنه بنى القصر الغربى لينزله فيه ، ويحمل إليه ما يُنْسِيه به ما كان فيه من إقامة الرّواتب السنية ، وأن يقرّر له في كل يوم مائة دينار ؛ وأنه إذا ركب المستنصر في أوقات ركوبه قدّمه بين يديه يحجّبه . فإذا أقام على ذلك مدة ، وبات وانتشر في الأقطار خبرُ ذلك خلع عليه وعمد له ألوية الولاية للعراق ، وكتب عهده بتقليده إياه ، وسيّره إليه ، وأعادته إلى مملكته وخلافته من قبله . فمنعه حادثُ القدر قبل إدراك ذلك . وكان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيرى لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرفه بإقامة الخطبة له ببغداد كان الوزير حينئذ أبو الفرج محمد بن المغربى ، وهو ممن فرّ من البساسيرى وصار إلى القاهرة ، فحذّر المستنصر من البساسيرى وخوّفه عاقبته ؛ فتكرّرت أجوبته ملّة ، ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمّله [٩٦ ب] البساسيرى ؛ ثم قدم طغريلك فانتصر عليه .

وفيهما بنيت القبة التى بصحن جامع دمشق ، شرقى الجامع على باب مشهد على ، وكتب عليها اسم المستنصر .

وفيهما وليّ المستنصر ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان دمشق فى شهر رجب (١)

(١) فوصلها فى منتصف رجب ؛ وهو الأمير المظفر ناصر الدولة وسيفها ، ذو الهدين ، أبو محمد الحسن بن الحسين . وهذه هى ولايته الثانية ، وكانت الأولى فى سنة ٤٣٣ . ذيل تاريخ دمشق : ٨٣ ، ٨٦ .

سنة احدى وخمسين وأربعمائة (١) :

فيها سار الأمير أبو الحارث البساسيري من بغداد فملك البصرة وواسط ، وأقام بهما الدعوة للمستنصر ، وخطب له في عامة تلك الأعمال . وبلغ طغرلبيك ما كان من أخذ بغداد وقطع الخطبة العباسية منها ، فكاتب ألب أرسلان بن داود أخيه ، فقدم عليه في إخوته بعسكر كبير ، واجتمعوا على محاربة إبراهيم بن ينال ، فكانت الغلبة لطغرلبيك ، فأخذه أسيراً وقتله في تاسع جمادى الآخرة . وتوجه يريد بغداد ، وبعث إلى البساسيري وإلى قريش بن بدران يأمرهما برّد الخليفة القائم إلى بغداد ، وإقامة الخطبة له على عادته ، وردّه إلى تحت خلافته ، ويعدّهما أنّهما إنّ فعلا ذلك رجع عن العراق ولم يدخل بغداد ، وأنه يتقنع بأن يُخطب له فيها وتضرب السكّة باسمه . فامتنع البساسيري من ذلك وأبى إلا الإقامة على ما هو عليه . فسار طغرلبيك يريد بغداد فأحذر البساسيري أولاده وحرّمه من بغداد إلى واسط ونوى العود . وعند ما قارب طغرلبيك بغداد بعث إلى قريش يشكر ما كان من صنيعه مع الخليفة القائم ، وجهز إلى بكر بن فورك لإحضار الخليفة ؛ فوافى حلة بدر بن مهمل وقد وصل الخليفة وابن مَهَارَش في تلك الساعة ، فركب هو وابن فورك وأركبا الخليفة وخدماه ، وأتته هدايا بدر .

وبعث طغرلبيك بوزيره عميد الملك أبي نصر منصور الكُندري^(٢) والأمراء والحُجّاب

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من فبراير سنة ١٠٥٩ .

(٢) بهامش الأصل تعليقه نصها : « بخطه : منصور بن محمد بن نصر أبو نصر الكندري عميد الملك . وقيل محمد بن أبي صالح محمد بن منصور الكندري الحراجي ، من بني شيان . ولد بناحية كندر من قرى نيسابور في سنة خمس عشرة وأربعمائة ؛ قرأ الأدب وخدم السلطان طغرلبيك فنقم عليه وخصاه ثم رق له واستوزره ، وقدم معه بغداد ، فلقبه الخليفة القائم بأمر الله وزير الوزراء . وكان يتكلم بالعربي والفارسي والتركي ؛ وله نظم ونثر جيد ؛ ويعرف الكلام على مذهب المعتزلة . ولما مات طغرلبيك وولى بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود أقره على وزارته ثم عزله بنظام الملك بعد شهرين ، وأخرج من الري . وأخذ جميع ضياعه وفرشه وغلّياته ، ثم أمر بقتله ، فقتل في مرو الروذ صيراً بالليف ، وحمل رأسه إلى كرمان في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة هـ . ٨١ .

بالخيام الكثيرة والسرادقات العظيمة ، والخيول العدة بالمراكب الذهب ، إلى الخليفة القائم ، فرحل وهم في خدمته ، وقد خرج طُغْرَيْكُكُ إلى لقائه ، فعندما شاهده وقع إلى الأرض يقبلها ، ثم قام وهنأه بالسلامة ، وأظهر السرور الزائد والابتهاج الكبير ، واعتذر عن تأخره بما كان من عصيان إبراهيم ينال . فقلده الخليفة بسيف كان قد تأخر عنه ، وصار معه طُغْرَيْكُكُ إلى بغداد وجلس على باب النوبي الشريف مكان حاجب الباب حتى وصل الخليفة ، فعندما شاهده مثل قائما وأخذ بلجام بغلته حتى انتهى إلى باب الحجرة الشريفة ، وذلك في يوم الاثنين لخمس بقين من ذي الحجة .

ثم عاد طغرلبيك إلى معسكره وسير العساكر لمحاربة البساسيري وخرج في إثره ، فوافقت العساكر البساسيري ودبيس بن مزيد ، فكانت بينهم حروب آلت إلى انهزام دبيس ووقوع ضربة في وجه البساسيري سقط منها عن فرسه ، فأخذ ، وقتل ، وحملت رأسه إلى طغرلبيك فبعث بها إلى الخليفة القائم ، فطيف بها على قناة في بغداد للنصف من ذي الحجة^(١) ، وعلقت على باب النوبي . وأحيط بآموال البساسيري ونسائه وأمواله ، وجميع حواشيه وأسبابه ، وقتل في هذه الوقائع من الخلائق ما لا يحصى لهم عدد ، وفر دبيس إلى البطيحة^(٢) .

وقطعت الخطبة من بلاد العراق للمستنصر بعد أن خطب له ببغداد أربعين جمعة ، وعادت للقائم كما كانت . وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية ، فإن الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل لاستيلاء الترك عليه ، ولم يبق بيدهم غير ملك مصر خاصة

(١) يقول ابن الأثير : « فوصل منتصف ذي الحجة سنة إحدى وخمسين ، فنظف وغسل وجعل على قناة وطيف به ، وصلب قبالة باب النوبي . وكان في أسر البساسيري جماعة من النساء المتعلقات بدار الخلافة فأخذن وأكرمن وحملن إلى بغداد » .
الكامل : ٩ : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) أرض واسعة بين واسط والبصرة . تغلب عليها في أوائل أيام بي بويه أقوام من أهلها وتحصنوا بالمياه والسفن وجيرة تلك الأرض عن طاعة الدولة ، فصارت المياه لهم كالقلعة الحصينة إلى أن انقضت دولة الديلم ودولة السلاجقة . معجم البلدان : ٢ : ٢٢٢ - ٢٢٣ . وقد أراد دبيس يفراره إلى البطيحة أن يستفيد من تحصينها الطيعي .

ويقالُ إِنَّ الخليفة القائم بأمر الله كتبَ لَمَّا نُكِبَ كتاباً يشكو فيه ما يلقاه من البساسيري . نسخته بعد البسملة : « إلى الله العظيم من عبده المسكين . اللهم إنيك عالمٌ بالضمائر ، مطلعٌ على مكنونات الضمائر ؛ اللهم إنيك غني بعلمك وإطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي لك ؛ وهذا عبدٌ من عبيدك قد كفر نعمتك وما شكرها ، وألغى العواقب وما ذكرها ، أخفاه حلمك ، ومخّر بأناتك ، حتى تعدى علينا بغياً ، وأساء إلينا عتواً وعدواً . اللهم قلّ الناصر ، واغترّ الظالم ، وأنت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم ، بك نستعينُ عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، وقد تعزّر بالمخزيين ، ونحن نستعين بالله رب العالمين . اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ، ورفعنا ظلامتنا إلى حكمك ، ووثقنا في كشفها بكرمك فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين ، وأظهر قدرتك [١٩٧] فيه قدر ما نرتجيه ، فقد أخذته العزة بالإثم . اللهم فاستلبه عزته ، وملكنا بقدرتك ناصيته ، يا أرحم الراحمين . صلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين وسلم تسليماً . » . وبعث به إلى باب الكعبة ، وعُلّق بباب الكعبة ودُعي بما فيه ؛ فقتل البساسيري في ذلك اليوم .

سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة (١) :

فيها سارت العساكر من مصر إلى دمشق ، وكتب لِنَاصِرِ الدَّوْلَةِ أَبِي عَلِيٍّ الْحُسَيْنِ بْنِ حَمْدَانَ أَنْ يَكُونَ قَائِدَ الْجَيْشِ ؛ فَسَارَ مِنْ دِمَشْقَ بِعَسْكَرٍ كَبِيرٍ فِي سَادِسِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ يَرِيدُ مُحَارَبَةَ أَهْلِ حَلَبَ . وَكَانَتْ مَدِينَةُ حَلَبَ قَدْ أُقِيمَتْ فِيهَا الدَّعْوَةُ الْفَاطِمِيَّةُ ، وَأُشْقِطَتْ بِهَا دَعْوَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى أَيَّامِ الظَّاهِرِ بْنِ الْحَاكِمِ ، فَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا صَالِحُ بْنُ مِرْدَّاسَ ، أَحَدُ أُمَرَاءِ الْكَلَابِئِيِّينَ ، وَكَذُفَ أَمْرُهُ بِهَا حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَى دِمَشْقَ أَمِيرُ الْجِيُوشِ أُنُوشْتُكِينَ الدُّزْبَرِيُّ ، أَحَدُ الْغُلَمَانِ الْأَنْرَاكِ ، فَسَاسَ الْأُمُورَ ، وَأَطَاعَهُ كُلُّ مَارِقَ ؛ وَرَاسَلَ الْمُلُوكَ . فَتَنَابَذَهُ صَالِحُ بْنُ مِرْدَّاسَ وَجَمَعَ لَهُ الْعَرَبَ ، وَفِيهِمْ عِدَّةُ الدَّوْلَةِ حَسَّانُ بْنُ جَرَّاحَ ، وَسَارَ لِمُحَارَبَتِهِ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَقَائِعُ انْهَزَمَ فِيهَا حَسَّانُ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ ، وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ . ثُمَّ مَاتَ صَالِحُ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ شَبَلُ الدَّوْلَةِ نَصْرُ بْنُ صَالِحَ فِي حَلَبَ ، فَقَامَ بِمُنَابَذَةِ أَمِيرِ الْجِيُوشِ كَمَا كَانَ أَبُوهُ ، وَسَارَ لِقِتَالِهِ ، فَقُتِلَ ، وَمَلَكَ أَمِيرُ الْجِيُوشِ حَلَبَ فَأَقَامَ بِهَا رَضِيَ الدَّوْلَةُ مَنُجُوتَكِينَ ، أَحَدُ غُلَمَانِهِ ، فَأَقَامَ بِهَا سَنِينَ . وَمَاتَ أَمِيرُ الْجِيُوشِ فَتَغَلَّبَ عَلَى حَلَبَ ثَمَالُ بْنُ صَالِحَ بْنِ مِرْدَّاسَ وَمَلَكَهَا ، وَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ بَعْدَ أَمِيرِ الْجِيُوشِ مَقَامَهُ .

فلما كانت وزارةُ الجَرَجَرَانِيِّ غَمَضَ طَرَفَهُ عَنْ ثَمَالِ ، وَرَأَى أَنَّ مُوَادَعَتَهُ أَخَفُّ مِنْ إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي مُحَارَبَتِهِ ، فَكَتَبَ بِوَلَايَتِهِ وَقَرَّرَ عَلَيْهِ الْحَمْلَ فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَتَمَادَى ذَلِكَ إِلَى أَيَّامِ وَزَارَةِ الْيَازُورِيِّ فَلَمْ يَرْضَ بِهَذَا ، وَرَأَى أَنَّ الْحِيلَةَ أَبْلَغُ فِيمَا يُوَثِّرُهُ ، لِأَنَّهُ إِنْ رَامَ صَرْفَهُ لَمْ يُطِيقْ ذَلِكَ ، وَإِنْ نَابَذَهُ أُلْزِمَ كُلِّفًا كَثِيرَةً . فَاسْتَعْمَلَ السِّيَاسَةَ وَالتَّدْبِيرَ الْخَفِيَّ ، وَنَدَبَ لِذَلِكَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ صُورَ لَهُ بِهَا رِثَاسَةٌ وَوَجَاهَةٌ ، يَقَالُ لَهُ عَيْنُ الدَّوْلَةِ عَلِيُّ بْنُ عِيَاضَ ، قَاضِي صُورَ ، فَسَاسَ الْأَمْرَ وَأَحْكَمَ التَّدْبِيرَ فِيمَا قَرَّرَهُ مَعَ كَاتِبِ ثَمَالِ بْنِ صَالِحَ وَأَوَعَدَهُ بِهِ ، حَتَّى

(١) وَيُؤَافِقُ أَوَّلَ الْمَهْرَمِ مِنْهَا السَّادِسَ مِنْ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٠٦٠ .

نزل من قلعة حلب وسلّمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن مُلهم وإلى الخليفة المستنصر . وسار من حلب يريد مصر للقاء الحضرة ؛ فلما بلغ رفح اتصل به خبير القبض على اليّازورى ، فقال والله إنى أموت بحسرة ونظرة إلى مَنْ استلبنى من ذلك الملك ، وأخرجنى بلا رغبة ولا رهبة إلاّ بحُسن السياسة ، وإن رام ذلك منى فليس يتعذر عليه .

ورجع ثَمَال إلى حلب ، فاتفق في غيبته قيامُ أهل حلب وتسليم البلد إلى عز الدولة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، في مستهلّ جمادى الآخرة من هذه السّنة ، فحضر ابن مُلهم بالقلعة إلى أن سار إليه ناصر الدولة بن حمدان ، فكانت بينهما حروب كبيرة على قنسرين^(١) آلت إلى أن انكسر ناصرُ الدّولة كسرة خفيفة ، فأصابته ضربة شلّت منها يده ، ورجع منهزماً في مستهل شعبان . فقال عبد العزيز العكيك الحلبي وقد مدح ناصر الدولة فلم يجزده .

وَلَيْتَن غَلَطْتُ بِأَن مَدَحْتُكَ ، طالبا جدواك ، معَ عِلْمى بِأَنَّكَ باخل
فالدّولة الزهراء قد غَلَطْتَ ، بِأَن نَعَمْتُكَ ناصِرَها ، وأنت الخاذل
إن تمَّ أمرك معَ يدٍ لك أصبحت شلاءً فالأشال عندى باطل^(٢)

وأما ابن ملهم فإنه بعث إلى أسد الدولة أبي ذؤابة عطية بن صالح فسلمه حلب ، ودخلها في عاشر شعبان هذا ، وأقام بها يومه ثم خرج عجزاً عنها ؛ فوصل محمود في ثانی عشره وملكها .

(١) مدينة الشام ، وكورة ، بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، وكانت تعد من المواسم . معجم البلدان ١٦٨ : ٧ - ١٧٠ .

(٢) في الأصل :

إن تم أمرك مع يدك أصبحت شلاء فالأشال عنى باطل
ودو غير مستقيم وزنا وهنى ، وقد أمدنى الدكتور صلاح الدين الهادى ، مشكورا ، بالقراءة المثبتة بالمتن ،
نقلًا عن تاريخ ابن ميسر : ٢ : ١٢ ، إذ عثر عليه في أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه بكلية دار العلوم .

وفي تاسع رمضان صُرف أبو الفرج ابن المغربي عن الوزارة ، وأعيد إليها أبو الفرج
عبد الله بن محمد البابلي . وصرف عن قضاء القضاة عبد الحاكم بن وهب في جمادى
الآخرة ، واستقرَّ عَوْضه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أبي ذكرى ، في حادى عشرى
رجب .

وفيهما قدمت هدية المعز بن باديس ، فقُوِّمت بأربعين ألف دينار . منها درقة مرصعة
بالجوهر كانت للمهدى .

وفيهما قدم كتاب على بن محمد [٩٧ ب] الصَّلَحي بما هو عليه من القُوَّة وإقامة
الدعوة ، واستأذن في المسير إلى تهامة وأخذها ، فأجيب بذلك ، فسار إليها وأخذها .

وفيهما نزل محمود بن شبل الدولة ثمال بن صالح بن مرداس على حلب ، ومعه منيع بن
سيف الدولة ، سبعة أيام ثم رحل ، وعاد إليها وأخذها يوم الاثنين ثانى جُمادى الآخرة ،
وحصر القلعة إلى سادس رجب ورحل ، فملكها أصحابُ المستنصر . وفيها التقى ناصرُ
الدولة بن حمدان مع محمود بن شبل الدولة على القُنَيْدق^(١) ، فانكسر ابن حمدان ، ودخل
عطية حلب^(٢) وخرج منها ، وتسلمها محمود يوم السبت ثانى شعبان ، ثم وصل عمّه معز
الدولة فحاصر حلب مدة .

وفي هذه السنة سقط تنورُ قبة صخرة بيت المقدس وفيه خمسمائة قنديل ، فتطير الناس
وقالوا ليُكوَّنَنَّ في الإسلام حادث عظيم .

(١) القنيدق من أعمال حلب ، أصبحت تعرف باسم تل السلطان ، بينها وبين حلب خسة فراسخ . معجم البلدان :
٤٠٢ : ٦ - ٤٠٣ .

(٢) وهو أبو ذؤابة أسد الدولة عطية بن صالح ، المذكور قبل قليل ، خامس أسرة المرداسيين . ومعز الدولة الذى
يذكر بعد كلمات ، من نفس الأسرة وكان قد ملك حلب بين سنتي ٤٣٤ - ٤٤٩ ، ثم سقطت في أيدي رجال الفاطميين ،
ثم عاد إل ملكها سنة ٤٥٣ ليتولاها في السنة التالية أبو ذؤابة عطية المذكور . قارن أيضا : *Mohammadan Dynasties*

سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة (١) :

في ثالث محرم صُرف البابلي عن الوزارة ؛ واستقرَّ عبد الله بن يحيى بن المدبر .
وفي صفر تُوفّي قاضي القضاة ابن أبي ذكرى فاستقر في الحكم بعده أبو علي أحمد بن قاضي
القضاة عبد الحاكم بن سعيد في رابع عشره ، وصرف في خامس صفر (٢) . واستقرَّ عوضه
أبو القاسم عبد الحاكم بن وهيب المليجي ، ثم صرف في حادي عشر رمضان . واستقرَّ
عوضه أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعد بن مالك بن سعيد الفارقي ، واستخلف
ابنه عميد الملك أبا الحسن . وصُرف ابن المدبر عن الوزارة واستقرَّ بعده أبو محمد
عبد الكريم بن عبد الحاكم ، أخو قاضي القضاة .

وكان السبب في سرعة العزل وكثرة الولايات أنه لما قُتل اليازوري كثر السعاة في
الوزارة ، فما هو إلا أن يُستَخدم الوزير فيجعل نصب الأعين ، وتركب عليه المناصب ،
ويكثر الطعن عليه حتى يُعزل ولم تطل مدته ولا اتسع وقته ؛ فبلى بعده من يتفق له مثل
ذلك ، لمخالطة الناس الخليفة ومداخلتهم الرقاع والمكاتبات الكثيرة إليه ؛ وكان لا بُدَّ
على أحد مكاتبته . فأحبَّ الناس مخالطة الخليفة وجعلوه سوقاً لهم ؛ فتقدم كل سفساف ،
وحظي أوغاد عدّة ، وكثروا ، حتى كانت رقاعهم أوقع من رقاع الصدور والرؤساء والجلّة ،
وتنقلّوا في المكاتب إلى كل فن ، حتى إنّه كان يصل إلى المستنصر في كل يوم ثمانمائة رقعة ،
فتشابهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال . ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت
قوى الوزراء عن التدبير لِقِصر مدة كل منهم ، فإن الوزير منذ يُخلع عليه ويستقرّ إلى أن
يُصرف لا يفيق من التحرر ، فمن ابتغى به يؤذيه عند الخليفة ، وسعت عليه الرجال ،
فما يصير فيه فضلٌ عن الدفاع عن نفسه . فخرّبت الأعمال وقلَّ ارتفاعها ، وتقلّب الرجال

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من يناير سنة ١٠٦١ .

(٢) هكذا في الأصل . وهو أمر غير مقبول إذ أن هذا القاضي تولى في رابع عشر صفر فكيف يصرف في « خامس

صفر » .

على معظمها واشتَنَصُوا رَاخِيَّ ارتفاعها ، فأتضع الارتفاع ، وعظمت النفقات . ووقع اضْطِرَّاع الأضداد على السلطان ، وواصلوه باقتضاء مآلهم من المقرَّرات ، ولازموا بابَه ، ومنَعُوهُ من لَذَّاته . وتجروا على الوزراء واستخفُّوا بهم ، وجعلوهم غرضا لمساكنهم ، فكانت الفترات بعد صَرْفٍ من يَنْصَرِفُ منهم أطولَ من مدَّةِ نظر أحدهم ، والمستنصر يُوسِّعُهُمَ حِلْمًا واحتمالًا . فأطغى الرُّجَالُ ذلك وجَرَّأهم عليه ، حتى خرجوا من طلب واجباتهم إلى انهمسارِ ، فاستنَفَدُوا أمواله وأخلَّوْا منها خزائنه ، وأحوجُّوه إلى بيع ما عنده من العروض ، فكان يخرجها لهم لِتُبَاعَ ويشترىها الناس فيعترضونها ، ويأخذ مَنْ له درهم واحد ما يساوى عشرة ولا يمكن مطالبته . ثمَّ عَادُوا إلى تَقْوِيم ما يخرج ، فإذا حضر المقوِّمون أخافوهم ، فيقومون ما يساوى ألفًا بمائة فما دُونَهَا ، ولا يتمكن الخليفة من استيفاء ذلك ؛ فتلاشت الأمور واضمحَلَّ الملك . ثمَّ لَمَّا علموا أَنَّهُ لم يبق ما يَخْرُج لهم تقاسموا الأعمال وتشاحنوا على ما زاد من الارتفاع ، وكانوا يتنقلون فيها بحكم غلبة من يغلب صاحبه عليها . ودام ذلك بينهم سنواتٍ نحواً من ستٍّ ؛ ثم قصر النِّيل وغلَّت الأسعار غلاظاً بدَّدَ شمل الناس بأسرهم ، وفرَّقَ ألفتهم ، وشَتَّتَ كلمتهم وأوقع العداوة والبغضاء بينهم ، فقتل بعضهم بعضاً حتى ناء عصب الإقليم وعفت آثاره ، كما ستقف عليه فيما يأتي إن شاء الله .

[١٩٨] وفيها اصطلح معز الدولة وابن أخيه محمود بن شبل الدولة ، ودخل حلب في رابع عشر ربيع الأول . فلما كان يوم الجمعة لسبع بقين من ذى القعدة [توفى]^(١) ودُفِنَ بالقلعة بعد أن حاصر ابن أخيه ، فمالك بعده أخوه عطية ، [أبو ذؤابة]^(٢) .

وفيها مات بمصر مؤتمن الدولة أبو طاهر مسلم بن علي بن ثعلب ، فكتب أبو محمد بن سعد ، الشاعر الخفاجي ، من القسطنطينية إلى أهله بحلب يرثيه من أبيات :

أناي وعرض الرمل بيني وبينه حديث لأشرار الدموع مُذيع

ومات المعز بن باديس ، وملك بعده ابنه تميم^(٢) ، فطمع أصحاب البلاد بسبب العرب وتغلبهم على بلاد إفريقية .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح وإستعانة بما سبق .

(٢) أبو طاهر تميم بن المعز ، خامس أمراء بني زيري ، أصحاب تونس . معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties

سنة أربع وخمسين وأربعمائة (١) :

في ثالث المحرم توفي أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم في وزارته . وكان أبوه قاضي طرابلس فانتقل أبو محمد إلى مصر ، وكان فاضلا ؛ فرُدَّت الوزارة بعده إلى أخيه أبي علي أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد . ثم صُرف عن القضاء في صفر ببأي القاسم عبد الحاكم بن وهيب بن عبد الرحمن ؛ ثم صُرف أبو علي عن الوزارة ، واستُخدم سديد الدولة أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة ذي الكفایتين بن أبي الحسن علي بن محمد بن الحسن ابن عيسى العقيلي ؛ وكان أولا ناظرا على دواوين الشام ، فأقام في الوزارة إلى شوال ؛ وصرف عنها ببأي الفرّج البابلي المقدم ذكره .

وفيها تَوَلَّى مكيْنُ الدولة بن مُلْهَم طبرية وعكا ، وإمرة بني سليم وبني فزارة ، فسار إليها وتسلمها في صفر .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من يناير سنة ١٠٦٢ .

ذِكْرُ ابْتِدَاءِ الْفِتْنَةِ الَّتِي آتَتْ إِلَى إِخْرَابِ دِيَارِ مُصَرِّ

وفي هذه السنة ابتدأت الفتنة التي كانت سبباً لخراب الإقليم . وذلك أن المستنصر كان من عادته في كل سنة أن يركب على التَّجْبِ ومعه النساء والحشم إلى جُبِّ عميرة^(١) ، وهو موضع نزهة ، ويُغَيَّرُ هيئته ، كأنه خارج يريد الحج على سبيل الهزر والمجانة ، ومعه الخمر محمولٌ في الرِّوَايَا عوضاً عن الماء ، ويدورُ به سُقَاتُهُ عليه وعلى مَنْ معه كأنه بطريق الحجاز أو كأنه ماء زمزم . وقد أنشد الشريف أبو الحسين علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي المستنصر في ذلك صبيحة يوم عرفة :

فَمَ قَانَحَرِ الرَّاحِ يَوْمَ النَحْرِ بِالمَاءِ وَلَا تُضَحِّ ضَحًى إِلَّا بِصَهْبَاءِ
وَأَذْكُ^(٢) حَجِيجِ النَّدَامَى قَبْلَ نَفَرِهِمْ إِلَى مَنْى . فَضُفُّهُمْ مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ
وَعُجْ عَلَى مَكَةِ الرُّوحَاءِ^(٣) مَبْتَكِرَا قَطُفَ بِهَا حَوْلَ رُكْنِ الْعُودِ وَالنَّاءِ

فلما كان في جمادى الآخرة خرج على عادته ، واتفق أن بعض الأتراك جرّد سيفاً في سكرة منه على بعض عبيد الشراء ، فاجتمع عليه عدّة من العبيد وقتلوه . فغضب لذلك جماعة الأتراك واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر ، وقالوا ، إن كان هذا الذي قُتِلَ مِنَّا عن رضاك فالسمع والطاعة ، وإن كان قتله عن غير رضا أمير المؤمنين فلا صبرَ لنا على ذلك . وأنكر المستنصر أن قتله برضاه أو أمره ، فخرج الأتراك واشتدوا على العبيد يريدون

(١) في الجهة البحرية (الشمالية) من القاهرة المزينة ، وهو أيضاً بركة الحجّاج إذ كان الحجّاج يتجمعون بهذا الموقع قبل تحركهم للحج وعند عودهم . وعميرة بن تميم التجيوى ، الذى سُمى المكان باسمه ، من بَنِي الْقُرَظَاءِ . الخطط : ٢ : ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) بتسجيل الهزّة .

(٣) يقول ياقوت : لما رجع تبع من قتال أهل المدينة يريد مكة نزل بالروحاء فأقام بها فأراح وصمها الروحاء . وقال

أيضا : وإنما سميت الروحاء لانفتاحها وروحها . معجم البلدان : ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

محاربتهم ، فبرزت العبيد إليهم ؛ وكانت بين الفريقين حروب بناحية كوم شريك^(١) قُتل فيها عدّة ، وانهزم العبيد وقويت الأتراك ؛ هذا والسيدة أم المستنصر تُمدّ العبيد بالأموال والسلاح .

فاتفق في بعض الأيام أنّ بعض الأتراك وقف على شئ مما تبعث به أمّ المستنصر إلى العبيد لتعينهم به على محاربة الأتراك ، فأنكر ذلك وأعلم أصحابه ، فاجتمعوا وصاروا إلى المستنصر وتجروا عليه بالقول وأغلظوا في المخاطبة ؛ فأنكر أن يكون عنده من ذلك خبر ، وصار السيف قائما . فدخل على أمه وأنكر عليها ما تعتمد منه تقوية العبيد وإعانتهم على محاربة الأتراك . ثم انتدب أبا الفرج ابن المغربي ، الذي كان وزيرا ، فخرج ؛ ولم يزل يسعى بين الأتراك والعبيد حتى أوقع الصلح بين الفريقين^(٢) . فاجتمع العبيد وساروا [٩٨ب] إلى ناحية شبرا دمنهور^(٣) . فكانت هذه الكائنة أول الاختلاف بين طوائف العسكر .

وكان السبب في كثرة السودان بالقصر أن أمّ المستنصر كانت جارية سوداء قدم بها أبو سعيد التستري المقدم ذكره ، فأخذها منه الظاهر واستولدها المستنصر . فلما أفضت الخلافة إلى ابنها المستنصر ، ومات الوزير صني الدين الجرجرائي في سنة ست وثلاثين وأربعمائة استطالت أمّ المستنصر وقويت شوكتها ، وتحكمت في الدولة ، واستوزرت مولاهم أبا سعيد . وتوقفت أحوال الوزير الفلاحى معه ، فاستمال الأتراك وزاد في

(١) كوم شريك ، قرب الإسكندرية ، كان عمرو بن العاص أفنذ فيه شريك بن سمى بن عبد يغوث النطلى ، فتكاثر عليه الروم ، فخافهم على أصحابه ، فلبأ إلى هذا الكوم ودافعهم حتى أدركه عمرو واستنقذه . والكوم : الرمل المشرف . نفس المصدر : ٧ : ٣٠٢ - ٣٠٣ . انظر أيضا قوانين الدواوين : ١٧٣ ، ٢٢٧ إذ يذكر أنه من قرى خوف دسيس ناحية البحيرة .

(٢) يذكر النويرى ذلك في نهاية الأرب ويزيد قوله بعد الصلح : ولم تصف طائفة منهم للآخرى .

(٣) من ضواحي القاهرة ، وتعرف من أيام الأيوبيين باسم شبرا الخيمة ، وسميت شبرا دمنهور نسبة إلى مدينة لربية منها تحمل اسم دمنهور . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩ ؛ قوانين الدواوين .

واجباتهم حتى قتلوا أبا سعيد ، فحنقت أم المستنصر من قتله على الفلاحى ، ولم تنزل به حتى كان من أمره ما تقدم ذكره .

وأخذت فى شراء العبيد السود وجعلتهم طائفة لها ، واستكثرت منهم وخصتهم بالنظر ، وبسطت لهم فى الرزق ووسعت دليهم حتى أمطرتهم بالنعم ؛ وسار العبد بمصر يحكم حكم الولاة . وشرعت تغض من الأتراك وتظهر كراحتهم وانتقاصهم .

وتقدمت إلى الوزير أبى البركات الجرجائى أن يفرى العبيد بالأتراك ويوقع بينهم ، فخاف سوء العاقبة فى ذلك ولم يوافقها عليه ؛ فلم تنزل به حتى صُرف من الوزارة . واستقر وزيرها أبو محمد اليازورى فى الوزارة ، فأوعزت إليه بذلك ، فساس الأمور سياسة جميلة إلى أن انقضت أيامه . ووزر البابلى ، فأمرته بذلك ، فشرع فيه . وتغيّرت النيات ، وصارت قلوب كل من الطائفتين تضررُ سوء للأخرى ، حتى كان من الحرب ما قد ذكر ، ولم يزل ذلك حتى خرب الإقليم كله وهلك أهله كما سيأتى .

وفيهما توفى الشريف أبو الحسن إبراهيم بن العباس بن الحسن بن الحسين بن على بن محمد بن على بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد ولى قضاء دمشق مرتين . وفى سابع عشر ذى القعدة توفى القاضى الفقيه أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن على بن حكيم بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعى ؛ وكان يخلف القضاة فى الحكم بمصر . وكان إماماً محدثاً ، وله كتاب الشهاب ، وكتاب الخطط ، وكتاب أنباء الأنبياء ، وغير ذلك من المصنفات . وفيها توفى الرئيس أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر الطبيب . وتوفى المعز بن باديس بالقيروان فى رابع شعبان .

فيها رُدَّت الوزارة والحكم معاً إلى أبي علي أحمد بن قاضي القضاة عبد الكريم بن عبد الحاكم في ثالث عشر المحرم ، ثم صرف عنهما في سابع صفر ، وأعيدت الوزارة لأبي الفضل عبد الله بن يحيى بن المدبر ، والحكم إلى أبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب . وفي تاسع عشر جمادى الأولى توفي الوزير أبو الفضل عبد الله بن المدبر ، وقد تكررت ولايته للوزارة ، وسمع الحديث ، وكان فاضلاً أديباً ، وهو من ولد ابن المدبر متولياً خراج مصر في أيام ابن طولون . واستقر في الوزارة أبو غالب عبد الطاهر بن الفضل بن الموفق في الدين المعروف بابن العجمي ، ثم صُرف وقبض عليه في السابع والعشرين من شعبان . وأعيد إلى القضاء والوزارة جميعاً أبو محمد الحسن بن مجلى بن أسد بن أبي كدينة ، واستمر فيهما إلى خامس ذى الحجة ، فرتب مكانه جلال الملك أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم بن سعيد ، فاستخلف أخاه أبا الحسن علياً على القضاء .

وفيها ندب أمير الجيوش بدر الجمالي^(٢) لولاية دمشق ، وندب معه علي الخراج الشريف أبو الحسن يحيى بن زيد الحسنى الزيدى .

وفيها قدم الصليحي^(٣) مكة بعد ما ملك اليمن كله سهله وجبله ، وبرّه وبحره ،

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من يناير سنة ١٠٦٣ .

(٢) وألقابه التي يذكرها ابن القلانسي : تاج الامراء المظفر مقدم الجيوش شرف الملك عدة الإمام ثقة الدولة . ذيل

تاريخ دمشق : ٩١ - ٩٢ .

(٣) وهو أبو كامل عل بن محمد بن عل الصليحي ، « وكان شاباً أشقر اللحية أزرق العينين ، وليس كان باليمن أشقر أزرق غيره ، وكان متواضعا ، إذا اجتاز يقوم سلم عليهم بيده » . النجوم الزاهرة : ٥ : ٧٢ . وبلغ من ثقة المستنصر بالصليحي هذا أن لقبه : « الأمير الأجل شرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين » ولقبه أيضا : « منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين منجب الدولة وغرسها ذا السيفين نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين » . تاريخ الدولة الفاطمية د : ٢٤٠ .

وأقام بها وبمكة دعوة المستنصر ، وكسا الكعبة حريرا أبيض ، وردة حلية البيت إليه ، وكان بنو حسن قد أخذوها ومضوا بها إلى اليمن ، فاشتراها منهم ، وأعادها في هذه السنة . واستخلف على مكة محمد بن أبي هاشم ، وعاد إلى اليمن^(١) .

(١) يتبع كثير من المواضع الأخرى تبين . أن صاحب مكة بين سنتي ٤٥٣-٤٦١ هـ حمزة بن روحاش بن أبي الطيب دارود ، وخلفه سنة ٤٦١ هـ والياً ، إلى سنة ٤٨٧ هـ ، أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد تاج المال ، راجع الكامل : ١٠ - في مواضع متعددة ، المير لابن خلدون ، معجم الأنساب لزباباور .

سنة ست وخمسين وأربعمائة (١) :

في ثالث عشرى المحرم صُرف أحمد بن عبد الحاكم عن القضاء والوزارة . وتقلد الوزارة أبوالمكارم المشرف بن أسعد بن مقبل ، وفوض قضاء القضاء لأبي محمد الحسن بن مجلى بن أبي كدينة ، ثم صُرف ، وأعيدت الوزارة لأبي غالب عبد الطاهر بن الفضل ، وفوض القضاء لأبي الحسن على بن عبد الحاكم في سابع عشرى ربيع الآخر ؛ ثم صرف عن القضاء في خامس جمادى الأولى [١٩٩] بأبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب . ثم صُرف أبو غالب عن الوزارة واستدعى أبو البركات حسين بن عماد الدولة الجرجرائى من صور فحضر إلى مصر ووليها في مستهل رجب ، فأقام إلى العشر الآخر من رمضان وصُرف عنها ؛ وصُرف أيضا عن القضاء عبد الحاكم . وجُمعا معاً ، الوزارة والقضاء ، لابن أبي كدينة ، فباشرهما إلى رابع ذى الحجة ، فصُرف عن الوزارة وقرّر فيها أبو على الحسن بن أبي سعيد التستري ؛ وقرر في القضاء أحمد بن عبد الحاكم .

وفيهما فارق أمير الجيوش بدر ولاية دمشق فراراً من أهلها لثورتهم به ؛ فقرّر المستنصر بدله الأمير حصن الدولة أبا الحسن معلى بن حيدرة بن منزوبين النعمان الكنانى . وفيها قتل قُطْلُمُش بن إسرائيل بن سلجوق^(٢) ، صاحب قونية^(٣) وأقصر^(٤) ، فقام بعده ابنه سليمان ابن قُطْلُمُش وفتح أنطاكية

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٣ .

(٢) وكان مصرعه بالقرب من الرى في معركة بينه وبين ألب أرسلان ، سلطان السلاجقة ، وقد اشترك نظام الملك ، وزير ألب أرسلان ، في هذه المعركة . يقول ابن الأثير : « وجد قتلُمُش - بعد المعركة - ميتاً ملقاً على الأرض لا يدري كيف كان موته ، قيل إنه مات من الخوف » . الكامل : ١٠ : ١٢ - ١٣ . وكان قتلُمُش من كبار الأمراء السلاجقة ، وهو رأس الفرع السلجوقي الذى حكم آسيا الصغرى وعرف هذا الفرع باسم سلاجقة الروم . ويرسم اسمه بالطاء أيضا : قتلُمُش .

(٣) كانت في معظم الوقت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، وتقع داخل منطقة تلّال كبادوكيا . معجم البلدان : ٧ : ١٧٦

انظر كذلك : A History of the Crusades; Vol.I; the map ; P. 80

(٤) أر أقصرى أو أقصرى في نفس المنطقة المذكورة في الحاشية السابقة . نفس المصدر : P. 625 ، وكذلك

الخريطة ص : ٨٠ من نفس الكتاب

في النُصف من المحرم صُرف عن الوزارة أبو علي بن أبي سعيد ، وصرف عن القضاء أبو أحمد بن عبد الحاكم . وتولى الوزارة أبو شجاع محمد بن الأشرف بن أبي غالب محمد ابن علي بن خلف ، وكان أبوه أحد وزراء بني بُوَيْنَه ببغداد ، ثم صُرف عنها ثاني يوم ، واستقر في القضاء والوزارة جميعا أبو محمد بن أبي كدينة في حادي عشره ، فلم يُقِم غير أربعة أيام وصرف عنها في سادس عشره . وأعيد أبو شجاع محمد بن الأشرف إلى الوزارة ، وتقلد القضاء جلال الملك أبو أحمد بن عبد الكريم . فأقام ابن الأشرف في الوزارة إلى نصف ربيع الأول ، وصُرف ، وقرّر في الوزارة سديد الدولة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرعباني الرحبي ، ثم صرف في آخره . واستوزر ابن أبي كدينة ، وأضيف إليه القضاء أيضًا في نصف جمادى الآخرة ، فباشرها إلى نصف رجب ، وصرف عن الوزارة بأبي المكارم رئيس الرؤساء الشرف بن أسعد ، وعن القضاء بعبد الحاكم بن وهيب . ثم قبض على الوزير أبي المكارم في العشر الأخير من شوال ، وتولى الوزارة بعده الأثير أبو الحسن علي بن الأنباري فأقام شهرًا ، وصُرف في ذى الحجة عن الوزارة ، ولم يَعد إليها .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٠٦٤ .

سنة ثمان وخمسين وأربعمائة (١) :

في سادس عشرين منه صُرف ابنُ أبي كدينة عن القضاء واستقرَّ عَوَضُه جلالَ الملك أبو أحمد ، ونُعت بقاضى القضاة الأعظم . وفي تاسع ربيع الآخر أُعيد إلى الوزارة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرّعباني ، وصرف عنها في السادس عشر منه .

وفي جمادى الأولى ولَّى المستنصر أميرَ الجيوش بدرًا الشامَ بأسره ، فخرج إليها بعد ما أنفق عليه ألف ألف دينار . وفي جمادى الآخرة جمع القضاء والوزارة لأبي أحمد جلال الملك ، ثم صُرف بعد أيامٍ عن الوزارة ببأبي الحسن طاهر بن وزير ، فباشر أياما يسيرةً ، وصُرف ببأبي عبد الله محمد بن حامد التّئيسي ، وأقام يومًا واحدًا ، ثم صُرف وقُتِل . فاستوزر أبو سعد منصور بن زنبور^(٢) ، فلم يُقيم في الوزارة غيرَ أيامٍ قليلة وهرب ، فأقيم بعده أبو العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضّيف ، فباشر أياما يسيرة وصرف .

وكان دخولُ أمير الجيوش إلى دمشق في سادس شعبان ، وبلغ ما بلغت نفقة المستنصر عليه ألف ألف دينار^(٣) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من ديسمبر سنة ١٠٦٥ .

(٢) وكان نصرانيا فأسلم ، والنصارى يتكرون إسلامه واسمه أبو سعد منصور بن أبي ايمن سورس بن مكرواه بن زنبور . نهاية الأرب .

(٣) وهذه هي ولايته الثانية عليها ، وكانت الأولى سنة ٤٥٥ ، ولم يَقم طويلا آنذاك إذ قر منها بسبب ثورة أهل دمشق والعسكر عليه .

فيها قويت شوكة الأتراك واشتد بأسهم وطلبوا الزيادات في واجباتهم ورواتبهم ، وساءت أحوال العبيد وكثر ضررهم وهم يتزايدون ، حتى صار منهم بالقاهرة ومصر وما في ضواهيرهما من القرى نحو الخمسين ألف عبد ، ما بين فارس وراجل . وخلت خزائن أموال المستنصر وضعفت الدولة . فبعثت السيدة أم الخليفة المستنصر إلى قواد العبيد تغريهم بالأتراك ، وتحثهم على الإيقاع بهم ومحاربتهم وإخراجهم من مصر ؛ فجمع قواد العبيد وحشدوا طوائفهم ، وصاروا إلى شبرا دمنهور ، وساروا إلى الجيزة ؛ فخرج إليهم الأتراك يريدون محاربتهم ، وقد بلغت النفقة في تغليبتهم إلى الجيزة ألف ألف دينار . فالتقى الفريقان ، وكانت بينهما حروب انجلت عن كسرة السودان وهزيمتهم إلى الصعيد .

وكان مقدم طوائف الأتراك يومئذ ناصر الدولة أبو علي الحسن بن الأمير أبي الميحاء ابن حمدان ، فرجع بالأتراك إلى القاهرة وقد قويت نفسه وعظم قدره ، واشتدت شوكته ، وثقلت [٩٩ ب] وضائته . وتلاحق العبيد بعضهم ببعض واجتمعوا في بلاد الصعيد وهم في عدد يتجاوز الخمسة عشر ألفا ما بين فارس وراجل ؛ فساء ذلك الأتراك وأقلقهم ، فصار أكابرهم إلى المستنصر وشكوا إليه أمر العبيد . فأمرت أم المستنصر جماعة ممن كان عندها من العبيد أن يقتحموا على الأتراك فهاجمهم على حين غفلة وقتلوا منهم جماعة . ففر ابن حمدان حينئذ إلى ظاهر القاهرة ، وتسارع إليه الأتراك وقد استعدوا لمحاربة العبيد ، فخرج إليهم عدة من العبيد الذين كانوا بالقاهرة ومصر . فكانت بين الطائفتين حروب شديدة مدة أيام ، فحلف منذ ذلك ابن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل إماله أو عليه . وثبت كل منهما ، فكانت الكرة لابن حمدان على العبيد ، فوضع السيف فيهم وتجاوز الحد في كثرة

(١) ويرافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٦٦ .

قتلهم ، وتتبعهم في كل مكان حتى لم يدع في القاهرة ومصر منهم إلا قليلا ، وهم مقيمون بالصعيد والاسكندرية . فرأى ابن حمدان أن يبدأ محاربة من في الاسكندرية منهم ، فسار إليها ونازلها مدة ، وحصر العبيد بها ، وألح في مقاتلتهم حتى طلبوا منه الأمان ، فأقام على ولايتها^(١) رجلا من ثقاته . وانقضت هذه السنة كلها في قتال العبيد والأتراك .

وفي يوم عيد الفطر أفرج عن حميد بن محمود بن الجراح وحازم بن علي بن الجراح ، الطائيين ، من خزانة البنود بعد ما أقاما محبوسين مدة طويلة .

وفيهما قطعت دعوة المستنصر من اليمن بقتل الصليحي^(٢) وأعيدت دعوة بني العباس .

وأما الوزراء فلإن ابن أبي كدينة صرف في ثامن المحرم ، وولى أبو القاسم عبد الحاكم المليحي ، فأقام إلى سابع جمادى الآخرة ، وصرف ؛ وأعيد ابن أبي كدينة ، فأقام أياما وصرف ؛ وأعيد المليحي فلم يقيم سوى ليالي يسيرة وصرف ؛ وأعيد ابن أبي كدينة فأقام إلى ثامن عشر ذي القعدة ، وصرف بجلال الملك بن عبد الحاكم .

وفيهما قتل فتوح الشامى أحد قواد العبيد ؛ وكان المنفق حين قتل خمسمائة ألف دينار .

(١) في الأصل : على ولايته ، والمنبت أول .

(٢) يوافق ابن الأثير المقرري في أن الصليحي قتل هذه السنة ، ويشاركها في ذلك زامباور . ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه توفي سنة ٤٧٣ . راجع الكامل : ١٠ : ١٩ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ ؛ فارن أيضا لبن - بول :

Mohammadan Dynasties.

سنة ستين وأربعمائة (١) :

في المحرم خرج الأتراك مُبرزين إلى الرملة حين قتل شهاب الدولة ، وقد بلغت نفقه المستنصر ليهم ألف ألف دينار .

وفيه اشتد البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه وطعمهم فيه ، فانخرق تاموسه ، وتناقصت حرمة ، وقلت مهابته ؛ وتعتتوا به في زيادة واجباتهم . وكانت مقرراتهم في كل شهر ثمانية وعشرين ألف دينار ، فبلغت في هذه السنة إلى أربعمائة ألف دينار في كل شهر ، فطالبوا المستنصر بالأموال .

وركب ناصر الدولة الحسين بن حمدان ومعه جماعة من قواد الأتراك ، وحصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ، ثم اقتسموا الأعمال ؛ وركبوا إلى دار الوزير ابن أبي كدينة يريدون الأموال ، فقال : وأى مال بقى ؟ الريف في يد فلان والصعيد في يد فلان والشام في يد فلان . فقالوا : لا بُدَّ أن تُنفذ إلى مولانا وتطلب منه وتعلمه بحضورنا . فكتب الوزير إلى المستنصر رقة يذكر فيها حضورهم بألقابهم وما يطلبون ؛ فخرجت الرقة بخط المستنصر فيها مكتوب :

« أصبحت لا أرجو ولا أثق إلا إلهي ، وله الفضل

جدي نبيي ، وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل

المال ال الله ، والعبد عبد الله ، والإعطاء خير من المنع . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون^(٢) . » واعتذر بأنه لم يبق عنده شيء . فاضطروه إلى إخراج ذخائره وذخائر

(١) ويرافق أول المحرم منها الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٠٦٧ .

(٢) سورة الشعراء : آية : ٢٢٧ .

آبائهم وبهمها ، فأخذ يُخرج ذلك شيئاً بعد شيء ، وهم يأخذونها لأنفسهم بأيديهم ويشتمونها بأقلّ القم وأبخص الأثمان .

وسار ابن حمدان بجماعة الأتراك إلى الصعيد يريد محاربة العبيد ، وكان قد كثر شرهم وتزايد ضررهم ، وعم الكافة أذاهم وإفسادهم ؛ فاجتمعوا لحربه واستعدوا للغاية . فسار إليهم في شهر رمضان وقد بلغت النفقة عليه وعلى من معه ألف ألف دينار ؛ وكانت بينهما حروب عظيمة ووقائع عديدة انجلت عن كسرة الأتراك وهزيمتهم إلى الجيزة . فتلاق بعضهم ببعض وصاروا يدًا واحدة على المستنصر ، وألبّوا عليه ، واتهموه بأنه بعث إلى العبيد بالأموال في السرّ ليقويهم على محاربة الأتراك ، وجَّهوا له بالسوء من القول [١١٠٠] . فقال لهم إنه لم يبعث إليهم بشيء ولا أمدهم بمعونة . وأخذ الأتراك في لم شعثهم والتأهب لمحاربة العبيد ، حتى تهيأ أمرهم بعد أن أنفق المستنصر فيهم عوضاً عما نهب السودان لهم وضاع من أموالهم ألف ألف دينار . وساروا إلى قتالهم مرّة ثانية ، فالتقوا بهم وصابروهم القتال ووالوا عليهم الكرات حتى انهزم العبيد منهم ، وقُتل كثير من أعدادهم ، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وزالت حينئذ دولتهم .

وعظم أمر ناصر الدولة واستبدّ بالأمور ، فصرف ابن أبي كدينة من الوزارة وأعاد المليجي فلم يبق غير خمسة وصُرف : وأعيد ابن أبي كدينة ، وجميع له بين الوزارة والقضاء معاً في ربيع الأول ، فأقام فيهما إلى جمادى الأولى ؛ وصرف عن القضاء بجلال الملك ، فأقيم في منصب القضاء إلى سلخ رمضان ، فصُرف عن القضاء بالمليجي . فأقام المليجي قاضياً إلى يوم عيد النحر ، وصرف ، وتولى ابن أبي كدينة .

وفيهما كانت بدمشق حروبٌ بين أمير الجيوش بَدْر وبين عسكريته^(١) ، فكانت الحروبُ طول السنة في بلاد الشام وديار مصر قائمة لا تهدأ .

وسار الأمير قطب الدولة بَارْ طَغَان إلى ولاية دمشق ، ومعه أبو الطاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسين ، ناظرًا في أعمالها^(٢) .

وفيهما زُلزِلت مصرُ زلزلةً عظيمة ، حتى طلع الماء من الآبار وهلك عالمٌ عظيمٌ نحت الرُّذَم . وزال البحرُ بفلسطين من الزلازل وبعُدَ عن السَّاحل مسيرة يوم ، ثم رجع فوق عالمٍ كبيرٍ خرجوا يلتقطونَ مِنْ أرضه . وخربت الرَّملة خرابًا لم تعمُر بعده .

وفيهما أنْفِقَ في غير استحقاقٍ لمدَّة خمسة عشر شهرًا ، أوَّلُها عاشرُ صفر سنة ستين ، مبلغ ثلاثين ألف ألف دينار .

(١) وكانت الاضطرابات قد بدأت منذ تولى بدر الشام للمرة الثانية سنة ٤٥٨ هـ ، إذ قتل ولده بمسقلان فدخل هو إلى قصر الإمارة وأقام إلى أن تحركت الفتنة بينه من جهة وبين عسكريته ، ثم مع أهل دمشق وتحولت إلى حروب محلية في جهادى الأولى من هذه السنة ، سنة ٤٦٠ هـ . قارن ذيل تاريخ دمشق : ٩٣ .

(٢) يذكر ابن القلانسي أن بدرا ظفر بالشريف أبي الطاهر هذا بعد قليل ، فلما حصل في يده قتله سلخا ، فعظم ذلك على كافة الناس واستبشعوه . ويذكر ابن تفرى بردى مثل ذلك . ذيل تاريخ دمشق : ٩٤ ؛ انظر أيضا النجوم الزاهرة : ٨٠ : ٥ .

سنة احدى وستين وأربعمائة (١) :

فيها قوى تغلبُ المارقين على المستنصر واستباحوا ما وجدوا في بيته أمواله ، واشتدَّت مطالباتهم بالواجبات المقررة لهم ، وسألوا الزيادات في الرسوم . واقتسم مقدموهم دُورَ المكوس والجبايات ، وتغلب كلُّ مَنْ بقى منهم على ناحية ؛ ولم يبق للدولة ارتفاعٌ يعول عليه ، ولا مال في القياصر يرجع إليه . وأخرج من الذخائر مالا شُهد فيما بعده من الدول مثله نفاسةً وغبابة ، وجلالةً وكثرة ، وحسناً وملاحة ، وجودةً وسناء قيمةً وعُلُوٌّ ثمن ؛ ونقل منه التُّجار إلى الأمصار شيئاً كثيراً ، سوى ما أُحرق بالنار بعد ما امتلأت قياصير^(٢) مصر وأسواقها من الأمتعة المخرجة من القصر المبينة على الناس ، التي أنفق منها في أعطيات الأتراك وغيرهم لسنة ستين وأربعمائة . فأهلت سنة إحدى وستين هذه وقد اشتد الخوف بمصر ، وكثُر التشليح في الطرقات نهاراً والخطفُ والقتل . وصار الجند فرقتين ، فرقة مع الخليفة المستنصر وفرقة عليه .

وذلك أن الوحشة ابتدأت بين الأتراك وبين ناصر الدولة ابن حمدان ، لِقُوَّة بأسه وتفردُه بالأُمور دونهم ، واستبداده بالدولة عليهم ، فنافسوه وحسدوه ، وصاروا إلى الوزير خطير الملك^(٣) وقالوا له : كلُّ ما خرج من الخليفة من مالٍ أخذه ناصر الدولة وتفرَّق أكثره في حاشيته ، ولا ينالنا منه إلا الشيء القليل . فقال لهم إنما وصل ناصر الدولة إليهم هذا وغيره بما هو فيه بكم ، ولولا أنتم لما كان له من الأمر شيء ، ولو أنكم فارقتموه لا نحل أمره . واتفقوا على أن يكونوا جميعاً عليه ، ويحاربوا حتى يظفروا به ويخرجوه من مصر . ودخلوا إلى الخليفة المستنصر وسألوه أن يبعث إلى ناصر الدولة بالخروج من البلاد ، وتهديده إن لم يخرج ؛ فبعث إليه يأمره بالخروج عن بلاده ؛ فسارع إلى الخروج^(٤) عن

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادي والثلاثين من أكتوبر سنة ١٠٦٨ .

(٢) جمع قيسارية ؛ وهي الأسواق .

(٣) وهو أبو محمد الحسن بن مهمل بن أحمد بن أبي كدينة .

القاهرة ونزل بالجيزة . فامتدت الأيدي عند خروجه إلى دُورهِ ودُورِ حواشيه وأصحابه ،
وانتهبتها وأفسدتها .

فلما كان في الليلة التي خرج قبلها دخل في خَفَاء واجتمع بالقائد تاج الملوك شاذي
وترأى عليه وقَبَلَ رجله ، وقال له : اصْطَنِعْنِي وانصُرْنِي على الوزير الخطير وعلى لِـدِكْز^(١) ،
بأن نركب أنت وأصحابك وتسير بين القصرين ، فاذا أمكنتك الفرصة فاقتُلْهُمَا ؛ فوافقه
على ذلك وأجابه إليه ، [١٠٠ ب] ورجع ناصر الدولة إلى مُخِيْمِهِ بالجيزة . فلما طلع
النهار شرع تاج الملوك في عمل ما تقرّر بينه وبين اصر الدولة ، فأَحْسَّ لِـدِكْزُ بالمكيدة
فسارع إلى اللُحُوق بالقصر ، واستجار بالمستنصر . وأقبل الوزير في موكبه وليس له شعور
بما بُيِّنَ في الليل ، فصادفه تاجُ الملوك على غِرّةٍ منه ، فأوقع به وقتله ، وسير في الحال إلى
ناصر الدولة ، فحضر . وحسّن لِـدِكْزُ للمستنصر أن يركب لِمُحَارَبَةِ ناصر الدولة ، فلبس
سلاحه وألبس مَنْ معه وركب ، ونزل ، فصار معه من الجند والعامّة مالا يُحصى عددهم
كثرة . ووقف ناصر الدولة بمن معه ، ونشبت الحرب بينهما ، فكانت الكسرة على ناصر
الدولة ، فانهزم وقد قتل كثير من أصحابه ، فمرّ على وجهه لا يلوى على شيء في يسير من
أصحابه ، حتى انتهى إلى بني سنْبَسَ بالبحيرة فنزل عليهم ، وأقام فيهم واستجارهم ،
وتزوّج منهم .

واشتد الغلاء بمصر ، وقُلَّتِ الأقوات في الأعمال ، وعظُم الفساد والضرر ، وكثُر الجوع
حتى أكل النَّاسُ الجيف والميتات ، ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمرّ من الناس فيَحْنُلُونَهُ
ما عليه ، مع ما نزل بالنّاس من الحرّوب والفتن التي هلك فيها من الخلق مالا يُحصى

(١) أسد الدولة ؛ وكان شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، تزوج ابنة ناصر الدولة ابن حمدان ، ولم يمنع هذا من أن يدير
كل منها المكائد للآخر .

إلا خالفهم . وخاف الناس من الذهب ، فعاد التجار إلى ما ابتاعوه من المُخْرَج من القصر يُحرقونه بالنار ليخلص لهم ما فيه من الذهب والفضة . فحرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل والفُرُش ، والمظالّ والبنود والأعماريات^(١) ، والمنجوقات^(٢) والأجلة^(٣) ومن السروج الذهب والفضة والآلات المجرّاة بالميناء والمرصعة بالجوهر ، شئ لا يمكن وصفه ، مما عُمل في دول الإسلام وغيرها .

وفي سادس صفر وُهب لسعد الدولة ، المعروف بسلام عليك ، ما في خزانة البنود من الآلات والأمتعة وغيرها ، فوجد فيها ألفا وتسعمائة درقة لَمْطِيَّة^(٤) ، سوى ما كان فيها من آلات الحرب والقُضْب الفضة والذهب والبنود ، فسقطت شرارة فيما هنالك فاحترق جميعه ، وكانت لذلك غلبّة وخوفٌ شدائد . فمِمّا احترق فيها عشرات ألوف من السيوف إلى غير ذلك ممّا لا يُحصى كثرة ، بحيث إنّ السلطان بعد ذلك بمدة احتاج إلى سلاح ، فأخرج من خزانة واحدة مما بقى وسلم من الحريق خمسة عشر ألف سيف مجوهره سوى غيرها . وأخرج من القصر صندوق كيل منه سبعة أمدّاد^(٥) زمرد ، ذكر الجوهري أن قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار . وكان في المجلس فخر العرب ابن حمدان^(٦) وابن سنان وأبو محمد الحسن بن علي بن أسد بن أبي كدينة ، وغيرهم من المخالفين ، فقال بعضهم لمن أخضر من الجوهريين : كم قيمة هذا ؟ فقالوا إنما تُعرّف قيمة الشئ إذا كان مثله موجودا ، ومثل هذا لا قيمة له . فاغتاظ ، وقال ابن أبي كدينة : فخر العرب كثير المؤونة وعليه خرّج ، والتفت إلى كُتّاب الجيش ، فقالوا : يحسب عليه بخسمائة دينار ، فكتب بذلك وقبضه .

(١) العاريات نوع من الهودج ، ومفردها عارية بتشديد الميم .

(٢) ومفردها منجوق ، نوع من الأعلام . Dozy; Supp. Dict. Ar.

(٣) الجل للداية كالشوب للإنسان : كساء يقبها البرد والحر ، والجمع جلال وأجلال وجمع الجلال أجلة .

(٤) نبة إلى اللط وهو اسم قبيلة من البربر بأقصى الغرب ، ودرتهم تصنع من الجلد الذي ينقع في الحليب سنة ،

فتكتسب قوة ينو عنها السيف القاطع . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٢ ، حاشية : ١٠ .

(٥) للتقريب : القدح يساوي مدا ونصف مد . قوانين الدواوين : ٣٦٦ .

(٦) فخر العرب عل بن أبي عل الحسن بن أبي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة أبي محمد الحسن . معجم الأنساب .

وأخرج عِفْدُ جَوْهَرٍ قِيَمَتَهُ عَلَى الْأَقْلِ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فَكُتِبَ بِأَلْفَى دِينَارٍ ، وَتَشَاغَلَ الْحَاضِرُونَ بِنَظَرِ مَا سِوَاهُ فَانْقَطَعَ سُلُوكُهُ وَتَنَازَّرَ حُبُّهُ ، فَأَخَذَ وَاحِدٌ حَبَّةً فَجَعَلَهَا فِي جَيْبِهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ أُبَيٍّ كَدِينَةَ حَبَّةٍ ، وَأَخَذَ فَخْرُ الْعَرَبِ شَيْئًا ، وَتَفَرَّقَ الْبَاقُونَ سَائِرَةً ، فَذَهَبَ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ . وَأَخْرَجَ مَا أَنْفَذَهُ الصُّلَيْحِيُّ مِنْ نَفِيسِ الدُّرِّ وَكَيْلٍ ، فَجَاءَ سَبْعَ وَبَيَاتٍ . وَأَخْرَجَ أَلْفَانِ وَمِائَتَا خَاتَمٍ مَا بَيْنَ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ بِفُصُوصٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ ، مِمَّا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ ، شُوهِدَ مِنْهَا ثَلَاثَةُ خَوَاتِيمٍ مِنْ ذَهَبٍ أَحَدُهَا فَصُّهُ زَمْزَمٌ وَالثَّانِي يَاقُوتٌ غَشِيمٌ صَافٍ وَرَمَانِيٌّ ، كَانَ شَرَاءُ الْفُصُوصِ اثْنَى عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَأَخْرَجَ مِنْ خَزَائِنِ الْقَصْرِ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ قِطْعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ الْخُسْرَوَانِيَّةِ^(١) أَكْثَرَهَا مَذْهَبٌ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخْرَجَ مِنَ الْخَزَائِنِ عَلَى يَدَيَّ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ قِطْعَةٍ

وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْتَنْصِرِ أَمْرُ الْأَتْرَاكِ وَطَالِبُوهَ بِجَرَائِئِهِمْ بَعَثَ إِلَى الْعَمِيدِ ابْنِ أَبِي سَعْدٍ فِي إِحْضَارِ جَوْهَرٍ كَانَ عِنْدَهُ ، فَأَحْضَرَ خَرِيطَةً فِيهَا نَحْوُ مِنْ وَبِيَّةٍ ، فَأَحْضَرَ أَرِيَابَ الْخَيْبَةِ مِنَ الْجَوْهَرِيِّينَ لِيَقْوَمُوهُ ، فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا يَشْتَرَى مِثْلَهُ^(٢) إِلَّا الْمُلُوكُ ، فَقَوِّمَتْ بَعِثَرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ - وَكَانَ مُشْتَرَاهُ عَلَى حَدِّهِ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ - فَفُرِّقَ فِي الْأَتْرَاكِ وَقَبِضَ كُلٌّ مِنْهُمْ جِزَاءً بِقِيَمَةِ الْوَقْتِ . وَقَسَمَتْ [١٠١] خَزَائِنُ السِّبْرِ وَآلَاتُ السِّلَاحِ بَيْنَ عَشْرَةٍ ، وَهُمْ نَاصِرُ الدَّوْلَةِ ابْنُ حَمْدَانَ ، وَأَخْوَاهُ فَخْرُ الدَّوْلَةِ عَلَى ، وَيَلْدُ كُوشَ ، وَأَمِيرُ الْأُمَرَاءِ الْحُسَيْنُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ ، وَسَلَامُ عَلِيٍّ ، وَشَاوَرُ بْنُ حُسَيْنٍ ، وَتَاجُ الْمُلُوكِ شَادِي ، وَالْأَعَزُّ ابْنُ سَنَانٍ ، وَرَضَى الدَّوْلَةُ بْنُ رَضَى الدَّوْلَةِ ، وَأَمِيرُ الْعَرَبِ ابْنُ كَيْغَلَخَ . فَكَانَ مِنْ جَمَلَتِهَا ذُو الْفَقَارِ^(٣) ، وَصَمَّامَةُ عَمْرُو بْنُ مَعْدَى كَرْبَ ، وَسَيْفُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبِ الرَّاسِي ، وَسَيْفُ

(١) نَوْعٌ رَقِيقٌ مِنَ الْحَرِيرِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : وَلَا يَشْتَرَى لَهُ إِلَّا الْمُلُوكُ .

(٣) ذُو الْفَقَارِ سَيْفُ الْعَاصِ بِهِ مِنْهُ الَّذِي قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَصَارَ سَيْفُهُ إِلَى الرَّسُولِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ إِلَى عَلٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ .

كافور الإخشيدى ، وسيف المعز لدين الله ، ودرع المعز وكانت تساوى ألف دينار بيعت منها كواكبُ بمائة دينار ، وسيف الحسين بن على ، عليه السلام ، وكان وزنه ثلثمائة وستين مثقالاً ، وسيف الأشتر النخعى ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر بن محمد الصادق .

ودخل فى بعض الأيام من باب الديلم^(١)، أحد أبواب القصر ، تاجُ الملوك شادى ، وفخر العرب على بن ناصر الدولة ابن حمدان ، ورضى الدولة بن رضى الدولة ، وأمير الأمراء أبجتيكين بن سُبُكتيكين ، وأمير العرب ابن كيغَلغ ، والأعز بن سنان ، وعدة من الأمراء البغداديين ، وصاروا فى الإيوان ومعهم أحد الفراشين وفَعَلَةٌ ، فانتهوا إلى حائط مُجَبَّر ، فأَمَرُوا الفَعْلَةَ بكشف الجير ، فظهر بابٌ فهدم ، فإذا خزانة ذُكر أنها من أيام العزيز بالله ؛ فوجدوا فيها من السلاح ما زادت قيمته على عشرين ألف دينار ، فحملوا جميع ذلك وتفرَّقوه . وصارت حواشيهم وركابياتهم^(٢) يكسرون الرماح ويتلفون أغوادها ليأخذوا المهارك الفضة . وبيعَ من الرماح الخطيئة السمر الجياد شئ كثير مما كسره الغلمان للمغازليين وصنَّاع موادن الغزل حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة ، ولم يعترضهم أحد من أهل الدولة .

وأخذ ما فى خزائن البنود ومن المحكم والمينا المُجَرَى بالذهب والمجُرد والبغدادى والمذهب والخَلنج^(٣) والصينى مالا يُحصى . وأخذ أيضا ما فى خزائن الفرش من البُسُط والسُتور

(١) تجاه دار الفطرة التى كانت قسما من إصطبل الطارمة (سبق التعريف بأن الطارمة بيت من خشب ، فارسى معرب) وكان باب الديلم هذا موصلا إلى المشهد الحسينى ، وموضعه الآن بوابة أثرية تنتهى إلى الباب الأخضر ، النجوم الزاهرة ٤ : ٣٦ ، حاشية : ٥ .

(٢) الركابية والركابدارية : العاملون فى بيت الركاب الذى تكون به السروج والجم ونحوها ، صبح الأُممى ٤ : ٧ : ١٢ ، Dozy; Supp. dict Ar.

(٣) الخَلنج شجر لونه بين صفرة وحمرة تتخذ الأوراق من خشبه ، ومصدره الأصل الصين والهند . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٥ ، حاشية : ١٠ .

والنفائس من الحرير وغيره ، مالا يُعرف له قيمة لكثرتِه . وأُخرج في يومٍ من خزائن من القصر عدّة صنّاديق ، فوجد في أحدها أمثال كيزان الفقّاع^(١) من صافي البلّور المنقوش والمجروود شيءٌ كثير ، وإذا جميعُها مملوءة من ذلك وغيره .

وبيعت في تركة عماد الدولة بن الفضل من المحترق ، بعد قتله ، مما كان قد صار إليه من مُخرَج القصر مرتبة خُشْرُوَانِيَة حمراء بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، ومرتبة قلمونية^(٢) بالّفين وأربعمائة دينار ، وثلاثون سُنْدُسيّة كلُّ واحدة بثلاثين ديناراً ، وقُدح بلّور بمائتين وعشرين ديناراً ، وخردادی بلّور بثلاثمائة وستين ديناراً ، وكوز بلّور بمائتين وعشرة دنانير وكَلّة بمائمائة دينار ، وعدة صُحون مينا ببيع كل منها بمائة دينار فما دونها . وخرج من القصر خردادی وباطية من بلّور في غاية النّقَاء وحُسن الصّنعة ، مكتوبٌ عليهما اسم العزيز تَمَعُ الباطية سبعة أُرطال ماء ويسع الخردادی تسعة أُرطال ، دفع فيهما ابن عمّار بطرابلس ثمانمائة دينار فامتنع صاحبهما .

وقال المعتمد أبو سعد النّهاوندي أحد الأمناء ، وخذّه دون غيره من أمناء القصر ؛ ممّا أخرج ببيع ثمانى عشرة ألف قطعة بلّور ومحكم ، منها يساوى الألف دينار وإلى عشرة دنانير ؛ ونيفٍ وعشرون ألف قطعة خُشْرُوَانِيَة ، إلى غير ذلك من الفُرُش والتّعليق ما بين مذهبة وغير مذهبة . وبيع في مدّة خمسة عشر شهراً ، أوّلها عاشر صفر سنة ستين وأربعمائة ، سوى ما نُهبَ وسرق ، ممّا خرج من القصر ما تحصّل مِنْ ثمنه ثلاثون ألف ألف دينار ، على أنّه بيع بأقلّ القيم وأنزِر الأثمان ؛ وقبض الجندُ والأترāk جميعَها من غير أن يستحقّ أحدٌ منهم درهما واحداً منها .

(١) الفقّاع شراب يصنع من الشّير ، سقى بذلك لما يرتفع في قمته من الزبد . القاموس المحيط ؛ النجوم الزاهرة :

٩ : ٤

(٢) قلمون ، بوقلمون نوع من الحرير المزركش من إنتاج تنيس . سفرنامه ، تأليف ناصر خسرو ، وترجمة الدكتور يحيى الخشّاب .

ودخلوا إلى خزانة الرّفوف ، وكانت خزانة عظيمة بالقصر من جملة خزائن القُرُش ، فيها رُقُوفٌ كبيرة بعضها فوق بعض ، ولكل منها سُلّم منفرد ، فأخرجوا منها أَلْفَ عِدْلٍ شَقَقًا طميا بهُدُبها من سائر أنواع الخُشروانيّ وغيره لم تُستعمل ، وكلّها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور . وَجِدَ في عدل منها أَجِلَّةٌ للقبيلة من خُشروانيّ أحمر مذهب كأحسن ما يكون ، وموضع نزول أفخاذ الفيّال ورجليه سارج بغير ذهب . وأُخرج من [١٠١ ب] بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة من خُشروانيّ أحمر مُطَرَّز بِأَبْيَضٍ لم تُفَصِّل ، برسم كُشُوة البيوت ، كل بيت منها كاملٌ بجميع آلاته ومسانده ومِخَادِه ومراتبه وبُسطه وعُتَبِه ومقاطعه وسُتُوره ، وجميع ما يُحتاج إليه فيه .

وأُخرج من الحصر السّامانية المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة مما هي مُجَوِّمة ومُطَيَّرَة وطفيلة ، ومصورة بسائر الصور . مالا يحصى كثرة . وأُخرج من صواني الذهب المجرّاة بالميناء وغير المجرّاة ، المنقوشة بسائر أنواع النقوش ، المملوءة جميعها جواهر من سائر أنواعه شيءٌ كبير جدا ؛ ونَيْفٌ وعشرون أَلْفَ قطعة طميم من سائر الأمتعة . والشمس بعض الآثاراك من المستنصر مِقْرَمَة^(١) سندس أخضر مذهبة اقتراحا عليه لعدمها وقلة وجود مثلها ، فأُخرجَ منها عِدْلٌ كان العدد المكتوب عليه مائة وثمانية وثمانين من جملة أعداد أَعْدالٍ فيها من المتاع .

وأُخرج في يوم صناديق سروج محلاة بفضة ، وجد فيها صندوق مكتوب عليه : الثامن والتسعون والثلاثمائة ، وعدّة ما فيها زيادةً على أربعة آلاف سرج . ووجد غلف خيزران مبطنة بالحرير محلاة بالذهب خالية من الأواني ، كانت تسعة عشر ألف غلاف ، كان في كل غلاف قطعة من بللّور أو مجروداء محكم أو ما شاكل ذلك .

(١) القرام ككتاب : السّر الرقيق ، وبعضهم يزيد فيقول : وفيه رقم ونقوش ؛ والمقرم وزان مقود ، وبالحاء أيضا مثله . المصباح المنير .

ووجد مائة كأن بازهر^(١) على أكثرها اسم هارون الرشيد ، وَوُجِدَ ستورٌ حريريّة منسوجة بالذهب ، تقارب الألف ، مختلفة الألوان والأطوال ، فيها صور الدّول ومُلوّكِها والمشاهير فيها ، مكتوب على صورة كلّ واحد منهم اسمه ومُدّة أيامه وشرحُ حاله . ووجد في خزانة عدّة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنسب مختلفة من سائر الجواهر . ووجد عدة صناديق كبيرة مملوءة من أنواع الدّوى المربعة والمدوّرة والصّغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصّندل والعود والأبنوس والعاج وسائر أنواع الخشب المحلّاة بالجواهر والفضة والذهب ، وسائر أنواع الحلّى الغريبة ، والصّنعة المعجزة الدقيقة ، بجميع آلاتها ، فيها ما يساوى الألف دينار وما فوقها سوى ما عليها من الجواهر ، وصناديق مملوءة مشارب ذهباً وفضّة محرقة بالسّواد ، صفاراً وكباراً ، بأحسن ما يكون من الصناعة . وصناديق مملوءة أقلاماً مبريّة من سائر أنواع القصب ، فيها ما هو من برّاية أبي على محمد ابن مُقلّة^(٢) ، وابن البوّاب^(٣) ومن يجرى مجراها ، وعدة مصاحف بخطّيهما وخط نظرائهما فيها ما هو مكتوب بالذهب المكحل بالأزورد . وعدّة أزيار صيني كبار مملوءة كافورا قنصوريا ، وعدة كبيرة من جماجم العنبر الشجرى ، وكثير من قوارير المسك ، ومن شجر العود مقطّعة شىء كثير .

ووجدت عدة خزائن مملوءة من سائر أنواع الصّيني ، منها أجاجين^(٤) كبار ، محمولة

(١) بازهر : حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم ويسمى أيضاً بادزهر ، وهو لفظ فارسي

مركب من كلمتين : باد = طارد ، زهر = سم . Dozy; Supp. Dict. Ar . وصبح الأعشى : ٢ .

(٢) ابن مقلّة : أبو هل محمد بن هل مولده سنة ٢٧٢ وتوفى سنة ٣٢٨ . وأبو مقلّة عل بن الحسن بن هبّد الله ، ومقلّة لقبه . الفهرست : ٢٠ .

(٣) عل بن هلال الكاتب المعروف بابن البوّاب ، شاعر مجيد وخطاط معروف ، توفى ببنداد سنة ٤١٣ هـ وقيل ٤٢٣ . ويقال له ابن السّرى أيضاً لأن أباه كان بواباً والبوّاب يلازم ستر الباب . وفيات الأعيان : ١ : ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٤) مفردتها : الإجانة ، إناء لغسل الثياب والإجانة لغة تمتنع الفصحاء من استعمالها . المصباح المنير .

كلُّ لِحْجَانَةٍ منها على ثلاثة أَرْجُلٍ على صور الوُحُوشِ والسَّباعِ والناسِ والبَهائمِ ، قيمةُ كل قطعة منها ألف دينار ، معمولة لفصل الثياب . ووجدت له خزائن مملوءة من سائر أنواع الصواني المدهونة ، سعة كلِّ واحدة منها من العشرة أشبار إلى ما دونها ، مئة في جوف شيء ، حتى تكون أصغرها سعة الدرهم . ومن سائر أنواع الأطباق الخلنج الذي بهذه الصفة . ومن الموائد الخلنج الكبار والصغار ألوف ؛ ومن موائد الكرم الجفان الجور الواسعة بمقابض الفضة التي لا يقدر الجمل القوي على حمل جفنتين منها لعظمتها منها ما يساوي المائة دينار وما فوقها . ووجد من الدُّكَّكِ والمحارِبِ والأسرة العُودِ والصُّنْدِلِ والأُبْنُوسِ والعاج وغير شيء كثير . وعدة أقفاص مملوءة من بَيْضِ صَيْبٍ معمول على هيئة البيض في خامته وبياضه يعمل فيها ما في البيض اليشم سبت يوم الفصاد ؛ وكيزان من صَيْبٍ صغار وكبار على خلقة كيزان الفقاع يشرب فيها الفقاع .

ووجد كثير من الأعدال مملوءة عِقالاً من اليمن مما أهدها الصُّلَحي . وأخرجت حصير من ذهب زنتها ثمانية عشر رطلاً ذكر أنها الحصير التي جُلِيت عليها بُورَان بنتُ الحسن على المأمون . وأخرج ثمانٍ وعشرون صينية مينة مجرى بالذهب ، لها كهوبٌ تغلُّو بها عن الأرض مما بعته ملك الروم للعزیز بالله ، قومت كل صينية بثلاثة آلاف دينار ، فأخذها كلها ناصر الدولة ابن حمدان . ووجد عدة صناديق مملوءة مرايا [١٠٢] حديد صينى وغيره من الزجاج المينة مالا يحصى كثرة ، وجميعها محلاة بالذهب المشبك والفضة ، ومنها ما هو مكلَّل بالجواهر في غُلْف الكهمخت^(١) وغيره من أنواع الحرير والخيزران كلها

(١) الكيمخت والكهمخت . نوع من الجلود المدبوغة ، منه الأحمر والأسود . ويذكر أن هذا النوع كان متيزا بمصر إذ كان بالقاهرة جامع يعرف باسم جامع الكيمختى يقول المقرئى عنه إنه بجانب موضع الكيمخت على شاطئ الخليج من جهة أرض الطلبة ، كان موضعه داراً انتراها معلم الكيمخت ، واسمه الحموى ، وعملها جامعاً . الخطاط : ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

مُضَيَّبَةٌ بالذهب والفضة ، ومقابض المرايا ما بين عَقِيْقٍ وَجَزَعٍ وَصَنْدَلٍ وَعُودٍ وَأَبْنُوسٍ
وغيره .

وأخرج عدة أَعْدَالٍ من الخيام والمضارب والمَنَارَاتِ والخَرَكَوَاتِ^(١) وغير ذلك من أنواع
الخيام المعمولة من الدَّبِيْقِ والمخمل وسائر أنواع الحرير الثقيل وغير الثقيل ، تَمَّا هو منقوشٌ
ومُصَوَّرٌ بسائر الصُّور العجيبة الصُّنعة ، وسائر أعمدتها مكسوة بالفضة المذهبة ، ولها الصِّفْرِيَّاتُ^(٢)
الفضة والحبال القطنية والحريرية . فكان منها ما تُحْمَلُ الخيمة منها على عشرين بعيرا
وأكثر .

وأخرجت المدوَّرة الكبيرة ، وكانت تقوم على خرط عمود طوله خمسة وستون ذراعا
بالكبير ، ودَوَّرُ مَكَلَّتِهِ عشرون ذراعا ، وسعة قطرها ستة أذرع وثلاثا ذراع ، ودَوَّرُ المدوَّرة
خمسائة ذراع ، وعدة قطع خرقها أربع وستون قطعة ، كل قطعة منها تُخَزَمُ في عِذْلٍ ،
وتحمل على مائة جمل ، وفي صَفَرَتِهَا ثلاثة قناطر فضة يحملها من داخلها قضبان حديد تسع
راوية ماء من رَوَايَا الجمال ، وفي زخرفتها صور سائر الحيوانات ، ولها بادهنج طوله
ثلاثون ذراعا . كان عملُها للِيَازُورِيِّ في وزارته ، فأقام يعمل فيها مائة وخمسون صائغا
نحو تسع سنين ، وصرف عليها ثلاثون ألف دينار ، أراد بها محاكاة القَاتُولِ الذي عمله
العزيرُ بالله^(٣) فجاء أعظم منه وأحسن . وبعث إلى مَتمَلِّكِ الروم في طلب عودين للفسطاط طول
كل منهما سبعون ذراعا ، فأَنفذهما إليه ، وقد بلغت التفقة عليهما حتى وصلا ألف دينار ،
فَعَمِلَ أحدهما في الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع ، وأخذ الآخر ناصر الدولة ابن
حمدان لما خرج إلى الإسكندرية .

(١) جمع خركاء . وهو الخيمة أو النجع .

(٢) الصفرية إناء من النحاس الأصفر بشكل القدر ، ولعل المقصود هنا قطعة من النحاس بشكل كرة أو هلال

ثبت فوق القبة . Dozy; Supp. Dict. Ar.

(٣) سيأتى في الجزء الثالث أن القاتول عملت للانفل الجلال ، ويؤيد هذا النويرى في نهاية الأرب وانفاشنى

في صبح الأعشى .

وقد قطعت هذه الخيامُ الكبارَ خِرْقًا وقُومَت على المذكورين من المارقين بأقل القيم .
فتمزقت

وأخرج مُسَطَّح من قلمون ، عُمِل بتُنْييس للعزیز وسمی دار البطيخ ، يقوم على ستة أعمدة ، وفيه أربع قباب بين كل قُبَتَيْن رواقٌ يقوم كل منها على أربعة أعمدة ، وطولُ كلِّ عمود ثمانية عشر ذراعاً . ومُسَطَّح عمله الظاهر في تُنْييس ، كله ذهب طميم بستر صفارى بللور وستة أعمدة من فضة أنفق عليها أربعة عشر ألف دينار . إلى غير ذلك من القصور والخيام المخمل وغيره من سائر أنواع الحرير ، وعدة من الحمامات المعمولة من البللور والطاقاني ومن الأدم المذهبة المنقوشة بحياضها ودككها ، وساطبها وقُدورها ، وزجاجها وسائر عُددها

وأخرجت المدورة الكبيرة التي عُمِلت بحلب في سِنِي بضع وأربعين وأربعمائة ، فبلغت النِّفْقة عليها ثلاثين ألف دينار ، وكان طول عمودها أربعين ذراعاً ، ودَوْرُ فلكه أربعة وعشرين شبراً ، وزنة صفريته قنطارين من فضة سوى أنابيب الحديد ، ويحملها سبعون جملاً ، ولا ينصبها إلا نحو المائتي رجل ، وهو شبه القاتول العزیزی . وأخرج من المظال وقصبها الفضة والذهب شيءٌ له قدر جليل . وأخرج من الصناديق ، والقمطرات والأدراج والموازين وغلف الأمشاط والمرايا والمداخن من الكيمخت والأبنوس والواج وسائر الخشب والبقم^(١) المحلّی جميعُها بالذهب والفضة المغشاة بأغشية الأدم والحرير مالا يُحَدُّ كثرة .

ومن صناديق الطعام وخزائنه والمَجَاميع مالا يُدْرِكُه الإحصاء لكثرتِه . وأخرج من خزائن الفضة ما ينيف على ألف ألف درهم ، كلها آلات مصوغة مُجَرَّاة بالذهب ، فيها ما يبلغ زنة القطعة منها خمسة آلاف درهم مما هو غريب الصنعة ، فبيع جميعُه عشرون

(١) البقم بالتشديد : صيغ خاص . قيل عرب وقيل مغرب ، المصباح المنير

درهما بدينار ، وكانت قيمته خمسة دراهم بدينار . وأخرج غير ذلك عُشاريّات موكبية وأعمدة الخيام وقصب المظال ، وَمَنْجُوقَات وأعلام وقناديل وصناديق وبوقات وزواريق وقمطرات ، وسروج وَلُجْمُ ومناطق العَمَّاريّات وغير ذلك ما يجاوز ألف ألف فضة ، بيعت كما بيع غيرها .

وأخرج من الشطرنج [١٠٢ ب] والنرد المعمولة من أنواع الجواهر والأحجار ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير المذهب وغيره مالا يُحَدُّ كثرةً ونَفَاسَةً ؛ ومن دُسُوت الفصاد^(١) مثل ذلك ؛ ومن خرق المنجُوقَات والمطارد والمِظَال والأعلام مالا يمكن وصفه لكثيرته مما هو مخمل وحرير ساذج ومذهب ؛ فَقُطِعَ جميع ذلك وبيع . وأخرج مرة من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبو سعيد إبراهيم بن سهل التُّسْتَرِي^(٢) قد عملها ، فيها ما يساوى السَّرج الواحد منها سبعة آلاف دينار إلى ألف دينار ، شبك جميعها وفرق في الأتراك ، كان منها أربعة آلاف سرج بِرَّسَمِ رِكَّاب الخليفة .

وأخرج من خزانة السيدة أم المستنصر أربعة آلاف مثلها ودونها ، صنع بها مثل ذلك . وأخذ منها آلات فضية وزنها ثلثمائة ألف وأربعون ألف درهم ، تساوى ستة دراهم بدينار . وأخرج من القصر أقفاص مملوءة آلات مصبوغة مُجَرَّاة بالذهب مغدومة المثل صنعةً وحُسْنًا ، عدتها أربعمائة قفص كبار ، شبكت كلها في إيوان القصر وفرقت . ومعظم ذلك كان في وزارة جلال الملك بن عبد الحاكم في هذه السنة . كان من جملة ما في الأقفاص ستة عشر ألف قطعة برسم العواري خاصة . وأخرج في بعض أسابيع المولد ألفان وخمسمائة إناء من فضة

(١) الدست من الثياب ما يَكْنَى أَثْلَهُ لِقضاء الحاجة . والفصد قطع العرق والاسم الفصاد المصباح المنير ، القاموس المحيط .

(٢) هكذا في الأصل وفيه خلط بين اسمي الأخوين ابني التستري ، واحدهما أبو سعيد سهل بن هارون والآخر أبو نصر إبراهيم بن هارون . وقد سبقت أخبارهما في السنين الأولى لخلافة المستنصر .

برسم الخيم . وأخرج مرة عند ورود بعض رسل ملوك الروم فيما أخرج عدة كثيرة من صواني الذهب والفضة المجراة بالميناء الغربية الصنعة ، ملئت كلها جوهراً فاخراً ، وأربعة آلاف نرجسية فضة محرقة بالذهب. عمل فيها النرجس ، وألفا بنفسجية كذلك . وأخرج من خزائن الطريف ستة وثلاثون ألف قطعة ما بين بللور وغيره . وكان مبلغ ما قوم من نصب سكاكين ، بأقل القيم ، ستة وثلاثين ألف دينار . وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقلّ تماثيل منها وزنه اثنا عشر مثلاً^(١) وأكبره يتجاوز ذلك بكثير ، ومن تماثيل الكافور مالا يحدد كثرة ، منها ثمانمائة بطيخة كافور ، إلى غير ذلك من تماثيل الفاكهة .

وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسروانية مذهبة ، في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته . وأخرج من خزائن الكسوات من التخوت والأسفاط والصناديق الملوّنة بفاخر الملابس المستعملة بتتيس ودمياط وبرقة وصقلية وسائر أقطار الأرض مالا يحدد كثرة ولا يعرف له قيمة .

وفي هذه السنة بعث ناصر الدولة ابن حمدان عماد الدولة ، المعروف بالمخنوق ، هو والوزير أبا محمد بن أبي كدينة إلى المستنصر يطالبه معهما بما بقي لغلمانهم ، فذكر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه ، وقال فابعث من يقوم ذلك ويقبضه ، فأخرج إليهما ثمانمائة بذلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة ، قومت وحملت إليه في حادي عشر صفر .

وفيها وهب المستنصر لفخر العرب وتاج الملوك الكلّوتة^(٢) المرصعة بالجواهر ، وكانت من غريب ما في القصر ونفيسه ، وكانت قيمتها مائة وثلاثين ألف دينار ، وقومت عليهما بثمانين ألف دينار ، وقسمت بينهما بالسوية ، فجاء وزن ما فيها من الجواهر سبعة عشر رطلاً

(١) الثن مائتا درهم وستون درهما . قوانين الدواوين : ٤٥٥ .

(٢) غطاء للرأس ، تلبس وحدها أو مع عمامة ، وتجمع على كلوتات وكللاوات ، السلوك : ١ : ٤٩٣ : حاشية : ١ .

بالمصرى . فصار إلى فخر العرب من جملة ما وقع في سهمه منها قطعة بَلَخُش زنتها ثلاثة وعشرون مثقالا ، فأنفذها مع باقى ما حصل له منها إلى الفخرية ، وكانت بشفر الإسكندرية ، فحملت بعد ذلك إلى تنيس مع غيره من رجالاتهم ، فصار جميعه عند أمير الجيوش بالشام . وصار إلى تاج الملوك منها حَبَّات درّ ، زنة كلّ حبة ثلاثة مثاقيل وعدتها مائة حبة ، فلما انهزم من مصر أخذها بعض غلمانه مع غيرها من نفيس الجواهر وهرب إلى الصعيد ، فقتل وأخذ منه .

وأخرج من خزائن الطَّيِّب مما أخرج خمسة صواري عود هندي ، طول كل واحد منها ما بين تسعة أذرع إلى عشرة أذرع ؛ وكافور قنصوري زنة كل حصاة منه من خمسة مثاقيل إلى ما دونها ، وقَطْعُ عنبر تَزَنُ القطعة ثلاثة آلاف مثقال ، فوهب ذلك لناصر الدولة ، فحاز منه مالا حدّ له ولا قيمة . وحمل إليه من القصر متارد صيني ، يقوم كل مترد منها على ثلاثة أرجل على صورة السَّباع وغيرها ، يسع كلّ منها مائتي رطل وما فوقها ، [١١٣] وعدة قطع يشب وبازهر ، منها جامٌ سعته ثلاثة أشبار ونصف وعُمَقه شبر ، مليح الصُّورة . وأخرج من القصر منديل نسيج من زغب ريش بدائر يسمى السَّمَنْدَل ، طوله تسعة أشبار ، لا يحترق بالنَّار ، فاشتراه بعضُ المسافرين التجار بثمان يسير طلب فلم يقدر عليه . وصار إلى ناصر الدولة قطرميز^(١) بللور فيه صور ناتئة عن ضبته يسع سبعة عشر رطلا ، ودكوجة بللور تسع عشرين رطلا ، وقصرية يصب كبيرة جدا ؛ وعدة كاسات يصب ؛ وطابع ندّ^(٢) فية ألف مثقال عمله فخر الدولة أبو الحسن على بن ركن الدولة ابن بُويّه الديلمي^(٣) وكتب عليه فخر الدولة شمس الدولة ، وكتب عليه أبياتا ، منها :

(١) قلة كبيرة من الزجاج . معرب . قال بعضهم :

فاسقنها بالزق والقطريز

أنا لا أرتوى بكاس وطاس

(٢) الند ، بالفتح : عود يتبخر به .

(٣) وركن الدولة هو أبو علي الحسن ، حكم منطقة الري وهمدان وأصفهان بين سنتي ٣٢٠ - ٣٦٦ (٩٣٢ - ٩٧٦) . وحكم ابنه فخر الدولة المذكور بين سنتي ٣٦٦ - ٣٨٧ (٩٧٦ - ٩٩٧) في الري وهمدان ، وانتزع أصفهان سنة ٣٧٣ (٩٨٣) من أخيه مؤيد الدولة أبي منصور الذي كان يتولاهما منذ سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ، أي منذ وفاة والده ركن الدولة :
Mohammadan Dynasties.

ومن يكن شمس أهل الأرض قاطبةً فنّده طابع من ألف مثقال
فاقتسمه ناصر الدولة وفخر العرب وتاج الملوك أمير الأمراء .

وصار لناصر الدولة أيضا طائرٌ من ذهب مرصّع بنفيس الجواهر وعيناه من ياقوتٍ أحمر
وريشه من الميناء المجرى بالذهب كهيئة ريش الطاووس . وديكٌ من ذهب له عرف كأكبر
أعراف الديكة من الياقوت الأحمر ، مرصّع كُله بسائر الدرّ والجواهر ، وعيناه من ياقوت
أحمر ، كان يُحيرُناظره كيفية تركيبه لأتسام الصنعة فيه وملاحظتها . وغزالٌ مرصّع بنفيس
الدرّ والجواهر ، بطنه أبيض منطور من درٌّ رائع يخاله الناظر حيوانا . ومجمع سكارج^(١)
مخروط من بللور فظ ، وفيه سكارج من بللور يخرج منه ويعود إليه فتحتُه أربعة أشبار
في مثلها ، محكم الصنعة في غلاف من خيزران مذهب ، فسمح به لفخر العرب . وأُخرج
بطيخة من كافور في شباك من ذهب مُرصّع ، وزن كافورها سبعون منّا سوى الذهب ، اقتسمها
فخر العرب وتاج الملوك ، فخصّ فخر العرب منها ثلاثة آلاف مثقال من ذهب ، وقطعة
عبر تسمى الخروف زنتها سوى ما يُمسكها من الذهب ثمانون منّا ، وعدة قطارميز بللور
فيها صور مجسمة بارزة ، يسع كل منها عشرين رطلا .

وطلب الأتراك من المستنصر نفقة ، فمأطلمهم بها ، فهجموا على التربة التي للقصر^(٢) وأخذوا
ما فيها من قناديل الذهب ومن الآلات كالمداخن والمجامر وحلى المحاريب ، فجاء منه خمسون
ألف دينار . وصار إلى فخر العرب مقطع حرير أزرق رقيق بديع الصنعة منسوج بالذهب
وسائر أنواع الحرير تنبيتًا ، عمله المعزّ ، فيه صورة أقاليم الأرض يمدنها وجبالها وبحارها
وأنهارها وسعة حصونها ، وفيه صورة مكة والمدينة ، وفي آخره : ممّا أمر بعمله المعزّ لدين الله

(١) جمع سكرجة وهي الصنفعة .

(٢) حين قدم المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ أحضر معه أجداث آبائه ودفعهم في التربة التي جعلت لهم لمصمصا .
بالقصر والتي دفن فيها بقية الخلفاء الفاطميين وكثير من أمراءهم ونسائهم .

شوقاً إلى حرم الله ، وإشهاراً لمعالم رسول الله ، في سنة ثلاثٍ وخمسين وثلثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار .

وصار إلى فخر العرب مالا يُحصَى كثرةً ؛ من ذلك مائدة يصب كبرة قوائمها منها ؛ وبيضة كبيرة بلخشن زنتها سبعة وعشرون مثقالاً أشدَّ صفاء من الياقوت الأحمر ؛ وبيت أرمي منسوج بالذهب عُمل للمتوكل على الله العباسي لأمثل له ولاقيمة ؛ وقطرميز بللور يسع مروتين نبيذاً مليح التقدير ، قوم عليه مما خرج من القصر ثمانمائة دينار فدفع إليه بعد ذلك فيه ألف دينار فأبى ، وبساط خُشرواني دفع إليه بالإسكندرية ألف دينار فامتنع من بيعه ؛ ومائدة جزع يقعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة منها مالا قَدَّر لها ولاقيمة . سوى ماقبضة شاور بن حسين لناصر الدولة ولفخر العرب من آلات الذهب والفضة ، وآنية الجواهر وعقوده ، وفاخر الثياب والفُرُش والآلات والسلاح ، مما قوم بمئين ألفاً وكانت قيمته ألوف ألوف ديناراً .

وصار إلى ناصر الجيوش ماقيمته ألف ألف دينار من جملته نخلة من ذهب مكللة بجوهر بديع ودرّ رائع ، في إجانة من ذهب ، تجمع الطلُع والبلح وسائر ألوان البُسر والرطب ، بشكله ولونه ، وصفته وهيئته من ألوان الجواهر ، لاقيمة لها . وكوز على مثال كوز الزير من بللور يسع عشرة أرتال ماء مُرَّصع بنفيس الجواهر لاقيمة له ، وصورة مكللة بحَبّ لؤلؤ نفيس ، فيها ما وزن الحبة منه مثقال ، ومنه ما وزن [١٠٣ ب] مثقالين مرصعة بياقوت . وأخرج فيه العشاري المعروف بالمقدم ، ونجاره وكسوة رَحْله التي عملها الوزير على بن أحمد الجرجاني في سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، كان فيها مائة ألف وسبعة وستون ألفاً وسبعمائة درهم فضة نُقْرة ، غير ما أطلق للصناع من أجرة صياغة وثمان ذهب لطلاته ، وهو ألفان وتسعمائة دينار ، وكان سعر الفضة في ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربيع ، بسعر ستة عشر درهماً بدينار . وأخرج حلّ العشاري الفضي الذي عمله أبو سعيد إبراهيم بن سهل التستري^(١) لما ولي الوساطة في سنة ست وثلاثين وأربعمائة لوالدة

(١) سبق التنبيه على أن في هذا خلطاً بين اسمي الأخوين ابني التستري .

المستنصر ، وكان الحلى مائة ألف وثلاثين ألف درهم فضة ، وإلى ذلك أجر الصباغة ولِطْلَاء بعضه ألفان وأربعمائة ، غير ما استُعْمِلَ كسوة برسمه مالٌ جليل . فأُخْرِجَ عدة العشاريات التى برسم القوة البحرية ، وعدتها ستة وثلاثون عشاريا ، وكان قد انصرف عليها فى حلّها من مناطق ورعوس مَنْجُوقَات وأهْلَة وَصُفْرِيَّات وكساها أربعمائة ألف دينار .

وأُخْرِجَ ما على سرير الملك الكبير من الذهب الإبريز الخالص فكان مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال . وأُخْرِجَ السُّر الذى أنشأه أبو محمد اليازورى فجاء فيه من الذهب ثلاثون ألف مثقال ، وكان مرصعا بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الألوان . وأُخْرِجَت الشمسة الكبيرة وكان فيها ثلاثون ألف مثقال ذهباً وعشرون ألف درهم فضة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر ، وأُخْرِجَت الشمسة التى لم تَمَّ فُوجِدَ فيها من الذهب سبعة عشر ألف مثقال . وأُخْرِجَ من خزانة عدة مناكين فضة ، منها مازنته مائة وتسعة أرطال إلى مادونها . وأُخْرِجَ بُسْتَانُ أَرْضِهِ فَضَّةٌ محرقة مذهبة ، وطينه نَدَّ معجون ، وأشجاره فضة مصنوعة ، وأثماره عنبروندد ، زنته ثلاثمائة وستة أرطال بالمصرى . وبطيخة كافور مشبكة بذهب وزنها عشرة آلاف مثقال ؛ ومنقلتا كافور مشبكتان بذهب زنتهما ستة آلاف مثقال ؛ ومنقلتا عنبر وزنها عشرة آلاف مثقال ؛ ومنقلتا عنبر مدورتان وزنها ستة آلاف مثقال . وأثواب مُصَمِّتة ، منها أربعة يُفَصِّلُ كل ثوب منها اثنين ، وثلاثون قميصا نائما ، ومدهن ياقوت أحمر زنته سبعة وثلاثون درهما ونصف ، أخذ من مَوْجُود اليازورى وكان قد صار إليه من السيدة عبدة بنت المعز لدين الله . وأُخْرِجَ لَوْلُو زِنَةُ كُلِّ حَبَّةٍ منه مثقالان ؛ ومن الياقوت الأزرق مازنة كل قطعة منه سبعون درهما ؛ ومن الزمرد ما وزن كل قطعة منه ثمانون درهما ؛ ونصاب مرآة طويل ثخين من زمرد لا قيمة له .

وأُخْرِجَ من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة خُتْمَة فى ربعات بخطوط منسوبة محللة بذهب وفضة . وأُخِذَ جَمِيعُ ذَلِكَ الْأَثَرِ ببيع بعض قيمته . وأُخْرِجَ فى المحرم منها فى يوم واحد خمسة وعشرون جملا موقرة كُتِبَ صارت إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن المعز ، واقتسمها هو والخطير ابن الموفق فى الدارين

بخدمات وَجَّهَتْ لهما عَمَّا يَسْتَحِقَّانِهِ وَغُلَامَانِهما من ديوان الحلبيين ؛ وأن حصّة الوزير أبي الفرج قُوِّمَتْ عليه بخمسة آلاف دينار ، وكانت تساوى أكثر من مائة ألف دينار ، نُهِبَتْ بِأَجْمَعِها من داره يومَ انهزم ناصرُ الدولة من مصر في صفر ، مع غيرها مِمَّا نُهِبَ من دُورٍ مَنْ سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما .

وأخرج مافي خزائن دار العلم بالقاهرة . وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب ، ثم انتقل منها كثيرٌ ، بعد مقتله ، إلى المغرب وأخذته لَوَاتَةٌ ، فيما صار إليها بالابتىاع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار مالايعد ولايوصف ، فجعل عبيدَهُم وإِماؤَهُم جُلُودَها نِعالًا في أرجلهم ، وأخرق ورقها تأوّلًا منهم أنّها خرجت من القصر وأنّ فيها كلامَ المشاركة الَّذي يخالف مذهبهم ، فصار رَمادُها تلالًا عرفت في نواحي أُنْيَارٍ بِتلال الكتب ، وغرق منها وتلف ، ووصل إلى الأمصار مايتجاوز الوصف .

وأخرج من بعض الخزائن التي بالقصر بيضة كبيرة [١٠٤] كأكبر ما يكون من بيض النعام محلّاة بذهب ، فأخذها المستنصر دونَ ماأُخْرِجَ من تلك الخزانة مِمَّا لَهُ خطرٌ وقدر ؛ فقال بعض الحاضرين هذه بيضة نعام ، فتغافل بعضُ من حضر من الأتراك عنها ، وأخذوا النَّفائِسَ من الدّخائر وانصرفوا . فسئل المستنصر من بعض الخدم عن هذه البيضة ، فقال : هي بيضة حيّة أهداها بعض الملوك إلى جدّي القائم بأمر الله ، وكان يحتفظ بها ، وهذه الرّقعة بخط القائم بأمر الله باسم مُهديها والسنة التي أهديت فيها .

وأخرج من القصر في ثلاثة أيام من المحرم ماقيمته من العين اثنان وعشرون ألف دينار وستة وسبعون دينارًا وثمان دينار ، منها قيمة متاع ثلاثة عشر ألفًا وثمانمائة وثلثون دينارًا وثلث وثمان ، وقيمة جوهر ثمانية آلاف وثمانمائة وخمسة وأربعون دينارًا وثلثان ؛ هذا على أنّ مايساوى ألف دينار يُقَوَّم بمائة دينار وما دونها . فإذا كان هذا في ثلاثة أيام فكيف يكون في مُدَّة سنتين ليلا ونهارا !

وتسلّم جلال الدولة بن بويه^(١) من العَيْن ، له ولبن يجرى محراد وعدتْهم عشرة نفر ، من عطية واحدة مبلغ أربعة وأربعين ألف دينار ومائة وثلاثين ديناراً . ووصل إلى بغداد على يد التجار ثم خرج من القصر ، على ما وقفت في تاريخ بعض البغداديين ، أحد عشر ألف درع وعشرون ألف سيف محلي ، وثمانون ألف قطعة بللور وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج . وبيع طشت وإبريق من بللور باثنى عشر ألف دينار ؛ وبيع نحو السبعين ألف قطعة من الثياب ، وعشر حبات زنتها عشرة مثاقيل بأربعمئة دينار .

قال ابن ميسر : رأيت مُجلدة تجيء نحو العشرين كراسة ، فيها ذكر ما خرج من القصر من التحف والأثاث والثياب والذهب وغير ذلك .

وفيها صُرف الوزير محمد بن جعفر ابن المغربي عن الوزارة في رمضان ، وتقرر جلال الملك أبو أحمد ، أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي . وفيها قتل أمير الجيوش بدر بساحل الشام الشريف أبا طاهر حيدرة ، ناظر دمشق^(٢) ، لإحني كانت في نفسه منه ، وكان يعد من الأجواد . وفيها تغلب الأمير حصن الدولة معلّى بن حيدرة الكُشامي على دمشق واقتحمها قهراً^(٣) بالسيف في شوال ، فأساء السيرة في الناس .

وفيها عظم الغلاء بمصر واستدّ جوع الناس لِقلة الأقوات في الأعمال وكثرة الفساد ، وأكل الناس الجيفة والميتات ، ووقفوا في الطرقات فقتلوا مَنْ ظفروا به ؛ وبيعت البيضة من بيض الدجاج بعشرة قراريط ، وبلغت رَاوية الماء ديناراً ، وبيعت دار ثمنها تسعمائة

(١) هو جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه .

(٢) وكان الشريف حيدرة بن إبراهيم أبي طاهر بن أبي الجن قد وصلها في شعبان سنة ٤٦٠ ناظراً على الشام (وزيراً عليها) مع واليها الأمير قطب الدولة ؛ باز طغان ، فترصد له بدر الجمالي ، الوالي المعزول ، لإحني كانت بينهما ، حتى نجح في اقتناصه وقلته ، ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ . وكان عالماً قارئاً ، هرب من الجمالي إلى عمان اللقاء ففر به بدر ابن حازم صاحبها وسلمه للجمالي في مقابل اثني عشر ألف دينار وخلع كثيرة . النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٥ .

(٣) « وليها قسراً وغلبة وقهراً من غير تقليد » فبالغ في المصادرات وارتكب من الظلم ومصادرة المستورين الأخيار الشيء الكثير . وقيل إن التقليد وصله بعد أن تولاه قهراً . ذيل تاريخ دمشق : ٩٥ - ٩٦ .

دينار بتسعين ديناراً اشتري بها دُونَ تَلِيسٍ دقيق^(١) . وعم مع الغلاء وباء شديد ؛ وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد ، فانقطعت الطرقات برّاً وبحراً إلا بالخفارة الكبيرة مع ركوب الفرر . وبيع رغيف من الخبز زنته رطل في زقاق القناديل^(٢) كما تباع التحف والطُرف في النداء : خراج ! خراج ! فبلغ أربعة عشر درهما ؛ وبيع أردب قمح بثمانين ديناراً . ثم عدم ذلك كله ، وأكملت الكلاب والقطط ، فبيع كلبٌ لبوكل بخمسة دنانير . وأبيعت حارةٌ بمصر بطبق خبز ، حساباً عن كل دارٍ رغيفٌ ، فعُرفت تلك الحارة بعد ذلك بحارة طبق ، وما زالت تعرف بذلك حتى دثرت فيما دثر من خطط مصر . وأكل الناس نحاتة النخل ؛ ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً .

وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتاً قصيرة السُقوف قريبةً ممّن يسعى في الطرقات ، فأعدوا سلباً وخطاطيف ؛ فإذا مرّ بهم أحدٌ شالوه في أقرب وقت ، ثم ضربوه بالأخشاب وشرّحوا لحمه وأكلوه . قال الشريف أبو عبد الله محمد الجواني في كتاب النقط : حدثني بعض نِسائنا الصّالحات قالت ، كانت لنا من الجارات امرأة تربي أفعالها وفيها كالحُفَر ، فتقول : أنا ممّن خطفني أكلةُ النَّاس في الشدة ، فأخذني إنسانٌ ، وكنت ذات جسم وسمن ، فأدخلني بيتاً فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل ، فأضجعني على وجهي وربط في يديّ ورجليّ سلباً إلى أوتاد حديد ، [١٠٤ ب] عُرْيَانَةٌ ، ثم شرّح من أفخاذي وأنا أستغيث ولا أحد يجيبي ، ثم أضرم الفحم وأسوى من لحمي وأكل أكلاً كثيراً ، ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو ؛ فأخذت في الحركة إلى أن تخلى أحد الأوتاد ، وأعان الله على الخلاص ، وخلصت ، وحللت الرباط ، وأخذت خروفاً من داره

(١) باعها بعشرين رطل دقيق ، أي أقل بكثير من التليس المذكور في المتن ، إذ أن التليس وزن مائة وخمسين رطلاً .

النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧ ؛ قوانين الدواوين : ٣٦٥ .

(٢) كان من الأحياء التي يسكنها الأحياء وكبار القوم بمدينة الفسطاط زمن انتعاشها وعمارتها ، وهو الآن أرض

فضاء تجاور جامع عمرو بن العاص من جهة الشرق .

ولففت بها أفخاذي ، وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس ،
فَحُمِلْتُ إلى بيتي ، وعرفتُهم بموضعه ، فمضوا إلى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه ، وأقامت
الدماة في أفخاذي سنة إلى أن ختم الجرح ، وبقي هكذا حفرا .

وآل أمر الخليفة المستنصر إلى أن صار يجلس على نُخٍّ أو حصير ؛ وتعطلت دواوينه
وذهب وقاره ، وخرج نساء قصوره ناشراتٍ شُعُورَهن يَصُحْنَ : الجوع الجوع ، ومن
يُردن المسير إلى العراق ، فتساقطن عند المصلى بظاهر باب النصر من القاهرة ، ومتنّ جوعاً .
جاء الوزير يوماً على بغلة فأكلها العامة ، فأمر بهم فشُنقوا ، فاجتمع الناس على المشنقين
وأكلوهم . وعدم المستنصر القوت جُملةً حتى كانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث
إليه كلّ يوم بقُعْبٍ من فَنَيْت من جُملة ما كان لها من البرِّ والصَّدَقَات في سنى هذا القلاء ،
حتى أنفقت مالها كلّهُ ، وكان يجلس عن الإحصاء ، في سبيل البرِّ ، فلم يكن للمستنصر
قوتٌ سوى ما كانت تبعث به إليه ، وهو مرة واحدة في اليوم ، لا يجد غيره . وبعث بأولاده
إلى الأطراف لعدم القوت ، فسيّر الأمير عبد الله إلى عكا فنزل عند أمير الجيوش ، وأرسل
الأمير أبا علي معه ، وبعث الأمير أبا القاسم والد الحافظ إلى عسقلان ، وسيّره أولاً إلى
دمياط ، ولم يترك عنده سوى ابنه أبي القاسم أحمد .

وبعث المستنصر يوماً إلى أبي الفضل عبد الله بن حسين بن شوري بن الجوهري الواعظ ،
فدخل القاهرة من باب البرقيّة^(١) ، فلم يَلَقْ أحداً إلى القصر ؛ فجاء من باب البحر^(٢) ،
فوجد عليه شيخاً ، فقال اسْتَأْذِنْ عَلَيَّ ؛ فقال : ادْخُلْ فهو وحده ؛ فدخل ، فلم ير أحداً
في الدهاليز ولا القلعة ، فأزهد :

(١) والبرقية جماعة كبيرة قدمت مع المعز لدين الله سنة ٣٥٨ ، واستقروا بحي خاص بهم عرف باسم حارة البرقية ،
بمنطقة الدراسة الحالية .

(٢) من أبواب القصر الغربية سمي بذلك لأن الخليفة كان يستخدمه عندما يقصد شاطئ النيل عند المقدس . وموضع
هذا الباب - كما يقول المقرئ في الخطط - يعرف باسم باب قصر بشتاك ، بشارع بين القصرين . النجوم الزاهرة :
٤ : ٣٥ حاشية : ٦ .

يا منزلاً ، لم تَبْلَ أَطْلَالُهُ حاشاً لأَطْلَالِكَ أن تبلى
لم أبلِكِ أَطْلَالَكَ ، لكننى بكيت عيشى فيك إذ ولى
والعَيْشُ أولى ما بكاه الفتى لا بدُّ للمحزون أن يسلى

فإذا هو خلف باب المجلس ، فبكى وبكى طويلاً ، وحادثته ساعة ؛ ثم ناوله الخليفة
قرطاساً فيه سبعون ديناراً .

ومن عجيب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوت عرضت عقداً لها قيمته ألف دينار
على جماعة ليُعْطوها به دقيقاً وهم يعتدرون إليها ويدفعونها ، إلى أن رقت لها رجل وباعها به
تليس دقيق ، فحملته من مصر واكترت معها مَنْ يحفظه من النَّهَابَةِ ، وسارت تريد منزلها
بالقاهرة ، فسلمه الحَمَلَةُ إليها عند بابي زويلة ، فلم تمش به غير قليل حتى تكاثر النَّاسُ
عليها ، وانتهبوه منها فانتهيت هي أيضاً منه مع النَّهَابَةِ ، فصار إليها ملء يديها دقيقاً لم ينبها
منه غيره ، فعجنته وشوته ، ثم مضت إلى باب القصر ووقفت على موضع مرتفع ،
ورفعت القُرْصَةَ في يدها حتى يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها : يا أهل القاهرة ، ادعوا
لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حُسن نظره ، حتى تقومت
على هذه القرصة بألف دينار . ووقف مرة بعض المياسير بباب القصر وصرخ إلى أن أحضر
المستنصر ؛ فلما وقف بين يديه قال : يا مولانا هذه سبعون قمحة وقفت على بسبعين
ديناراً كل حبة قمح بدينار ، فى أيامك ، وهو ، أنى اشتريت إردباً بسبعين ديناراً فذهب منى
ولم يبق لى منه سوى ما وقع بيدي وانتهانى منه مع مَنْ نهب ، فعددت ما فى يدي فجاء
سبعين حبةً مِنْ قمح ، وإذا كل حبة بدينار . فقال المستنصر : الآن فرج الله على الناس
فإن أيامى حُكِمَ لها أنه يباع فيها القمحة بدينار .

ولم يكن هذا الغلاء عن قصور مد النبل فقط ، وإنما كان من اختلاف الكلمة ومُحَارَبَةِ
الاجناد بعضهم مع بعض . وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس ، فتغلبت لواتة
والمغاربة على الوجه [١٠٥] البحرى ، وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد ، وتغلب .

الملثمة والأثرالك بمصر والقاهرة^(١) ، وتحاربوا . وكان قد حصل ذلك من بعد قتل اليازورى في سنة خمسين كما تقدم ؛ فمازالت أمور الدولة تضطرب وأحوالها تختل ، ورسومها تتغير ، من سنة خمسين إلى سنة سبع وخمسين ، فابتدأت الشدة منها تتزايد إلى سنتي ستين وإحدى وستين ، فتفاقم الأمر وعظم الخطب واشتد البلاء والكرب . وما برح المصاب بعظم إلى سنة ست وستين ، وكان أشدها مدة سبع سنين ، من سنة تسع وخمسين إلى سنة أربع وستين أخصبت كل شر ، وهلك فيها معظم أهل الإقليم . ثم أخذ البلاء ينجلي من سنة أربع وستين إلى أن قدم أمير الجيوش بدر في سنة ست وستين ، كما سيأتى ذكره إن شاء الله . فكانت السبع سنين المذكورة يمد فيها النيل ويطلع وينزل في أوقاته ، فلا يوجد في الإقليم من يزرع الأراضي ولا من يقيم جسوره ، من كثرة الاختلاف وتواتر الحروب ، وانقطاع الطرقات في البر والبحر إلا بالخفارة الثقيلة وارتكاب الخطر ؛ ولم يوجد ما يُبذَر في الأراضي للزراعة ، فإن القمح ارتفع الأردب منه من ثمانين دينارا إلى مائتي دينار ، ثم فقد فلم يُقدر عليه ولا الخليفة .

وفيها صُرف ابن أبي كدينة عن القضاء في ثالث عشر صفر ، وتولى المليحي ؛ وصرف جلال الملك عن الوزارة ، وصرف معه أيضا المليحي عن القضاء في يوم واحد ، وجُمعا معا لخطر الملك محمد بن اليازورى فباشرها إلى شوال ، ثم صرف عنهما . فاستقر فيهما بعده ابن أبي كدينة إلى ذى القعدة ؛ وأعيد المليحي بعده .

وفيها احترق جامع دمشق ليلة الاثنين ، النصف من شعبان ، بعد العصر ، وسببه فتنة

(١) أما لواتة والمغاربة فقد جاؤا مع جيوش الفتح وفي ركاب المعز لدين الله ، وتزايد السودان بالشراء وتكاثر عددهم أيام المستنصر ، إذ كانت والدته جارية لأبي سعيد التستري - اليهودي - فلما تولي أنها المستنصر الخليفة ، وسنه سبع سنوات تحكمت في الدولة واستكثرت من بنى جنسها ؛ أما الأثرالك فكان العزيز بالله أول من استقدمهم واستعان بهم فتزايد عددهم حتى أصبحوا - كغيرهم - خطرا على الدولة .

بين العسكرية وأهل البلد ، فأُضرموا النار في بعض الأسواق وأتَّصَل بالجامع ، فاحترق الجانب الغربي جميعه من الرواق الباقلاني والقبّة الكبيرة ، وزالت آثار الوليد بن عبد الملك التي لم يكن في الإسلام مثلها^(١) .

(١) جاء في مرآة الزمان : « ... وكان القتال في غربي الجامع ، ورمى المشارقة وأهل البلد بالنشاب من دار قريبة من الجامع ، فضربت الدار بالنار فاحترقت وثارَت النار منها إلى الجامع فأحرقت ليلة نصف شعبان هذه السنة . ولما رأى العوام ذلك تركوا القتال وقصدوا الجامع طمعا في تلافيه ليُداركوا ما حدث ، ففأت الأمر ، فرموا سلاحهم ولطموا واستفأوا والنار تعمل إلى الصباح ، فأصبح الجامع ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة ، وصاروا أيام الجُمُاعات يصلون فيه على التلال . وقال ابن القلانسي : « وأسف القاصي والداني لاحتراق مثل هذا الجامع للمحاسن والفرائد ، الممدود من إحدى المعجائب حسنا وبهاء ورونقا وسناء ، وكيف أصابت مثل العيون الصوائب ، وعدت عليه عادية النوايب » . ذيل تاريخ دمشق : ٩٦ - ٩٧ .

سنة اثنتين وستين وأربعمائة (١) :

فيها بعث ناصر الدولة حسين بن حمدان الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخاري رسولا منه إلى السلطان ألب أرسلان ، ملك العراق^(٢) ، يسأله أن يسير إليه العساكر ليقم الدعوة العباسية بديار مصر ، وتكون مصر له . فتجهز ألب أرسلان من خراسان في عساكر عظيمة ، وبعث إلى محمود بن ثمال بن صالح بن مرزاس ، صاحب حلب ، أن يقطع دعوة المستنصر ويقم الدعوة العباسية ، فقطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك . وانتهى ألب أرسلان إلى حلب في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وحاصرها شهرا ، فخرج إليه صاحبها محمود بن ثمال بن صالح بن مرزاس ، فأكرمه وأقره على ولايته . وأخذ يريد المسير إلى دمشق ليمر منها إلى مصر ، وإذا بالخبر قد طرده أن متملك الروم^(٣) قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده ، فواقع جمائع الروم على خلاط^(٤) وهزمهم . وكان قد ترك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكها كلها ، فخرجت عن أيدي المصريين ولم تعد إليهم .

وبلغ المستنصر إرسال ناصر الدولة إلى ألب أرسلان ، فجهز إليه ثلاث عساكر من الأتراك وغيرهم ، وتقدم أحد العساكر إليه وهو في أهل البحيرة ، فجمع له ابن حمدان وأوقع به وقعة انكشفت عن أسر مقدم العسكر ، وقتل كثير من أصحابه ، وانهمز من بني ، والاستيلاء على ما بقي معهم ، فتقوى به . ووافاه العسكر الثاني ولا علم عندهم بما اتفق على من تقدم ، فكانت الدائرة لابن حمدان عليهم أيضا ؛ فسار وهجم على العسكر الثالث وقتل منهم وأسر ،

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من أكتوبر سنة ١٠٦٩ .

(٢) سلطان السلاجقة العظام ، وهو عضد الدين أبو شجاع ابن أخى ركن الدين طغرل بك . تول السلطنة بين سنتي ٤٥٥-٤٦٥ (١٠٦٣-١٠٧٢) Mohammadan Dynasties . ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني .

(٣) وهو الإمبراطور رومانوس الرابع .

(٤) خلاط عاصمة أرمينيا الوسطى ، رها بحيرة لا يظهر بها سلك ولا ضفدع إلا شهرين في السنة . معجم البلدان ٣٠ : ٤٥٣ .

وانتهب عامة ما كان معهم ، فكثرت أمواله ، وكبرت نفسه ، واشتأسد على المستنصر واستخف به وبمن معه ، فقطع الميرة عن القاهرة ومصر ، وعاث في البلاد ، ونهب أكثر الوجه البحرى . وقطع خطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى ، وخطب للخليفة القائم [٢٠٥ ب] بأمر الله العباسى . وامتدت الحرب بين الأتراك وعبيد الشراء ثمانية أشهر يتحاربون ليلاً ونهاراً ، فامتنع الناس من الحركة ؛ وجاء النيل ووفى فلم يقدروا على الزرع ، فتفاقم البلاء بالناس واشتد جوعهم وعظمت رزاياتهم . وفشا مع ذلك الموت في الناس فكان يموت الواحد من أهل البيت في القاهرة أو مصر ، فلا يمضى ذلك اليوم أو تلك الليلة حتى يموت سائر من في ذلك البيت . وعجز الناس عن مواراة الأموات فكفّنوهم في الأنخاخ ، ثم عظمت شناعة الموت وتضاعف العجز ، فصاروا يحفرون الحفائر الكبار ويلقون فيها الأموات بعضهم على بعض ، حتى تمتلئ الحفيرة بالرّم من الرجال والنساء والصغار والكبار ، ثم يهال عليها التراب . ومع هذا تكاثرت انتهاب الجند للعامة واختطافهم من الطرقات فخرج أهل القوّة من القاهرة ومصر يريدون بلاد الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن ، فصار إلى تلك البلاد عامة التجار وأصحاب القوة ، ومعهم ثياب المستنصر وذخائره وآلاته التى تقدم ذكر طرف منها .

وفيهما حاصر أمير الجيوش بذر مدينة صور وبها عين الدولة أبو الحسن على ، الملقّب بالناصح ، ثقة الثقات ذى الرئاستين ، ابن عبد الله بن على بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل القاضى ، وخصايقها ، فسيّر عين الدولة إلى الأمير لواء مقدّم الأتراك الواردين من العراق إلى بلاد الشام لينجده ، واتصل ذلك بأمير الجيوش ، فخاف من الأتراك ، فرحل عن صور . ثم لما اطمأن عاد إلى صور ونازلها فلم يظفر منها بشئ .

وفيهما قطعت دعوة المستنصر من مكة ودعى بها للقائم العباسى وللسلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن مسلق بن دقاق . وكان سبب انقطاع دعوة المستنصر بها أنه كان يُنفق في كل سنة على القافلة المجهزة إلى مكة في الموسم مائة ألف وعشرون ألف دينار ، منها عن الطيب والخلوق والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ، ونفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار ، وعن الجرايات والصدقات وأجرة الجمال

ومعونة من يسير من العسكرية وأمير الموسم وخدم القافلة والضعفاء وحفر الآبار ونفقات
العربان ستون ألف دينار^(١). ثم زادت النفقة في وزارة اليازوري حتى بلغت إلى مائتي ألف
دينار في السنة ؛ ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في دولة من دول الإسلام قط.
فلما ضعفت الدولة في هذه السنين وزحف عضد الدولة من خراسان إلى حلب بعث إلى محمد
ابن أبي القاسم الحنفي أمير مكة^(٢) بثلاثين ألف دينار وبخلف سنية وأجرى له في كل سنة
عشرة آلاف دينار ؛ وبعث إلى صاحب المدينة عشرين ألف دينار ؛ فقطع خطبة
المستنصر بعدما قامت الدعوة والخطبة للمستنصر ولآبائه بمكة والمدينة مائة سنة ، ودعا
للقائم العباسي ولعضد الدولة ؛ وقرر عضد الدولة ما يحمل إلى الحرمين على ارتفاع
واسط .

(١) ويتبقى بعد هذا كله عشرة آلاف دينار لم يذكر المؤلف مصارفها .
(٢) بهامش الأصل تعريف به نصه : « بخطه : هو محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله
ابن أبي هاشم محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب . استخلفه الصليحي
على مكة في سنة ست وخمسين وأربعائة ، فأقام أميراً بمكة ثلاثين سنة » . اهـ .

سنة ثلاث وستين وأربعمائة (١) :

فيها اصطلع الأتراك بمصر مع ناصر الدولة ابن حمدان وهو مُقيم بالوجه البحرى، وذلك لشدة ما نالهم من قَطْعِ الميرة عنهم، فوقع الاتفاق بينهم وبينه على أن يكون مقيماً بمكانه وتُحمَل إليه الأموال التي تقرر له ، وأن يكون تاج الملوك شادى نائباً عنه بالقاهرة . فتقرر الحال على ذلك ودخلت الغلال إلى البلد ، قطابت قلوب الناس ، وانجلى الأمر نحو شهر ؛ ثم وقع الخلاف بين الأتراك وبينه ، فرحل من البحيرة بعساكر كثيرة ونازل البلد وحاصرها مُحاصرةً شديدة في ذى القعدة ؛ وامتدت أيدي أصحابه فانتهبوا الناس في الدور وأخذوهم من الطُرقات ، وأحرقوا كثيراً من دُور الساحل . ثم عاد إلى البحيرة .

(١) - ويوافق أول المحرم منها التاسع من أكتوبر سنة ١٠٧٠ .

سنة أربع وستين وأربعمائة (١) :

وفيها كانت الحرب بين تاج الملوك شادى وبين ناصر الدولة ابن حمدان ، وعادت الفتنة بالقاهرة ومصر . وكان سبب مُحَارَبَتِهِمَا أَنَّ تَاجَ الملوك لَمَّا دخل إلى القاهرة نائباً عن ناصر الدولة تغيّر عما كان قد تَرَرَّ بينهما ، واستبدَّ بالأمور [١١٠٦] فَضَنَّ بالمال عليه . ولم يصل ابن حمدان منه إلَّا دُونَ مَا كَانَ يُؤَمِّلُهُ . فَعَلِقَ لذلك ابنُ حمدان ، وانفق هو وجناتع العُربان على المسير إلى القاهرة وأخذها . فسارَ بهم ، ونزل إلى الجيزة ، فاستدعى تاجَ الملوك وغيره من أَكابر المُقَدِّمين ، فخرجوا إليه مطمئنين لأنَّه واحد منهم يَهْوَى هَواهم ، فما هو إلَّا أَن صارُوا إليه حتى قبضَ عليهم ، وزحف بجموعه ، وألقى النار في دُور السَّادة ، وانبثَّت أصحابه ينتهبون ما قدرُوا عليه . فجهاز المستنصرُ إليه عسكرياً كانت فيه طائفةٌ لهم قوة وفيهم مَنعةٌ ؛ فوافقوه . وكانت بينهم وبينه حرب انجَلَّت عن هزيمته ، ففرَّ على وجهه وتلاحق به أصحابه . وصاروا إلى البحيرة ، فقطع خطبة المستنصر من جميع الوجه البحرى . وكتب إلى الخليفة القائم ببغداد يسأله أَن يجهزَ إليه الخلع والألوية السود ، فاضمحَلَّ قدرُ المستنصر وتلاشى أمره . وتعاضمت الشدائد بمصر ، وجلَّت رزايا الناس .

فلَمَّا كان في شعبان سار ناصرُ الدولة بعساكره وقد تيقَّنَ عجزَ المستنصر عن مقاومته لضعف أمره ومُمَالَاةَ كثير من الأتراك له . وموافقتهُم لما قرَّره معهم من محبة ؛ فدخل إلى مصر فاستولى على الأَمْر ؛ وبحث إلى المستنصر يطلبُ منه المال . فدخل عليه قاصدُ ابنِ حَمْدَانَ وهو جالسٌ على حصيرٍ بغير فرش ولا أُبَّهة . وليس عنده غيرُ ثلاثةٍ من الخدم ، وقد زال ما كان يعهدهُ من شارذ المملكة وعظمة الخلافة . فلما أدَّى إليه الرسالة . قال له المستنصر : أما يكفي ناصر الدولة أَن أجلس في مثل هذا البيت على هذه الحال ؟ ! فلَمَّا سمع بذلك قاصدُ بنِ حمدان بكى وخرج . فأعلم ناصر الدولة ما شاهده من هيئة المستنصر ،

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٧١ .

وعرفه بما صار إليه من سوء الحال ؛ فرق له وكف عنه ، وأطلق له في كل شهر مائة دينار . واستبد بسائر أمور الدولة ، وبالع في إهانة المستنصر في الاعتقاد ، وزاد في إيصال الضرر إليه وإلى سائر حواشيه وأسبابه ، حتى قبض على أمّ المستنصر وعاقبها بعقوبات متعدّدة ، واستخلص منها أموالاً جمّة . فتفرق عن المستنصر جميع أهله ، وسائر أقاربه وأولاده وحواشيه ، فممنهم من سار إلى المغرب ومنهم من خرج إلى العراق ؛ وبقي فقيراً وحيداً خائفاً يترقب . وقيل إنّ أمّ المستنصر فرّت أيضاً إلى العراق .

وفي شهر ربيع الأول استقر ابن أبي كُذَيْبَة في الوزارة والدعوة والقضاء . واستمر الحال على ما وصفنا جميع سنة أربع وستين .

وفيها فقد الطعام ، فسارت التجار من صِقْلِيّة والمهديّة^(١) في الطعام والمرتب . فبيع القمح كلّ كيل قروى زنته تسعة أرطال بدينار نزارى ، ثم بيع بمثقالين ، ثم بثلاثة ، ثم فقد . وطبخ الناس جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين ، وبلغ الزيت أوقيةً بدرهمين ، وأوقية اللحم بدرهم ، وبيعت الأمتعة بأبخس ثمن ، وباع الناس أملاكهم . ووقع الوباء فأتى الناس موتاهم في النيل بغير أكفان .

وفيها مات القاضي الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن عمّار بن الحسين بن قُندس بن عبد الله بن إدريس ابن أبي يوسف الطائى بطرابلس الشام ، ليلة السبت نصف

(١) المهديّة مدينة أنشأها عبد الله المهدي ، أول الفاطميين بالمغرب ، على مسافة ستين ميلاً من القيروان . معجم البلدان ٨ : ٢٠٩ ؛ البكري ٣ : ١٧ - ١٩ .

رجب^(١). وفيها ملك القمص رجار بن تنقرد صاحب مدينة قلبريو^(٢)، وهي مقابل مدينة جربة^(٣)، جزيرة صقلية^(٤).

(١) وخلفه فيها ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن ابن عمار ، فضبط البلد أحسن ضبط ، ولم يظهر لفقد منه أثر لكفايته . الكامل : ١٠ : ٢٤ .

(٢) هو الأمير Roger I, Son of Tancred of Hauteville . وصل مع مجموعة من النورمان إلى جنوب إيطاليا ٤٥٠ (١٠٥٧) وشارك في فتح إقليم كلبريا (في المتن قلبريو) ثم اتجه إلى صقلية وواصل فتوحه فيها على مدى ثلاثين عاما ٤٥٢ - ٤٨٣ (١٠٦٠ - ١٠٩٠) ونجح في وضع أسس الحكم النورماندى بها . راجع دائرة المعارف البريطانية . (٣) جزيرة بالمقرب من ناحية إفريقية قرب قابس ، بها بساتين كثيرة ، وبينها وبين البر مجاز . معجم البلدان : ٣ : ٧٣ - ٧٤ .

(٤) والسبب المباشر لذلك أن المستنصر بعث إلى الوالى يطلب منه المال المقرر عليها ، وكان عاجزا عما طلب منه ، فاستعان بالفرنجة ، فدخلوا وقتلوا ونهبوا واستولوا على البلد . النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٧ في أثناء عرض أحداث سنة ٤٦٣هـ .

سنة خمس وستين وأربعمائة (١) :

فيها قُتل ناصرُ الدِّين الحسين بن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث ابن غطيف بن مجرّبة بن حارثة بن مالك بن جشم ، أحد الأرقام ، بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غم بن ثعلب بن وائل بن قاسط بن فيد بن أقصى بن داغى بن جديلة بن أسد بن ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان التغلبي . وكان سبب فناءه أنّه لما استولى على أمور الدولة وبالع في إهانة المستنصر وتتبع أقاربه وحواشيه ، وأخذ من قَدَر عليه منهم ، وفرّ مَنْ وجد سبيلا إلى الفرار ، كان يولّي الرجل بعض الأعمال ويسيره إليه فلا يتمكن من ذلك العمل حتى يكتب إليه بأن يعود ، ويبعث غيره^(٢) . وشرع في قطع دعوة المستنصر وإعمال الرأى في إقامة الخطب للخليفة القائم بمصر والقاهرة ، [١٠٦ب] وأن يُزِيل من البلاد دولة الفاطميين ويمحو آثارها ، فلم يستطع ذلك ولا قدر عليه لكثرة الأعوان والأتباع . وكان من جملة رجال الدولة المذكور^(٣) ، وهو أحد الأمراء ، ففطن لما يريد ناصر الدولة من قطع خطبة المستنصر وإقامة دعوة بنى العباس ، فنشاور هو والأمير يَلْدَكُوز ، وكانا من أكابر الأتراك ، وأنكرا ، ما يتفق من ناصر الدولة وتخوفا من عاقبة ذلك . وصارا إلى بقية الأتراك وأعلمائهم أنّه إن تمّ لناصر الدولة ما يحاوله لم يُبْقِ منهم أحدا ، والرأى مبادرته قبل أن يستفحل أمره ؛ فتقرر الأمر على القيام عليه وقتله .

وكان ناصر الدولة قد اغترّ بقوته ، وظنّ أنّه قد آمن ، وأن أعداءه قد تلاشوا وتلفوا ، فأتاه الله من حيث لم يحتسب ، وأناخ به عواقب بغيه ، فلم يشعر إلّا وقد ركب الأتراك بأجمعهم

(١) ويوافق أول الهرم منها السابع عشر من سبتمبر سنة ١٠٧٢ .

(٢) ولا يمكن الوال من العود . وكان يقصد بذلك أن يجرد المستنصر بالله من الأعوان وأن يغفل القاهرة من الرجال القادرين الذين قد يكونون عتبة في سبيل تمكنه . الكامل : ١٠ : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) سبق التعريف بأنّه كان شيخ الأتراك ومقدمهم وكان قد تزوج ابنة ناصر الدولة ابن حمدان .

على حين غفلة من ليلة من رجب^(١) ، وواقفوا داره بمصر سحراً . وكان يسكن في منازل العز ،^(٢) فهاجموا عليه من غير دُستوره ولا طلب إذن ، فإذا هوى صحن داره وعليه رداء ، فبادره أحدُهم بسيفه وأتبعه إلى دُكز فحز رأسه . وخرج كوكب الدولة مسرعاً إلى فخر الدولة أخيه في عدة ، فطرقه وهو آمين^(٣) وقتله واحتمل رأسه ، وأخذ سيفه وجارية من جواريه . وامتدت الأيدي إلى مَنْ بقي منهم . فقتل أخوهما تاج المعالي وجماعة من بني حمدان ؛ وتنبعوا أسبابهم وحواشيهم حتى لم يبق منهم أحد بديار مصر . وأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم^(٤) وما أصدق قول أبي على السكيت إذ يقول هجاء لناصر الدولة هذا :

ولئن غلظت بآن مدحتك ، طالبا جدواك ، مع علمي بأنك باخل
فالدولة العراء قد غلظت بآن سمّتك ناصرها وأنت الخادل

وقتل في هذه الثوبة الوزير أبو شالب عبد الطاهر بن فضل بن الموفق في الدين ، ابن العجمي .

وفيها قُطعت خطبة المستنصر من بيت المقدس .

- (١) بياض بالأصل ينسج لنحو كلمة ، ولم أتمكن من تحديد هذا التاريخ رغم الاستعانة بمراجع عدة .
- (٢) دار بيتها السيدة أم العزيز بالله ، على النبل لا يحجبها عنه شيء ، وكان الخلفاء الفاطميون يتخذونها منزلاً لهم . وقد سكنها ناصر الدولة بن حمدان - كما يتبين من المتن - وعندما فدت أسرة صلاح الدين الأيوبي مصر ، سكنها تن الدين عمر ، ابن عمه ، ثم اشتراها من بيت المال وبنّاها مدرسة للشافعية . انظر الخطط : في مواضع منفرة ؛ وكذلك كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة .
- (٣) وكان فخر الدولة - فخر العرب - كبير الإحسان إلى كوكب الدولة هذا فأذن له وقال لعله قد دهمه أمر . الكامل : ١٠ . ٣٠ وفي الأصل : « فخرج مسرعاً إلى مصر الدولة ولد أخيه ... » وهو خطأ إذ أن فخر الدولة أخو ناصر الدولة راجع ماسق ؛ والنجوم الزاهرة : ٥ ؛ نهاية الأرب للنويري ، الكامل : ١٠ . ٣٠
- (٤) في السحوم الزاهرة تفصيل لكيفية اغتيال ابن حمدان جاء فيه أنه كان للأمر إلكز غلام اسمه أبو منصور كشتكين ، وأنه وافق معه في قتل ابن حمدان ، وقد بدأ إلكز بأن ضربه بسكين في حاصرته ، ثم ضربه كشتكين فقطع رجليه ، فصاح ابن حمدان : فعلتوها ! فحزرت رأسه . وقطع ابن حمدان قطعاً وأنفقت كل قطعة إلى بلد معين . النجوم الزاهرة : ٥٠ : ٢١ - ٢٣ .

سنة ست وستين وأربعمائة (١) :

فيها تشدد الأتراك وكبيرهم سلطان الجيش بلدكوش التركي^(٢) ، والأمير إلدركز والوزير يومثذ ابن أبي كدينة ، فضاق خناقهُ وعظم روعه وساءت حاله ، وكان [المستنصر بالله]^(٣) يظن أن في قتل ابن حمدان راحةً له ، فاستطال إلدركز وابن أبي كدينة عليه وناكده . فتحير في أمره وكتب إلى أمير الجيوش بدر الجمالي ، وهو يومثذ بعكا ، يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانتته ويَعِدُه بتملك البلاد والاستيلاء عليها . فاشترط عليه أنه يَقدِّم بعسكرٍ معه ، وأنه لا يُبقي أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم ؛ فأجابهُ المستنصر إلى ذلك^(٤) . فأخذ في الاستعداد للمسير إلى مصر ، واستخدم معه عدَّة من العساكر ، وركب بحر الملح من عكا ، وكان الوقت في كانون^(٥) وهو أشد ما يكون من البلاء ، ومن العادة أن البحر لا يُركب في الشتاء . فسار في مائة مركب وقد حُذِر من ركوبه وخُوف من سوء العاقبة فلم يُضغ لذلك ؛ وكان الله سبحانه قد صنع له ومكَّن له في الأرض ، وقضى بأن يَصْلُح على يديه ، ما قد قسد من إقليم [مصر] . فترحل بعساكره في المراكب ، وأضحت السماء ، وواتتهم ريحٌ طيبة سارت بهم إلى دمياط ولم يَمَسَّسْهم سوء ؛ فكان يقال إنه لم يُرَ في البحر قطُّ صحوة تبادت أربعين يوماً إلا في هذا الوقت ، فكان هذا ابتداء سعادته وأوَّلَ عظيم جَدِه . فنزل بدمياط ، وطلب إليه الثَّجَارَ من تَنِيَس وافترض عليهم مالا .

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس من سبتمبر سنة ١٠٧٣ .

(٢) وهو الأمير بلدكوز الذي تعاون مع إلدركز في مؤامرة اغتيال ناصر الدولة ابن حمدان .

(٣) الإضافة لتصحيح الومع إذ أن المستنصر هو الذي استدعى أمير الجيوش من الشام .

(٤) وكان معظم العسكر الذين امتعان بهم من الأرمن ، وبهذا دخل عنصر جديد في تكوين الجيش الفاطمي ،

إلى جانب الأتراك والسودان والمغاربة ، والمصطنعة إلى المرتقة .

(٥) في السنة شهران يحملان هذا الاسم : كانون الأول = ديسمبر وكانون الثاني = يناير . ولم أهدأ إلى المقصود منها ، إذ تذكر المراجع أن سير بدر الجمالي كان في سنة ست وستين وأربعمائة دون تحديد للشهر الذي يمكن بواسطته التعرف على المقصود بشهر كانون المذكور هنا ، راجع - مثلاً - البجور الزاهرة : ٥ ؛ الكامل : ١٠ ؛ ذيل تاريخ دمشق ؛ نهاية الأرب .

وقدم عليه سليمان اللواتي ، وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأكثرهم مالا ، وأوسعهم حالا ،
وقدم إليه وأضافه ، وأمدّه بالطرقات حتى قدم قليوب فنزل بها . وبعث إلى المستنصر سرا
بأنّ لا يمكنني القدوم إلى الحضرة ما لم يقدّم على بلدكوش ؛ فبادر المستنصر إلى إجابته
وقبض عليه .

ودخل بدرٌ عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى فتلقاه أهل الدولة
وأنزلوه ، وبألغوا في إكرامه ؛ فأظهر أنّه ما جاء إلّا شوقاً إليهم ، وخدعهم بما أبداه من
المحبة لهم وكثرة [١١٠٧] التعلّق . وأعرض عن المستنصر ولم يذكره إلّا بالسوء ؛ وصار
من معه يدخلون إلى القاهرة وخذاناً ورجالا في الخفية حتى تكامل منهم تسعمائة . ثم أخذ
مع الأمراء في الأكل والشرب واللذات ، إلى أنّ اشتد تآنسهم به ، فاستدعاه كل منهم
إلى ضيافته . وقدموا إليه ، وهو أخذ في أسباب مآذى إليه .

فلما انقضت أيام ضيافتهم له استدعى أمراء الدولة ومقدميها في صنيع أعد لهم ،
فمضوا إليه ، وقضوا نهارهم عنده ، وباتوا في أطيب عيش وأنعم بال ؛ وقد رتب
أصحابه ليقتل كلّ واحد أميراً من الأمراء ويكون له جميع ما بيده . فلما سكروا وامتدّ
عليهم رواق الليل صار يُخرج كلّ واحد من باب ويسلمه إلى غلام من غلمانه ، ويمضي
إلى داره فيتسلّمها بما فيها من الخدم والأموال . فلم يصبح الصباح إلّا ورغوس الجميع
بين يديه . وقد استولى كلّ رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء وأحاط بجميع ما كان له .

وأخذ في القبض على الأتراك وتبعضهم حتى لم يدعّ منهم أحداً يشار إليه ، فقويت
شوكته واشتدت وطأته وعظم أمره ؛ فحسّر عن ساعد الجدّ ، وشرمّ ساعد الاجتهاد ،
والتفط المفسدين فلم يبق على أحد منهم ، وتطلّبهم في القاهرة ومصر حتّى أتى على جميعهم
القتل . وفّر ناصر الجيوش أبو الملوك ، وكان شاه بن بلدكوش ، إلى الشام .

وخلع عليه المستنصر بالطليسان المقور ، وصار جميع أهل الدولة في حكمه ، والدعاة نواباً عنه ، وكذلك القضاة إنما يتولون منه^(١) . فقلد أبا بهلى حمزة بن الحسين بن أحمد الفارقي قضاء القضاة . وزيد في ألقاب أمير الجيوش على ألقاب مَنْ تقدمه من الوزراء : كافل قضاة المسلمين .

واتفق أنه لما لبس خلع الوزارة حضر إليه المتصدرون بالجوامع ، فقرأ ابن العجمي : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ^(٢) » ، وسكت عن تمام الآية ، فقال له أمير الجيوش بدر : والله لقد جاءت في مكانها وجاء سكوتك عن تمام الآية أحسن ؛ وأمر له بصلة .

فيها قتل أمير الجيوش من أمائل المصريين وقضاةهم ووزرائهم عدة كثيرة ، منهم الوزير أبو محمد الحسن بن ثقة الدولة على بن أحمد المعروف بابن أبي كدينة ، وكان عندما قدم [بدر] إلى مصر هو الوزير ، وهو من ولد عبد الرحمن بن ملجم ، وتردد في القضاء والوزارة سبع مرات ؛ وكان قاسى القلب جبّاراً ، فلما قبض عليه سُيّر إلى دمياط ، ودخل عليه السيّاف ليضرب عنقه ، فكان سيفه ثليلاً ، فضربه سبع ضربات بعدد ولايته القضاء والوزارة .

وقُتل أيضاً الوزير أبو المكارم أسعد ، والوزير أبو شجاع محمد بن الأشرف أبي غالب محمد بن علي ؛ والوزير عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضيف .

(١) ونعت بدر بالسيد الأجل أمير الجيوش ، وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق ، وخلع عليه بالمقد المنظوم بالموهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذئابة المرخاة والطليسان المقور زى قاضى القضاة . وصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض يقال لتوليها أمير الجيوش ، وبطل اسم الوزارة . الخطط : ١ ، ٤٤٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٢٣ .

سنة سبع وستين وأربعمائة (١) :

فيها سار أمير الجيوش بَذَر إلى الوجه البحرى فَأَوْقَعَ بِلَوَاثَةِ وقتل مقدّمهم سليم اللّوأتى وابنه ، واستصنى جميع ما كان له وليقومه من أنواع [الأموال] (٢) ، وأسرف في قتلهم حتى يُقال إنه قتل منهم عشرين ألفا . وسار إلى دمياط وقتل كثيراً ممن كان فيها من المفسدين ، وخرّب وحرّق ، وأصلح عامّة أحوال الثغر . ولم يدع بالبّر الشرق وجميع أسفل الأرض مُفسداً إلاّ وقتله أو قمعه . ثم عدّى إلى البّر الغربى فقتل كثيراً من الطائفة الملحية وأتباعهم ؛ وأقام على مُحاصَرة الإسكندرية أيتاما حتى أخذها قهراً ، فقتل كثيراً من أهلها المفسدين ، وعفا عن أهل البلد فلم يغرّض لهم .

وفيها حاصر شكل التركى ، أحد الأتراك الواصلين من العراق إلى الشام ، ثغر عكّا وأخذه بالسيف ، وكان فيه أولاد أمير الجيوش بَذَر وأهلُه وحرمه ، فأحسن إليهم وأكرمهم وقتل والى عكّا . ثم سار منها فنزل على طبرية وأخذها .

وفيها مات الخليفة القائم بأمر الله ببغداد ، يوم الخميس ثالث عشر شعبان ، وله من الخلافة أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وأيام (٣) ، وجلس بعده ابن ابنه أبو القاسم عبدالله ابن ذخيرة الدّين ولقب بالمقتدى .

وفيها أعيدت الخطبة للمستنصر بمكة [١٠٧ ب] بعد أن خطب فيها للقائم بأمر الله العباسى أربع سنين (٤) .

وفيها قتل أمير الجيوش كثيراً من جند مصر وغيرهم ممن يُؤمى إليه بفساد .

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٠٧٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين مرید لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

(٣) يقول ابن تيمى بردى . ومن الفرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبدى ، وهو خليفة مصر ، وكلاهما مكث في الخلافة ما لم يمكّه غيره من آباءه وأجداده من طول المدة ؛ فالقائم هذا كانت مدته أربعاً وأربعين سنة ، والمستنصر ستين سنة ، فإذ وقع للقائم لم يقع لأحد من العباسيين ، وما وقع للمستنصر لم يقع لأحد من الفاطميين . النجوم الزاهرة : ٥ : ٩٨ .

(٤) وتتلخص ظروف عودة الخطبة للمستنصر بمكة في أنه كتب إلى ابن أبي هاشم ، صاحبها ، رسالة وأصبحها هدية جائلة ، وطلب منه في الرسالة أن يعيد الخطبة فائداً إن إيمانك وعهودك كانت للقائم وللطان أب أرسلان ، وقد ماتا . معطى له وقطع خطبة المقتدى . وكانت الخطبة قد انقطعت أربع سنين وخمسة أشهر . الكامل : ١٠ : ٣٤ . واستعاد الخطبة للمقتدى سنة ٤٧٩ هـ كما سيأتى .

سنة ثمان وستين وأربعمائة (١) :

فيها حاصر أطيز بن أرئق ، المعروف بالأفسيس^(٢) ، دمشق وألح على قتال مَنْ بها من عساكر المستنصر حتى ملكها بعد أن أقام يحاصرها نحو ثلاث سنين . وكان عليها من قبَل المستنصر حيدرة بن ميرزا الكاشي ، وقد كرهته الرعيّة لسوء سيرته فيهم وكثرة مصادرتهم للناس ، ففرّ منهزماً إلى بانياس^(٣) ، ثم خرج عنها إلى صور فأقام بها مدة ، ثم حُمل إلى مصر فقتل بها . وكان قد التحق بأطيز عدة ثمن فرّ من مصر عند قدوم أمير الجيوش ، فتقوى بهم وبمَنْ صار إليه من أهل دمشق فراراً من حيدرة لسوء سيرته . فلما ملك دمشق دعا للمقتدى من خلفاء بني العباس وأبطل الخطبة للمستنصر ، فانقطعت دعوة الخلفاء الفاطميين منها ولم تعد بعد ذلك . وقطعت دعوة المستنصر من مكّة أيضاً ودُعي فيها للمقتدى .

فيها مات القاضي الشريف جلال الدولة أبو الحسين أحمد بن أبي القاسم علي بن محمد ابن الحسين بن إبراهيم بن علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب الحسيني النصيبيني ، قاضي دمشق ، وهو يومئذ متولّي القضاء بها ، في يوم الجمعة الرابع من ذي القعدة ؛ وهو آخر قضاة الخلفاء الفاطميين بدمشق ، وسمع الحديث وحديث ، وله فيه مقال^(٤) .

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من أغسطس سنة ١٠٧٥ .

(٢) ألسز أو ألسر هذا من قادة الأتراك السلاجقة ، تقدم نحو دمشق وضمها إلى حكم السلاجقة أيام السلطان ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة العظام ، ومن دمشق وسع نفوذه في بلاد الشام وتقدم نحو مصر وهددها . وقد تمكن الأمير السلجوقي تتش من أن يقتله ويتولى بنفسه دمشق وما يتبعها سنة ٤٧١ هـ . ويقول ابن الأثير في بعض الحديث عن ألسز هذا : « يذكر الشاميون هذا الاسم أتييس والصحيح أنه ألسز وهو اسم تركي » . اهـ . الكامل . ١٠ : ٣٥١ .

(٣) في الجنوب الغربي لدمشق .

(٤) قال يوما وعنده أبو الفتيان ابن حيوس الشاعر : وددت أني في الشجاعة مثل جدى عل وفي السخاء مثل حاتم . فقال له أبو الفتيان : وفي الصدق مثل أبي ذر الغفاري . نحجل الشريفة فإنه كان يتزید في كلامه . النجوم الزاهرة :

١٠٢ : ٥ .

سنة تسع وستين وأربعمائة (١) :

فيها اجتمع بمدينة طوخ^(٢) من صعيد مصر عدد كبير من عرب جُهينة والشعالية والجعافرة^(٣) لمحاربة أمير الجيوش ، فسار إليهم حتى قُرب منهم ، فنزل ، ثم ارتحل بالليل وأمر بضرب الطبول وزعقت البوقات ، واشتعلت المشاعل وقد تزايد وقود النيران . وجد في السير والعساكر لها صرخات وصيحات متتابعة في دقعة واحدة ، حتى طرقتهم بغتة ووضع فيهم السيف فأفنى أكثرهم قتلا ، وفرّ منهم طوائف فغرقوا ، ولم ينجُ منهم إلا القليل . وأحاط بأموالهم فحاز منها ما يتجاوز الوصف كثرة ، وسيّرهما إلى المستنصر .

ونار كنز الدولة محمد بأسوان^(٤) وتغلّب عليها وعلى نواحيها ، وكثرت أتباعه ونجم أمره ، فسار إليه أمير الجيوش بعساكره ، فالتقى معهم وحاربهم محاربة طويلة أشقرت عن قتله وهزيمة أصحابه بعد أن قُتل منهم جمٌ غفير ؛ فكانت هذه الواقعة آخر الوقائع التي قُطِع فيها دابرُ المفسدين ، وخمدت جمرتهم .

(١) ويرافق أول المحرم منها الخامس من أغسطس سنة ١٠٧٦ .

(٢) في قوانين الدراوين ثلاثة عشر موضعا كل منها يحمل اسم طوخ مضافا إلى اسم آخر ، منها طوخ الجبل بالقرب من أخميم ، وطوخ دمنو من أعمال القوصية ، وطوخ تندو وطوخ الخيل من أعمال الأشوين .

(٣) بهامش الأصل تعريف بهم نصه : « بحطه : قال الشريف محمد بن أسعد الخوافي بنو ثعلبة في بني الإمام الحسن وبني جعفر الطيار ، فذكرهم . ثم قال : فأما التي في بني جعفر الطيار فبنو ثعلبة الحجازي بن داود بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فيهم عشيرة إلى اليوم بخرجة من أعمال سيوط بصعيد مصر ... وحامد ... وإبراهيم أولاد مسلم بن عبد الله بن حسين بن ثعلب المذكور . قال : الجعافرة أبطن ، فذكرهم ، ثم قال : وأما الذي في ولد أبي طالب فبنو جعفر الطيار بن أبي طالب عليه السلام ، وإليه يرجع الجعافرة كلهم وهم نازلون بسدة العربان من أعمال الأشوين بصعيد مصر ، وفي مواضع شتى من بلاد الله ، وفيهم عشائر متسعة » . ٨١ .

(٤) كنز الدولة لقب منح أول مرة أيام الحاكم بأمر الله للأمير أسوان أبي المكارم هبة الله بعد انتصاره على أبي ركونة ثم أصبح هذا اللقب وراثيا في أسرة أبي المكارم . انظر كتاب الروضتين : القسم الثاني من الجزء الأول : ٥٣١ (تعميق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد) .

وفيها جمع أًطسز صاحب دمشق العساكر وسار يريد تَمَلُّك الديار المصرية وإزالة الدولة الفاطمية منها وإقامة الدعوة العباسية كما فعل في بلاد الشام . وكان أكثر الأسباب الحاملة له على ذلك أن ابن يلدكوش لما فرَّ من أمير الجيوش وصار إلى بلاد الشام اتصل بأًطسز ، وقَدَّم إليه ستين حبة لُؤلؤ مُدَخَّرج ، زنة كلِّ حبة منها ينيف على مثقال ، وَحَجَر باقوت زنته سبعة عشر مثقالا ، وَتُحَفًا كثيرة تما كان قد وصل إلى أبيه من خزان المستنصر في سِنَى الشدة ، وأغراه بأهل مصر وحشه على قصد البلاد ، وهوَّنها عنده . فقَوَّى طمعه وسار وقد حصل في قوة بمن صار إليه من عساكر مصر ومن انضاف إليه من أهل الشام .

وكان أمير الجيوش ببلاد الصعيد قد انتهى إلى بلاد أسوان ، فوصل الخبر بمسير أًطسز إلى مصر ، فكَتَبَ بذلك إلى أمير الجيوش ، وكان عند موافاة الخبر إليه في شُغْلٍ عن ذلك ، فقدم أًطسز إلى أطراف مصر في جمادى الأولى ، وقد أشار عليه ابن يلدكوش « بالأُ تشغُل بالقاهرة ولكن تَمَلِّك الرِّيف » . وقال له : إذا ملكت الريف فقد ملكت مصر . فأقام بالرِّيف جمادى الأولى وجمادى الآخرة وبعض رجب وأمير الجيوش في إصلاح الصَّعيد وتَدْبِير أُمُورِهِ ، وقد حضر إليه أكثرُ أهل أسوان وبدر بن حازم بجمانح طي . فلما استوثق أمره وجمع إليه العساكر عاد إلى القاهرة وخرج يريد محاربة أًطسز في جَمْعٍ نبلغ عِدَّتُهُ ما ينيف على ثلاثين ألفًا ما بين فارس وراجل ، وذلك في [١١٠٨] يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب بعد ما جَهَّز عِدَّةَ مراكب قد شحنها بالعلوفات والأزواد . فجمع أًطسز إليه أصحابه واستشارهم ، فاختلفوا عليه في الرَّأْي ، فقال بعضهم أن ترجع فإنك قد دُئِست بلاد مصر وليس معك غير خمسة آلاف ، والقوم في كثرة ، وعواقب الأمور غير معلومة . وقال له أخوه وابنُ يلدكوش لا يَهْوُلَنَّك ما نسمع به من كثرتهم فإنما هم سوقة وأخلاق ، لو سمعوا صبيحة لفرَّوا عن آخرهم ؛ فإياك والرُّجُوعَ عن هذا المُلْك قد أَشْرَفْتَ على أخذه ولم يبق إلَّا تملكه . وأشار عليه شكل ، أمير طبرية ، بمُوافقة القوم والدخول إلى مصر . فتقرر الرَّأْي على ملافاة العساكر المصرية .

فلما كان يومُ الثلاثاء لثمانٍ بقيتين منه تلاقى الفريقان وتحاربًا ، فكانت بينهما عدة وقائع كانت الغلبة فيها للمصريين ، فانهزم أًطسز ، وقُتِل أخوه وعدة من أصحابه ، وعاد

في قليل من معه وأقام بالرملة حتى تلاحقت به عساكره^(١). ثم رحل إلى القدس ففتحها وقتل من فيها من المسلمين ولم يترك من استجار بالأقصى .

ثم سار إلى دمشق ، فدخلها لعشر بقين من شعبان ؛ وقد احتوى أمير الجيوش على كثير مما كان معهم ، ورجع إلى القاهرة مؤيداً مظفراً . وكان المتولى لكسرة أطرش بدر بن حازم ابن علي بن دغفل بن جراح . فلما جلس أمير الجيوش بدر الجمالي للهنا ينصرت قرأ ابن لفته ، أحد القراء ، « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » ، ولم يتم الآية ، يعني بدر بن حازم . فبينما أمير الجيوش بدر في ذلك إذ بلغه اجتماع عرب قيس وسليم وفزارة ، فخرج إليهم وأوقع بهم ، وأكثر من القتل فيهم ، وفر من بقي منهم إلى برقة .

وفيها سقط أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي^(٢) من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر ، فمات في عشية اليوم الثالث من رجب ؛ وكان له على الدولة الفاطمية في كل شهر ثلاثون ديناراً وغلة لإصلاح ما يكتب في ديوان الإنشاء ، فكان يعرض عليه جميع ما يكتب منه ، وإذا حرره أمر به فدفع لأربابه . ثم إنه تخلى عن الخدم السلطانية وانقطع للعبادة حتى مات ؛ وكان أبوه واعظاً بمصر .

(١) يقول ابن القلانسي : رأيت هزيمة بعصه في نفر يسير من أصحابه ، ووصل إلى الرملة وقد قتل أخوه وقطعت يد أخيه الآخر . وكان الدعاء عليه ، حين خرج إلى مصر لتلكها ، متواصلاً من أهل دمشق ، واللعن له متتابع متصل . ولما وصل بعد الفل إلى دمشق سرت نفوس الناس بمصابه ، وتعكف السيوف في أنشائه وأصحابه ، فأملوا مع هذه الحادثة سرعة هلاكه ودهابه . ٥١ . ذيل تاريخ دمشق ١٠٩٠ - ١١٢ . راجع تفاصيل هذا الصدام في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . وقد امتست في ذيل تاريخ دمشق - بالهاتش - ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) وهو صاحب «المقدمة» في النحو . وبابشاذ تكتب منفصلة : باب شاذ ، بمعنى الفرح والسرور . وير إنقطاعه للعبادة أنه كان جالساً يأكل مجاهد قط مكان إذا أتى إليه تيثلاً لا يأكله ويحمله ويعضى ، وكثر ذلك منه ، فبمه يوماً ليظهر أين يذهب بما يطمسه ، فإذا هو يحمله إلى موضع مظلم فيه سورة عياء فيلحمه لها فتأكله ، فعجب وقال : إن الذي يخر هذا لهذه ليحيها بقوتها قادر على أن يغذي عن هذا العالم . ومن تصايفه : شرح حمل الزجاجي ؛ المختص في النحو ؛ شرح الشبهة . الجورم الزاهرة : ٥ : ١٠٥ ؛ بعية الوعاة : ٢ : ١٧ .

سنة سبعين وأربعمائة (١) :

فيها سَيرَ أمير الجيوش عسكرياً مقدّمه ناصر الدولة الجيوشي ، فأنتهى إلى دمشق وأقام محاصراً لها مدة ؛ ثم ارتحل عنها وعاد بغير طائل .

وفيها فُوضَ لأمير الجيوش قضاء القضاة . وزيد في نعوته : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين .

وفيها وصل إلى مكّة من بغداد منبر كبير في شهر رمضان منقوش عليه بالذهب :
« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين . مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جَهير » . فاتّفق وصوله وقد أعيدت الخطبة للمستنصر ، فكسر المنبر المذكور وأحرق .

ولم يكن بمصر في سنة إحدى وسبعين (٢) كبيرُ شئ .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٠٧٧ .

(٢) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من يوليو سنة ١٠٧٨ .

سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة (١) :

فيها سَيرَ أمير الجيوش عسكراً كبيراً ، فانتَهى إلى دمشق وحاصرها حتى أَشرف على أخذها ، فسَيرَ أَطَمِيزَ صاحب دمشق إلى تاج الدولة تَتَش بن (٢) السلطان أَلْب أرسلان - وكان قد أَقطعه أخوه مَلِكُشَاه الشام وأخذ حلب بعد ما حاصرها حتى اشتدَّ الجوع بأهلها وملكها - يستحثُّه على نُصْرته وتقويته على المصريين ، ويَعِدُّه أَنه يُسَلِّمُ إليه ملك دمشق . فأجابته إلى سؤاله وسار إليه بعسكره ؛ فبلغ ذلك عسكَرَ أمير الجيوش ، فارتحل وعاد إلى مصر . وقدم تَتَش فملك دمشق ، ودبَّر على أَطَمِيزَ وَقَتْلَهُ بحيلةٍ في ربيع الأوَّل ؛ وجَهَّزَ عسكراً في إثر العسكر المصري فلم يدركه .

وفيها خرج ملك النوبة من بلاده وصار إلى أسوان يريد زيارة كنيسة لهم بها ، فبعث إلى قوص [مَنْ] قبض عليه ووحمله إلى القاهرة ، فأكرمه أميرُ الجيوش وأَقَامَ عليه النعم ، وأنحفه بالهدايا الجليلة ؛ فأدركه أَجْلُهُ ومات قبل أن يعود إلى بلاده .

وفيها قطعت خطبة المستنصر من مكة وأعيدت خطبة بني العباس .

(١) ويرافق أول المحرم منها الرابع من يوليوس ١٠٧٩ .

(٢) هو تاج الدولة تَتَش بن عضد الدين أبي شجاع أَلْب أرسلان بن داود ، بن ميكائيل بن سلجوق . تولى أخوه ، جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، سلطنة السلاجقة العظام ، ثم أُرِىَ لابنه نصير الدين محمود من بعده بالسلطة فأقام نحو سنة ثم توفى وخلفه بركياروق ، ركن الدين أبو المظفر ، فغضب تَتَش لذلك وخلع طاعته وثار ضده ، وتقدم من الشام لحربه واجتاز الفرات ودجلة ، والتقى الجيشان في معركة حاسمة عند مدينة الرى ، شمال فارس ، فسقط تَتَش فيها صريعاً وكان ذلك سنة ٤٨٨ . انظر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : ١ في مواضع مختلفة ؛ النجوم الزاهرة : في مواضع مختلفة كذلك ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للمعاد الأصفهاني .

فيها خرج الأوحـد بن أمير الجيوش على أبيه ، وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان وتحصن بالإسكندرية ؛ فسار إليه أمير الجيوش وحصره ، وألح عليه القتال حتى دخل البلد وأخذ ابنه قهرا . وأمر ببناء الجامع المعروف في الإسكندرية بجامع العطارين من أموال أخذها من أهل البلد ، وفرغ منه في شهر ربيع الأول ؛ وأقيمت فيه الجمعة واستمرت إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فأمر ببناء جامع ، ونقل الخطبة من جامع العطارين إليه .

وفي جمادى الأولى استناب أمير الجيوش ولده الأفضل . وجعله وليّ عهده في السلطنة (٢) .

وفيها ابتداء أمير الجيوش في بناء سور القاهرة (٣) .

(١) يقول هذه الصفحة في الأصل عبارة تقول . يياض نحو ربع صفحة ، اهـ . ويوافق أول المحرم من هذه السنة العاشر من ١٠٨٤ . ويلاحظ أن المؤلف أهل السنوات ٤٧٣ - ٤٧٦ .

(٢) وهذه أول حادثة من نوعها في العصر الفاطمي أن تصيح الوزارة شه وراثية وأن يعهد بها الوزير القائم لا بـه يتولاها من بعد وفاته . وهذه « السلطنة » لم تعرف من قبل ، ولم يقع بين يدي ما يدل على أن بدرا كان يتلقب بها ، وأرجح أنها أطلقت بتأثير العصر الذي كتب فيه المؤلف كتابه ، وتأثير السلطات الواسعة التي تولاها الوزير بدر استقلالاً عن قصر الخلافة .

(٣) يقول المقرئ في الخطط : « أعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات الأول وضعه القائد جوهـر والثاني بدر الجمالي والثالث الأمير الحصى بهاء الدين قراقوش الأسدي في ساطعة الملك الناصر صلاح الدين » . وكان السور الأول من اللبن ، والثاني زاد فيه بدر الجمالي الزيادات التي فيها بين باب زويلة وباب زويلة الكبير وفيما بين باب الفتوح عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن (زمن المقرئ) ، وزاد عند باب النصر أيضاً جميع الرحبة التي تقع تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر . وجعل السور من لبن والأبواب من حجارة ، وبناء قراقوش لصلاح الدين بالحجارة على ما هو عليه الآن ووسمه ليدور على القاهرة ومصر والقلة جميعا . الخطط : ١ : ٣٧٧ - ٣٨٠ .

سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (١) :

فيها قطعت الخطبة من مكة للمستنصر وخُطب بها للمقتدى العباسي^(٢).

فيها مات أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي الملقب بالكامل ؛ وكان قد ولي الوزارة بعد أن صار إلى بلاد المغرب وخدم بها ، ثم عاد واتصل بالوزير أبي محمد اليازوري ، فأحسن إليه واستخدمه وعُني به ، فَمَاقَتَهُ أبو الفرج البابلي . فلما صارت إليه الوزارة بعد اليازوري قبض عليه في جملة من قبض عليه من أصحاب اليازوري ، واعتقله ، فلم يزل معتقلاً إلى أن تقررت له الوزارة وهو في السجن ، فأُخرج وخُلع عليه خلع الوزارة عوضاً عن أبي الفرج البابلي ، فلم يؤاخذه بما كان منه في حقه ، بل قابله بالجميل وأحسن إليه إحساناً كبيراً . ولما صرف عن الوزارة اقترح أن يُولى ديوان الإنشاء^(٣) ، فقرر في هذه الرتبة التي يقال لها في زمننا اليوم كتاب السر ، فاستقرت من بعده وظيفة ورتبة يتقلدها الأكابر .

وفيها مات سليمان بن قُطلمُش بن إسرائيل بن سلجوق . صاحب قونية وأقصر من بلاد الروم^(٤) ، وقام من بعده ابنه قليج أرسلان بن سليمان^(٥) ؛ فاسترد منه الفرنج مدينة أنطاكية .

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والشرين من إبريل سنة ١٠٨٥ .

(٢) يذكر ابن الأثير أن هذا حدث في سنة ٤٧٩ . الكامل : ١٠ : ٥٤ .

(٣) يقول ابن تيمر بردي : وهو أول من ولي كتابة الإنشاء بمصر . النجوم الزاهرة ٥٠ : ١٨ . وكان من يتولى هذا المنصب يلقب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف . ويتسلم المكاتبات الواردة بخطوة فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذي يأمر بتزويدها والإجابة عنها . ويستشير الخليفة في أكثر أموره ، ولا يجب عنه إذا أراد الدخول إليه . وربما بات عند الخليفة ليلاً ، وجاريه مائة وعشرون ديناراً في كل شهر ، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص . الخطط : ١ : ٤٠٢ .

(٤) وهو أول سلاطين السلجقة بأرض الروم (آسيا الصغرى) ، حكم بين سنتي ٤٧٠ - ٤٧٨ (١٠٧٧ - ١٠٨٦) . وقد قتل في معركة ضد تاج الدولة تنش صاحب دمشق عندئذ ، فقتل لأنه قتل نفسه بسكين كانت معه عندما رأى انهزام عسكره ، وقيل قتل في المعركة بسهم أصابه في وجهه فوق عن فرسه . انظر : **Mohammadan Dynasties** الكامل : ١٠ : ٥٠ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢٤ .

(٥) قليج أرسلان ، داود الأول ، بدأ حكمه الحفيق سنة ٤٨٥ (١٠٩٢) بعد فترة من الاضطراب ، وكان من رجال ملكشاه السلجوقي الذي أرسله لغزو بلاد الروم ففتح كثيراً من مدنها وتولاها . وانتهت حياته في معركة بينه وبين جاولي ، ملوك السلطان محمد بن ملكشاه ، انهزم فيها فألقى نفسه في نهر الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها . النجوم الزاهرة : ١٩٠٠ - ١٩١٠ ؛ **Mohammadan Dynasties**

سنة تسع وسبعين وأربعمائة (١) :

فيها قدم الحسن بن الصباح ، رئيس الطائفة الباطنية من الإسماعيلية ، إلى مصر في زى تاجر ، واتصل بالمستنصر واختص به ، والتزم أن يُقيم له الدعوة في بلاد خراسان وغيرها من بلاد المشرق . وكان الحسن هذا كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالرى ، فكاتب المستنصر ، ثم قدم عليه^(٢) . ثم إنَّ المستنصر بلغه عنه كلام ، فاعتقله ، ثم أطلقه . وسأله ابن الصباح عن عادة مسائل من مسائل الإسماعيلية فأجاب عنها بخطه . ويقال إنه قال له : يا أمير المؤمنين ، مَنْ الإمام مِنْ بعدك ، فقال له ولدى نزار^(٣) .

ثم إنَّه سار من مصر بعد ما أقام عند المستنصر مدة وأنعم عليه بنعم وافية . فلما وصل إلى بلاده نشر بها دعوة المستنصر وبنَّها في تلك الأقطار ، وحدث منه من البلاء بالخلق ما لا يُوصَف مما قد ذُكر في أخبار المشرق . ثم قام مِنْ بعد المستنصر بدعوة ابنه نزار ، وكان بسبب ذلك في مصر من الانقلاب ما نَهَمُّ به إن شاء الله تعالى . وأخذ ابن الصباح أصحابه بجمع الأسلحة ومواعِدَتِهِمْ ، حتى اجتمعوا له في شعبان سنة ثلاث وثمانين ، ووثب بهم فآخذ قلعة الموت ، وكانت للملك الديلم من قبل ظهور الإسلام ، وهى من الحصانة في غاية .

واجتمع الباطنية بأصبهان مع رئيسهم وكبير دعائهم أحمد بن عبد الملك بن عطَّاش ، وملكوا قلعتين عظيمتين ؛ إحداهما يقال لها قلعة الدر . وكانت لأبى القاسم دُكْف العجلي ،

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من إبريل سنة ١٠٨٦ .

(٢) والحسن الصباح هذا رأس الأسرة التى استولنت قلعة الموت واتخذتها حصناً لها تبسط منه دعوتها الباطنية الغالية فيما جاورها من البلاد ، وإلى أبعد من ذلك أيضا - كما يتضح من النص - توفي الحسن هذا سنة ١١٨ هـ Mohamadan Dynasties

(٣) سيرد بعد هذا ، عند الحديث عن وفاة المستنصر ، أن الأفضل بن بدر الحالى نجى نزارا عن ولاية العهد ، فثار بالإسكندرية واتخذ لنفسه لقب المصطفى لدين الله .

وجددها وسماها ساهور ؛ والقلعة الأخرى تعرف بقلعة جان ، وهما على جبل أصبهان .
وبث الحسن بن الصباح دُعَاته ، وألقى عليهم مسائل الباطنية التي ذكرتها في هذا الكتاب
عند ذكر داعي الدعاة في أخبار بناء سور القاهرة ، عند ذكر خطط المعزية القاهرة . فساروا
من قلعة أَلْحُوت ، وأكثروا من القتل في الناس غيلة .

وكان إذ ذاك ملكُ الدِراقَيْنِ السلطان مَلِكُشَاه الملقب جلال الدين بن أَلْب أرسلان ،
فاستدعى [١١٠٩] الإمام أبا يوسف الخازن لمناظره أصحاب ابن الصَّبَّاح ؛ فناظرهم ؛
وألَّف كتابه المسمَّى بالمستظهرى ، وأجاب عن مسائلهم . واجتهد ملك شاه في أخذ قلعتهِم
فأعياه المرض وعجز عن تَيْلَمها .

وفيهما خُلع اسم المستنصر وآبائه من مكة والمدينة وكتب اسم المقتدى^(١) .

(١) بهامش الأصل تعليق نصه : « بخطه : كتاب المستظهرى فى الإمامة وشرائط الخلافة وبعض السير العادلة ، وفيه
أشياء حسنة من الفقه والأصول وسيرة . . . ، ألّفه أبو يوسف يعقوب بن سليمان بن داود الخازن من أهل أسفرايين ، تفقه
على القاضى أبي الطيب طاهر بن عبد الله ، وسمع الحديث وحدث ، وكان فقيها عارفا بالأصول على مذهب أبي الحسن الأشعرى ،
وصنف أيضا كتاب يدائع الآثار وروائع الأشعار . ومات يوم الخميس العشرين من ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
ببغداد وقد تجاوز ثمانين سنة ، وله شعر . وكتاب المستظهرى أيضا فى الفقه على مذهب الشافعى صنفه أبو بكر محمد بن أحمد
ابن الحسين بن عمر الشافى ، وهو يشتمل على مذاهب الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ويعرف بحلية الفلاسفة ،
للخليفة المستظهر » . اهـ .

سنة ثمانين وأربعمائة (١) :

فيها مات أبو الفضل عبد الله بن الحسين بن بشرى، المعروف بابن الجوهري ، الواعظ المصري في العشر الأواخر من شوال ؛ وهو أحد أكابر شيوخ مصر . وتصدى سنيين للوعظ بجامع عمرو بن العاص . حدث عن جماعة ؛ وله كلام في الزهد والمواعظ ؛ وهو من بيت علم وأسرة وعظ . ولما كانت أيام الشدة والغلاء بمصر اجتمع إليه الناس في بعض الأيام وسأله عقد المجلس للوعظ بالجامع العتيق ، فقال : مَنْ يحضر عندي وَمَنْ بَقِيَ ؟ فقالوا : لأبد من ذلك ؛ فجلس ، وكان من كلامه : أبشروا هذه سنة ثلاث ، وأشار بيده ، وهي متعلقة كلها ، وسنة حلّ سنة أربع ويفتح الله ، ورفع بنصره ، وبعدها سنة خمس ويفتح الله ؛ ورفع خنصره . فكان كما قال . وأنشد مرة في بعض مجالسه :

ما يصنع الليل والنهارُ ويستبر الثوب والجدار
على كرام بني كرام تُخَيَّرُوا في القضا وخارُوا

ومن كلامه : قد اختلّ أمر الدين والدنيا ، وتعذر الوصول إليهما ، فَمَنْ طلب الآخرة لم يجد مُعينًا عليها ، ومن طلب الدنيا وجد فاجرًا قد سبقه إليها .

وأنشد مرة الخليفة المستنصر :

عساكر الشكر قد جاءت مهنته وللملوك ارتياب في تآتيها
بالباب قوم ذوو ضعف ومسكنة يستصغرون لك الدنيا بما فيها

وفيها بعث بردويل^(٢) ملك الفرنج الذين يُقال لهم الإفرنسيس عسكرياً عليه أجار^(٣) إلى صقلية فملكها من المسلمين .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن من إبريل سنة ١٠٨٦ .

(٢) البردويل : الصورة العربية للاسم الفرنجي Baldwin « بلدوين » . وليس في ملوك فرنسا في هذه المرحلة من يحمل هذا الاسم ؛ كما لا يوجد بين ملوك إنجلترا ودوقات إيطاليا وأمراء صقلية من تسمى به .

(٣) وهو روجر الأول Roger I ، وقد قام بجهود متواصلة استغرقت ثلاثين سنة انتهت بسيطرته الكاملة على جزيرة صقلية ، فكان ذلك بداية لسيطرة النورمان عليها . وكانت الثقافة الصقلية عند فتح النورمان للجزيرة مزيجاً من التأثير الإغريقي والإسلامي ، أما بقية المؤثرات الأخرى فلم يكن لها تأثير واضح . وقد احتفظ النورمان بالطابع الإسلامي الإغريقي المزدوج الحضارة الصقلية ، وعملوا على ترقية تطورها في الاجتماعين . دائرة المعارف البريطانية .

سنة احدى وثمانين وأربعمائة (١) :

سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢) :

فيها ندب أمير الجيوش عسكرا إلى بلاد الشام وقدم عليه ناصر الدولة الجيوشي ، فسار وفتح ثغرى صور^(٣) وصيدا^(٤) ، ثم فتح جبيل^(٥) وعكا . وكان تُتَشُّ قد ملكها . فاستولى عليها ناصر الدولة الجيوشي ، وقتل جماعة من أصحاب تتش ، وأخذ كثيرا من ذخائره . ومضى إلى بعلبك ، فوفد عليه خلف بن ملاعب صاحب حمص . ودخل في الطاعة ، وبعث ابن حمدان إلى أمير الجيوش ، فسير إليه الخلع والطوق .

سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (١) :

فيها توفي الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن سعد بن عبد الله الخيال المصري الإمام ، صاحب التاريخ ، في سادس ذى القعدة . ومولده في سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، ودفن بالقرافة . وفيها صعد الحسن بن الصباح إلى قلعة أَلَحُوت في شعبان ، وأظهر دعوة المستنصر بالله .

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من مارس سنة ١٠٨٨ . وبهامش الأصل : يباض أربعة أسطر .

(٢) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من مارس سنة ١٠٨٩ .

(٣) يصفها ياقوت بأنها مدينة حصينة بالساحل داخلية في البحر مثل الكف على الساعد ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع الذي فيه بابها . ويقول . وهي حصينة جدا وكيئة ، لا سبيل إليها إلا بالخلدان . بينها وبين عكا ستة فراسخ . معجم البلدان : ٥ : ٣٩٧ - ٣٩٨ وكان في صور أولاد القاضي عين الدواة ابن أبي عقيل ، ولم تكن لهم قوة عنونها بها . ذيل تاريخ دمشق : ١٢٠ ؛ الكامل : ١٠ : ٦٠ .

(٤) صيدا بالقصر والمد ، على الساحل شرق صور ، بينهما ستة فراسخ ؛ وكانت تعد من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٥ : ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٥) عل بعد ثمانية فراسخ من بيروت في اتجاه الشرق : نفس المصدر : ٣ : ٥٩ - ٦٠ .

(٦) ويوافق أول المحرم منها السادس من مارس سنة ١٠٩٠ .

سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١) :

فيها نقل أمير الجيوش باني زويلة وزاد من ورائهما قطعة^(٢)، وبني باب زويلة الكبير الموجود الآن ، ورفع أبراجه على ما هي عليه ، ولم يجعل له باشورة^(٣) كما هي عادة أبواب الحصون أن يكون في أبوابها عطفة تمنع العساكر من الهجوم على الحصن عند الحصار ، بل عمل في بابه زلاقة من حجارة صوان ، حتى إذا هجم العسكر لم تثبت قوائم الخيل على الصوان للاسته . فلم تزل هذه الزلاقة باقية إلى أيام الملك الكامل محمد بن العادل ، فأور بنقضها لما زلّت به فرسه وسقط عنها .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثاني عشر من فبراير سنة ١٠٩٢ . ويلاحظ أنه قد أسقط سنة ٤٨٤ .

(٢) في الأبهل : وزاد من ورائه قطعة .

(٣) الباشورة بناء ذو منطقات أمام كل باب أو خلفه ، يقصد به تعريض هجوم العساكر على الباب وقت الحصار وتمويق دخول الخيل إلى المدينة في مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وقريب من هذا المعنى ما ذكره دوزي من أن الباشورة هي الحائط الظاهري للحصن يخفى وراءه الجند للقتال . الخطط : ١ : ٣٧٧ - ٣٨٠ . Dozy: Supp.- Dict. Ar.

سنة ست وثمانين وأربعمائة (١) :

فيها جرّد أميرُ الجيوش عسكرًا إلى ثغر صُور ، وكان المتولّي^(٢) به قد خرج عن الطاعة . فسار العسكر ونزل على الثغر ، فخاف أهلُ البلد من سطوة أمير الجيوش ، فلم يَعرِضوا لقتال فهجم العسكر البلد وانتهبوا أهله ، وقبضوا على أميرها وعلى جماعة من الناس وسيّروهم إلى أمير الجيوش فقتلهم ؛ وبعث بفريضة ستين ألف دينار على أهل صور ، وكان ذلك في رابع عشر جمادى الآخرة .

وفيها نَمي قَتْلُ أبي عليّ حسن بن عبد الصمد بن أبي الشحنة العسقلاني صاحب الرسائل والشعر ، وكان بديوان الإنشاء ، وشعره [١٠٩ ب] ورسائله مشهورة . ويقال إن القاضي الفاضل عبد الرحيم كان جلّ اعتماده على رسائله . ومن شعره :

أصبحت تُخرجني بغير جريمة من دار لكرامٍ لِدَارِ هوان
كَدَمَ الفِصاد يُرَاقِ أرْذَلُ موضع أبداً ، ويخرج من أعزّ مكان
ثَقُلْتُ موازينُ العباد بفضلهم وفضيلتي قد خَفَّفت ميزاني

(١) ويوافق أول المحرم منها أول أيام فبراير سنة ١٠٩٣ .

(٢) وكان أمير الجيوش ولاها أميراً يعرف بتمير الدولة الجيوشي ، وقد ثار به أهلها عندما أعلن عصيانه ، وهم الذين سلموها لجيوش مصر . الكامل : ١٠ : ٧٧ .

سنة سبع وثمانين وأربعمائة (١) :

في شهر ربيع ، وقيل في جمادى الأولى^(٢)، توفي أمير الجيوش بدر الجمالي بن مرضى نزل به من أول السنة حتى أسكت فلم يقدر على الكلام إلى أن مات وقد ناهز ثمانين سنة ؛ وجنسُه أرمني ، وكان مملوكا لجمال الدولة ابن عمّار ، فلذلك قيل له بدر الجمالي . وما زال يأخذ نفسه بالجدّ من شببته فيما يُبَاشره ، ويوطّن نفسه على قوة العزم فيما يرومه ، ويتنقّل في الرتب العالية ، حتى ولي بلاد الشام وتقلّد إمارة دمشق من قبل المستنصر مرّتين ، وثار عليه أهلها . وكانت في إمارته الفتنة العظيمة التي احترق فيها قصر الإمارة وجامع بني أمية . ثم إنّه رحل عن دمشق إلى مصر ، وقلّده المستنصر عكّا . فلما فسدت أحوال مصر وتغيرت أمورُها وخربت كان يبلّغه ذلك فيتحرّس لِمَا يبلّغه ويتلَهف لكونه بعيداً عن مصر . فلما كاتبه المُستنصر ودخل إلى القاهرة تحكّم في بلاد مصر تحكّم الملوك ، ولم يبق للمستنصر من أمر ، وألقى إليه مقاليد مملكته ، وسلّم إليه أمور خلافته ، فضبطها أحسن ضبط . فاشتدّت مهابتُه في قلوب الخاصّة والعامة ، وخاف سطوته كلّ جليل وكبير ، لعظم بأسه وكثرة بطشه ، وقتله من الخلائق ما لا يمكن ضبطهم ولا يعلم عدتهم إلا إلّهم سبحانه . وبقتله أكابر المصريين من الأمراء والقوّاد والوزراء والأعيان ، من أهل القاهرة ومصر وبلاد الصعيد وأسفل الأرض وشرقيّ مصر وتيّس والإسكندرية ، الذين كانوا قد تمرّنوا على الفساد ، ونشأوا في الفتن واعتادوا لضرّة الخلق ، ولصلاح أحوالهم من ذلك صلّحت الديار المصريّة بعد فسادها ، وعمرت بعد خرابها ، وزال عكس^(٣) المستنصر وابتدأت سعادته .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادي والعشرين من يناير سنة ١٠٩٤ .

(٢) هكذا ورد في الأصل : في شهر ربيع (دون تحديد أي الربيعين) ، وقيل في جمادى الأولى . ويوافق النويري المقرئ في هذا ويحدد ربيع بأنه ربيع الأول . ويحدد ابن الأثير وفاته في ذي القعدة . راجع الكامل : ١٠ : ٨١ . ولا يحدد صاحب النجوم الزاهرة الشهر . ويذكر ابن القلانسي أنه مرض في هذه السنة واشتد به مرضه في جمادى الأولى منها وتوفى في العاشر منه . ذيل تاريخ دمشق : ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) استعمال مستخدم في عصرنا هذا ، يقصد به التعبير عن انكشاف الغمة وانفراج الكربة .

وكان من جَمِيل أفعاله أَنَّهُ لما قتل المفسدين من الأَجْناد والعُربان وغيرهم أَطلق الخراج للمزارعين ، ولم يأخذ منهم شيئاً ثلاث سنين . حتى صَلُحت أحوالُ الفلّاحين . واستعفى أَهلُ مصر في أَيامه ، وَدَرَّتْ عليهم أَخلافُ النِّعم بعد توالي الشدائد الكبيرة ، ومقاساة الأَلم . وكثُرَ تردادُ التجار في أَيامه إلى مصر بعد نزوحهم عنها . ونحروهم لِشِدَّةِ البلاء والحرور فيها .

وكانت مدَّةُ تحكُّمه بالديار المصرية إحدى وعشرين سنة . وكان غُرُوف النفس شديد البطش ، على الهمة عظيم الهيبة ، حسن التَّائِي جميلُ السِّياسة ، مظفراً ، سعيد الجَدُّ ، سخياً ، مفضالاً . قصده علقمة بن عبد الرزاق العليمي ، فلما وافى بابَه شاهد أَشراف النَّاس وكبراءهم وشُعراءهم وعُلماءهم على بابِه وقد طال وَقُوفُهم ومقامهم ، ولا يَصِلُونَ إليه . فبينما هو كذلك إِذ خرج أميرُ الجيوش يريد الصيد . فخرج في أثره وأقام معه حتى رجع من صيده ، فَعِنْدَمَا قَارَبَهُ وقف على ثلٍّ من رمل ، ورى بَرُقَّةً كانت في يده ، وأنشد :

نحن التُّجارُ ، وهذه أَعلاقُنَا	دُرُّ ، وَجُودُ يمينك المبتاع
قَلْبٌ ، وفتَّشها بِسَمْعِكَ : إِنَّمَا	هى جَوهَرٌ تختاره الأَسماع
كسدت علينا بالشَّام ، وكلَّمَا	قَلَّ التَّفَاقُ تَعَطَّلَ الصُّنَّاع
فَأَتَاكَ يَحْمِلُهَا إِلَيْكَ تِجَارُهَا	وَمَطِئُهَا الآمال والأَطْمَاع
حتى أَنَاخُوهَا بِبَابِكَ ، والرُّجَا	مِنْ دُونِكَ السُّمَسَارِ والبِيعِ
فوهبتَ ما لم يُعْطِهِ في دهرِه	هَرِمٌ ، ولا كعبٌ ، ولا القَعْقَاع
وسبقتَ هَذَا النَّاسَ في طلب العَلا	والنَّاسُ بَعْدَكَ كُلُّهُمْ أَتْبَاع
يابدرُ ، أَقسم : لو بك اعتصم الورى	ولَجَّوْا إِلَيْكَ ، جميعُهُم . ماضعوا

وكان بيد بدر باز ، فدفعه لأحد مماليكه وجعل يستعيد الأبيات . وهو معه ، إلى أن استقر في مجلسه . فلما اطمأن قال للحاضرين عنده : من أَحَبَّنِي فليخلع عليهِ . فبادر حينئذ الحاضرون ، ولم يبقَ منهم إِلَّا مَنْ أَلْقَى له ما قدر عليه . حتى صار إليه منهم ما حمّله على سبعين بغلاً عندما خرج من المجلس ؛ ومع ذلك أمر له أمير الجيوش من ماله بعشرة آلاف درهم .

قال [١١٠] قاضى الرشيد أحمد بن الزبير فى كتاب العجائب والطرف والهدايا والتحف : ولما مات أمير الجيوش بذر المُستَنصرى خُلف سبعمائة غلام ، كلُّ غلام له من المال ما ينيف عن المائة ألف غلام^(١) . وخُلف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم فى دار الوزارة ؛ ومن الجواهر والياقوت أربعة صناديق ومن القُضْب الفضة والذهب والمارتب ، ومن السروج المحلاة ، ما يُعجز عن وصفه . وخلف ألف قصبة زمرد ، لأنه كان له به غرام عظيم ، جمعت له من جميع الأقطار .

ولما مات أمير الجيوش كان أجَلُ غلمانه من الأمراء نصر الدولة أفتكين ، ويليه فى الرتبة أمين الدولة صافى ، ويقال لأون ، فبعث لأون لكل جماعة من الأمراء الجيوشية مالا والتمس منهم الرضا به أن يلى الوزارة مكان أستاذه أمير الجيوش ، فوافقوه على ذلك فأقر أمره مع المستنصر ، فطلبه بعد موت أمير الجيوش وأفاض عليه خلع الوزارة وجلس فى الشباك عند الخليفة ليتولّى على العادة . وكان نصر الدولة أفتكين قد بلغه ذلك من قبل ، فركب وطاف على الأمراء ، كل واحد بمفرده ، وغلّطه فيما عزم عليه ، وقبح أن يكون أحد خُشدا شيتته^(٢) يتحكم عليه مع وجود أولاد أستاذهم ؛ مع ما قد عُرف من بخل لاون ، ونحو ذلك من القول ، حتى رجعوا عن لاون . فعندما طلبه المستنصر وخلع عليه ركب نصر الدولة فى جميع الأمراء بالسلاح وصاروا إلى القصر ، ووقفوا فى الصحن ؛ فشق ذلك على المستنصر وعلى من يحضرته من خواصه . وشرع الأمراء فى مخاطبة المستنصر فى إبطال وزارة لاون ، وهو يأتى عليهم ، حتى طال الخطاب . فقال المستنصر إذا أقمنا قصبة قُبل أمرنا . فقال الأمراء ، إذا أقمت هذه القصبة قطعناها بهذه السيوف ؛ وجردوا سيوفهم ،

(١) هكذا فى الأصل . ولم أجد فيما بين يدي من المراجع ما يساعد على التحديد . ولعل المقصود : المائة غلام .

(٢) جمع خُشداش ، وهو معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ، أى الزميل فى الخدمة ، وهى أيضا الخوشداشية والخجداشية ، أو الخوجداشية : الأمراء الذين نشأوا بمالك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة زمالة . السلوك : ١ : ٣٨٨ حاشية : ٣ .

ولم يبق إلا وقوع الشر . فقال المستنصر لهم خيراً ، وأمر بإحضار الأفضل بن أمير الجيوش ، وقرّر في الوزارة مكان أبيه ، وبطل أمر لاون ، فاستمرّ إلى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة .

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معدّ ، فلما كان عند موته حصل رعد عظيم وبرق كثير ومطر غزير ، وعمره يومئذ سبع وستون سنة وخمسة أشهر ؛ منها في خلافته ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام ، مرّت به فيها أهوال عظيمة ، وشدائد آلت به إلى أن جلس على نعج ، لا يجد من القوت إلا ما تتصدّى به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل في كلّ يوم ، فلا يأكل غير مرة واحدة في اليوم من قعّ فتيت تبعث بها إليه ، كما قد تقدم ذلك .

وكان قد قوى أمره وقام بتدبير وزارته عند إقامته في الخلافة وزير أبيه على بن أحمد الجرجاني ، فمشت الأحوال على سداد إلى أن مات ، فحكمت أمّه في الدولة وولّت أبا سعيد إبراهيم اليهودي التستري وزارتها^(١) ، فصار هو الذي يلى الوساطة ويدبّر الأموال إلى أن قتل . فلما كانت سنة اثنتين وستين اختلطت الأمور وتعاضم الأمر ، فكان من الغلاء والفتن والبلاء والنهب ما تقدم ذكره .

وولى وراثته أربعة وعشرون وزيراً ، وهم : أبو القاسم الجرجاني إلى أن مات وزيراً في سنة ست وثلاثين ؛ فولى أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى إلى أن قتل في سنة تسع وثلاثين ؛ فولى عماد الدولة أبو البركات الحسين بن محمد الجرجاني مرتين إلى أن قُتل في سنة أربعين ؛ فولى صاعد بن مسعود أبو الفضل وصرف في سنة اثنتين وأربعين ؛ فاستقر أبو محمد اليازورى مضافاً إلى القضاء والتقدمة على الدعاة ، ولم يُجمع ذلك لأحد قبله ، إلى أن قبض عليه في محرم سنة خمسين ، فاستوزر أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي ثم صرف بعد شهرين وأربعة عشر يوماً . واستقر أبو الفرج محمد بن جعفر بن

(١) تقدم تصحيح هذا الاسم إذ هو سهل بن هارون ، وأما إبراهيم قاسم أخى أب سعيد .

محمد بن علي بن الحسين المغربي ثم صرف في سنة اثنتين وخمسين ؛ وأعيد البابل ثم صرف بعد أربعة أشهر . وتولى عبد الله بن يحيى بن المدبر في صفر سنة ثلاث وخمسين وصرف بعد شهرين ؛ وتولى عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارق في رمضان منها إلى أن توفي في محرم سنة أربع وخمسين ؛ فتولى بعده [١١٠ ب] أخوه أبو علي أحمد سبعة عشر يوما وصرف ؛ فأعيد البابل كرة الثالثة في ربيع الأول ، فأقام خمسة أشهر واستعفى فوزر أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة الماسكي ؛ ثم صرف بآبي أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم ، فكان ينقل من القضاء إلى الوزارة ثم يعود إلى القضاء ؛ وصرف بابن المدبر ، فأقام إلى أن توفي ؛ فأعيد أبو أحمد بن عبد الحاكم في ذى الحجة سنة خمس وخمسين فأقام خمسة وأربعين يوما ؛ وصرف بآبي غالب عبد الطاهر بن فضل العجمي ، فتولى غير مرة ، وكان جده من دُعاة الدولة ؛ فولّى مرة في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصرف بعد ثلاثة أشهر ، وولى أخرى في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وصرف بعد ثلاثة وأربعين يوما ، وفي الثالثة في أيام الفتنة وقتله تاج الملوك شاذى بالقاهرة في سنة خمس وستين . وولى الوزارة أيضا الحسن بن ثقة الدولة بن أبي كدينة ، وجمع له بين القضاء والوزارة سبع مرات ، ووصل أمير الجيوش وهو وزير فقبض عليه وقتل بدمياط . وولى أبو المكارم سعد وتنقلت به الأحوال حتى قتله أمير الجيوش ؛ ثم وزر بعده أبو علي الحسن ابن أبي سعيد التُّشْتَرى عشرة أيام ثم استعفى ، وكان يهوديا فأسلم . ثم استُوزِر أبو القاسم عبد الله بن محمد الرعباني مرتين ، كل منهما عشرة أيام ؛ ثم ولى الأمير أبو الحسن بن الأنباري أياما وصرف . فتولى أبو علي الحسن بن سديد الدولة الماسكي أياما ، وهذه وزارته الثانية ؛ ثم صرف بآبي شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملوك وصرف ، فسار إلى الشام ولقيه أمير الحشوش فقتله ؛ وأبو غالب جده كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ملك العراق . ثم ولى بعده أبو الحسن طاهر بن وزير الطرابلسي ثم صرف ، وكان أحد الكتاب بديوان الإنشاء ؛ فولى بعده أبو عبد الله محمد بن أبي حامد التنيسبي يوما واحدا وقتل ،

فوجد له مال كثير . ثم ولى أبو سعد منصور بن أبي أيمن سورس بن مكرواه بن زنبور ، وكان نصرانيا فأسلم ، ويقال إنه لم يسلم ؛ ثم ولى بعده أبو العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضيف وصرف . فلما قدم أمير الجيوش تسلمها .

ولما قدم أمير الجيوش من عكا صار وزير السيف والقلم ، وولى القضاء أيضا ، وزيد في ألقابه كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . ثم لما مات وزر من بعده ابنه الأفضل .

وأما قضاته ، فقد تقدم من جمع له القضاء مع الوزارة . والذين أفردوا بوظيفة القضاء عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى أول خلافته ؛ ثم تقلد القضاء القاسم بن عبد العزيز ابن النعمان ؛ ثم أبو يعلى ، ويقال أبو الحسن ، أحمد بن حمزة بن أحمد العرقى ومات ؛ فولى أبو الفضل القضاعى ؛ ثم جلال الدولة أبو القاسم على بن أحمد بن عمار . وولى الفضل ابن نباتة ، ثم أبو الفضل بن عتيق ، ثم أبو الحسن على بن يوسف بن الكحال ، ثم فخر الأحكام أبو الفضل محمد بن عبد الحاكم ، وكان فى أيامه ما قد تقدم ذكره من الرزايا .

وكان نقش خاتمه : « بنصر السميع العليم ينتصر المستنصر أبو تميم » .

ومما رثى به المستنصر قول حظى الدولة أبي المناقب عبد الباقي بن على التنوخى الشاعر ، من أبيات :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى	ولا قدره أمرٌ يقاس به أمر
لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى	ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر ^(١)
فأجزى عليه ، حين مات ، دموعنا	سما ، فقال الناس : لا ؛ بل هو القطر
وقد بكت الخنساء صخرًا ، وإنه	ليبكيه من قرط المصاب به الصخر
وقلدنا ^(٢) المستنصر الطهر حَسَبَ ما	عليه قديما نصّ والدّه الطهر

(١) فى النجوم الزاهرة : هـ : ولم يطلع الفجر .

(٢) فى النجوم الزاهرة : هـ : وقلدها .

الفهرس

الموضوع	السنة	الصفحة
الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز بالله	(٣٨٧ هـ - ٤١١ هـ)	٣ - ١٢٣
الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن الحاكم		
بأمر الله أبى على منصور	(٤١١ هـ - ٤٢٧ هـ)	١٢٤ - ١٣٥
المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز		
دين الله	(٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ)	١٨٤ - ١٨٥
ذكر الفتنة التى آلت الى اخاب ديار مصر		٢٦٥ - ٢٦٧

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٠/٥٨٧٥

مطابع الأهرام التجارية - قليوب